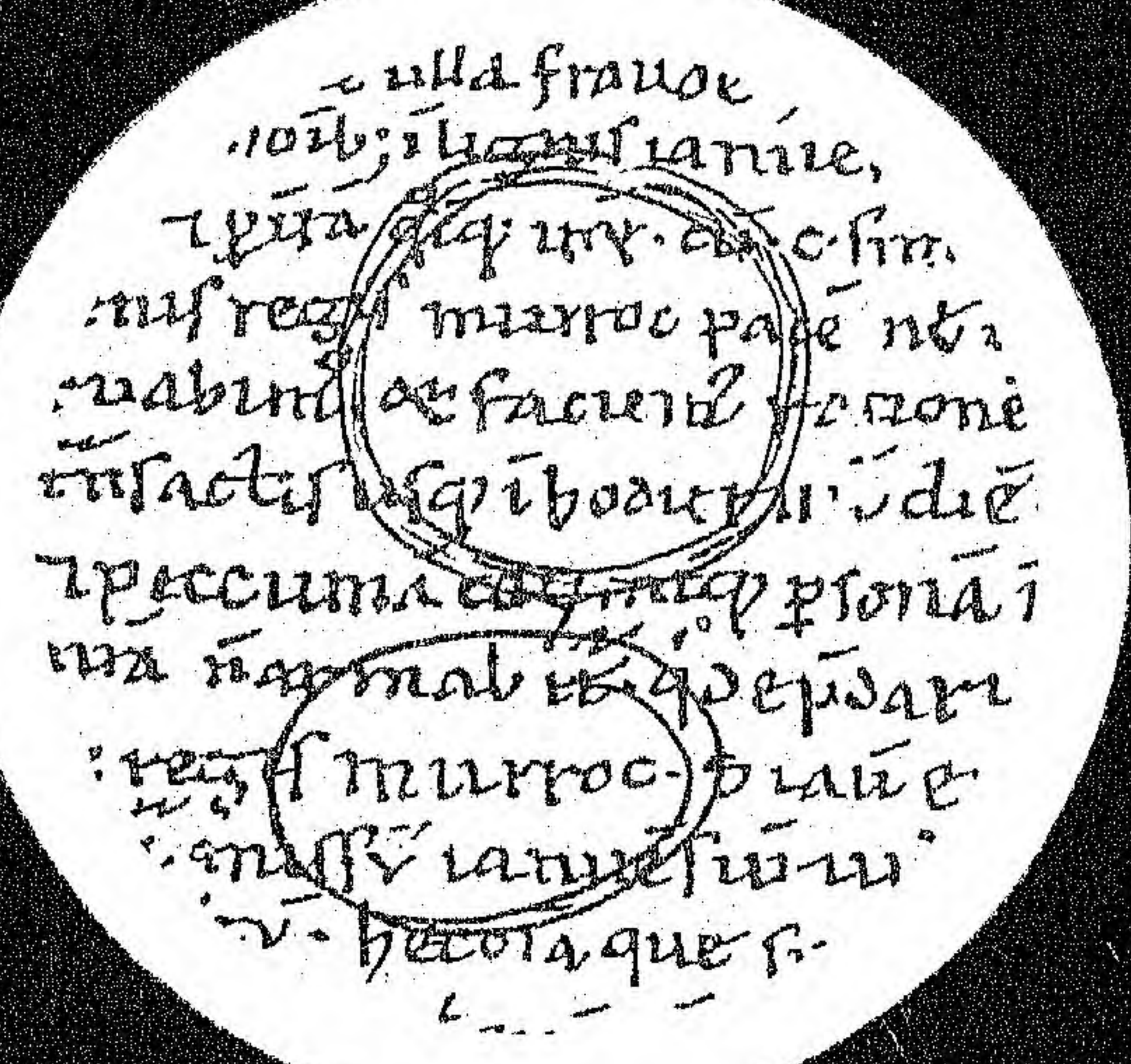
التاريخ الدبلوماسي للمغرب

من أقدم العصور إلى اليوم



المجلد الخامس

عهد المرابطين

تأليف

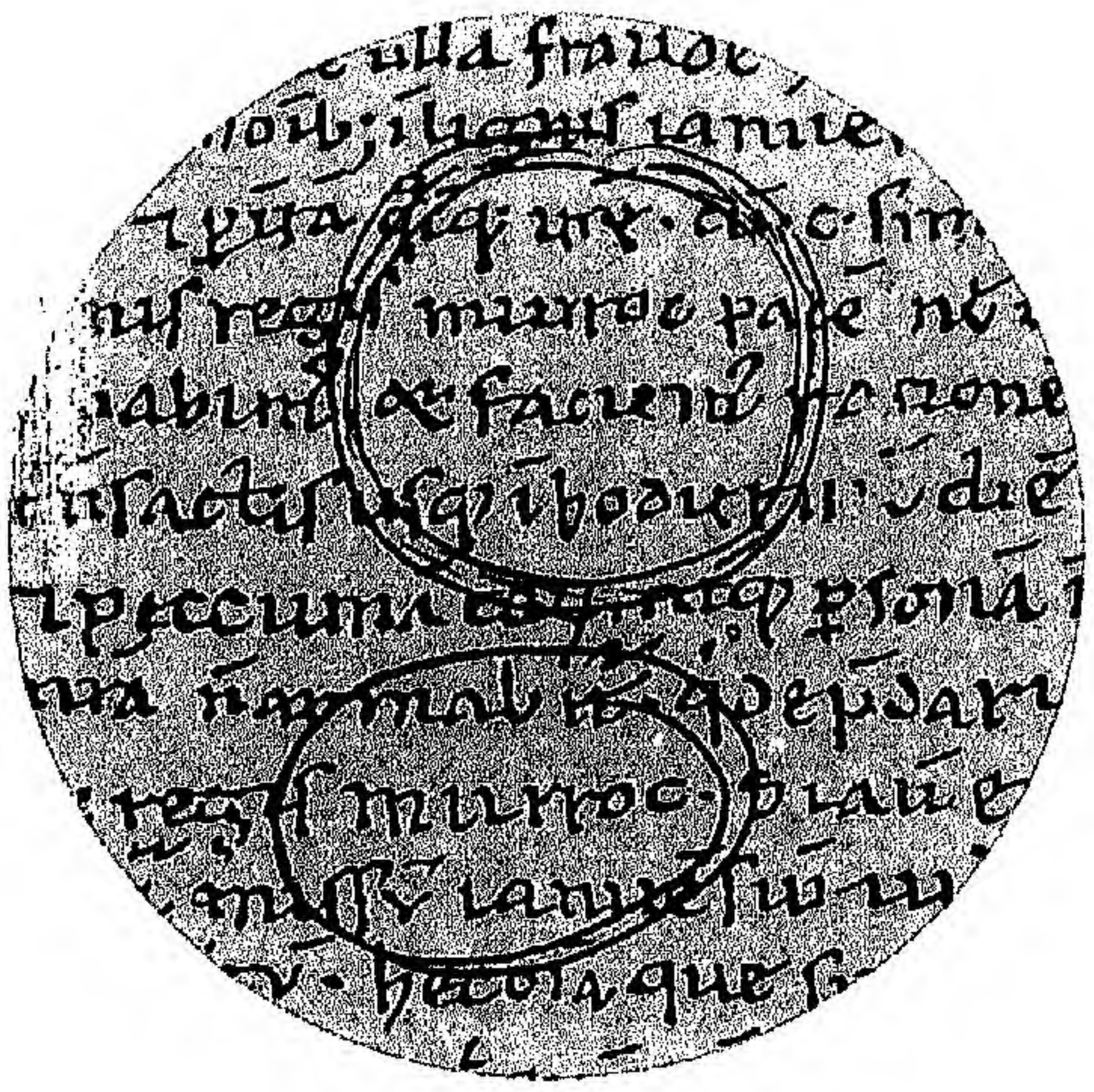
عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

1987 - 1407

التاريخ الدبلوماسي للمغرب

من أقدم العصور إلى اليوم



المجلد الخامس

عهد المرابطين

تأليف

عبد الهادي التازي

عضو أكاديمية المملكة المغربية

الهيئة العامة لمكتبة الإسكندرية

1407 - 1987

صورة الغلاف :

أقدم وثيقة وقفتُ عليها في جنوة مما يتعلّق بالمغرب كانت بتاريخ 1138 = 532 أيام علي بن يوسف : مرسيليا تطلب من جنوة أن تتوسط لها لدى ملك المغرب لِعقد اتفاقية سلام معه وهي تعبر عن مركز المغرب الدولي على ذلك العهد.. (ج 2 ص 194).

بسم الله الرحمن الرحيم

عظمة الميثاق

وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق

صدق الله العظيم

سورة الأنفال - الآية 72

دولة المرابطين

- □ حدود الدولة المرابطية...
- □ استخدام الروم من لدن المرابطين...
- □ العلاقات بين المرابطين وبين الأُمم المجاورة.
- □ وحدة المغرب السياسية.
- □ الأُسطول المرابطي.
- □ الموانئ في إفادة ابن عبدون

دولة المرابطين

1147 ـ 1970 = 541 ـ 462

نحن اليوم مع دولةٍ غيَّرت خريطة المغرب طولاً وعرضاً ! فأين هي تلك الإمارات المتناثرة هنا وهناك في شرق البلاد وغربها ؟ وهل بقي هناك مجال للتساهل في وحدة البلاد من قِبَل المتطلعين ؟ وهل ما يزال هناك مطمع للذين كانوا يريدون القضاء على الكيان المغربي الذي رسم الإمام إدريس ملامحَه وخطط معالمه ؟

إننا هنا مع خلافة استمرت من سنة 462 إلى 541 هجرية = 1070 ـ 1147م وامتدت شمالا حتى تخوم أُروبا، وجنوباً نحو بلاد السودان وشرقاً تجاوزت جزائر بني مزغنة قلب الجزائر الحالية وغرباً إلى المحيط الأطلسي.

هؤلاء الصنهاجيون الذين استطاعوا أن يجمعوا المغرب على كلمةٍ سواء، مذهباً وعقيدةً وسلوكاً وهدفاً وأن يرفعوا اسم الأُمة المغربية عالياً مدويّاً في مختلف جهات المعمور، وقد أصبحت عاصمتهم مراكش محوراً للإلتقاءات الدّولية ومركزاً أسْهم في صنع تاريخ مجيدٍ ظلّ رصيداً مشرفاً يعطِّر أرجاء البلاد وزواياها عبر التاريخ...

لقد كانوا أوفياء لخطوات طارق بن زياد في الأندلس، فأحيوا ما كاد يندثر من الوجود الإسلامي هناك وكوَّنوا لهم أسطولاً لم يلبث أن أمسى سيّد البحر المتوسط والأَطلسي وغدا يوجّه ضرباته تحت قيادة الأَميرال داواد ابن عائشة والرايس علي ابن ميمون وغيرهما، سواء من سبتة أو ألمرية أو من قادس، للروم الذين اتخذوا من جزر الحوض المتوسط منطلقاً لمهاجمة حلفائنا في إفريقية...

وقد عكس ذلك النفوذ الذائع الصيت آثاره على المركز المالي المرموق الذي كان ينعم المرابطون به حتى لكانت القيمة النقدية لعملتهم في تصاعد مستمر، وتهافتت على الدينار المرابطي دول البحر المتوسط وإمارات إسبانيا بل وصل إلى القسطنطينية الأمر الذي يؤكّد ما ذهب إليه المتخصصون في شؤون العُملات القديمة من أن السكة المرابطية أصبحت نقداً دولياً بكل معنى الكلمة.

ولقوة ثقتهم بنفوسهم لَم يتهيبوا استخدام عددٍ من الروم المرتزقة في الأغراض العسكرية والفنية على نحو ما كان يقوم به أحياناً بنو أُمية وملوك الطوائف، وكانت هذه «الميليشيات المسيحية» تتمتّع طبعاً بمزاولة شعائرها الدينية بأطراف البلاد...

☆ ☆ ☆

وإذا ما حاولنا أن نستعرض العلاقات الخارجية لدولة المرابطين، فإننا سنجد أنفسنا أمام الحديث عن صلاتنا بإمبراطورية غانة، وعن العلاقات مع ممالك الأندلس ومع إمارة إفريقية (تونس) وبني حماد ومع الخلافة في بغداد ومع حكام القاهرة، إضافة إلى الحديث عن الصلات بين المرابطين وبين بعض الممالك المسيحية المطلة على الضفة المقابلة من المتوسط.

بين المرابطين والبرغواطيين

لقد كان المرابطون حريصين كلّ الحرص - وهم يسعون لتوحيد أطراف البلاد وجمعها تحت رايةٍ واحدة - كانوا حريصين على أن لا يهرقوا دماً ولا يروّعوا أحداً لكنهم اصطدموا في المغرب بقبيلةٍ أو بمجموعةٍ ظلت تتقوى عبر السنين الماضية، أولئك هم «البرغواطيون» الذين اتخذوا من إقليم تامسنا وطناً لهم (من وادي أبي رقراق إلى وادي أم الربيع) وجعلوا من مدينة آنفا (الدار البيضاء حاليا) عاصمةً

لهم، كانت إمارتهم تضم قرابة أربعين مدينة وحوالي ثلاثمائة قصر على ما يذكره ابن الوزان أوْ ليون الإفريقي.[1]

لقد استعصت هذه المنطقة على من تقدموا، ولما ظهر المرابطون كانوا يعتقدون أن في استطاعتهم أن يصلوا عن طريق الحوار، إلى إيجاد صيغةٍ للتفاهم مع هؤلاء القوم الذين لم يترددوا، على ما عرفنا، في إرسال سفرائهم إلى قرطبة للاتصال برجال الحكم هناك... لكن الطموح المتزايد للبرغواطيين كان فوق أن يتنازلوا للجلوس مع المرابطين على مائدة واحدة..!

وهكذا ففي الوقت الذي بعث فيها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بعددٍ من الرسل والعلماء إلى زعماء برغواطة أملاً في تجنب الحروب بين الطرفين، وجدنا أن هؤلاء البرغواطيين يُقدمون، في أنفا، على فعلة هزت من مشاعر المرابطين... فلقد أجهزوا على السفراء الذين وصلوا إلى تامسنا من أجل الغاية التي أشرنا إليها... أكثر من هذا عبّأُوا بعدئذ جيشاً قوامه خمسون ألف محارب قاصدين طرد المرابطين من مراكش ومن المنطقة كلها، وهنا كانت المعركة الكبرى التي رددت صداها سائر كتب التاريخ، فلقد جند المرابطون عدداً ضخماً من الرجال للانتقام من قَتَلة السفراء... وكان الصدام عنيفاً ورهيباً، حتى لتحدثت الكتب عن هلاك نحو من مليون نسمة (كذا)[2] من أتباع برغواطة كان فيهم حتى النساء والرضع، وغدا إقليم تامسنا بكامله مأوى للأُسود والذئاب والبوم !

وهكذا جعل حد لتلك الإمارة التي لولا تصرفها الأرْعن، لكنا نتصور أنها قد تجد لها حياةً على نحو ما نراه بالنسبة لبعض الإمارات التي ظلت تعيش في شرق المغرب...

☆ ☆ ☆

1) وصف إفريقيا... ترجمة د. عبد الرحمن حميدة، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية 1399، ص 200.

2) ما رمول كربخال : إفريقيا، ترجمة محمد حجي، مكتب المعارف الرباط 1984 ص 304 ـ 404.

الأُسطول على عهد المرابطين...

اهتم المرابطون، في صدر ما اهتموا به، بإنشاء الأُسطول... ذلك لأن سيطرتهم على الثُّغور الشَّمالية في المغرب مثل سبتة وطنجة، كانت تتوقف على ذلك. إنّ الإمارة التي كانت تهيمن على تلك الثغور ـ وهي إمارة ابن سقّوت البرغواطي ـ كانت إمارةً بحريةً قويةً، وهكذا شرع يوسف بن تاشفين في إعداد أُسطولٍ لهذا الغرض... وفي هذا يقول ابن بسَّام :

من رجل، أي ابن سقوت البرغواطي، استعان بالبشر، وتهاون بالأمر، لا سيا في البحر فإنه أضرم بلججه ناراً، ولقى ريحه إعصاراً، أخذ كلَّ سفينة غصباً، وأضاف إلى كلّ رعباً، فضجَّت منه الأرض والسَّماء، والتقت الشكوى عليه والدُّعاء»[1].

لقد استطاع أُسطول سقوت البرغواطي بقيادة ولده المعزّ أن ينتصر في مياه سبتة على الأُسطول الذي أعدَّه يوسف بن تاشفين لقتالهم سنة 476 = 1083، بل وأن يستولي على قطعةٍ جليلةٍ منه..!

وقد وصلت في هذا الوقت نجدة المعتمد بن عباد وكانت النجدة تتمثل في سفينة حربية ضخمة، تقدمت ـ كما يقول ابن بسَّام ـ نحو سبتة «فأطلت على أسوارها ورفعت صوتها ببوارها، وأفضت بدولة صاحب سبتة إلى سوء قرارها ليلة الجمعة من صفر المؤرخ 476 (= يونيه، يوليه 1083...) ولما أحس بالشر، دفع ذخائر كانت عنده إلى بعض أصحابه... وجد في جملتها خاتم يحيى بن علي بن حمود الإدريسي... وقد كان احتلال المرابطين لهذه الثُّغور الشَّمالية خطوةً إيجابيةً في بناء أُسطول مغربيّ قويّ حيث إنهم استفادوا من دور صناعتها وما فيها من سفن وآلات... وقد ظهرت قوة الأُسطول المرابطي عندما لَبَّى يوسف بن تاشفين استنجاد الأندلسيين ونصب جسراً بحرياً بين القارّتين... وزاد في قوة الأُسطول المرابطي سيطرته على سائر دول الطّوائف الأمر الذي يفسّر لنا النصر الذي حققه المرابطون في معظم المعارك التي خاضوها مع القطلانيين والنورمانديين في صقلية...

وقد مدح الشقندي بعض أفراد أسرة الرئيس ابن ميمون بقوله :

«... وفي ألمرية كان ابن ميمون القائد الذي قهر النصارى في البحر، وقطع سفرهم فيه، وضرب على البلاد الرُّومَانية فقتل وسبى وملأ صدور أهلها رُعباً...

لقد كان البحر هو وطن هذه الأُسرة العظيمة !!، وقد حاول أهل ألمرية إقامة القائد **أبي عبد الله بن ميمون** والياً عليهم ولكنه اعتذر بقوله : «إن وظيفتي البحر، وبه عرفت فكل عدوّ جاءكم من البحر فأنا لكم به، فقدموا على أنفسكم مَن شئتم غيْري» !

ويقول ابن خلدون : «وكان الجانب الغربي من هذا البحر موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيّفه عدو ولا كانت لهم به كرة فكان قواد الأُسطول به لعهد لمتونة أي المرابطين بني ميمون... وانتهى عدد أساطيلهم إلى المائة من بلاد العدوتين جميعا».

---

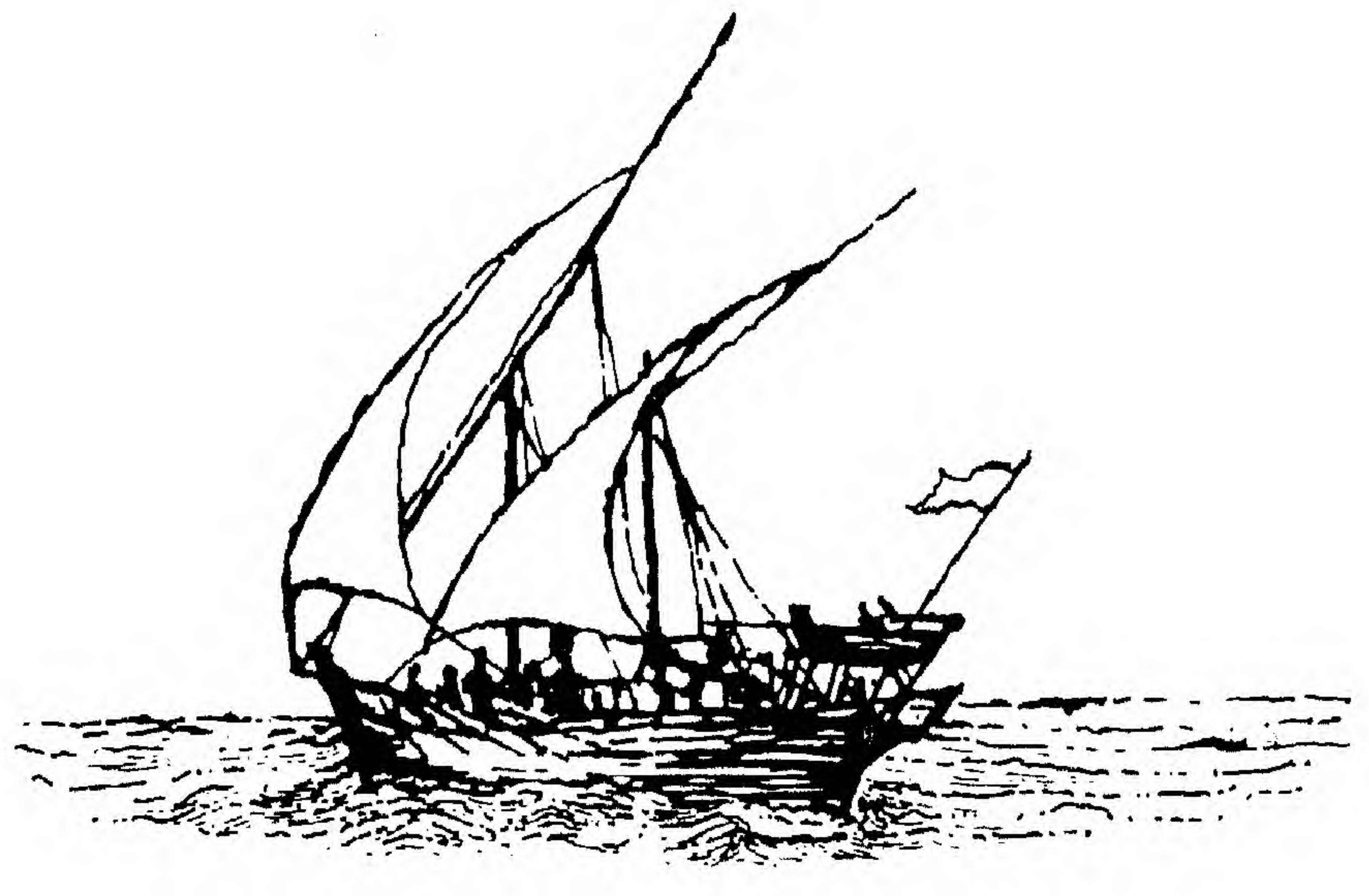
1) مفاخر البربر ص 55 ـ 57.

وقد برّز الأُسطول المرابطي عندما استجاب المرابطون لاستصراخ مبشر بن سليمان حاكم جزر البليار في أعقاب عدوان الأساطيل المسيحية المتّحدة... حيث وجدنا العاهل المرابطي يأمر بتعمير ثلاثمائة قطعة سنة 509 = 1115 - 1116، وقد أبلى الأُسطول المرابطي بلاءً حسناً عندما استنجد به الزّيريّون ضد النُّورماندين في صقلية عام 516 = 1122م على ما قرأناه في رحلة التيجاني...

وهكذا فلم يبق مجال لما اعتذر به الشاعر الصقلي أبو العرب مصعب الزبيري أيام المعتمد ابن عباد عندما دعاه هذا لزيارته فكتب له يقول معتذراً :

لا تعجبنّ لرأسي كيف شـــــــأب أسىً	واعجب لأســــــود عيني كيف لم يشب !
البحر للروم، لا يجري السفين بـــــــه	إلاّ علـى غـرَرٍ والبـر للعَـرَب !!

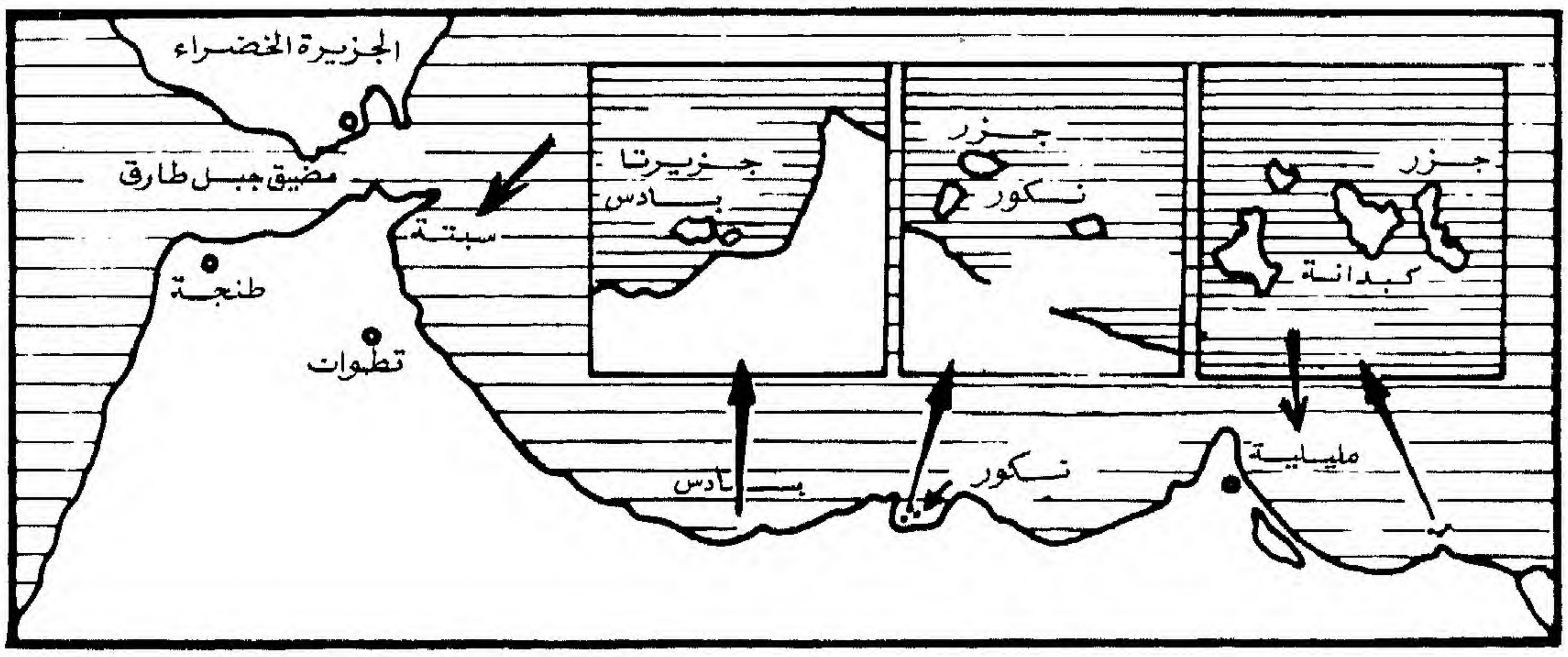
☆ ☆ ☆



الموانئ عيون البلد...

يجب أن يؤمر المعدّون أن يخففوا الأشحان فإن ذلك موضع غرر وهلاك، لا سيا في يوم عاصفٍ من الريح، ولا تكون دولة بينهم في الأشحان... يجب أن يكون في كلّ مرسى معبّر للمدينة : معديتان أو قاربان ليكون ذلك أوفق للناس وأخفّ للأشحان وأعجل للجواز لا سيا عند العصوف... يجب أن يحدّ للمختلفين إلى **شذونة** (Sidonia) من النواتية أن لا يكثروا من الأشحان، ولا يكلفوا الناس القذف إلا أن يكرى هو على قاربه من يحمله ويسوقه، والقارب بمنزلة دابّة الكاري وعلى صاحبها حركتُها ومؤنتُها، ويرتقب ذلك من أفعالهم في كل حين، يجب أن تحمى ضفة الوادي الذي هو مرسى المدينة للسفن أن يباع منها شيء أو يبنى فيها بنيان، **فإن ذلك الموضع عين البلد**، وموضع إخراج الفوائد مما يخرجه التجار ومأوى الغرباء وموضع إصلاح السفن فلا يكون فيها ملك لأحدٍ **إلا السلطان وحده**، ويجب للقاضي أن يحمي ذلك كلّ الحماية فإنه موضع مجتمع التجار والمسافرين وغيرهم ويحدّ لصاحب المواريث أن **لا يبيع فيه شبراً واحداً...**

ابن عبدون : رسالة الحسبة، ص 27



المرابطون وأمبراطورية غانة

- أمبراطورية غانة في حديث البكري.
- غانة سمة لكلّ من ملك السودان.
- تغلغل الإسلام بإفريقيا الغربية.
- عبادة الدّكاكير !!
- التنافس بين أُمراء الأمبراطورية.
- بقايا الجيش الذي أنفذه بنو أُمية إلى غانة في صدر الإسلام !
- تادْمكة أشبه ببلاد مكة !
- غانة في جغرافية المأمون

مراسلة ملك غانة
مع يوسف بن تاشفين

عند حديث صاحب كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار الذي ألف في القرن السادس الهجري الثاني = عشر الميلادي، خصص المؤلف فصلاً ذكر فيه بلاد السودان ومدنها المشهورة وعجائبها ونبذاً من سير ملوكها...

وعندما ذكر بلاد غانة... أفاد أن كلمة **(غانة)** في الأصل هو لقب لكل من يملكها على نحو ما قيل بالنسبة للقب النجاشي ملكا للحبشة... واما اسم البلد فهو **أَوْكار** : وهنا أورد ديباجة الخطاب الموجه إلى المغرب : ووقع إليَّ كتاب ملكها إلى يوسف بن تاشفين نصه : **إلى أمير أغمات، قال غانة...»**

ونحن على يقينٍ بأن صاحب الاستبصار كان ينقل هذا الكلام وأمام عينه نصٌ رسالة الأمبراطور غانة، وياليته أتى بنبذة منها على نحو ما فعله برسالة صلاح الدين التي طيَّرها مع الحمام الزاجل، وبرسالة الخليفة المنصور الموحدي التي عمَّمها على الناس حول دحره بني غانية في إفريقيا.

☆ ☆ ☆

من غانة إلى فرغانة !!

كان المؤلفون العرب القدامى يقتصرون على نعت هذه الجهات بأنها بلاد السُّودَان وقد كان الفزاري أَوَّل من أعطى إسم «مملكة غانة» لبلاد الذهب...

وفي حديثه عن ممالك السودان ذكر اليعقوبي كانم...، وغانة.. وعندما وصف المهلَّبي مدن كَاو (كاوكاو)... قال إنّ سلطانها كان مسلماً...

وعندما يتحدث ابن حوقل عن شبكة الطرق التي تفصل بين مصر وغانة يقدم وصفاً دقيقاً لأوداغُشت.. ومن هنا **انطلق البكري** الذي أفاض في ذكر غانة على ما رأينا.

وقد أصبح الاسم (غانة) يعني نهاية الدنيا بالنسبة للمشارقة، ومن هنا قرأنا عند الحريري في المقامة التاسعة العبارة التي اخترناها عنواناً لهذه الإفادة : «من غانة إلى فرغانة...»

Recueil des Sources Arabes
Trad. Par Joseph M. Cuoq 1985

بلاد غانة في إفادة البكري

ومن مدينة سجلماسة تدخل إلى بلاد السودان : **إلى غانة**، وبينها أي سجلماسة وبين مدينة غانة مسيرةُ شهرين في صحراء غير عامرة إلا بقوم ظاعنين ولا تطمئن بهم منزل وهم بنو مسّوفة من صنهاجة، وليس لهم مدينة يأوون إليها إلا وادي درعة وبين سجلماسة ووادي دراعة مسيرة خمسة أيام.

وفي معرض حديث **أبي عبيد** عن الطريق من وادي درعة إلى الصحراء : إلى بلاد السودان، أفاد أن هناك خمسَ مراحل من درعة إلى (تارجا) أول الصحراء ثم إلى رأس (المجابة) إلى قرية مَدَوكَن، ومن هذه إلى غانة[1] أربعة أيام، وفي سنة ست وأربعين وأربعمائة (1054 ـ 1055) يقول أبو عبيد : غزا عبد الله بن ياسين أَوْدَغُشت (Aoudaghost)، وهي بلد قائم العمارة، مدينة كبيرة فيها أسواق ونخلٌ كبير وأشجارُ الحناء، وهي في العِظَم كشجر الزيتون، وهي منزلُ ملك السودان **المسمى بغانة** قبل أن تدخل العرب غانة.

وبين سِلّى (Silla) ومدينة غانة مسيرةُ عشرين يوماً في عمارة السُّودان : القبيلة بعد القبيلة، وملك سِلّى يحارب كفارّهم وليس بينه وبين أولهم إلاّ مسيرة يوم واحد... وهو واسع المملكة كثير العدد يكاد يقاوم ملك غانة.

وغانة : سمةٌ لملوكهم واسم البلد أَوْكَار (Aoukar)، واسم ملكهم اليوم، وهي سنة ستين وأربع مائة (1067 ـ 1069) تنكامنين، (Tenkamenin) وقد ولّى سنة خمس وخمسين وأربعمائة، وكان اسم ملكهم قبله بِسِي (Beci). وَوَلِيَهم وهو ابن خَمْس وثمانين سنة، وكان محمود السيرة محبّاً للعدل مَرْثِداً للمسلمين... وبِسِي هذا خال تِنْكَامِنين، وتلك سيرتهم، ومذهبهم أن المُلك لا يكون إلا في ابن أخت الملك..! ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة، فيها **إثنا عشر مسجداً** أحدها يُجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحَمَلة علم، وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات، و (ثانيتهما) مدينة الملك على **ستة أميال** من هذه، وتسمى بالغابة، والمساكن بينهما متصلة، ومبانيهم بالحجارة، وخشبِ السنط (Bois d'accia)، وللملك قصر وقباب وقد أحاط بذلك كلّه حائط كالسور، وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربةٍ من مجلس حكم الملك، وحول مدينة الملك قباب وغابات وشَعْراء يسكن فيها سحرتهم...

وتراجمة الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثرُ وزرائه... ولا يلبس المخيط من أهل دين الملك غيرُه وغير وليّ عهده وهو ابن أخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم، وهم أجمع يحلقون لحاهم، ونساؤهم يحلقن رؤوسهنّ ! وملكهم يتحلّى بحلي النّساء في العنق والذراعين، ويجعل على رأسه **الطراطير المذهبة**، عليها عمائم القطن الرفيعة، وهو يجلس للناس، وللمظالم في قبة، ويكون حوالي القبة عشرة أفراس بثيابٍ **مذهبة** ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الجحف (يعني المجنّات) والسيوف المحلاة **بالذهب**، وعن يمينه أولاد ملوك بَلَده قد **ضفروا** رؤوسهم على **الذهب** وعليهم الثياب الرفيعة، ووالي المدينة بين يدي الملك جالس في الأرض وحواليه الوزراء جلوساً على الأرض، وعلى باب القبة كلابٌ منسوبة لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه في أعناقها سواجير **الذهب** والفضة، يكون في الساجور عدد رمانات **ذهب** وفضة. وهم ينذرون بجلوسه، بطبل يسمونه دِبَا (Déba)، وهو خشبة طويلة منقورة، فإذا دنا أهل دينه منه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم فتلك تحيتهم له،[2] وأما المسلمون فإنما يكون سلامهم عليه تصفيقاً باليد.

وديانتهم المجوسية وعبادة **الدكاكير** (Fétiches)، وإذا مات ملكهم عقدوا لـه قبةً عظيمـة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطاء، فأدخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالاً ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة ! وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة ثم اجتمع النـاس فردموا فوقهـا التراب حتى تـأتي كـالجبل الضخم ثم يخنـدقون حتى لا يوصل إلى ذلـك الكـوم إلاّ من مـوضـع واحـد، وهم يـذبحـون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور ! **ولملكهم** على حمار الملح دينـار ذهب في إدخـالـه البلـد وديناران في إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل، وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل، **وأفضل الذهب في بلاده** ما كان بمدينة غِيَّارُو (Ghiarou)، وبينهـا وبين مـدينـة الملـك مسيرة ثمـانيـة عشر يومـاً في بلاد معمورة بقبـائل السودان، مساكن متصلة، وإذا وجد في جميع معادن بلادها النّدرة (أي السبيكـة) من الـذهب استصفـاهـا الملـك، وإنما يترك فيها للناس هذا التِّبْر الدقيق، ولولا ذلك لكَثُرَ الذهب بـأيـدي النـاس حتى يهون، والنّـدرة تكون من أوقية إلى رطل، ويذكر أن عنده منه ندرةٌ كالحجر(3) الضخم، وبين مـدينـة غِيـارُو والنيل إثنـا عشر ميلاً، وفيهـا من المسلمين كثير، وغانة بلاد مسْتوبئة غير آهلة، لا يكاد يسلم الداخل فيها من المرض عند امتلاء زرعهم، ويقع الموتان في غربانها عند استحصاد الزرع... ومن أعمال غانة المنضافة إليها بلد يسمى سَامَة (SAMA) ويعرف أهله بالبِكَم (EL – BEKEME) بينـه وبين غـانـة مسيرة أربعـة أيـام وهم يمشون عُراةً إلاّ أنّ المرأة تستر فرجهـا بسيور تضفرها، **وهن يوفّرن** شعر العانة ويحلقن شعر الرأس ! وحـدث أبو عبـد اللـه المكي أنـه رأى منهن امرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية فتكلمت بكلام لم يفهمه، فسأل الترجمان عن مقالتها، فذكرت أنها تمنت أن يكون شعر لحيته في عانتها ! فـامتلأ العربي غضبـا وأوسعهـا سبّـاً..! وبغربيٍّ مـدينـة غـانـة أنبـاره (Anbara)(4) وملكها اسمه تارم (Tarem) وهو معاند لملك غانة... وبين غانة ومـدينـة كوغـة (Kougua))(5) مسيرة خمس عشرة مرحلـة، وأهلهـا مسلمون وحواليهـا المشركون... وأكثر مـا يتجهز إليهـا بـالملـح والـودع والنحـاس **والفُربيـون** (Euphorbe)، والودعُ، والفربيون أنفـقُ شيء عنـدهم، وحـواليهـا من معـادن التبر كثير، وهي أكثر بـلاد السـودان ذهبـاً... **وببلاد غانة قوم** يسمون بالهَنَيْهِن(6) من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غـانـة في صـدر الإسلام، وهم على دين أهل غـانـة إلا أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم، فهم بيض الألوان حسـان الوجوه وبِسِلاً أيضـا قوم منهم يعرفـون بالفامان.

وتادمكة (TADMEKKA) أشبه بلاد الدنيا بمكة، ومعنى تادمكة هيئة مكـة، وهي مـدينـة كبيرة بين جبـال وشعـاب، وهي أحسن بناءً من مدينة غـانـة ومـدينـة كَوْكَوْا (Kaoukaou)، وأهل تـادمكـة بربر مسلمون وهم يتنقَّبون كمـا ينتقب بربر الصحراء... ودنانيرهم تسمّى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة...

---

1) دوسلان : موقع غانة ليس بعيداً عن موقع تنبكتو. صفحة 310.
2) هذا العرف أكد من لدن ابن بطوطة وابن خلدون.
3) حسب ابن خلدون فإن هذه السبيكة تزن عشرين قنطاراً ! بيعت من لدن منسا جاطا (Menca-Djata) السلطان الذي كان يحكم مملكة غانة منذ عام 761 = 1360 إلى 775 = 1373 ـ 1374، انظر تاريخ البربر مجلد II ص 115.
4) حددها د. بارث (BARTH) بأنها هونبوري (Honbori) على بعد 50 فرسخا جنوب شرق تُنبوكتو.
5) حددها بارث وتسمى أيضا (كاوكاو : Kaoukaou) و (كَاو ـ Gao)...
6) Vincent Monteil : L'islam Noir, 1980 P. 86

غانة في جغرافية المأمون

ورد في المخطوطة التي تحمل رقم 5935 من الخزانة الحسنية بالرباط والتي سميت عند بعضهم بجغرافية المأمون ما يلي :

قال المؤلف عفا الله عنه : نسخت هذه الجغرافية من نسخة من جغرافية الفزاري التي نسخها من جغرافية أمير المومنين المأمون بن أمير المؤمنين هارون الرشيد التي جمعها سبعون رجلاً من فلاسفة العراق...

«...وفي هذا الصقع من المدائن مدينة غانة، وهذه المدينة هي حاضرة جناوة وإليها تدخل القوافل من بلاد سوس وبلاد المغرب، وأهل هذه البلاد كانوا في الدين ـ فيما سلف من الزمان ـ متمسكين بالكفر إلى عام تسع وستين وأربعمائة من الهجرة، وذلك عند خروج يحيى بن أبي بكر أمير مسّوفة، أسلم أهل غانة وحسن إسلامهم في مدة لمتونة، وهم اليوم مسلمون وعندهم العلماء والفقهاء، وسادوا في ذلك، وأتى منهم إلى بلاد الأندلس رؤوسٌ من أكابرهم، وصاروا إلى مكة وحجوا وزاروا قبر النبي ﷺ وانصرفوا إلى بلادهم، ومن هذه البلاد يجلب رقيق الصحراء وذلك أن أهل غانة يضربون على... أميمّة ويسبون أهلها كما كانوا يصنعون وهم كفار، وذلك أن أميمّة قبيلة من جناوة يسكنون على ساحل البحر الأعظم... وهم مجوس... ولكفرهم لا يدخل إليهم أحد، ولا يجلب لهم من المتعة شيء، وهم يلبسون جلود الغنم وعندهم الكثير من العسل والمسك، ويسكنون في الرمال دون عناء إلا خوائم يعملونها من خشوش الصحراء.

وهؤلاء القوم ليس عندهم حديد ولا يدرونه وإنما يقاتلون بإزار من الأبنس فلذلك يغلبهم أهل غانة لأنهم يقاتلونهم بأسياف وأرماح... وهؤلاء أسلموا في مدة هشام بن عبد الملك...»[1]

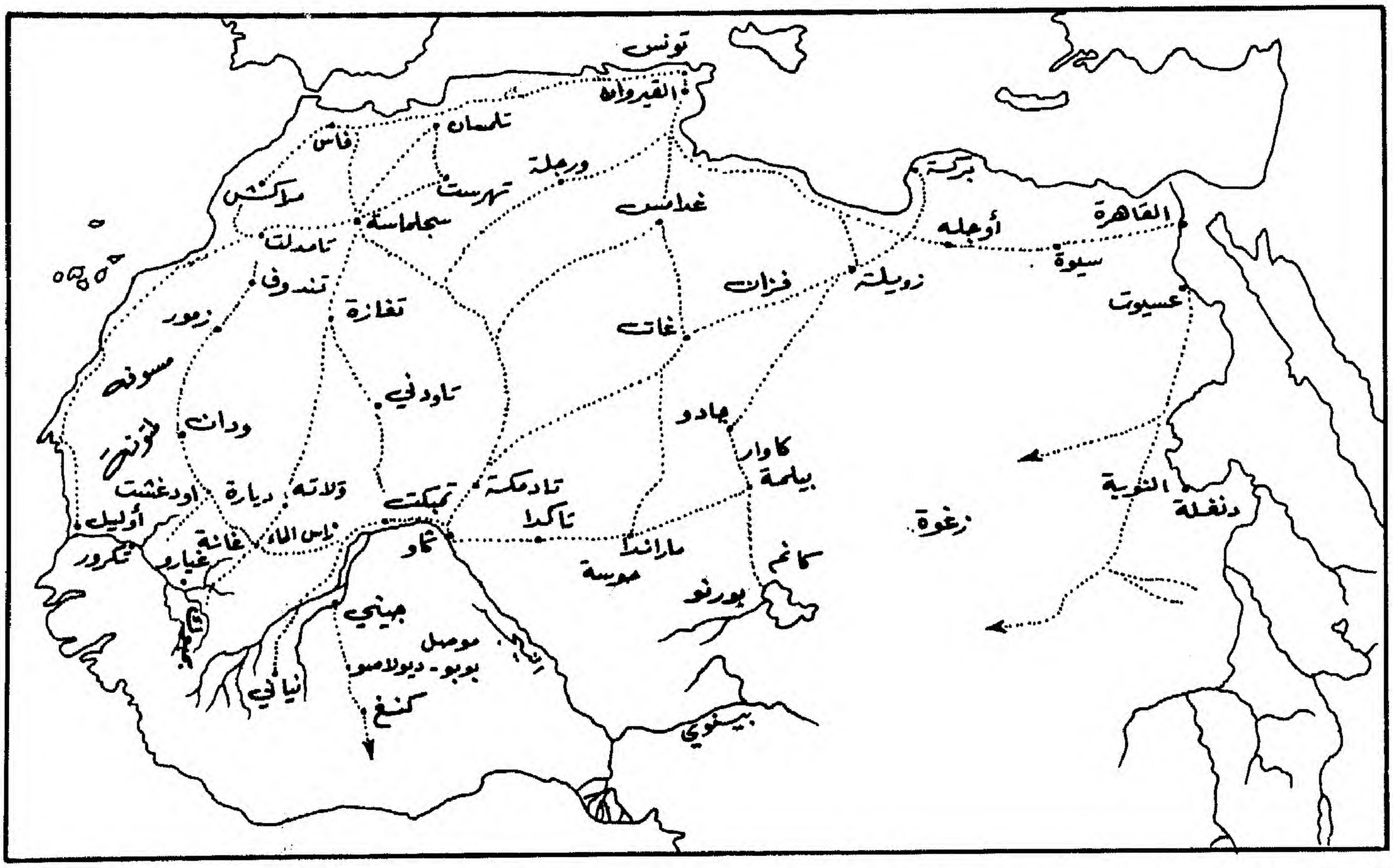
---

1) مجلة معهد المخطوطات العربية، المجلد 17 ج 2، شوال 1391 = 1971 فهارس الخزانة الحسنية، المجلد 3، الرباط 1403 = 1983 ـ مجلة دراسات إفريقية ـ الخرطوم، العدد 2، 1406 = أبريل 1986.

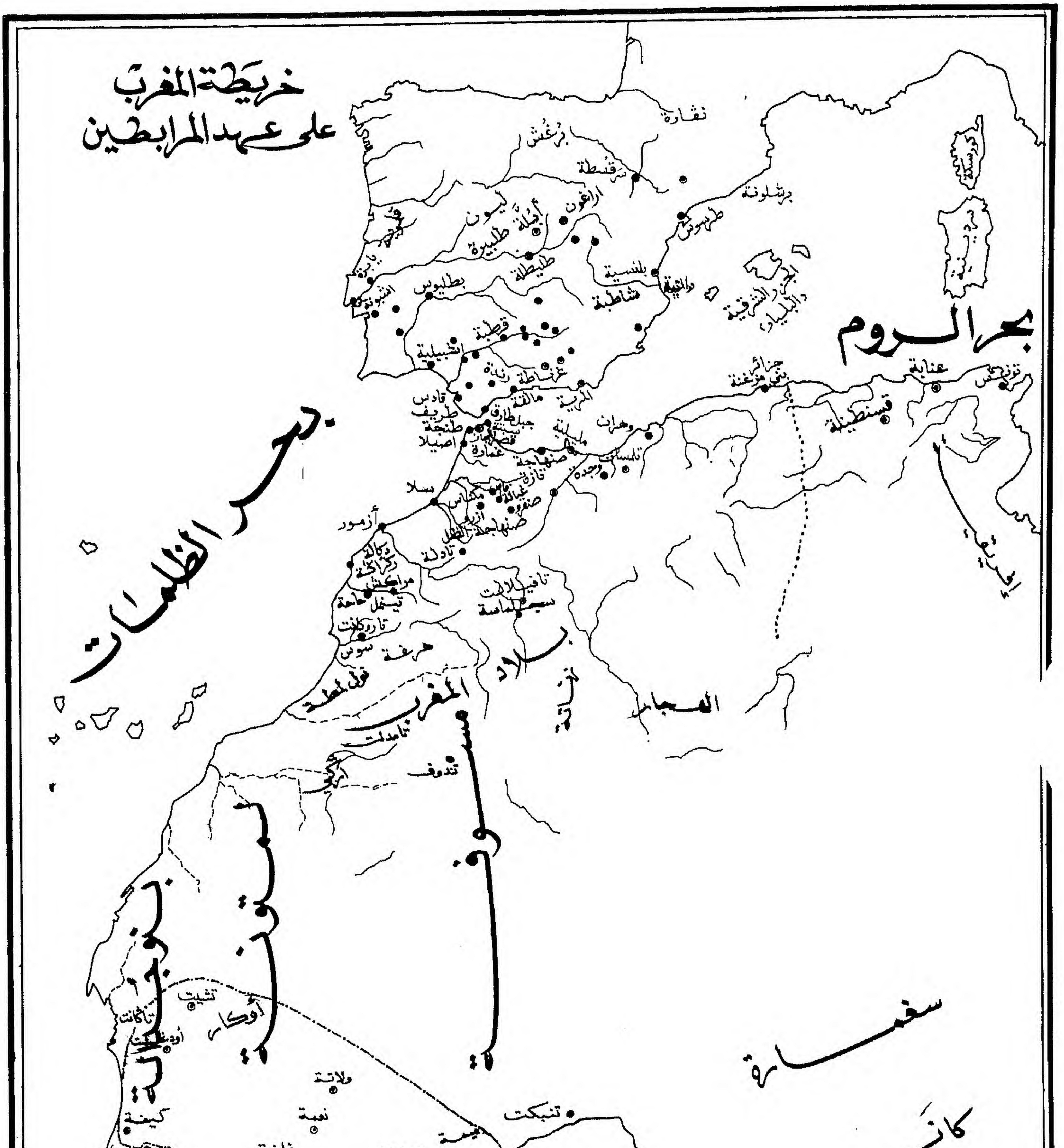
صلة إفريقيا بعالم الإسلام عبر المغرب

- ☐ إفادة معاصرة حول طلائع المرابطين بإفريقيا.
- ☐ من طرق الاقتناع بالإسلام في إفريقيا.
- ☐ سجلماسة وأَوْدَغُشت في حديث ابن حوقل.
- ☐ إسلام التّكرور...
- ☐ بلاد غانة في خطاب ابن العربي إلى المستظهر بالله.
- ☐ الجنس من موضوعات الرسائل المتبادلة بين المسلمين والممالك المجاورة !
- ☐ الفتاوي الفقهية تعالج نوازل غانة وأَوْدَغُشت.

صلة إفريقيا بعالم الإسلام عبر المغرب



المحاور التجارية الرئيسية ما بين القرن العاشر والسادس عشر، عن وثائق المركز الوطني للبحث العلمي - باريس


خريطة المغرب
على عهد المرابطين
بحر الروم
بحر الظلمات
بلاد المغرب
سغمارة
كانم
برشلونة
سرقسطة
بلنسية
طليطلة
بطليوس
قرطبة
اشبيلية
غرناطة
المرية
مالقة
قادس
طريف
طنجة
اصيلا
سلا
أزمور
مراكش
سجلماسة
تلمسان
وهران
وجدة
عنابة
تونس
قسنطينة
تنبكت
غانة
ولاتة
نعمة
أودغشت
تامدلت
سوس
200 150 100 50 0 كلم
الحدود التقريبية للمغرب على عهد المرابطين
الحدود التقريبية لامبراطورية غانة، عن R. Mauny

إفادة معاصرة عن طلائع المرابطين بإفريقيا...

وخالف عليه (عبدِ الله بن ياسين) بنو جُداله وذهبوا إلى ساحل البحر فـأمر عبـد اللـه الأميرَ يحيى بن عمر أن يتحصن بجبل لمتونه... فصار يحيى إلى الجبل... ثم رجعت جيوش بني جُدالة إلى يحيى بن عمر فحـاصروه في الجبل وذلك سنة ثمان وأربعين وأربعمائـة (1056 ـ 1057) وهم في نحو ثلاثين ألفـا، وكـان مع يحيى أيضـا عـدد كثير وكـان معـه لُبِّي ابن وَارْجَـاى رئيس التكرور، وكـان التقـاؤهم هنـاك بمـوضـع يسمى (تيفيريلى) بين تاليوين وجبل لمتونة، فقتل يحيى بن عمر رحمـه اللـه وقتل معـه بشر كثير، وهم يـذكرون.. ولم تكن بعـد كرة إلى بني جُدالة...

☆ ☆ ☆

من طرق الاقتناع بالإسلام في إفريقيا

«... ووراءه (أي بلد الملك دو (Dou) بلد اسمه ملل (Melel)، وملكهم يعرف بالمُسْلِماني وإنمـا سمي بـذلـك لان بلده أجدبت عاماً بعد عـام فـاستسقوا بقرابينهم من البقر حتى كـادوا يفنونهـا ولا يزدادون إلا قحطـاً وشقـاءً، وكان عنده ضيف من المسلمين يقرأ القرآن ويعلم السّنة، فشكا إليه الملك مـا دهمهم من ذلـك فقـال لـه : «أيهـا الملك : لو آمنتَ بالله تعالى وأقررتَ بوحدانيته وبمحمد عليـه الصلاة والسلام وأقررت برسـالتـه واعتقـدت شرائع الإسلام كلها لرجوت لك الفرجَ مما أنت فيه وحل بك، وان تعم الرحمة أهل بلـدك وان يحسـدك على ذلـك من عاداك وناوأك «فلم يزل به حتى أسلم وأخلص نيته وأقرأه من كتاب الله ما تيسر عليه وعلّمه من الفرائض والسنن ما لا يسع جهله... فقـام المسلم يصلي والملـك عن يمينـه يـاتمُّ بـه... والمسلم يـدعو والملـك يؤمن، فمـا انفجر الصباح إلا وقد أعمهم بالسقي، فأمر الملـك بكسـر الـدّكـاكير (Fétiches) وإخراج السحرة من بلاده، وصحَّ إسلامـه وإسلام عقبه وخاصته... أما أهل مملكته فهم مشركون وقد وسموا ملوكهم منذ ذاك بالمسلماني.»

البكري : المسالك والممالك 78

سجلماسة وأودغشت في حديث ابن حوقل

وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل على نهر يزيد في الصيف كزيادة النّيل، فيزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة، **وربما زرعوا سنة** ببذر وحصدوه سبع سنين بسنبلٍ لا يشبه سنبل الحنطة ولا الشعير **بحب صلب المكسر لذيذ الطعم، وخلقه بين القمح والشعير**، ولها نخيل وبساتين حسنة واجنة ولهم رُطَب أخضر كالسلق في غاية الحلاوة، واهلها قوم سراة مياسير يباينون سائر اهل المغرب بالمخبر والمنظر مع علم وستر وصيانة وجمال واستعمال للمروة وسماحة ورجاحة، وابنيتُها كأبنية **الكوفة** إلى أبواب رفيعة على قصور مشيدة عالية...»

وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين يقطعون تلك الطريق (طريق المغرب) وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة قل ما يدانيها التجار في بلاد الاسلام سعة حال. ولقد رايت صكاً كتب بدين على محمد ابن أبي سعدون بأودغُشت وشهد عليه العدول، باثنين وأربعين ألف دينارا وما سمعت بالمشرق لهذه الحكاية نظيراً، ولقد أخبرت بها بخراسان والعراق فاستطرفت.

ولم يزل المعز أيام ولايته يجتنيها من قوافل خارجة إلى بلد السودان وعشر وخراج وقوانين على ما يباع بها من إبل وبقر وغنم الى ما يخرج عنها ويدخل إلى نواحي إفريقية وفاس والسوس وأغمات الى غير ذلك مما على دار الضرب والسكة أربعمائة ألف دينار.

ابن حوقل : المسالك والممالك
ص 70 ـ 71

صدى بلاد غانة في بغداد !

في فحوى الخطاب الذي رفعه ابن العربي سفير يوسف بن تاشفين إلى المستظهر بالله العباسي. كان مما ورد في هذا الخطاب الهام الذي نأتي على نصه كاملاً في فصل «العلاقات بين المرابطين والعباسيين» :

واجتمعت (المغارب) على دعوته (أي يوسف) فيخطب الآن للخلافة على أكثر من ألفي منبر وخمسمائة منبر، فإن طاعته (أي يوسف) من أول بلاد الله الأفرنج... إلى آخر بلاد السوس **مما يلي بلاد غانة** وهي بلاد معادن الذهب، والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر...



نماذج من الدكاكير (ج. دكّور) التي كانت تعبد

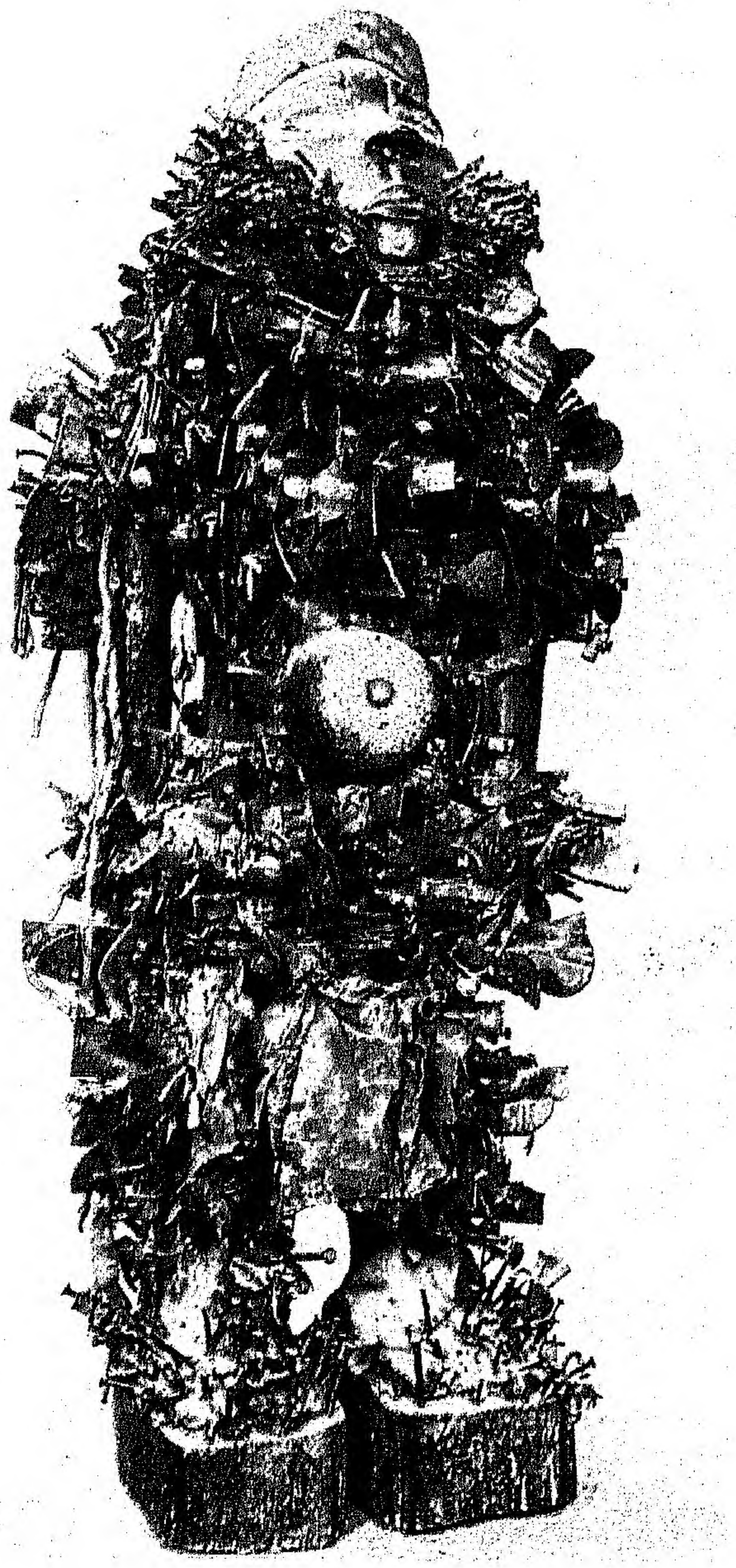


من دكـــاكير متحف Brooklin نــويــورك رقم 86

4 - 11 - 1964



عن متحف الإنسان بباريز : معبود من العود للصيد
عن مجلة شاف دوير دار



دكـاكير بـالمســامير : متحف إفريقيــا الـوسطى
64/11/4

الجنسُ من موضوعات الرسائل المتبادلة
بين السودان والممالك المجاورة من المسلمين !

«... وتلى مدينة ترنقة (Teranca) بلاد الفِرويين (EL Ferouiin) وهي مملكة على حدتها، ومن غريب ما فيها بركة يجتمع فيها الماء، ينبت فيها نباتٌ أصوله أبلغ شيء في تقوية الباه والعون عليها، والملك يمنع منها ولا يصل منها شيء إلى غيره، وله من النساء عدد عظيم... وقد أهدى إليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هدية نفيسة واستهداه شيئاً من هذا النبات فعاوضه على هديته، وكتب إليه يقول :

إن المسلمين لا يحل لهم من النساء إلا قليل وقد خفت عليك إن بعثت إليك الدواء أن لا تقدر على إمساك نفسك فتأتي بما لا يحل لك في دينك، ولكني قد بعثت إليك نباتا يأكله الرجل العقيم فيولد له..!»

عن البكري ص 174 ـ 326

الفتاوي الفقهية تعالج
نوازل غانة وأودغُشت

وسئل القابسي (324 ـ 403 = 935 ـ 1012) عمن دفع إلى رجل قراضاً ليمضي به إلى ناحية تادمكة وهي بلاد السودان، بهذا اللفظ جرت الكتبة فيما بينهما، وبذلك شهد الشهود، فسافر إلى تادمكة ثم مضى منها إلى **غانة وأودغُشت** وتأهل هناك وولد له وأقام إحدى عشرة سنة من يوم خروجه من البلد الذي أخذ فيه المال وعلى هذا العامل ديون باع القاضي فيها ماله ليقسمه بين الغرماء، فقام من له القيام بهذا القراض، هل يضرب له مع الغرماء ويكون كما قال سحنون فيمن أخذ مالاً قراضاً ليعمل له في أرض تونس فسافر إلى مصر أنه يضرب بهذا القراض مع الغرماء أم هذا غير هذا ؟ وكيف إن خرج إلى الأندلس وسجلماسة من تادمكة ثم إلى غانة وأودغشت التي تأهّل بها ؟

فأجاب : قوله إلى ناحية تادمكة، وهذا العامل قد تعدى فيما وصفته به من الإبْطاء في هذه المدة البعيدة التي قد سافر فيها الناس وجاءوا، فكيف إن كان قد زاد هذا العامل السفر إلى ناحية سجلماسة وإنما قيل له ناحية تادمكة، وإن كان سافر إلى الأندلس فهذا أعجب، على اني أقول إن إعطاء القراض على ذكر السفر إلى بلاد السودان غير جائز، ليس هو عندي كالعطاء على السفر إلى أمصار المسلمين، شرط بلاد السودان عندي في القراض غير مأمون ولا مرضي، وما فساده بالذي يدخله في الضمان لأنه بأمر رب المال عمل ولكن بالتعدّي الموصوف أولاً جاز لرب المال القيام عليه ويضمنه ما ثبت له من رأس ماله ويحاصص به غرماؤه على ظاهر التعدّي والله أعلم.

عن (المعيار المغرب) للونشريسي
المجلد 9 ص 116 نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
للمملكة المغربية 1401 ـ 1981

دور عبد الله ابن ياسين

- ◻ رباط ابن ياسين بين السينغال أو رأس تِيمِيرِيس
- ◻ دور التبادل التجاري في اتساع حكم غانة...
- ◻ يوسف بن تاشفين يستأثر بالشمال.
- ◻ السفارات قبل المواجهات...
- ◻ انتشار الدّعوة الإسلامية، ونشاط قوافل الحج.
- ◻ التأثيرات المتبادلة...

دور عبد الله ابن ياسين...

ولا مجال هنا لذكر تفاصيل الدعوة التي قام بها في الصحراء كل من عبد الله بن ياسين ويحيى بن إبراهيم الكَدالي، إلى أن أقاما رباطهما في جزيرة على ضفاف المحيط الأطلسي، أو على النيل كما يقول ابن خلدون.(1)

لقد كان لهذا الرباط الأثر البعيد في تغلغل الدعوة الإسلامية بأعماق إفريقيا السوداء...(2)

---

1) يذكر ابن خلدون أن الجزيرة المشار إليها كانت بالسينغال، وقد وقفتُ على موقع في دكار عاصمة السينغال قيل لي إنه رباط عبد الله ابن ياسين، لكن رجال البحث اليوم يستبعدون أن يكون الصنهاجيون (المرابطون) امتدُّوا إلى نهر السينغال منذ هذه الفترة، ولهذا فإن الكولونيل موضات (Modat) يحدد الجزيرة المشار إليها بأنها تيدرا (Tidra) شمال رأس تيميريس (Timiris) ويذكر الأهالي أنه توجد هناك لحدّ الآن صهاريج... وأنه يمكن الإلتحاق بهذه الجزيرة دون سباحة عند حالة جزْر البحر، وأن هذه النظرية ممكنة حيث إن المسافة المسكونة من طرف الكَداليين قريبة جدا من هذا المكان، على أنه يمكن أيضا أن الجزيرة المذكورة قد تغير مكانها نظراً لطول الزمن الذي يفصل بين عصرنا وبداية العهد المرابطي 453 = 1061.

F. De La Chappelle : ESQUISSE d'une histoire du Sahara Occidental, Hesp. 1930 T. XI p. 35-95.

2) كانت الطريق المستعملة إلى الصحراء أو بالأحرى إلى بلاد السودان عن منافذ ثلاثة : الأول، شرقاً عن الطريق المعروفة بإن شاء الله من توات إلى كَاو، والثاني وسطاً عن طريق سجلماسة تافيلالت إلى تومبوكتو، والثالث غرباً طريق وادى نون وطرفاية، ومن هنا يتفرع هذا الطريق قسْمَيْن : أحدهما ساحلي والثاني داخلي.

هذا وحول تاريخ إفريقيا الغربية وتاريخ بلاد السودان على العموم نذكر أن الطريق ذلّل أمام الباحثين اليوم أكثر من ذي قبل، بما ظهر من جرد للمؤلفات العربية التي اهتمت بالموضوع ابتداءً من وهب بن منبّه الذي عاش قبل سنة 110 هجرية = 728 والفزاري... وابن حوقل والبكري وعددهم يتجاوز التسعين فيما يصل فقط إلى القرن السادس عشر، فإذا أضفنا إلى هذا ذلك العدد الكثير من المؤلفات التي تعالج الموضوع فيما بعد ذلك التاريخ من أمثال الحسن بن الوزان... فإننا سنجد أنفسنا أمام حصيلة جدّ عريضة...

Hesp 1924, 1930, 1968 – V. Monteil : l'Islam Noire 1980 –
Joseph M Cuoq : Recueil des Sources Arabes concernant L'Afrique Occidentale, Paris 1985 – Histoir de x l'Islamisation de l'Afrique de l'Ouest 1985– RAYMOND MAUNY : Bibliographie de L'oueste African.
MORAES FARIAS : THE AL MORAVIDS : Bulletin de IFAN, 1967 P. 794.

لوحة لعبد الله بن ياسين الجزولي
بقلم : القاضي عياض السبتي
عن كتابه المفقود : «التاريخ» !

ذو الأنباء العظيمة، والقصص الغريبة، القائم بدعوة المرابطين، المزيّن لدولتهم لأول خروجهم، كان أولاً من طلبة واكّاكَ ـ ابن زلوا اللّمطي في داره التي بناها بالسوس للعلم والخير، وسماها دار المرابطين، إلى أن مر به رجل من جُدالة، يعرف **بالجوهري** بن سكن، ممن كان يحب الخير ـ منصرفاً من الحج، فرغب إلى وكّاكَ أن يوجه معه رجلا من طلبته، ليعلم قومه العلم، إذ كان الذي عندهم قليلاً، وأكثرهم جاهلية ليس عند أكثرهم إلى الشهادتان، ولا يعرف من وظائف الإسلام سواهما فوجه معه عبد الله بن ياسين، وكان موصوفاً بعلم وخير، فسار معه، وفهّم له سيره ولقومه وأخذ من الشدة في ذات الله تعالى وتغيير المناكر، وانعزل مع صاحبه في جماعة ممن يقولون بقوله، لتغيير جاهليتهم، وإنذارهم ممن اتبعه، ولم يزل يستقرىء تلك القبائل، حتى أسلموا على أيديهم، وأظهر الأيمان هناك... وخرج عن جُدالة إلى لمتونة فقام بأمرهم قبل أيام تاشفين بن عمر، وقبل أيام يحيى بن عمر ـ وهو الذي سماه بأمير المسلمين، وأول من تسمى منهم بذلك فأقام بأمرهم، وجاهد معهم. وقلدوه أمرهم، وأنفذ حدوده في أميرهم فمن دونه، ولقد ضرب بالسوط أبا بكر بن عمر ـ وهو إذ ذاك أمير المسلمين لحق تعين عليه عنده، والكل له مطيع، وسيرته في أموره هناك، وتعزيراته معروفة ومحفوظة يثابر عليها مشيخة المرابطين، ويحفظون من فتاويه وأجوبته مالا يعدلون عنه، وكان أخذ جميعهم بصلاة الجماعة وعاقب من تخلف عنها **عشرة أسواط لكل ركعة تفوته** إذ كان عنده ممن لا تصح له صلاته إلا مأموماً، لجهلهم بالقراءة والصلاة، واستقامت للمرابطين بلاد الصحراء بجملتها، وما وراءها من بلاد المصامدة والقبلة والسوس ـ بعد حروبٍ كثيرة، ثم خرج بالناس **لجهاد برغواطة** الكفرة... فحلّ بلادهم تامسنا ـ وقد فرت برغواطة أمامه في جبالهم وغياضهم، وتقدمت العساكر في طلبهم، وانفرد عبد الله في قلة من أصحابه، فلقيه منهم جمعٌ كبير، فقاتلهم قتالا شديدا، فاستشهد ـ رحمه الله ـ وذاك سنة خمسين وأربعمائة، وقد بسطنا أخباره في كتاب التاريخ ـ يقول عياض في (**ترتيب المدارك**).



عبد الله ابن ياسين كما تخيله الرسام المغربي

وقد كانت أشهر مملكة نشأت غرب القارة الإفريقية هي مملكة غانة التي كانت في العصور الوسطى المصدرَ الاساس للذهب والفضة والعاج والريش والصمغ والعبيد، وقد كان إنماء المبادلات بين جنوب غرب إفريقيا وشمالها وراء اتساع هذه الأمبراطورية الثرية الكبرى، التي كانت عاصمتها (غانة) مركزاً تجارياً عظيماً ترد عليه قوافل الإبل من إفريقيا الشمالية وخاصة من المغرب محملة بالقماش والنحاس والتمر والملح والعنبر والمرجان[3] وتعود مثقلة بالبضائع التي أسلفنا...

«... وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان مِرجانٌ سبتة لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيراً»، يقول الإدريسي في نزهة المشتاق...

ومع أن ملوك الامبراطورية الغانية كانوا وثنيين إلاّ أنّهم كانوا على شبْه وئام مع الأقليات الإسلامية التي كانت توجد معهم هناك، وهكذا أنشئت طائفة من المساجد، وكان هناك عدد من العلماء والقضاة الذين يأتون من مختلف البلاد الإسلامية لتفقيه الناس في أمور دينهم...

وفي ضمن الممالك التي كانت تدين لغانة مملكة أوداغشت (Aoudaghost) البربرية التي تحدث ابن حوقل ـ كما أسلفنا ـ عن ازدهار التجارة في حاضرتها، الأمر الذي يدل على وفر المبادلات التجارية إذ ذاك بين المغرب وغانا...

ولما كان المرابطون يشعرون بعبْء الرسالة الملقاة على كاهلهم في مقاومة الوثنية بالمنطقة، فقد تاقوا إلى التمكن من أوداغشت... وقد استطاعوا بعد معارك ضاريةٍ خاضوها مع حامية غانة أن يقتحموا المدينة سنة 447 = 1054، واستشهد الأمير يحيى ابن عمر اللمتوني في هذا القتال، فعهد عبد الله بن

---

3) يتحدث الشريف الإدريسي عن (شجر) مرجان خليج سبتة الذي لا يعدِ له صنف من صنوف المَرجان المستخرج بجميع أقطار البحار فيعطينا بذلك تفسيراً لما اشتهرت به سبتة من أنها جزيرة المرجان، ويذكر أن بالمدينة سوقاً خاصاً لتفصيله وحكّه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه.
هذا وفي بلاد المشرق نجد أن اليُسْر يوازي عندنا في المغرب المرجان، وهو كذلك يكون في عمق البحر الأحمر... وهم يسلكون به مسلك المرجان في التفصيل والحك والصنع، ونظمه سبحاً أو عقوداً ويمتاز بلونه الأسود كما يمتاز المرجان بلونه الأحمر.
الشريف الإدريسي : صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس، مأخوذة من كتاب : نزهة المشتاق في اختراق الآفاق نشر دوزي ودي خُوجي لَيْدَن بمطبع أبريل سنة 1866.

ياسين بالأمر إلى أخيه أبي بكر بن عمر الذي قرر أن يتفرغ كلية إلى شؤون الصحراء والسوادين فاستخلف ابن عمه يوسف ابن تاشفين حوالي 452 = 1060م بالشمال وأقنع زوجته زينب بضرورة بقائها بالحاضرة بعيدةً عن جو إفريقيا ومتاعب الصحراء..!

وقد استطاع الأَمير أبو بكر أن يتوغل في تلك الممالك وخاصة منها التي تخضع لامبراطورية غانة في مختلف جهات إفريقيا الغربية وسجلت التقديرات اعتناق ثلاثة أَرباع سكان الغرب الإِفريقي للإِسلام.

ولا بد من ملاحظة أنه لامناص من قيام دُعاةٍ واختلاف رسل وتبادل خطابات ووفادات بين هذه الجهة أو تلك، ونحن على يقين من أن الأمر كان هكذا بالنسبة للملثّمين والغانيين أيضا، وهو وجه للصلة بين المغرب وإفريقيا، ولو أن التاريخ ظل يخذلنا في الوقوف على أسماء السفراء وتواريخ سفارات.

وقد استمرت المعارك بين جيوش الأمير المرابطي وبين جيوش ملك غانة زهاء أربع عشرة سنة انتهت بانهيار معظم الأَمبراطورية الغانية سنة 469 = 1076 وتداعي الإمارات التابعة لها ولو أنها أدّت إلى اغتيال الأمير أبي بكر بن عمر بعد حوالي اثنتي عشرة سنة من استسلام غانة[4].

انتشار الدعوة الإسلامية

ومن خلال هذه الأَحداث نلاحظ انتشار الدعوة الإسلامية على شكلٍ واسعٍ واعتناق الإِسلام من طرف أُمراء الأَقطار التي كانت خاضعة لسيطرة ملك غانة الأمر الذي زاد من أنصاره بين مختلف القبائل فاكتسح بذلك رقعةً ممتدة الأَطراف وقضى ـ بفضل المنافذ الثلاثة أوداغُشت وغانا وكَاو على نفوذ الوثنيين في جميع الجهات المتبقية.

4) أرسل أحد زعماء القبائل التي كانت توجد في الجنوب بعض أتباعه إلى تكَانت ومعه الأَدلاَّء والسحرة لقتل هذا الأَمير أبي بكر الذي كان يسخر بالسحر فوجده على بعد 55 ك.م من مدينة تِجكجَة عاصمة تكانت، وسدد إلى ظهر الأَمير سهما أراده شهيداً عام 480 = 1087 وقد نقشت على قبره العبارة التالية : «رحم الله سي أبى بكر بن عامر». Hesp. 1930 T. XI p. 46-65.

وقد أصبح معظم هؤلاء الغانيين الدّرع الحصين للمملكة المغربية منذ احتضانهم للإسلام، فدافعوا عنها وعنه دفاع الأبطال، وناضلوا تحت الراية المرابطية فامتدت بسببهم، قوة الإسلام، وانتقلوا بعد عشر سنوات فقط من إسلامهم عبر الصحراء الشاسعة نحو الشمال المغربي ليأخذوا مكانهم على ظهر الأُسطول المغربي عبر بوغاز طارق حيث شاركوا ـ كما سنرى ـ ببسالةٍ وتفانٍ في معركة الزلاّقة الظافرة، وكانوا لأمير المسلمين قلعةً منيعةً جعلته يغامر بحضور المعمعة الفاصلة بنفسه... وإلى أحد أبناء هؤلاء السود الميامين يرجع الفضل في تحطيم معنوية المُعتدين عندما أجهز بمنجله على ألفونصو السادس فأثخنه جراحاً أرغمته على التراجع ورفعِ راية الاستسلام..

ولقد ارتبط تاريخ الجزائر الشرقية : (البليار) باسمٍ معروف هو ابن غانية نسبة إلى أمه التي يقال إن اسمها يعود إلى غانة... أي إنه ابن سيدة تعتبر أصلا من غانة...

إلى مناسك الحج من إفريقيا الغربية
أيام المرابطين...

نشطت قوافل الحج مع انتشار الإسلام في أمبراطورية **غانة** وكان الحجاج يعودون وهم أكثر حماساً وأصدق نيةً للعمل على الدعوة للإسلام في صفوف الوثنيين...

وقد تحدث ابن خلدون عن حج ملوك هؤلاء الأفارقة : مذكراً بأن أول من حج منهم برمندار أو برمندانة، كما سمعه ابن خلدون من بعض فضلائهم، وسبيله في الحج هي التي اقتفاها الملوك الأفارقة من بعده، ثم حجَّ منهم (منساولي بن ماري جاطة) أيام الظاهر بيبرس، وحج بعده منهم مولاهم صاكورة، وكان تغلّب على ملكهم... ثم حج الناصر وحج من بعده منهم منسى موسى حسبما هو مذكور في أخبار صنهاجة ودولة لمتونة من شعوبهم...

والملك برمندانة هذا قام بأداء مناسك الحج في **نهاية القرن الخامس الهجري** = أواخر القرن الحادي عشر الميلادي...

☆ ☆ ☆

التأثيرات المتبادلة : أدوات الطرب بين السودان وبلاد المغرب والأندلس

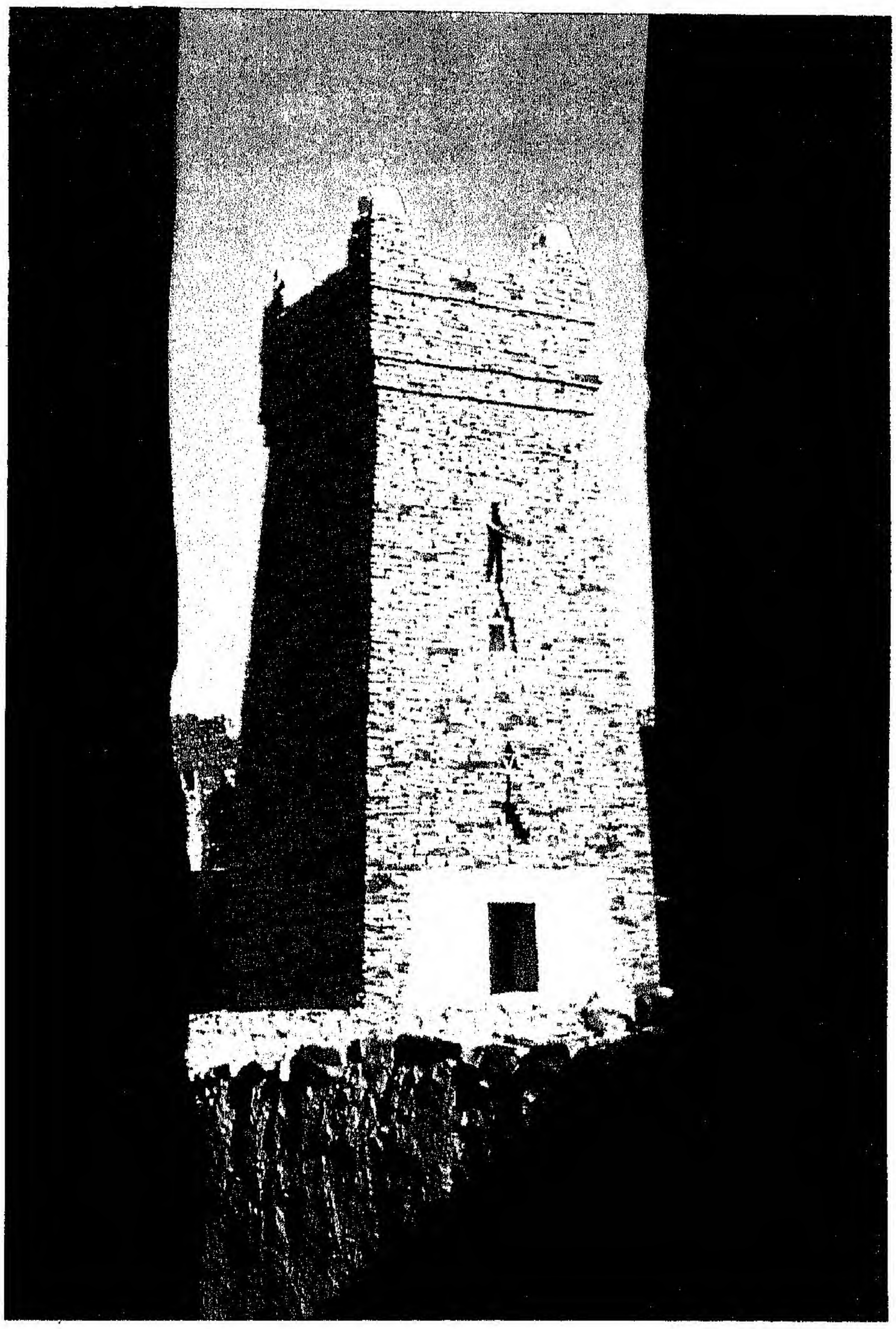
وقد سمعت ما بهذا البلد (الأندلس) من أصناف أدوات الطرب كالعود والرباب والقانون... وليس في بر العدوة من هذا شيء إلا ما جلب إليه من الأندلس، وحسبهم الدف وأقوال وأبو قرون **ودبْدبة السودان** وحماقي البربر...

النفح 3، ص 213

ومن خلال المعالم الأثرية

ستكون معلوماتنا أكثر دقةً وأوفر فائدةً حول الملوك الأوئل للسودان وحول التأثير المرابطي في أواسط إفريقيا عندما نقوم بدراسة بعض شواهد القبور التي ترجع للقرن الثاني عشر، والتي كتبت باللغة العربية وكانت من صنع أندلسي، كذلك الأمر عندما نقوم بدراسة جيدة لبعض الآثار التي اكتشفت في كَاو فقط عند عام 1939، كذا يقول بوفيل في كتابه :

The Golden Trade of the Moors, London 1958 p. 101 Note 1.



مسجد شنقيط القديم مئذنة مربعة مغربية المعمار كانت أعاليها تزين ببيض النعام.

علاقة دولة المرابطين بالأندلس

- □ ظاهرة التّنافس بين ملوك الطوائف.
- □ من أخبار الشعوبية في الأَندلس.
- □ بين مملكة طليطلة ومملكة سرقسطة.
- □ استنصار بعض الأُمراء المسلمين بالملوك المسيحيين !
- □ أداء الجزية لهؤلاء من لدن بعض ملوك الطوائف..!
- □ تردّي العلاقات بين المسيحيين ومسلمي الأندلس...
- □ نماذج من الخطابات المتبادلة.
- □ الحوار بين الإسلام وبين الديانات الأخرى في المشرق والمغرب.

علاقة دولة المرابطين بالأندلس

لابد أن نأخذ فكرةً - ولو مختصرة - عن الحالة العامة بالأندلس على هذا العهد. إن هذه البلاد لم تعد كما كانت بالأمس تحت لواء حاكم واحد وقيادة واحدة، ولكنها أمست بعد أيام الحجّاب العامريين، موزعةً بين إمارات متنافسة، في البداية، متقاتلة في النهاية، وهكذا في الوقت الذي تتفاهم فيه قشتالة ونافارة تحت قيادة ألفونس السادس ملك قشتالة وحليفه سانشو الثاني ملك أراغون، في ذلك الوقت يتوزع الأندلس «ملوكُ الطوائف»، ولم يعد من الصعب آنئذٍ على ألفونس أن ينتزع طليطلة من يد يحيى بن ذي النون، ثم يهدد سرقسطة وصاحبها ابن هود وبعدها بطليوس، ويطالب المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بتسليم بعض الحصون..!

فلكأنهم كانوا يدعون إلى المزيد من التنافر والمزيد من التخاذل. بل لكأنهم كانوا يدعون إلى استعداء بعضهم على البعض الآخر بالزعماء المسيحيين الذين كانوا لا يترددون في ضرب ملوك الطوائف أحدهم بالثاني، وبلغ من فساد النية أن انتهى بيع المسلمين في بعض الجهات بخبزة وقدح خمر ورطل حوت على حد تعبير ابن الكردبوس ![1]

ولنكتف بقراءة هذه السطور القليلة التي قد تُغنينا عن مآت الصفحات التي تصور الوضع الأندلسي الكئيب وهي تتناول أخبار النزاع بين مملكة طليلطة ومملكة سرقسطة :

«... ولجأ المأمون ابن ذي النون - ملك طليلطة - على إثر هزيمته - التي كبّده إياها أحمد بن سليمان ابن هود صاحب سرقسطة إلى فرنانْدُو الأوّل ملك قشتالة فاستغاث به واعترف بطاعته فأمده فرناندو بجنده فعاثت في أراضي مملكة سرقسطة وخرَّبتها، وعندئذٍ التجأ ابن هود - ملك سرقسطة بدوره إلى

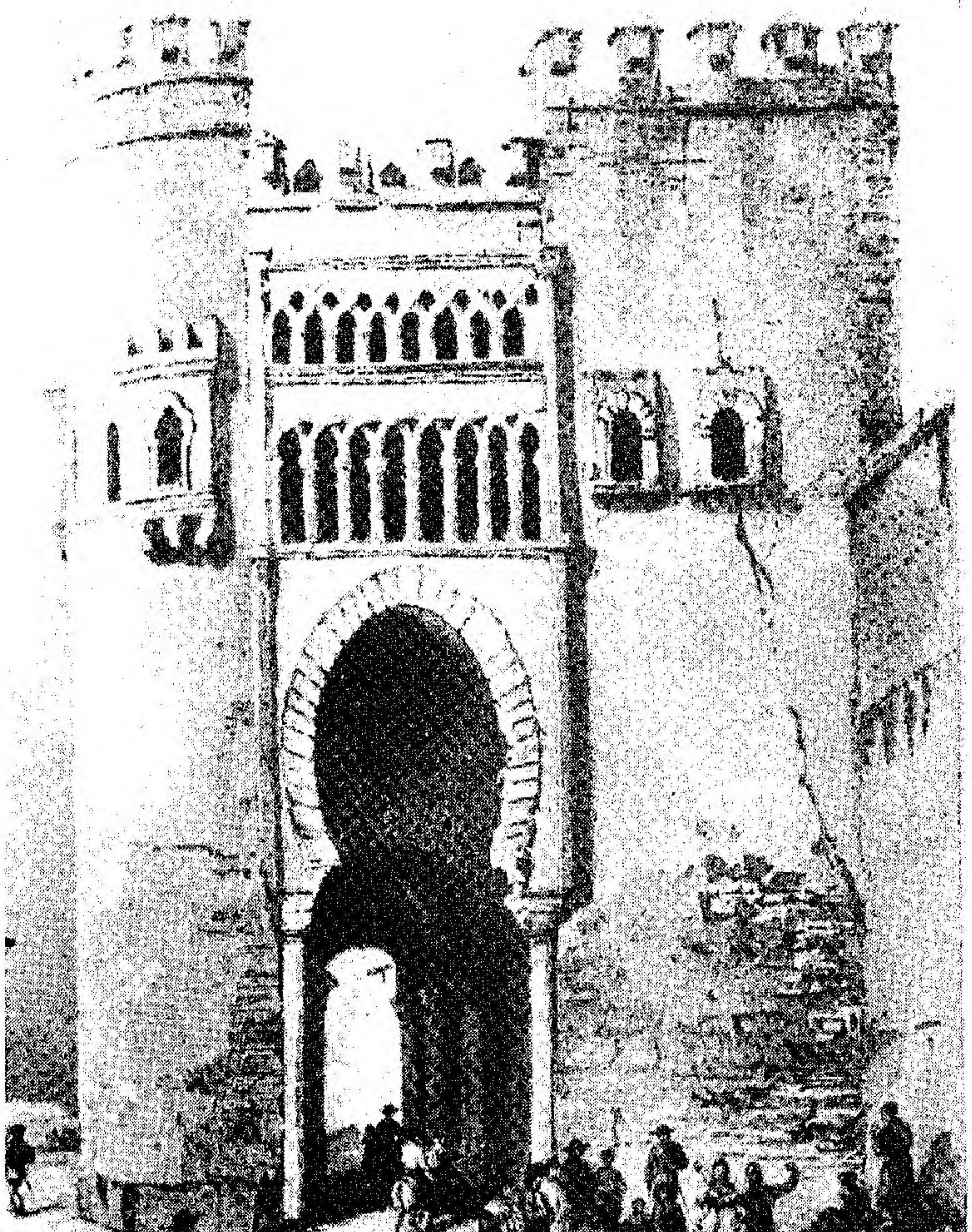
1) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الإسلامية بمدريد 1971، ص 103.

سقوط طليلطة

ومن أول ما استرد الإفرنج من مدن الأندلس العظيمة مدينة طليطلة من يد **عبد القادر ابن ذي النون** سنة 475 = 1082 ـ 83 وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن العسال :

يـــا أهـــلَ أنـــدلس حثـــو مطيّكم	فمـــا المقـــام بهـــا إلا من الغلـــط
الثـــوب ينســـل من أطرافـــه، وأرى	ثـــوب الجـــزيرة منســـولاً من الـــوســـط
ونحن بين عـــــدو لا يفـــــارقنـــــا	كيف الحيـــاة مـــع الحيَّـــاتِ في سفـــط ؟!

المقري : نفح الطيب 4، 352 / 483



أحد أبواب طليطلة وإلى اليمين بعض المخلفات الأندلسية

الاستعانة بملك قشتالة وبذل له أموالاً وتحفاً جليلة، فبعث فرناندو جنوده فعاثت في أراضي طليطلة... وردّ المأمون على ذلك بأن التجأ إلى غرسية ملك نافارة واستماله بالأموال الجليلة فأغار على أراضي مملكة سرقسطة المجاورة له، ورد ملك قشتالة على ذلك بالإغارة على أراضي طليطلة مرة أخرى. واستمر ملك قشتالة ونافارة يعملان بكلّ ما في وسعهما على إذكاء هذه الفتنة فيغير الأول على أراضي طليطلة لحساب ابن هود ويغير الثاني على أراضي سرقسطة لحساب ابن ذي النون...»[2]

سطورٌ قليلة ولكنها تحمل في طياتها كلّ معاني المرارة...

ومن ذلك المعنى تقاعسُ ملوك الطوائف عن مناصرة مملكة طليطلة وهي تنهار أمامهم مكتفين بالفرجة وترديد «اللّهم حوالينا ولا علينا !» بل إن المعتمد بن عباد حالف ألفونس ضد زميله يحيى بن إسماعيل القادر، ملك طليلطة !

☆ ☆ ☆

وهكذا فعوض أن ينتبه ملوك الطوائف إلى الخطر المحدق بهم من الملوك المسيحيين فيبادروا إلى مدّ يدهم إلى دولة المرابطين، لكنّهم كانوا يتخوّفون من الأصداء التي سمعوها عن قوة الأُسطول المرابطي ! ولم يلبثوا أن تراسلوا فيما بينهم ووقع اتفاقهم على مراسلة يوسف بن تاشفين يسألونه الإعراض عنهم ! ويؤكدون له مودتهم وأنهم معه على وفاق، ولكن من بعيد !

ولقد أتى المقري صاحب نفح الطيب بنبذةٍ من رسالة هؤلاء الملوك إلى يوسف على النّحو التالي :

«... أما بعد، فإنك إن أعرضت عنا نُسبت إلى كرم، ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتَيْنا فاختر لنفسك أجمل نسبتَيْك، فإنك بالمحل الذي يجب أن لا تسبق فيه إلىّ مكرمة، وإنّ في استبقائك ذوي البيوت، ما شئت من دوامٍ لأمرك وثبوت، والسلام».[3]

---

2) عنان : دول الطوائف، الطبعة الأولى، القاهرة 1380 = 1960 ص 261 ـ 262.

3) المقري : نفح الطيب، تحقيق د. إحسان عباس دار صادر، بيروت، مجلد 4، ص 355.

من أخبار الشعوبية
التي كانت تسهم في إلهاب المشاعر بالأندلس !

أرسل ابن الخراز أحد الأُدباء المقيمين بكنف المعتصم ابن صمادح في ألمرية سنة 455 = 1063 رسالةً إلى ابن غرسية المقيم في كنف عليّ المرتضى إقبال الدولة، يعاتبه لأنَّه يخص بمدائحه إقبال الدولة دون ابن صمادح، فأرسل ابن غرسية له خطاباً عنيفاً صيغ بشكل مقذع، يذم فيه العرب ويمدح العجم، لأنَّ المعتصم عربيّ وإقبال الدولة غير عربيّ، وقد أثارت هذه الرسالة ردود فعل شديدة، وتصدي للرد عليها كثير من الكتاب فيهم أبو جعفر أحمد بن الدُّودين البلنسي الذي عاش في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري.

وقد أورد ابن بسَّام خطاب ابن غرسية... وأتبعه جواب ابن الخرَّاز، وقال ابن بسام بعد هذا : وممن ردَّ أيضاً علي ابن غرسية وأجاد ما أراد، أبو الطيب عبد المنعم القروي (تـ 493 = 1100) وقد أثبتُّ - يقول ابن بسَّام - أكثر فصولها على طولها لاشتمالها على المئاثر العربية والمفاخر الإسلامية...

كان من العبارات التي وردت في رسالة ابن غرسية : كأنّ ما في الأرض إنسانٌ إلا من غسَّان، أو من آل ذي حسان..! ثم يقول عن العجم أنهم «ذوو الآراء الفلسفية الأَريضية والعلوم المنطقية الرياضية حملة الاسترلوميقي [والجومطريقي والعَلَمة بالارتماطيقي وأنولوطيقا] والقومة بالموسيقى [الفوطيقا]...[1] والنَّهضة بعلوم الشرائع والطبائع والمهرة في علوم الأَديان والأَبدان... أَصْغِرْ بشأنكم إذْ بزق خمرٍ باع الكعبةَ أبو غبشانكم..! نحن معشر الموالي لا نوالي إلا من هو لعظيمنا موالي، فاستأخِرْ أو تقدمْ...».

وكان من العبارات التي وردت في رسالة أبي جعفر ابن الدُّودين : إخسأ أيها الجهول المارق، والمرذول المنافق... ثم يخاطبه : «هل يجوز في التحصيل أو يصح في العقول، أن يحمى قومك سروح شائهم وقد أباحوا فروج نسائهم ؟ أليس هذا عين المحال ومغالطة الجهال..؟ وقد تحدث أن ولدانكم عطلوا في بعض أعوامكم سوق نسائكم، فنمى ذلك إلى الملك العظيم، فحكم - أكرمْ به من حَكَم ! - أن يُبيح النسوان من أنفسهن ما أباح الولدان... فنفقت السُّوقان، وما سمع في الأَزمان بأغرب من هذا الشأن ! وأما فخرك بعلمهم الشرائع... فإنهم «لم يزالوا يتعاورون الإنجيل بالزيادة والنقصان إلى أن أصاروه في حيِّز الهَذيان..! وأما علم الطبائع فسلمْ بعضها لهم لما تقدَّم في أثناء الرسالة، من علمهم بخواصّ تلك الآلة، والصدق أزينُ ما به نُطق، وإليه سُبق... وأبو غبشان إنما بدع خدمته في البيت... وأين تقع من قضية إمامكم يهوذا الحواري إذ باع نبيّه روح القدس من اليهود أعدائه بالأفلس ! فضع قضية سفيهنا في كفَّة وفي أخرى قضية إمامك..!

ثم يقول عن العرب «مجالسهم السروج... وموسيقاهم رَنَّات السُّرَيْجيات... وما أغناك - ياكاشاجم - عن كشف عورات آلك الأعاجم !

الذخيرة، القسم 3 ر مجلد 2 ص 704 - 755

---

1) الاسترولوميقي (Astronomy) علم الفلك - الجومطريقي (Géometry) الهندسة، الارتماطيقي (Arithmetic) : الحساب - أنولوطيقا (Analytic) : تحليل القياس، الفوطيقا أو البوطيقا (Poetics) الشعر.

فأجاب يوسف عن الرسالة بجواب قرن به ما يصلح لهم من التحف ودَرَق اللمط مؤكداً لهم موادعته ومسالمته، وهذا نص جوابه إليهم :

«بسم الله الرحمن الرحيم

من يوسف بن تاشفين :

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته، تحية من سالمكم وسلم عليكم، وإنكم مما في أيديكم من الملك في أوسع باحة، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم، والله وليٌّ التوفيق لنا ولكم، والسلام».(4)

☆ ☆ ☆

لقد كان على المعتمد، بناءً على المعاهدة مع ألفونس، أن يؤدي جزية سنوية باهضة في مقابلة أن يقوم ملك قشتالة بمعاونته، أي المعتمد، في حروبه ضد سائر أعدائه من الأُمراء المسلمين ! وحدث أن تأخر المعتمد في دفع الضريبة فأرسل الفونسو وفادته سنة 475 (يونيه 1082 ـ مايه 1083) إلى المعتمد يطلب الجزية، وكان على رأس الوفادة سفيره ومعها كذلك يهودي يدعى ابن شاليب (Ibn Ŝalib) بينما رابط عسكر ملك قشتالة بظاهر المدينة، فأرسل إليهم المعتمد المال مع بعض أشياخ المدينة وفي مقدمتهم الوزير ابن زيدون، فلما شاهد ابن شاليب المال والسبائك، رفض تسلُّمها بغلظة، بحجة أنها من عيار زائف، وهدَّد بأنه إذا لم يقدم له المال من عيار حسن، فسوف تحتل مدائن مملكة إشبيلية حتى يتم الدفع على الوجه المرغوب، فلما وقف المعتمد على ذلك بعث رجاله ـ على ما تقوله بعض الروايات ـ فقبضوا على ابن شاليب ومن معه من الفرسان القشتاليين فأمر باليهودي فصلِّب،(5) وأودع الفرسان النصارى

---

4) وفيات الأَعيان لابن خلكان 6 ـ 112 ـ 113 كتاب الحلل الموشية في ذكر الأَخبار المراكشية لمؤلف مجهول الاسم، نشر وتصحيح ي.س. علوش المطبعة الاقتصادية رباط الفتح 1936. ـ عنان دول الطوائف، 73 ـ 305.

الناصري : الاستقصا 2، طبعة دار الكتاب، الدار البيضاء 1954 ص 35/34.

5) يذكر أن المعتمد استفتى الفقهاء حول ما فعله بالسفير وأن الفقيه محمد بن الطلاع هو الذي حبذ تصرف ابن عباد لتعدي الرسول حدود الرسالة، وقد ورد في تحليله لموقفه أمام الفقهاء إنما بادرت بالفتوى تقوية لمعنوية الأَمير فلا يكسل عما عزم عليه من منابذة العدو ! وكان الذين حاجوه يدافعون بأن السفير لا يقتل على كل حال !

في السجن ! ولما علم ملك قشتالة بما وقع لسفرائه اضطر أن يرد (حصن المدوّر) القريب من قرطبة إلى المعتمد ثمناً لافتداء سراح المبعوثين من لدنه ! بيد أنه أقسم أن ينتقم من المعتمد أروع انتقام وأن يخرب أراضي مملكة إشبيلية كلّها حتى المجاز ! ثم بادر تنفيذاً لوعيده فحشد جيشاً ضخماً... وبعث سريّاته فعاثت في الأحواز وسار يحرق القرى وينتسف الزروع... حتى وصل إلى مدينة طريف...

وقد كانت خطة ألفونسو السادس في إضعاف ملوك الطوائف تقوم أولا على تقليص ممتلكاتهم واستصفاء أموالهم، وقد انتهى إلى فرض الجزية عليهم جميعاً ثم إلى تخريب أراضيهم وانتساف زروعهم وأقواتهم ومحاصيلهم وأخيراً على اقتطاع حصونهم وأراضيهم، وقد نجحت خطته في ذلك كلَّ النجاح !
ولاعتداده بقوته وسلطانه فقد أخذ يستعظم تلْقيبهم بالأمير، واكتفى بمخاطبتهم بالسيد بينما تسمّى هو في رسائله إليهم بالأمبراطور وملك الملتين، (يعني المسيحية والإسلامية).

ومما يروى في استهانته بهم قوله ذات يوم لسفير المعتمد لديه، وهو يهودي يدعى ابن مشعل : «كيف أترك قوماً مجانين تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم : المعتضد، المعتمد، والمعتصم، والمتوكل، والمستعين، والمقتدر، والأمين، والمأمون... وكل واحد منهم لا يسلّ في الذب عن نفسه سيفاً، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفاً وقد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان...»[6]

ويدل على تردي العلاقات الإسلامية المسيحية - سنةً فقط بعد الاستيلاء على طليطلة من لدن ألفونسو السادس عام 478 = 1085 - 1086 - ما نقرأه في الرسائل المتبادلة باللغة العربية بين الفونسو السادس من جهة وبين بعض أولئك الملوك من جهةٍ أُخرى، وهي تعبر عن تصاعد الأزمة يوماً بعد يوم بين الطرفين المتجاورين بما تحتويه من عبارات التهديد والشتم الرخيص...

---

6) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس.

نموذج من الخطابات المتبادلة بين ألفونسو وبين المعتمد

كان مما خاطب به ألفونسو السادس المعتمدَ ابنَ عباد يطلب إليه تسليم أعماله :

«من الأنبيطور ذي الملتين الملك المفضل الأدفنش بن شانجه إلى المعتمد بالله سدّد الله آراءه وبصّره مقاصد الرشاد، سلام عليك من مشيّد ملك شرفته القنَى، ونبتت في ربعه المنى، باهتزاز الرمح بعامله، والسيف بساعد حامله، وقد أبصرتم ما نزل **بطليطلة** وأقطارها، وما حاق بأهلها حين حصارها، فأسلمتم إخوانكم، وعطّلتم بالدعة زمانكم، والحذِر من أيقظ باله، قبل الوقوع في الحبالة، ولولا **عهد** بيننا نحفظ ذمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الإنذار يقطع الأعذار ولا يعجل إلا من خاف الفوت فيما يرومه، وخشي الغلبة على ما يسومه، وقد حملنا على الرسالة إليك القرمط البرهانس وعنده من التسديد الذي تلقى به أمثالك، والعقل الذي تدبر به بلادك ورجالك، ما أوجب استنابته فيما يدقّ ويجلّ، وفيما يصلح لا فيما يخل، وأنت عندما تاتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك يسعى بيمينك، وبين يديك».

ولما وصل هذا الكتاب إلى المعتمد بن عباد جاوب عنه بخطه من نظمه ونثره بما نصه :

الذلُّ تأباه الكرام ودينُنا ... لك، ما ندين به من البأساء

في أبيات كثيرة، وبعد ذلك : «من الملك المنصور بفضل الله، المعتمد على الله، محمد بن المعتضد بالله، أبي عُمر بن عباد إلى الطاغية الباغية أدفنش بن شانجه الذي لقّب نفسه بملك الملوك وسماها بذي الملتين، قطع الله بدعواه، سلام على من اتّبع الهدى، أما بعد فإن أول ما نبدأ به من من دعواه، أنه «ذو الملتين» والمسلمون أحق بهذا الاسم لأن الذي تملك من أمصار البلاد، وعظيم الاستعداد، **ومجبي** المملكة لا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملّتكم، وإنما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك، وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك، فركبنا مركب عجز **نسخة** الكيس، وعاطيناك كؤوس دعة قلت في أثنائها ليس، ولا تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنا لنعجب من استعجالك برأي لم تحكم أنحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار، أما تعلم أنا في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان، وحماة الشجعان، **وحيل** الإنسان، يوم يلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا القبر، تسيل نفوسهم على حدّ الشفار، وينعاهم المنام في القفار، يديرون رحى المنون بحركات العزائم، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدّوا لك ولقومك جلاداً رتبه الاتفاق، وشفاراً حداداً شحذها الإصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجلة الشروه، نبهت من **غفلة** طال زمانها، وأيقظتّ من **نومة** تجدد أمانها، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين يد صاعدة، أو **وقفة متساعده**، إلا ذل تعلم مقداره،تتحقق مثاره، والذي جرّك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمق لا يقاتلونكم جميعاً إلا في قرى محصنة و من وراء جدر، ظنوا المعاقل تعقل، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من **المسالمة** ما أوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير أمرهم، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم، من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك، بما الموت دونه وبالله نستعين عليك، ولا نستبطئ في مسيرتنا إليك، والله ينصر دينه الكريم، ولو كره الكافرون والسلام على من علم الحق فاتبعه، واجتنب الباطل وخدعه.

☆ ☆ ☆

الحوار بين الإسلام والمسيحية

في إطار الحوار المفتوح بين المسلمين والمسيحيين في الشرق والغرب نشير هنا لما وقع للقاضي أبى بكر الباقلاني لما ذهب سفيراً لدى الأمبراطور البيزنطي.

كان القاضي أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاّني من كبار العلماء في العصر العباسي أعجب به الملك **عضد الدولة**، وجعله ذلك الإعجاب ينعته في كتاب تقليده القضاء بالإمام الأوحد وسيف السنة ولسان الأمّة...

وفي سنة 371 = 981 ـ 982 اختاره عضد الدولة (الذي فوّضت له الأُمور من لدن الخليفة الإمام الطائع لله)،[1] اختاره للسفارة إلى ملك الروم، وهو يومئذ في الثالثة والثلاثين من عمره ليحمل إليه جواب رسالةٍ وردت منه، وكانت هذه السفارة تتعلق بالصلات غير الودية التي كانت بين بغداد والقسطنطينية يومئذ بسب لجوء القائد البزنطي برداس سقليروس ـ وكان مناوئاً للحكم في بيزنطة ـ إلى الخليفة في بغداد، طالباً منه العون فاستبقاه الخليفة لديه، وسار القاضي إلى القسطنطينية مع معاونين له، فلما وصلوا أمر الأمبراطور بإنزالهم، وحدّد لهم موعداً يدخلون فيه عليه...

وبعد أداء الرسالة... جرت بين الأمبراطور والباقلاني أحاديث طويلة، شاركت فيها حاشيته وكبار الرهبان، وكانت فيه أسئلة محرجة لكن القاضي كان يُقحمهم... لقد كان من الأَسئلة التي طرحوها عليه :

ما قصته زوجة نبيّكم عائشة ؟ فأدرك القاضي ما يرمون إليه، وقال : هناك امرأتان ذكرهما بعض الناس بسوء : مريم وعائشة، وكانت عائشة ذات زوج، ولم تأت بولد وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج، وكلاهما برأهما الله مما قيل فيهما، وكلاهما منزّهتان مبرأتان من السماء بوحي الله عز وجلّ.

فبهتوا وسكتوا.

وقد خلب الباقلاني عقل الأمبراطور حتى إنه قال له : يا مسلم ! اقعد عندي وأقاسمك مملكتي، فلم يقبل القاضي ذلك العرض ..!

---

1) مختصر التاريخ لابن الكازروني تحقيق د. مصطفى جواد سالم الألوسي 1390 ـ 1970 مطبعة الحكومة ـ بغداد ص 191 ـ 192.

سفارات ملوك الطوائف
لدى يوسف بن تاشفين

- □ السفارة المشتركة : إشبيلية ـ وبطليوس ـ وغرناطة.

- □ الاجتماع بالعاهل المغربي في سبتة في إحدى الروايات أو بمراكش في رواية أخرى...

- □ لقاء قمة بين المعتمد ابن عباد ويوسف بن تاشفين بالمغرب ؟

- □ رفض المعتمد لنصيحة مَن خوَّفه من الاستنجاد بالعاهل المغربي، وجوابه بالكلمة الخالدة : «رعْيُ الجمال خيرٌ من رعي الخنازير» !!

- □ المراسلات المتبادلة...

سفارة ملوك الطوائف لدى يوسف بن تاشفين

لقد كانت السفارة مشتركة حتى تعبر عن وجهة النظر الأندلسية بجميع ما تضمه من أمراء وفقهاء وزعماء، وبعث المعتمدُ بن عباد وزميلاه المتوكل ابن الأفطس صاحب بطليوس، وعبد الله بن بُلُقين صاحب غرناطة وفادتَهم الرسمية إلى أمير المسلمين مؤلفة من الشخصيات التالية : أبي بكر عُبَيد الله بن أدهم قاضي[1] قرطبة، وأبي إسحاق ابن مقانا قاضي بطليوس[2]، وأبي جعفر القُلَيعي قاضي غرناطة[3]، وناب عن المعتمد وزيره أبو بكر بن زيدون[4]، وفي روايةٍ لابن بسام : أبو بكر بن القصيرة[5] الكاتب.

---

1) وصفه المقري في النفح بأنه «اعقل أهل زمانه» ج 4، ص 359 / 360.

2) المقري : النفح ج 1، ص 665.

3) نعتقد أنه نفسه المقصود بابن القليعي الذي ورد ذكره مرارا وتكرارا في مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، وهو نفسه الذي سفر لدى المرابطين عند محاصرة حصن لييط (ALEDO) عام 481 = 1088، وكانت له مقدرة على «الدواخل» كما يقول الأمير الذي يشكتي من أن هذا السفير هو الذي تسبب له في الهلاك... راجع مذكرات الأمير عبد الله المسماة بكتاب التبيان «نشر ليفي بروڤنصال، دار المعارف مصر 1955.

4) المقري : النفح 4، ص 359.

5) كان أبو بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة من أهل التفنّن في العلوم، كاتباً بارع الخط، وقبيل وفاته أدركه الخرف. ترجم له في الصلة : 104 والمغرب 1 : 350، والمحمدون في الشعراء 358 والخريدة 3، 383، والذيل والتكملة 6 : 227، والنفح 4 : 365 والإحاطة 2 : 516... انظر الذخيرة لابن بسام، تحقيق د. إحسان عباس القسم الثاني ـ المجلد الأول، الدار العربية للكتاب، ليبيا ـ تونس ص 239.

وهنا تختلف الروايات في التفاصيل، فتقول إحداها : إن سفارة الأندلس عبرت البحر ولقيت أمير المسلمين بسبتة وكان هذا الأمير قد وصل إليها إثر افتتاح جيشه لها من يد وإليها ابن سقوت البرغواطي في ربيع الثاني 476 = غشت ـ شتنبر 1083، وهناك شرح له السفراء ما يلقاه أهل الأندلس من الإرهاق والذلة على يد النصارى وما يهددهم به ملك قشتالة من أخذ بلادهم وإبادتهم... وفي رواية أخرى ذكرها عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب وذكرها ابن عذاري في البيان المغرب، أن المعتمد ابن عباد نفسه قد عبر البحر في جماعة من الزعماء وسار إلى سبتة[6]ثم إلى مراكش لمقابلة أمير المسلمين وأنه هو الذي استنصره بنفسه للجهاد وإنقاذ الأندلس...

ولعل من الإنصاف أن نذكر هنا ما ترددت حكايته من أن قرار المعتمد بإرسال هذه السفارة لم يصدر بسهولة، فقد تعرض فعلاً لمعارضة شديدة من ابنه الرشيد مع جماعة من زعماء إشبيلية، كانوا ينصحون إليه بأن يقوم بمحاولات أخرى للتفاهم مع ملك قشتالة وإبرام صلحٍ معه، كيفما كان الثمن، مخوّفين إياه من مضاعفات الاستنجاد بالمرابطين وأنهم قد يسلبون ملكه، ـ ولكن المعتمد ـ وقد كان يدرك جيدا الوضع السائد ـ وجد نفسه أمام اختيارين فإما أن يذعن للقشتاليين ويرضى بإمارة قد تنتهي إلى أن يصبح عبْداً لالفونسو...! وأما أن يمد يده لأخوته ويقبل سائر الاحتمالات الممكنة، وهنا سجلت عليه كلمته الوطنية الرائعة : «والله لا يسمع عني أبدا أنني أعدت الأندلس دار كفر فتقوم عليَّ اللعنة في منابر الإسلام... رعْيُ الجمال عندي والله خيرٌ من رعي الخنازير»، ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيراً يرعى جماله في الصحراء خير من كونه مغلوباً للاذفونش أسيراً له يرعى خنازيره في قشتالة ! وقد قال لعذّاله ولوامه : يا قوم إني في أمري على حالتين : حالة يقين وحالة شك، ولابدّ لي من إحداهما أما حالة الشك فأني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش، فمن

---

6) يقتصر النص على مراكش، فلا يُدرى هل إن المعتمد نزل بسبتة وأخذ طريق البر مارا بفاس مثلا، أم أنه أخذ الطريق البحري من سواحل الأندلس إلى ميناء في الجنوب المغربي حيث أخذ طريقه لمراكش.

الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل، فهذه حالة شك، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أرضى الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطتُ اللّه تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة فلأيّ شيء أدع ما يرضي الله وآتي ما يُسخطه، فحينئذٍ قصر أصحابه عن لومه[7].

☆ ☆ ☆

ولقد وقعت بين ابن عباد وبين أمير المسلمين مشاورات ومكاتبات نذكر منها على الخصوص رسالةً من أولى الرسائل العبادية[8] : وهي بتاريخ فاتح جمادى الأولى 478 = 14 غشت 1985 :

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما.

إلى حضرة الإمام أمير المسلمين وناصر الدين محيي دعوة الخلافة الإمام أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين. (من) القائم بعظيم إكبارها، الشاكر لإجلالها، المعظم لما عظم الله من كريم مقدارها اللائذ بحزمها، المنقطع إلى سمو مجدها، المستجير بالله وبطولها، محمد بن عباد، سلام الله يخص الحضرة العلية، المعظمة السامية، ورحمة الله وبركاته، وكتب المنقطع إلى كريم سلطانها من إشبيلية غرة جمادى الأولى سنة 478[9]، وأنه أيد الله أمير المسلمين، ونصر به الدين، فأنا نحن العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا، وتفرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا، بقطع المادّة عنا، من صنيفتنا، فصرنا فيها شعوباً، لا قبائل، وأشتاتا لا قرابة ولا عشائر، فقل ناصرنا وكثر شامتنا، وتوالى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفونش وأناخ علينا بكلكله ووطئنا بقدمه، وأسر المسلمين وأخذ البلاد، والقلاع والحصون ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره، ولا أخيه، ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الهواء والماء منعهم

---

7) المقري : النفح ج 4 ر ص 359.

8) الحلل الموشية : ص 32 ـ 33.

9) في الأصل 479 وهي هفوة ناسخ...

عن ذلك، وقد ساءت الأحوال وانقطعت الآمال، وأنت - أيدك الله - سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأميرها وزعيمها، نزعتُ بهمتي إليكم، واستنصرت بالله وبكم، واستعنت بحرمكم لتجوزوا لجهاد هذا العدو الكافر وتحيو[10] شريعة الإسلام، وتذبوا عن دين محمد عليه الصلاة والسلام، ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم، والأجر الجسيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، والسلام الكريم على حضرتكم السامية ورحمة الله وبركاته...

كما كان من تلك المكاتبات رسالة يقال إنها من إنشاء الكاتب أبي بكر ابن الجد[11] :

إلى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين، وناصر الدين وزعيم المرابطين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، نوّر الله به الآفاق وجمّل ببهائه الجيوش والرفاق، من الملك المفضل بنعمة الله، المستجير برحمة الله، المعتمد على الله، محمد بن عباد، سلام على حضرة تجدد أيمانها واشتهر أمانها، أما بعد فإن الله سبحانه أيد دينه بالاتفاق والائتلاف، وحرّم مسالك الشتات ودواعي الاختلاف، وأنعم على عباده بأمر جديد، وقوم أولي بأس شديد، وتطوّل علينا بمعلوم جدك ومشهور جَدك، وقد جعلك رحمة يُحيي غيثها ربوع الشريعة، وخلقك سُلّماً إلى الخيْر وذريعة، وقد طرأ على الإسلام حادث أنسى كل هم، وهمت النكبات بوقوعه دُهم، وذلك عدو أطمعه في البلاد شتات وبين، واختلاف سببه لم تطرق له في الدّعة عين، يقوى ونضعف، ويتفق ونختلف، وننام مطمئنين من آفات الزمان، وتناسخ الأمان، وقد جاءنا إبراقه وإرعاده، ووعده وإيعاده، لنسلّم له المنابر والصوامع، والمحارب والجوامع، ليقيم بها الصلبان، ويستنيب بها الرهبان، ومما يطمعه استمالته إيانا بالدّعة، وإملاؤه في الرحب

---

10) في الأصل تحيون وهي هفوة كذلك.

11) الحلل الموشية 34/33، هذا وقد لوحظ أن هذه الرسالة شبيهة برسالة أرسلها محمد (الفقيه) ابن الأحمر ملك غرناطة سنة 673 هجرية إلى أمير المسلمين يعقوب بن عبد الحق، حتى تحير بعض المؤرخين إلى أي الملكين تصح نسبتها... ولعل كاتبا من بلاط غرناطة اقتبس من كاتب بلاط إشبيلية الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، المطبعة الملكية، الرباط 1972، ص 140... مجلة (الوثائق) المطبعة الملكية 1396 = 1976، المجموعة الأولى ص 182.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

إلى الحضرة [illegible] أمير المسلمين [illegible] ومحيي دعوة الخليفة الإمام أمير
المؤمنين [illegible] حضرته الكبار بها الشاكر لإجلالهم
المعظم [illegible] المنقطع إلى سمو مجدها
المستجير بالله [illegible] سلام الله [illegible] على الحضرة العلية المعظمة
السامية ورحمة الله وبركاته وكتب [illegible] إلى [illegible] أطالهما من إشبيلية
في جمادى الأولى [illegible] وإنه [illegible] الله أمير المسلمين وناصر الدين إنا نحن
العرب في هذه الأندلس قد تلفت قبائلنا وتفرق جمعنا وتغيرت أنسابنا
بقطع المادة عنا من منبتنا فصرنا شعوبا لا قبائل وأشتاتا لا عشائر
فقل ناصرنا وكثر شامتنا وتولى علينا هذا العدو المجرم اللعين أذفونش وأناخ
علينا بكلكله ووطئنا بقدمه وأسر المسلمين وأخذ البلاد والقلاع والحصون
ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه
ولو شاءوا لفعلوا إلا أن الماء والهواء منعهم عن ذلك وقد ساءت
الأحوال وانقطعت الآمال وأنت أيدك الله سيد حمير ومليكها الأكبر
وأميرها وزعيمها نزعت بهمتي إليكم واستنصرت بكم واستغثت بحرمكم لتجوزوا
بجهاد هذا العدو الكافر وتحيون شريعة الإسلام وتذبون عن دين محمد
عليه الصلاة والسلام ولكم بذلك عند الله الثواب الكريم والأجر العظيم ولا
حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم والسلام الكريم على حضرتكم السامية
ورحمة الله وبركاته.

رسالة المعتمد بن عباد إلى يوسف بن تاشفين
بتاريخ أول جمادى الأولى 478 (14 غشت 1085م)

والسعة، استجراراً لما أبطنه، وإهجاما علينا وظّنه، وقد وطد الله لك ملكا شكر الله عليه جهادك، وقيامك بحقك واجتهادك، ولك من نصر الله الخير باعث يبعثك إلى نصر مناره، واقتباس نوره وناره، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته، ويحضر الحرب بآلاته، فإن شئت الدنيا، فقطوفٌ دانية، وجنّات عاليه، عيون آتية، وإن أردت الأخرى فجهاد لا يفتر، وجلاد يجز الغلاصم ويبتر، هذه الجنَّة ادخرها الله لظلال سيوفكم، وإجمال معروفكم، نستعين بالله وملائكته وبكم على الكافرين كما قال الله سبحانه، وهو أكرم القائلين : قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم ويَنصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين، والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها، ونعمة الإسلام نشكرها، ورحمة الله نتحدث بها وننشرها، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين، وناصر الدين، ورحمة الله وبركاته(12).

وقد كان من رسائل الاستصراخ ما بعث به عمر المتوكل على الله ابن الأفطس أمير بطليوس وهي من إنشاء الوزير الكاتب أبي عبد الله محمد بن أيمن ننقلها عنْ كتاب الذخيرة لابن بسّام(13)، وهذا نصها :

لما اشتد يومئذ كَلَب الروم، بهذا الإقليم، على ما تقتضيه شهادة المنثور والمنظوم، بلسان من اندرج ذكره في هذا الديوان من كلّ زعيم، استصرخ ملوك الطوائف بأفقنا أميرَ المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين، رحمه الله، وقد ألقوا بأيديهم، فكتب أبو عبد الله محمد بن أيمن بهذه الرسالة عن صاحبه، وأراها كانت ثالثة المفاتحة، أو ثانية المداخلة، وهي :

لما كان نورُ الهدى ـ أيدك الله ـ دليلَك، وسبيلُ الخير سبيلك، ووضحت في الصّلاح معالمك، ووقفْتَ على الجهاد عزائمك، وصحّ العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تُستدعى لما أعضل من الداء، وتُستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدوّ المطيفةُ بها ـ أهلكهم الله ـ عند إفراط تسلطها واعتدائها، وشدة كَلَبها واستشرائها، تُلاطف

---

12) الحلل الموشية ص 35/34/33.

13) القسم الثاني ـ المجلد الثاني ص 652 : ترجمته.

بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كلّ ذخيرة، وتسترضى بكلّ نفيسة خطيرة، ولم يزل دأبها التشطّطَ والعناد، ودأبنا الإذعان والانقياد، حتى استصفي الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كلّ جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطأه القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسرى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد همّوا بما أرادوه من التوثّب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا لله ويا للمسلمين !! أيسطو هكذا بالحق الأفك، ويغلب التوحيدَ الشرك، ويظهر على الأيمان الكفر، ولا يكتنف هذه الملّة النصر ؟! ألا ناصر لهذا الدين المهتضم، ولا حامي لما استبيح من حمى الحرم !! وإنا لله على ما لحق عرشَه من ثل، وعزّه من ذلّ، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء، والبلية التي ليس مثلها بلاء.

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك ـ أيدك الله ـ بالنازلة في مدينة قورية ـ أعادها الله ـ وأنها مؤذنة الجزيرة بالخلاء، ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم مازال ذلك التخاذل يتزايد، والتدابر يتساند، حتى تخلّصت القضية، وتعجلت البلية، وحصلت في يد العدّو ـ قصمه الله ـ مدينة سرته وعليها قلعة تجاوزت حدّ القلاع، في الحصانة والامتناع، وهي من المدينة كنقطة الدائرة وواسطة القلادة، يدركها من جميع نواحيها، واستوى (في) الاستضرار بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت، ورمق زاهق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالا، وتتداركوها ركبانا ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافا. وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله تعالى، فإنكم له أتلى، ولا أحرّضُكم على التسرع إليه بما في حديث رسوله عليه السلام، فإنكم إلى معرفته أهدى.

وكتابي هذا جملةٌ، الشيخُ الفقيهُ الواعظ يفصّلها، ومشتمل على نكتة هو يوضحها ويبينها، فإنه لما توجه نحوك احتسابا، وتكلّف المشقّة إليك طلباً ثواباً، عوّلت على بيانه، ووثقت في عرض الحال عليك بفصاحة لسانه، وأنت بفضلك تستوعب ما يؤديه استيعاب المستوفى وتصغي إلى ما ينهيه إصغاء الواعي، وتجد منه مضض المرتمض، وتتحرك له تحرك الممتعض.

ثم لم يزل يستشري الداء، ويعم أقطار الجزيرة البلاء، وأمير المسلمين وناصر الدين - رحمه الله - مشغولٌ ببقية حرب طوائف البرابرة المتغلبين - كانوا - على أقطار العدوة، فلم يزل يميط أذاها، ويضرح قذاها، حتى سلك سبيلها، وطاب مستقرها ومقيلها. وكان من أشد تلك الطوائف أيداً، وأمتنها كيداً، العزّ بن سقوت، المتغلب - كان - على مدينة سبتة وما والاها، فإنه جاهر بالخلاف سماعاً وعياناً، وشغل أمير المسلمين - رحمه الله - عن تلافي هذه الجزيرة زماناً، إلى أن بلغ الكتاب أجله ووقته، وفتحت على يديه سبتة.

يوسف بن تاشفين يلبي نداء الأندلس

- □ استشارات يوسف بن تاشفين.
- □ سفارة ابن تاشفين لدى المعتمد بن عباد...
- □ تنازل المعتمد عن الجزيرة الخضراء.
- □ تبادل رسائل التهديد بين الفونسو السادس وبين يوسف ابن تاشفين !
- □ عبور الأسطول بقيادة داواد بن عائشة...
- □ دعاء العاهل المغربي وهو يعبر البوغاز لأول مرة !
- □ الحمام الزاجل كوسيلةٍ مستعجلةٍ للبريد.
- □ اللقاء في إشبيلية بين يوسف والمعتمد.

يوسف بن تاشفين يلبي نداء الأندلس

لقد جمع العاهل المرابطي كبار قومه للتشاور فكان من رأيهم أن لا نفرط في الجار وبيننا وبينه ساقيةُ ماء ! وقد كان من أكابر العلماء الذين أفتوا بضرورة التدخُّل أبو الحجاج يوسف ابن عيسى بن قاسم الملقب بالملجوم[1]... وقد اقترح عليه وزيره الأندلسي عبد الرحمن بن أسبط[2] أن يشترط تسليم ثغر الجزيرة الخضراء ليكون قاعدةً أمينةً لعبور الجيش وضمان العودة عند الحاجة. وهكذا نجد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يبعث بوفادة إلى المعتمد بن عباد تتألف من القائدين عبد المالك وابن الحسن، للحديث حول تسليم الجزيرة وقد كانا مصحوبين بالرسالة التالية[3] :

«بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليماً.

من أمير المسلمين وناصر الدين، معيد دعوة أمير المومنين، إلى الأمير الأكرم المؤيد بنصر الله، المعتمد على الله، أبي القاسم محمد ابن عباد، أدام الله كرامته بتقواه، ووفّقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد، فإنه وصل خطابكم المكرم فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمينٌ لشمالك، ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا ذلك من الشرع وكتاب الله تعالى، وأنه لا يمكننا الجواز إلاّ أن تُسلم لنا الجزيرة الخضراء تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فإشهد به على نفسك وابعث إلينا بعقودها، ونحن في إثر خطابك إن شاء الله، والسلام ورحمة الله تعالى وبركاته.

---

1) د. التازي : جامع القرويين ج 1 ص 158 ـ 159.
2) الحلل الموشية 36 / 37.
3) المصدر السابق ص 38/37.

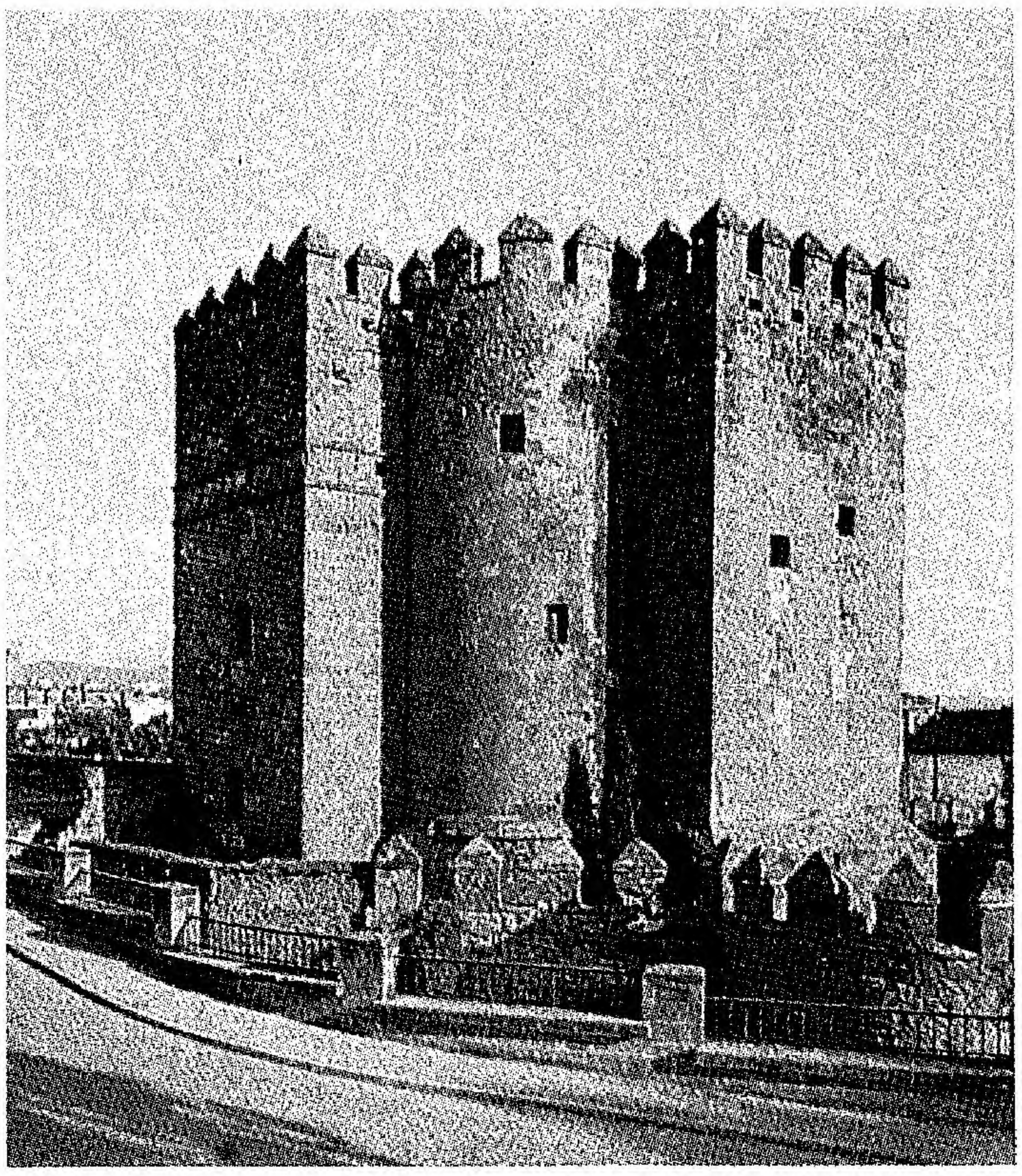
تمسك المرابطين بمبدإ الشورى

ومن أخبار يوسف بن تاشفين أيضا ما نقله غير واحد من الأئمة، وفي صدرهم ابن خلكان في وفيات الأعيان، 7، 118 أن أمير المسلمين طلب من أهل البلاد المغربية والأندلسية المعاونة بشيء من المال على ما هو بصدده من الجهاد وأنه كتب إلى قاضي ألمرية أبي عبد الله محمد بن يحيى (عرف بابن الفراء) يأمره بقرض معونة ألمرية، وأن يرسل بها إليه، فأخبره بأنه لا يجوز له ذلك، فأجابه أمير المسلمين بأن القضاة عندي والفقهاء، قد أباحوا قرضها وأن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه قد قرضها في زمانه فراجعه القاضي عن ذلك بكتاب يقول فيه :

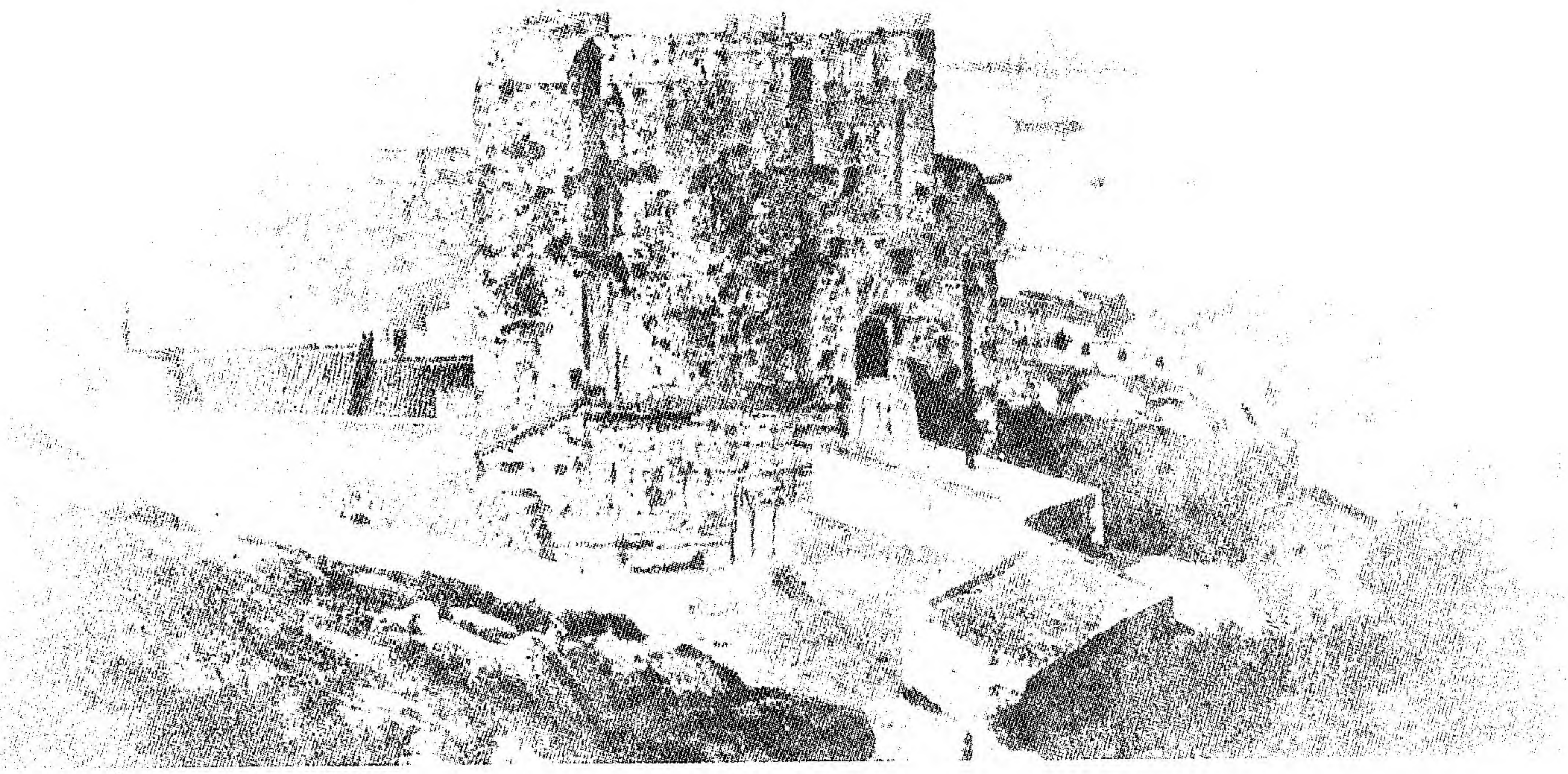
«الحمد لله الذي إليه مئابنا وعليه حسابنا، وبعد فقد بلغني ما ذكره أمير المسلمين عن اقتضاء المعونة وتأخيري عن ذلك، وأن أبا الواليد الباجي وجميع القضاة والفقهاء بالعدوة والأندلس افتوه بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اقتضاها، القضاة والفقهاء إلى النار بدون زبانية، فإن كان عمر اقتضاها فقد كان صاحب رسول الله ﷺ ووزيره وضجيعه في قبره، ولا يشك في عدله، وليس أمير المسلمين بصاحب رسول الله ﷺ ولا بوزيره ولا بضجيعه في قبره، ولا ممن لا يشك في عدله، فإن كان القضاة والفقهاء أنزلوك منزلته في العدل فإن الله تعالى سائلهم وحسيبهم عن تقلدهم فيك، وما اقتضاها عمر رضي الله عنه حتى دخل مسجد رسول الله ﷺ وحضر من كان معه من الصحابة رضي الله عنهم، وحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم، فليدخل أمير المسلمين المسجد الجامع بحضرة من هناك من أهل العلم، وليحلف أن ليس عنده في بيت مال المسلمين درهم ينفقه عليهم، وحينئذ تجب معونته، والله على ذلك شهيد. والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

فلما بلغ كتابه إلى أمير المسلمين وعظه الله بقوله ولم يُعد عليه في ذلك قولاً...

ابن خلكان : وفيات الأعيان ج 118,7 طبعة بيروت، تحقيق إحسان عباس
مخطوطة الزياني : بغية الناظر والسامع (الخزانة الحسنية).



القلعة الحرة بقرطبة



على نحو (القلعة الحرة) في قرطبة توجد (القلعة الحرة)
في جبل طارق التي نراها هنا تشرف على الميناء من جهة الغرب.

وقد عمل المعتمد على إبقاء القائدين عنده لمدة طويلة عيل فيها صبر يوسف بن تاشفين، ولكنّ المعتمد لم يلبث أن سمح للقائدين بالعودة إلى المغرب صحبة بعثةٍ من الإشبيليين لتنقل إلى يوسف الرسالة الآتية :

«إبْقَ في سبتة لمدة ثلاثين يوماً في انتظار التخلي لكم عن الجزيرة» هذا مع العلم أن المعتمد كان أبلغ يوسف بواسطة سفرائه السابقين أنه بمجرد وصول يوسف إلى سبتة سيتخلى فوراً عن الجزيرة ! وقد طلب يوسف إلى البعثة الإشبيلية أن تحمل للمعتمد بن عباد موافقته على ما اقترحه، بيد أن البعثة طلبت إليه أن تكون الموافقة كتابة ....وفي هذه الأثناء نصح مستشارو يوسف بأن لا يفعل، لريبة توجّسوها في المعتمد حيث يمكن أن يستعمل الوثيقة كتهديد للنصارى لكي يسكّنهم عنه بينما يترك ابن تاشفين معلّقا في سبتة..! وأمام عدم رضى يوسف بكتابة الالتزام اكتفى الإشبيليون بالوعد الشفوي وراحوا للمعتمد لينقلوا له أن يوسف سيظل ينتظر ثلاثين يوما...

لكي الذي حصل أن يوسف بادر في إثر عودة الإشبيليين بإعداد جيش الطليعة المكون من خمسمائة فارس وإرساله حيناً إلى الجزيرة... ثم تتابع الجنود المرابطون ولحق بهم آخرون إلى أن عبر الجيش كله، وفي هذه الأثناء اجتمع أبو سليمان داود بن عائشة قائد الأسطول والجيش بحاكم الجزيرة الأمير الراضي بن المعتمد ابن عباد وكان مما قاله له :

«لقد وعدتمونا بالجزيرة... ونحن لم نات للاستيلاء على مدنٍ ولا لإلحاق ضرر بملك أو أمير، وإنما جئنا من أجل الجهاد فقط، فأما أن تخلو المدينة من الآن إلى منتصف هذا اليوم والا فافعلْ ما تستطيع !».

وقد أذن المعتمد بن عباد لابنه بإخلاء المدينة... وحينئذ عبر القائد للاطلاع على الأحوال ثم عاد في الحين إلى سبتة إلى أن تم العبور النهائي(4).

ويذكر كتاب (الحلل الموشية) وكذا شهاب الدّين الحلبي (ت 725 = 1324) في كتابه : «حسن التوسّل إلى صناعة الترّسل» أن الفونسو خاطب الأمير يوسف

(4 A. Huici Miranda : L'invasion de Los Almoravides : y. La batalla de Zalaca, Hesp. 1953 T. XI 1 er – 2 eme tr. pp. 17 – 76.

بن تاشفين برسالة، ولكن من غير أن يذكر الطريق الذي بعث به هذه الرسالة الاستفزازية، وهل كان الأمر يتعلق بسفارة من الفونسو اتجهت إلى المغرب في نفس الأيام التي كانت فيها المخابرات والمحادثات جارية بين الأندلسيين والمغاربة، تقول الرسالة التي كانت من إنشاء ابن الفخار[5]...

بإسمك اللهم فاطر السموات والأرض والصلاة على السيد المسيح عيسى بن مريم الفصيح أما بعد فإنه لا يخفى على ذي ذهن ثابت وعقل لازب أني أمير الملة النصرانية كما أنك أمير الملة الحنيفية وقد علمتم ما عليه رؤساء جزيرة الأندلس من التخاذل والتواكل وأخلادهم إلى الراحة وأنا أسومهم الخسف وأخلى منهم الديار وأجوس البلاد وأسبى الذراري وأقتل الكهول والشبان لا يستطيعون دفاعا ولا يطيقون امتناعا ولا عذر لك في التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة وأنتم تعتقدون أن الله عز وجل فرض عليكم قتال عشرة منا بواحد منكم فالآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فلتقاتل عشرة منكم الواحد منا، ثم بلغني أنك أخذت في الاحتفال وأشرفت على ربوة الإقبال وتماطل نفسك عاما بعد عام، وأراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ولست أدري أكان لجبن يبطئ بك أو لتكذيبٍ بما أنزل عليك ربك، ثم بلغني أنك لا تجد إلى الجواز سبيلا لعلة لا يسوغ لك التقحم معها فأنا أقول ما فيه الراحة لك وأعتذر لك وعنك على أن تفي لي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهن وترسل إليّ بجملة من عبيدك بالمراكب والشواني وإلا أجوز بجملتي إليك وأبارزك في أعز الأماكن عليك فإن كانت لك فغنيمة وجهت إليك وهدية عظيمة مثلت بين يديك وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك واستوجبت سيادة الملتين والحكم على الدينين والله تعالى يسهل ما فيه الإرادة ويوفق للسعادة لا رب غيره ولا خير إلا خيره.

---

5) الحلل الموشية : 29 ـ 30.

Muhammad BENABOUD Y angus Magus Mackay : The authenticity of Alfonso VI'S Letter To YUSUF B. TASUFIN. AL – ANDALUS 1978 Vol. I, P. 233.

شهاب الدّين الحلبي : كتاب حسن التوسّل ـ القاهرة 1298 = 1880 ص 4.

وهنا يذكر صاحب الحلل الموشية أن أمير المسلمين أمر أن يكتب إلى الفونس على ظهر خطاب «الجوابُ يا أذفنش ما تراه لا ما تسمعه إن شاء الله» وأردف في الكتاب قول أبي الطيب المتنبي :

ولا كُتْبَ إلا المشرفيةُ عنده ولا رُسُلٌ إلا الخميسُ العرمرم[6]

☆ ☆ ☆

لقد حشد العاهل المغربي السفن لعبور قواته، وكان أول من عبر منها - على ما أشرنا - قوة من الفرسان برئاسة القائد أبي سليمان داود بن عائشة، عبرت إلى ثغر الجزيرة الخضراء واحتلته وفقا للاتفاق المبرم... وتم عبور الجيوش المرابطية جميعاً، وفي ضحى يوم الخميس منتصف ربيع الأول سنة 479 هـ (30 يونيه 1086) عبر العاهل المغربي البوغاز في بقية قواته، ويظهر أن أمير المسلمين الذي يركب البحر لأول مرة في حياته شعر باضطراب البحر وتعالي الأمواج فتوجه نحو السماء يقول : «اللهم إن كنت تعلم أن جوازنا هذا خير للمسلمين فسهلْ علينا جواز البحر[7]...».

وإذا ما رجعنا إلى ما قاله دوزي في هذه الأثناء فسنقف، على إفادة تاريخية وحضاريةٍ رائعةٍ، ويتعلق الأمر بظهور الحمام الزاجل كوسيلة من وسائل البريد في الغرب الإسلامي.

وهكذا فقد قرأنا أن الأمير الراضي بن المعتمد بن عباد وواليه على الجزيرة الخضراء كتب إلى والده - وقد نابتْه الشكوك من أمر المرابطين - رسالةً ربطها

---

6) البيت في قصيدته التي يقول في مطلعها :

إذا كان مدح فالنسيب المقدم أكلّ فصيح قال شعراً : متيّم ؟!

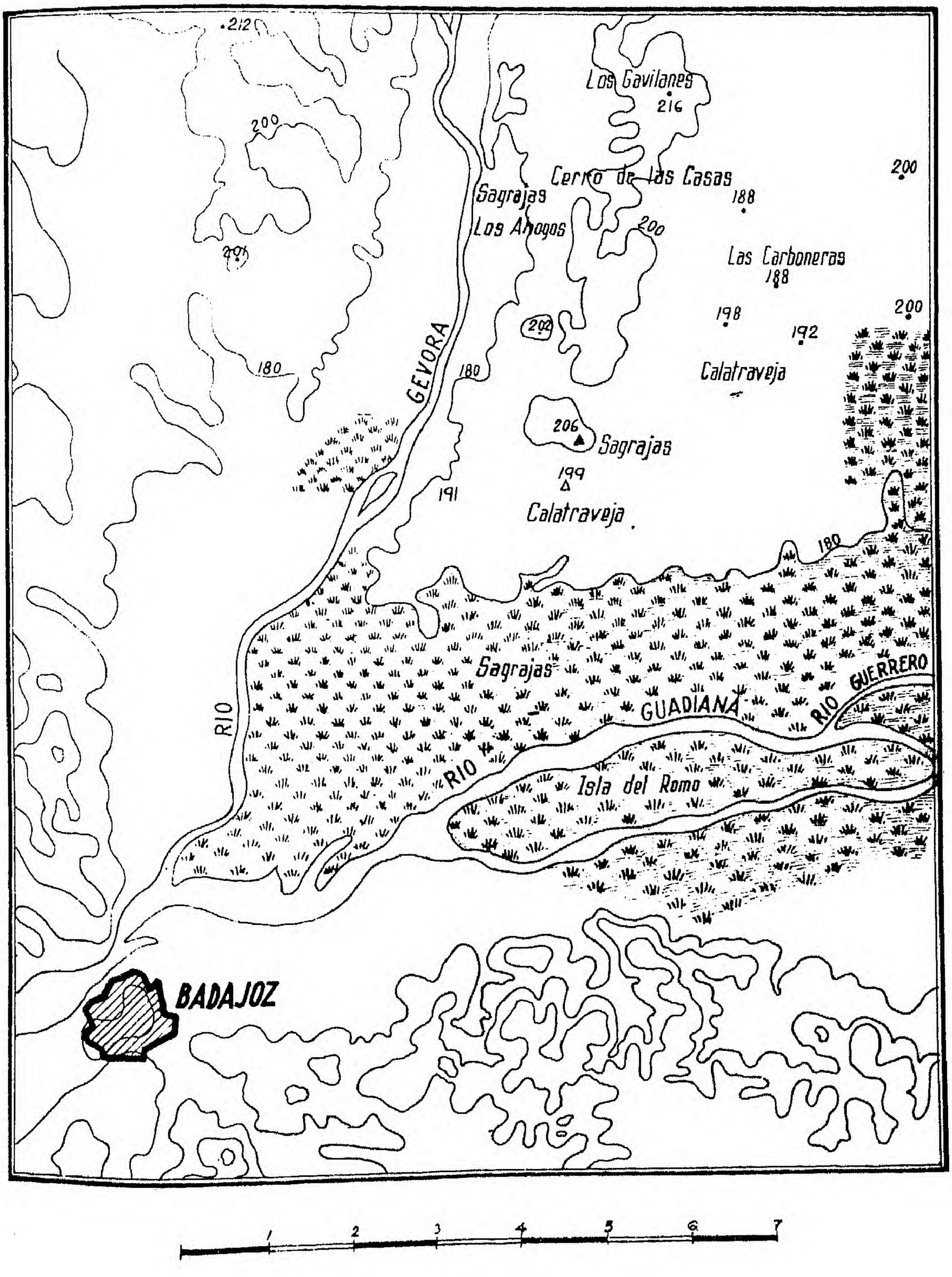
الحلل الموشية ص 28 - 29 - 30.

7) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس تحرير وتعليق محمد الهاشمي الفيلالي، الرباط 1355 = 1936 ج 2 ص 52.

في جناح حمامة وأطلقها صوب إشبيلية متربصاً تلقي الأوامر التي لم تلبث أن وصلت إليه بتسهيل مهمة الواردين الجدد[8]...

ولما اقترب يوسف من إشبيلية خرج المعتمد إلى لقائه في وجوه أصحابه وفرسانه، وتعانَقَ الملكان وأبدى كل منهما لأخيه المودة والإخلاص. وقدم ابن عباد إلى أمير المسلمين بجليل الهدايا والتحف، واجتمعا منفردين رأساً لرأس، وفي اليوم التالي دخل أمير المسلمين إلى إشبيلية تلاحقه قواته، وقد كان كتب في أثناء ذلك إلى سائر ملوك الطوائف يدعوهم إلى اللحاق به... وانتهت الجيوش الإسلامية المتحدة إلى سَهْل يقع شمالي بطليوس الذي تسميه الرواية العربية بالزلاّقة، بينما يعرف عند الإسبانيين بـ : ساكْراخاس (SACRAJAS).

8) كانت هذه أول إشارة - على ما يبدو - في المصادر المغربية لاستعمال الحمام الزاجل في البريد... وسنرى أنها وسيلة ستتجدد مباشرة بعد الانتصار الذي أحرز عليه المسلمون في وقعة الزلاقة... ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، للعلامة دوزي مترجمة بقلم كامل كيلاني، الطبعة الأولى، القاهرة 1933 ـ 1351 ص 291/290.



حيث وقعت معركة الزلاقة (هيسبريس 1953)

معركة الزلاقة

1086 = 479

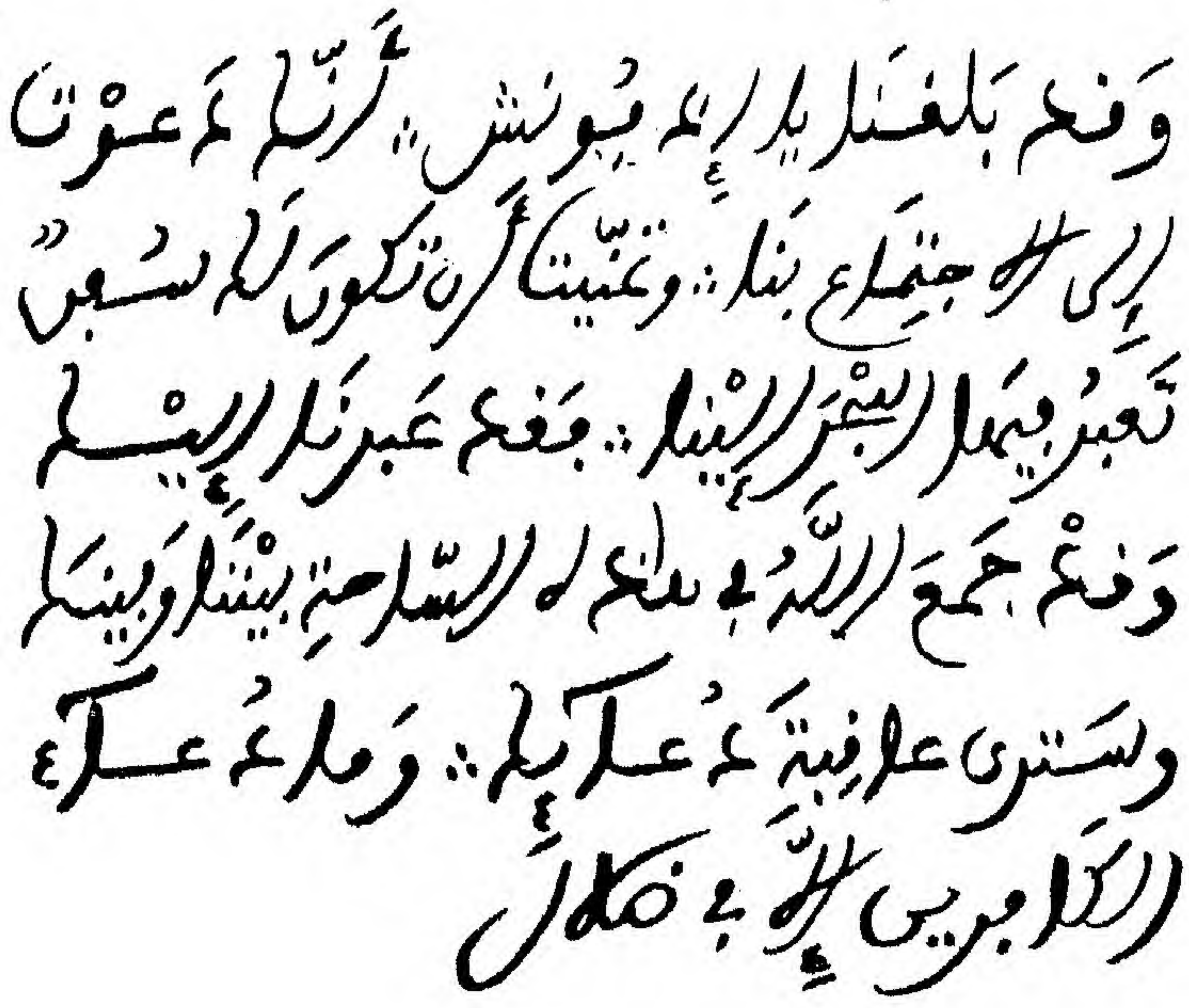
- □ تردد الرسل بين الطرفين والخطابات المنذرة.
- □ اصطدام الجيشين يوم الجمعة 12 رجب من السنة.
- □ الحمام الزاجل يبث البشريات.
- □ وقعة الزلاقة في مذكرات شاهد عيان.
- □ ارتفاع قيمة الدينار المرابطي.
- □ ردّ الفعل المسيحي والجواز الثاني ليوسف.
- □ محاصرة حصن لييط Aledo...
- □ تنابذ ملوك الطوائف...
- □ دور المرابطين في تطويق الحروب الصليبية.

معركة الزلاقة

1086 = 479

ولبث الجيشان المتخاصمان كلٌّ منهما تجاه الآخر : ثمانون ألف مقاتل في الجانب المسيحي وثمانية وأربعون ألفا في الجانب الإسلامي. وطوال أيام ثلاثة، ظل السفراء يترددون بين الطرفين يتبادلون رسائل التهديد والمراشقات... وقد كتب يوسف قبيل المعركة إلى ملك قشتالة، عملاً بأحكام السنة، كتاباً يعرض عليه فيه الدخول في الإسلام أو الجزية أو الحرب، ومما جاء فيه :

«... وقد بلغنا يا إذ فونش، أنك دعوت إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفنٌ تعبر فيها البحر، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك وسترى عاقبة دعائك، وما دعاءُ الكافرين إلا في ضلال».


وقد بلغنا يا إذفونش، أنك دعوت
إلى الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك سفن
تعبر فيها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك
وقد جمع الله في هذه الساحة بيننا وبينك
وسترى عاقبة دعائك، وما دعاء
الكافرين إلا في ضلال

خطاب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى الفونسو السادس ملك قشتالة بتاريخ 15 ربيع الأول 479 = 20 يونيه 1086... كان من بين المراسلات هذه الفقرات التي احتفظ لنا بها كتاب (الحلل الموشية) (نسخة خاصة).

فاستشاط الفونسو لذلك الخطاب غضباً، قائلاً : «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرّم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة ؟! وأقسم أن لا يبرح من مكانه الذي نزل فيه قائلاً : «لِيَزْحفْ إليّ فأني أكره أن ألقاه قرب مدينةٍ تعصمه وتمنعني منه فلا أشفي نفسي بقتله ولا أبلغ أملي فيه، بيني وبينه هذا البسيط المتسع...» وردّ مع السفير بكتاب إلى أمير المسلمين يفيض بالوعيد على نحو ما كان بعث به إليه قبل الجواز، فاكتفى يوسف بأن ردّ إليه كتابه بواسطة السفير ممهوراً بتلك العبارة الماثورة : «الذي يكون ستراه»[1] !

والتقى الجيشان يوم الجمعة 12 رجب 479 (23 اكتوبر 1986) وكانت المعركة العظمى التي ذكرت المسلمين باليرموك والقادسية، وتم النصر الكبير فيها للمؤمنين الذين استعادوا روح الثقة بأنفسهم والذين تمكنوا - بفضل هذا النصر - أن يضمنوا الوجود لأنفسهم بالأندلس بضعة قرون أخرى...

وفي هذه الوقعة (يوم الجمعة) يقول الشاعر الأندلسي عبد الجليل في رائية :

أتنكر العجم أن العرب سادتها   وتشهد البيض والخطية السمر !

ويروي ابن بسّام في الذخيرة أن مما قيل في هذا اليوم شعراً لعبد الجليل يمدح أمير المسلمين وناصر الدين هذا أوله :

فثار إلى الطعان حليف صدق   تثور به الحفيظة والذِّمام
نُمي في حمير ونَمتْك لخم   وتلك وشائجٌ فيها التحام

1) يذكرنا جواب يوسف بن تاشفين لألفونسو في جواب الخليفة هرون الرشيد إلى نقفور (تيكيفر ملك الروم لما استفزه هذا الأخير : «من هرون الرشيد إلى نقفور كلب الروم، أما بعد، فقد فهمتابك يابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه والسلام. ابن الفراء : رسل الملوك ص 42 - صبح اى 6، 457.

2) ابن بسام : الذخيرة، القسم الثاني المجلد الأول ص 247.

وممّا قيل في يوم الجمعة أشعار سارت بالمغارب والمشارق، قال ابن بسّام :

أخبرني أبو بكر الخولاني المنجم قال : كتب إليّ أبو عبد الله بن عبادة من ألمرية بقصيدته في صفة يوم الجمعة، فارتفعت إلى المعتمد، على يدي، وهي التي يقول فيها :

وقالوا كفّه جُرِحت فقلنا أعاديه تواقعها الجراح
وما أثر الجراحة ما رأيتم فترهبها المناصلُ والرماحُ

لقد استطاع أَحد المجاهدين من قلب ديار السودان أن ينفذ إلى قلب المعمعة وأن يطعن بمنجله الفونسو ملك قشتالة في فخذه[3] فيبث بذلك الاضطراب والرعب في البقية الباقيَة[4] من الجيش القشتالي، أكثرهم من المثخَنين بالجراح القاتلة من الذين لم يستطيعوا أن يصلوا أحياءً مع ألفونسو إلى طليطلة على نحو ما ورد في خطاب الفتح الرسمي الذي بعث به أمير المسلمين إلى المغرب حيث يقول : «وتسلّل ألفُنش تحت الظلام فارّاً لا يهدأُ ولا ينام ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعُمائة، فلم يدخل طليطلة إلا في مائة فارس».

وقد نوّه أمير المسلمين بثبات المعتمد وبطولته بمحضر القوم بل ضمنه الخطاب الذي بعث به إلى الأشياخ بالمغرب، على نحو ما نقرأه في هذه الفصول

---

3) اتفقت المصادر العربية على جرح الفونسو، وهو ما أكده الكشف الطبّي الذي أجري على رفات العاهل القشتالي على ما نقله الأستاذ ويسى ميراندا بالرغم من محاولته التشكيك في الروايات العربية عن المعركة التي لا يوجد لها ذكر في المصادر الإسبانية غير ما تعتمد عليه في الإفادات العربية.

4) سنرى عند الجواز الثالث ليوسف أنه ربما يعترف بخطاه في حضوره شخصياً معركة الزلاقة وأنها كانت منه مغامرة «فإن الهزائم مخلوقة» ! على حد تعبير أمير المسلمين، ولا شك أن يوسف بن تاشفين قد تعلم هذا المبدأ الحربي من معلمه الأول الفقيه عبد الله بن ياسين مؤسس دولة المرابطين الذي يؤثر عنه أنه كان دائما ينصح بهذا المبدأ لدرجة أنه غضب يوما على الأمير يحيى بن عمر اللمتوني وضربه بالسوط لأنه عرض حياته للخطر أثناء القتال، وقال له : إن الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة جنده وهلاكه هو هلاكهم». ـ عبد الله عنان : دول الطوائف ص 429/317 ـ تاريخ الأندلس، عصر المرابطين والموحدين ص 15 ـ تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ص 107713...

الواردة في «الأنيس المطرب»[5] والتي تحمل تاريخ 12 رجب 479 = 23 اكتوبر 1086 :

«أما بعد حمدا لله تعالى المتكفّل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل رسله وأكرم خلقه وأسراه، فإن العدو الطاغية لعنه الله لما قربنا من حماه وتواقفنا بإزائه، لقَّناه الدعوة وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة في يوم الإثنين الرابع عشر لرجب، وقال : الجمعة عيد المسلمين والسبت عيد اليهود وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فتفرقنا على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه، وعلمنا أنهم أهل خدع ونقض عهود، فأخذنا أهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأنباء في سحر يوم الجمعة (الحادي ؟) الثاني عشر من رجب المذكور بأن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فانتدبت إليه أبطال المسلمين وفرسان المجاهدين، فتعشته قبل أن يتعشاها وتغدته قبل أن يتغداها، وانقضت جيوش المسلمين في جيوشهم انقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برايتنا السعيدة المنصورة، في سائر المشاهد المشهورة، في جيوش لمتونة نحو الفنش، فلما أبصر النصارى رأيتنا المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وغشيتهم فروق الصفاح، وأظلتهم سحائب الرماح، وزلزلت حوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، التحم النصارى بطاغيتهم الفنش، وحملوا على المسلمين حملة منكرة، فتلقاه المرابطون بنية صادقة خالصة، وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب، ووكفت ديم السيوف والرماح بالطعن والضرب، وطاحت المهج، وأقبل سيل الدماء في هوج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج، وولى الفنش مطعونا في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في خمسمائة فارس من مائة وثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل، قادهم الله إلى المصارع والحتف العاجل، وتخلص لعنه الله إلى جبل هنالك، ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب، وهو من أعلى الجبل ينظرها شزرا، لم يجد عنها صبرا،

5) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب 2 ـ 62 ـ 63 ـ 64 ـ 65.

ولا يستطيع عنها دفاعا ولا لها نصرا، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلام الليل، وأمير المسلمين بحمد الله قد ثبت في وسط مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة، منصور الجهاد مرفوع الأعداد، يشكر الله تعالى على ما منحه من نيل السؤال والمراد، وقد سرّح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها وتستلم ذخائرها وأسبابها وتريه رأي العين دمارها ونهابها، والفنش ينظر إليها نظر المغشى عليه، ويعض غيظا واسفا على أنامل كفيه، وحين تمت الهزيمة وتتابع الفرار، عاد رؤساء الأندلس المنهزمون نحو بطليوس والغار، وتراجعوا حذرا من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقواعد، أبو القاسم المعتمد بن عباد، فأتى إلى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح، مريض عناء وجراح، فهنأه بالفتح الجميل، والصنع الجليل، وتسلل الفنش تحت الظلام، فارا لا يهدأ ولا ينام، ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة، فلم يدخل طليطلة إلا في مائة فارس، والحمد لله على ذلك كثيرا، وكانت هذه النعمة العظيمة، والمنة الجسيمة، يوم الجمعة الثاني عشر لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة موافق الثالث والعشرين لشهر اكتوبر العجمي».

☆ ☆ ☆

وقد تهافت الأمراء والزعماء على الورق لكتابة الرسائل المبشرة، كلٌّ إلى جهته[6]... وكان من الرسائل السريعة التي طيّرت، رسالة علقت إلى جناح حمام زاجل[7] كان المعتمد حمله معه خصيصا لهذا البريد العاجل، يقول صاحب الحلل الموشية : «لما فرغ الناس من هذا الفتح تناول ابن عباد ضَبَارة كاغيد على عرض الإصبع وكتب فيها سطرين إلى ابنه الرشيد :

---

6) من المضحك حقا أن يتحدث بعض المؤرخين الأجانب عن هذه المعركة على أنها كانت هزيمة للمسلمين !! ـ مارمول كربخال، إفريقيا 1، ترجمة عدد من الأساتذة، مكتبة المعارف الرباط 1404 = 1984 ص 305 ـ 306.

7) ثاني إشارة في المصادر المغربية لاستعمال الحمام الزاجل في البريد وقد اعتنى خلفاء بني العباس بالحمام وخاصة المهدي ثالث خلفائهم وتنافس فيه رؤساء الناس في العراق لا سيما بالبصرة، لكن السلطان الشهيد نور الدين بن زكي صاحب الشام كان أول من اعتنى به سنة 565 = 1170 وذلك لتسهيل الاتصال بمختلف المواقع والحصون أيام الحروب الصليبية... وقد حافظ عليه الفاطميون بمصر حتى أفرادوا له ديوانا وجرائد بأنساب الحمام، صبح الأعشى : ص 389 ـ 390.

إلى ابني الرشيد وفّقه الله ـ إعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية أذفنش اللعين ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب العالمين فأعلِمْ بذلك مَن قِبَلك من إخواننا المسلمين والسلام.

وكان ذلك عند الزوال من يوم الجمعة... فكان الناس بإشبيلية أقنط ما يكونون في ذلك اليوم، فوَصَل الحَمَام في يومه، وقرأت الرسالة على الناس بمسجد إشبيلية فعم السرور وكثر الدعاء[8]...

لم تكن «برقية» المعتمد بن عباد وحْدها التي راحت مع الحمام، فقد أورد ابن بسَّام لدى ترجمة ذي الوزارتين الكاتب أبي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة[9]، أورد له، من جملة إنشاءاته السلطانية، رقعةً قال إنها وردت على الجناح، تخبر بهزيمة الطاغية أذفونش قصمه الله يوم الجمعة المشهور (12 رجب 479) الذي أباد الله فيه عَبَدة الطواغيت على يدي أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين رحمه الله قال فيها :

كتبت صبيحة يوم السبت الثالث عشر من رجب، وقد أعزّ الله الدين، وأظهر المسلمين، وفتح لهم بفضله على يدي مسعانا الفتح المبين، بما يسّر الله في أمسه وسنّاه، وقدّره سبحانه وقضاه، من هزيمة أذفونش بن فرذلند، أصلاه الله ـ إن كان طالَحَ ؟ ـ الجحيم، ولا أعدمه ـ إن كان أمهل ـ العيش الذميم، كما قنّعه الخزي العظيم، واتيان القتل على أكابر رجاله وحماته، وأخذ النهب في سائر اليوم والليلة المتصلة به إلى جميع محلاّته، وحضور العدد الوافر بين يديّ من رؤوسهم، ولم يحتزّ منها إلاّ ما قرُب، وامتلاَء الأيدي مما قبض ونهب، واتخذ الناس هاماتهم صوامع يؤذنون عليها، ويشكرون الله تعالى على ما صنع فيها، والتتبع ؟ بعد في آثارهم، وتمادي الطلب من وراء فرارهم، والذي لا مرية

8) أشار ابن خلكان كذلك إلى قصة الحمامة التي حملت البشرى في نفس اليوم ـ المقري : نفح الطيب 4، ص 369.
أعمال الاعلام، القسم الثالث، ص 245.
الحلل الموشية، ص 50 ـ أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة محمد عبد الله عنان ـ القاهرة 1377 ـ 1958 صفحة 88.

9) ابن بسام : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني المجلد الأول، تحقيق د. إحسان عباس 1398 = 1978، 241.

فيه أن الناجي منهم قليل، والمفلت من سيوف الهند بسيوف الجوع والبعد مقتول ولم يصبْنِي بحمد الله إلا جرح أشوى، وعنت رغب حسن المآل عندي وزكّى، فلا يشتغل لك بذلك بال، ولا تتوهم فيه غير ما أشرت إليه، والحمد لله على ما صنع حق حمده، وهو أهل المزيد الذي لا يرجى إلا من عنده.

ثم ورد بعد كتابٌ من إنشائه يشرح جمل هذا الفتح وتفصيله، قال في بعض فصوله :

وقد علم ماكنّا عليه قبل مع عدوّ الله أذفونش بن فردلند، قصمه الله، من تطأطؤنا واستعلائه، وتقامئنا وانتخائه، وأنا لم نجد لدائه دواءً، ولا لبلائه انقضاءً، ولا لمدة الامتحان به فناءً، إلى أن سنى الله تعالى من استصراخ أمير المسلمين وناصر الدين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، معقلى الأحمى - أيده الله - ما سنّى، وأدنى من نأي دياره وشحط مزاره ما أدنى، فلم أزل أصل بيني وبينه الأسباب، وأستفتح إلى ما كنت أتخيّل من نصره الأبواب، إلى أن ارتفعت الموانع قبله، وانتهجت السبل القصية له، ثم أجاز - على بركة الله وعونه - يريش ويبري، وصار بعد قدما يخلق ويفري، ويتتبع وجوه الحزامة كيفما اتجهت ويستقري، وأنا أنجده بوسعي، وأسعده على حسب ما يطيقه ذرعي، إلى أن صرنا معشر الحلفاء ببطليوس - حرسها الله - واتفق رأينا بعد تشاور على قصد قورية - حرسها الله - وسمع العدوّ - لعنه الله - بذلك فصمد من محتشده إليها في جيوش تملاء الفضاء، وتسدّ الهواء، وتمنع أن تقع على ما تحت راياته ذكاء، قد تحصنوا بالحديد من قرونهم إلى أقدامهم، واتخذوا من السلاح ما يزيد في جرأتهم وأقدامهم، ولما أشرف على جنابها، ولسنا بها، ودنا من أعلامها، ولم يتّجه لنا بعد ما أردنا من إلمامها، دعاه تعاظمه إلى مواجهة سبيلنا، وحمله نفجه وتهوّره على السلوك في مدرج سيولنا.

وفي فصلٍ منها : فدنونا إليه بمحلاتنا - نصرها الله - ثم اضطربناها بإزائه، وأطللنا عليه برایاتنا حتى كدنا نركزها بفنائه، ورأى - لعنه الله - ما اعتمدناه من إصغاره وإخزائه، فأجمع مضطراً على اللقاء، وقدّم بعض أخبيته دهشاً في

الرقعة التي كانت بيننا على صغرها من بساط الفضاء، وقد تيقّن أنه إن أخذ المسلمون مصافّهم، ورتبوا في مواقعهم كوافّهم، اصطلم عن آخره جمعه، واجتثّ أصله وفرعه، فاهتبل فيما قدّر غرّة، وحمل ولم يكن - بحمد الله - ما استشعره مرّة، فتنادى المسلمون بشعارهم المنصور، وأقبلوا عليه وعلى من معه في حال مؤذنة بالظهور والوفور، فتواقف قليلاً الجمعان، وتجاول مليّا الفريقان، وللسيوف حكمها، ومن الحتوف حدّها المفهوم ورسمها، ثم صدق أمير المسلمين وناصر الدين - أيده الله - الحملة، وصدم في جمع لم يكثر عدد الجملة، فلم يلبث أعداء الله أن ولّوا الأدبار، واستصرخوا الفرار، واتبعهم خيل المسلمين - نصرهم الله - بقية اليوم والليلة، تقتلهم في كلّ غور ونجد، وتقتضي أرواحهم على حالين من كالئٍ ونقد، ولم يخلص منهم على أيدي المتّبعين - آجرهم الله - إلاّ من سيلتهمه البعد، ويأتي على حشاشته الجهد، وأما محلّتهم فانتهبت في أول وهلة، وشربت بأسرها في نهلة.

وفي فصل منها :

ولم يصب بحمد الله من المسلمين - وفرهم الله - على هول المقام، وشدّة الاقتحام، كثير، ولا مات من أعلامهم تحت تلك الجولة إلا عدد يسير، فإن كان أذفونش - لعنه الله - لم يمت تحت السيوف بددا، فسيموت لا محالة أسفا وكمدا، ونحمد الله على ما يسّره من هذا الفتح الجليل وسنّاه، ومنحه من هذا الصنع الجميل وأولاه.

وكان أذفونش قد اضطره الخور يومئذ للفرار، فتسنّم قنن الجبال الشاهقة والأوعار، إلى أن جنّه ثوب الظلام، فنجا منجى الحارث بن هشام، برأس طمرة ولجام، ودخل طليطلة - أعادها الله - مع شرذمةٍ من أتباعه قليلة، وبقيّة من طائفةٍ له مخذولة مغلولة، فوصف ذلك كلّه الشاعر عبد الجليل على ما سلف...

ولأبي عُبَيد البكري من كتابٍ يهنئ فيه المعتمد بالفتح الذي كان سنة تسع وسبعين وأربعمائة : أطال الله بقاء سيدي ومولاي الجليل القدر، الجميل الذكر، ذي الأيادي الغر، والنعم الزهر، وهنأ ما منحه من فتح ونصر، واعتلاء وقهر، بطابع السعد يا مولاي أُبت، وبسانح اليمن عدت، وبكنف الحرز عذت، وفي سبيل

الظفر سرت، وبقدم البر سعيت، وبجنة العصمة أتيت، وبسهم السداد رميت فأصميت، صدر عن أكرم المقاصد، وأشرف المشاهد وعود بأجل ما ناله عائد، وآب به وارد، فتوح أضحكت مبسم الدهر، وسفرت عن صفحة البشر، وردت ماضي العمر، وأكبت واري الكفر، وهزت أعطاف الأيام طربا، وسقت أقداح السرور نخبا، وثنت آمال الشرك كذبا، وطوت أحشاء الطاغية رهبا، فذكرها زاد الراكب، وراحة اللاغب، ومتعة الحاضر ونقلة المسافر :

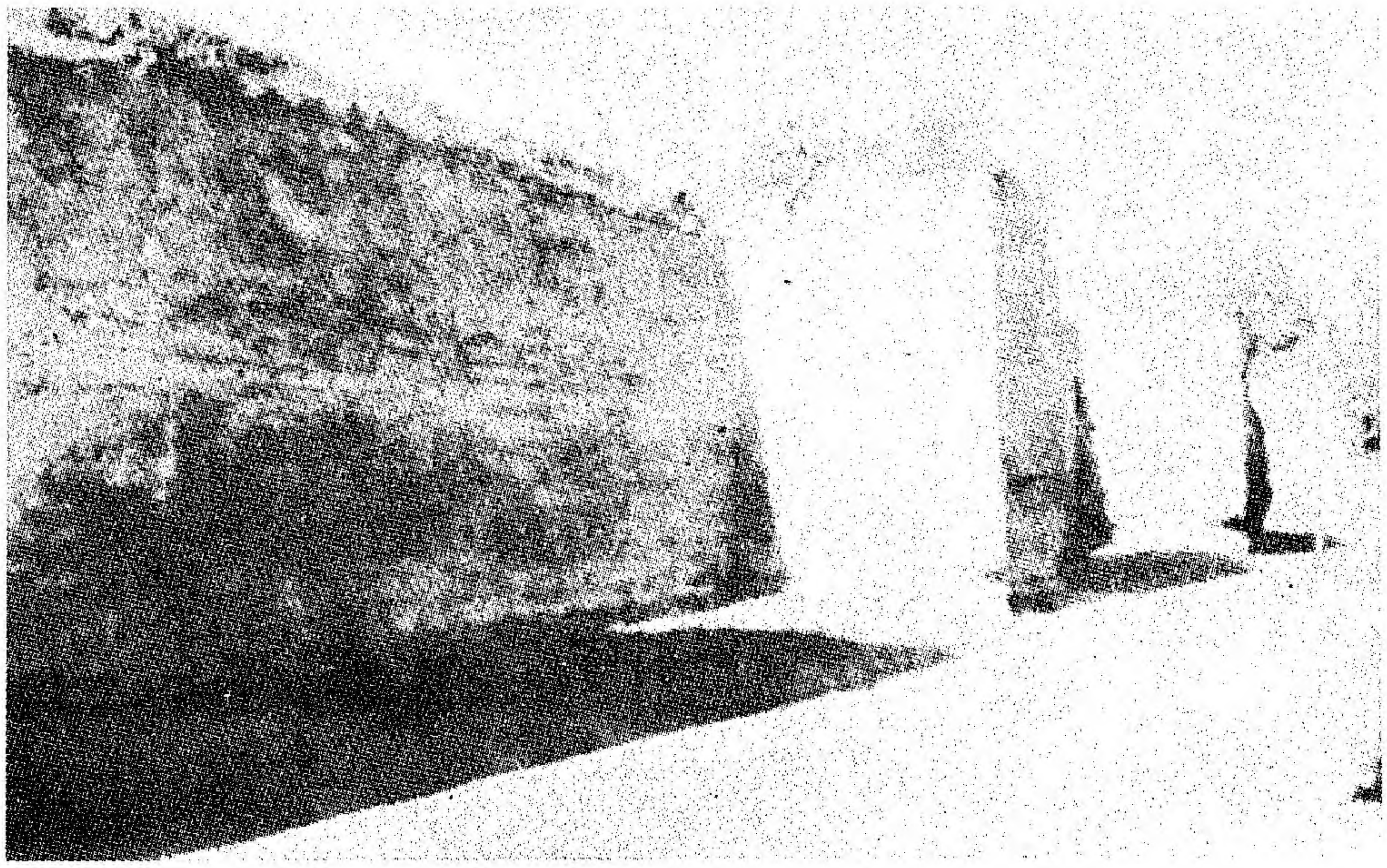
بها تُنفض الأحلاس في كل منزل وتعقد أطراف الحبال وتطلق

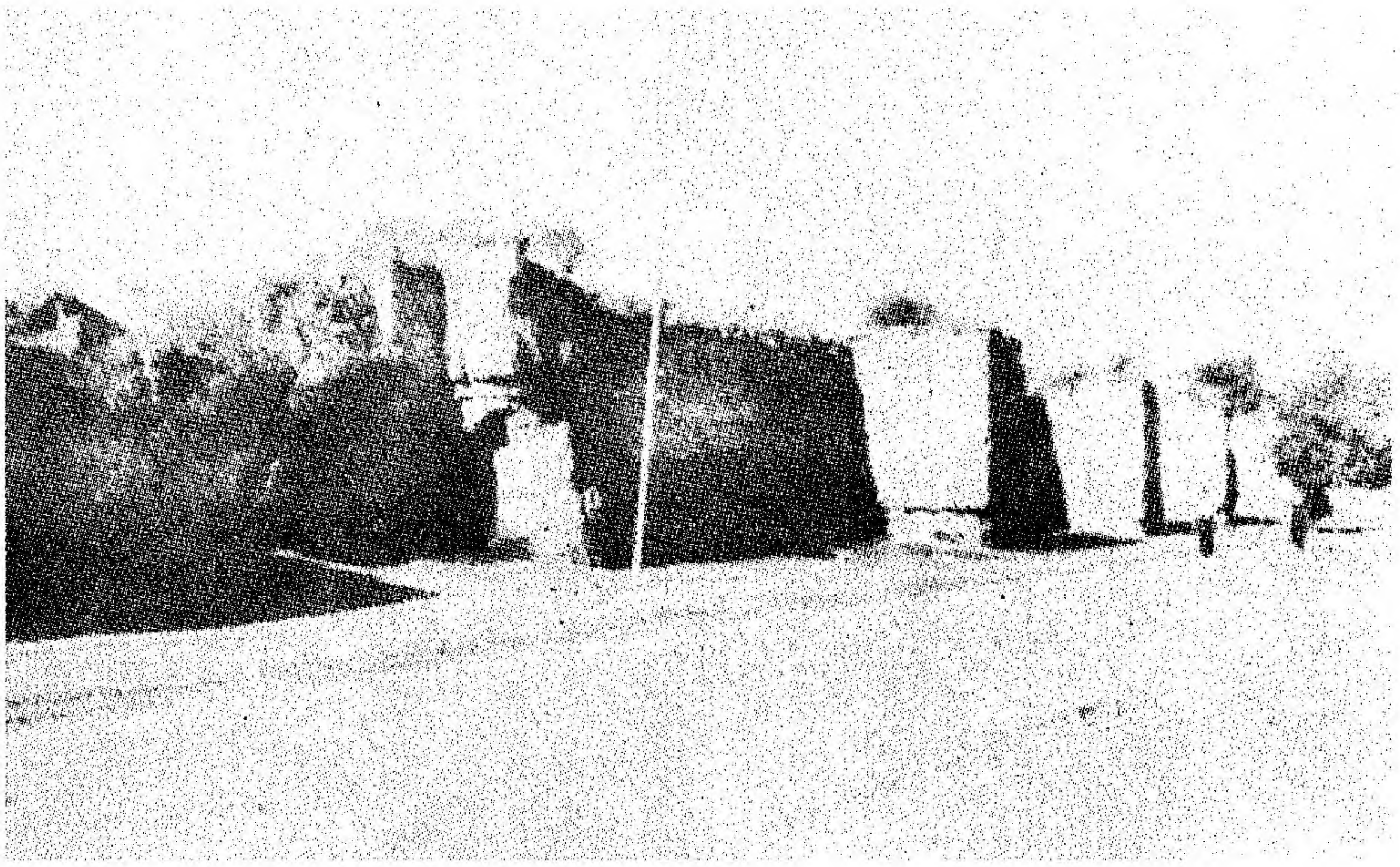
شملت النعمة، وجبرت الأمة، وجلت الغمة، وشفت الملة، وبردت الغلة، وكشفت العلة.

كان داء الاشراك سيفك واشتد ت شكاة الهدى وكان طبيبا

فغدا الدين جديدا، والإسلام سعيدا، والزمان حميدا، وعمود الدين قائما، وكتاب الله حاكما، ودعوة الإيمان منصورة، وعين الملك قريرة فهنأ الله مولانا وهنأنا هذه المنح البهية مطالعها، الشهية مواقعها المشهورة آثارها، المأثورة أخبارها، ونصر الله أعلامه ففي البر تحل وتعقد، وعضد حسامه، فبالقسط يسل ويغمد، وأيد مذاهبه فبالتحزم تسدى وتلحم، وأمد كتائبه ففي الله تسرج وتلجم، فكم فادح خطب كفاه، وظلام كرب جلاه، وميت حقّ أحياه، وحي باطل أرداه، وكم جاحم ضلالة أطفأ ناره، وناجم فتنه قلم أظفاره، ومغلول أسنة أرهف شفاره، ومستباح حرمة حمى ذماره.

فلله هذه المساعي الكريمة، والمنازع القويمة، المتبلجة عن ميمون النقيبة ومحمود العزيمة، فقد تمثل بها العهد الأول والقرن الأفضل الذي أخرج للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، والذي سطع هذا السراج، وانتهج هذا المنهاج، فلا زالت الفتوح تتوالى عليه، وصنائع الله تتصل لديه، إدالة من مشاقيه، وإذالة لمحاربيه، وإبادة لمناوئيه، وإن أجل هذه النعم في الصدور، وأحقها بالشكر الموفور، ما منّ الله به سلامة مولاي التي هي جامعة لعز الدين، وصلاح كافة المسلمين، بعد أن صلى من الحرب نيرانها، فكان أثبت أركانها، وأصبر أقرانها :





من آثار المرابطين في قرطبة عن كتاب بالباس (Balbas)

وقفت وما في الموت شك لمواقف كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرٌّ بك الأبطال كلمى هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم

فلله الحمد والابداع والالهام، وله المنة وعلينا متابعة الشكر والدوام، وفازت الكف الكليم، بأعلى قداح المكلوم لدى المقام الكريم، وأنها لهي التالية للأصبع الدامية، في المنزلة العالية :

بصُرتَ بالراحة العُليا فلم ترها تُنال إلا على جسر من التعب(10)

لقد كان يوم الزلاَّقة في الواقع صفحة من تاريخ الحروب الصليبية التي كانت إسپانيا أول مهاد لها، والتي اضطرمت مع هذا الوقت في المشرق، لقد استشفَّت إسپانيا من خلال الزلاّقة ذلك الخطر الداهم الذي ينذر النصرانية قاطبة...! ولهذا نرى ألفونس يبعث بسفاراته وكتُبِه إلى الملوك والأمراء النصارى فيما وراء جبال (البيرني) يحذّرهم بل وينذرهم بأنهم إذا لم يتداركوه بالعون فإنه سوف يضطر للصلح مع المسلمين ويترك لهم الحرية في عبور الجبال !!

ولم تنته سنة 481 = 1088 حتى بدأت حركاتٌ أخرى لضرب المسلمين ومن ثمَّ عادت كُتُب أهل الأندلس وسفاراتهم تَتْرى على المغرب لتستجير بالعاهل من عدوان النصارى، وكان الصريخ هذه المرة آتياً بالأخصّ من أهل بلنسية ومرسية ولورقة وبسطة(11) وكان المعتمد بن عباد - وهو صاحب السيادة الشرعية - أشدّ اهتماماً بإنقاذ تلك المنطقة، وكان ألفونسو قد عزز - عقب هزيمة الزلاَّقة - حامية حصن لييط(ALEDO)وضاعفها ليوجّه منه الضربات الموجعة للمدن التي تقع بيد المسلمين... وهكذا عبر المعتمد البحر بنفسه مع بعض خاصته فلقى أمير المسلمين بالدخلة على وادي سبو بالمعمورة وأفضى إليه بملتمسه وأعطاه فكرة مفصلة عما يعانيه المسلمون من عسف وعيث، فوعده أمير المسلمين بالاستجابة، سيما وقد كان تلقّى قبل ذلك عدداً من المكاتيب من

10) الذخيرة. ق 2 ج 1 ص 237 - نهاية الأدب 5 ر 148.
11) الحلل الموشية ص 54 - 55.

وقعة الزلاقة في مذكرات شاهد عيان...
الأمير ابن بُلُكين ملك غرناطة

وتلوّمنا **ببطليوس** أياماً حتى صح عندنا إقبال الفونش في حفله يروم الملاقاة، ويظن أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبل، وساقه القدر إلى أن توغّل في بلاد المسلمين... ونحن بإزاء المدينة متربصون : إنْ كانت لنا فَبِها ونعمت. وإن لم تكن، كانت وراءنا حِرزا ومعقلا نأوي إليها. وأمير المسلمين يدير هذا الأمر بحسن رأيه... ثم أرسل على يد ابن الأفطس إلى أمير المسلمين يقول به : «ها أنذا قد أقبلت أريد ملاقاتك، وأنت تتربص وتختبئ لأصل المدينة ... وتواعدا على اللقاء في يوم سمَّياه... ففاجأهم عسكر الرومى وهم على غير إعداد، وكان مختلسا : إنما له ما ألفى في تلك الساعة... ومات منهم خلائق ممن لم يكن يقدر على نفسه، فلم تقع الصيحة على الجيش (إلاّ) وركبوا في طلبهم، وهم قد **كلّوا وثقلهم** السلاح مع بعد المسافة فاقتفى المسلمون آثارهم وركبوهم بالسيف ومات من جيشهم خلائق، وتبدَّدوا في الطريق، فمن بين قتيل وميت مثقّل ضريع، ولو أن تلك الوقيعة تكون على إعداد من وقوف الفئتين ومناطحتهما في اللقاء لَفُقِد من العسكرين الأكثر كالذي توجبه الرتبة، لكن الله لطيف بعباده، ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل، وانصرف أمير المسلمين، إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر...

التبيان ص 104

☆ ☆ ☆

حول الزلاقة
للشاعر الملزوزي

فَكَتَب الفونشُو إلى ابن تاشفين	مستهزئاً : أن انصر المستضعفين !
فما بأرض المسلمين غيركا	لم لا يكون للجهاد سيركا ؟
عليك نصر الدّين فرض واجبٌ	إذ عندك الجنود والكتائبُ
وأنت تدعى بأمير المسلمين	وقامعُ الكفَّار ثم المعتدين
وكان من جملة ما قد كَتَبا	واظهر الهزء به واللَّعِبا :
وجه لنا مراوحاً للذبان	فقد أقمنا في الحصار أزمان[1]
وابعث لنا إن لم تصل مراكبا	تلق بها في أرضك الكتائبا
فهيج الفونشو اللعينُ وجده	فجدّ في قصد اللقاء جهده...

1) طلب المراوح من لدن ألفونس ليوسف بن تاشفين لقطة يثير الملزوزي الانتباه لها، وقد ذكر الحميري أن المطلوب منه ذلك هو المعتمد ابن عباد.

الدينار المُرَابطي بعد معركة الزلاّقة...

ففيما يتعلّق بحديث العُمْلة «...أرجوا أن أُذكِّر هنا بالعملة التي عُرِفت في سائر الحوليّات القشتالية القديمة باسم «المرابطي» (EL Maravedi)، نسبة إلى دولة المرابطين التي حكمت المغرب في القرن السادس الهجري، فيما بين عام 462 هـ = 1070 وعام 541 هـ = 1147، كلّ الموسوعات تتحدث عن هذا «المرابطي»، على أنه العملة القوية التي تحكَّمت في أسواق العالم لِفترةٍ طويلةٍ من الزمن، فكانت بمثابة «العملة الموحدة» في سائر الجهات المشهورة آنئذ...

وهكذا نرى هذا الدينار المرابطي يقوم بدور هامّ في الحياة الاقتصادية لِسَائِر بلدان حوض البحر المتوسط في العصر الوسيط.

لقد ضرب المرابطون لهم دنانير من الذهب الخالص، وكان عليها إقبال كبير في داخل أمبراطوريتهم وفي خارجها، وقد قلّدها بعض ملوك أُوربا مع احتفاظها بنفس الاسم الذي هو «المرابطي».

وقد قام رجال البحث بتحليل كِيماوي لعدد من النقود المرابطية بالنِّسبة للفترة ما بين 1050م إلى سنة 1200 للتّدليل على صحّة ما ذهب إليه المؤرخون الاقتصاديون من أن ذهب المغرب لعب دوراً بارزاً في الحياة الاقتصادية لبلدان حوض البحر الأبيض المتوسط في القرون الوسطى.

وقد أثبتت هذه الدراسة الدَّوْرَ الكبير الذي قام به المرابطون في توزيع الذهب المغربي في منطقة البحر المتوسط حيث كان لِتُجَّارهم نشاط كبير ونفوذ ملحوظ، كما حظيت عملتهم بسمعةٍ في الأوساط التِّجارية الدَّولية.

لقد استعمل الدينار المرابطي (El Maravedi) كوحدة نقدية في سائر أُروبا المسيحية، وهكذا نرى أن (كونت دو بروڤانص) يَعِد عام 1162م الأمبراطور بأنه يدفع له مبلغ إثني عشر ألف (12000) دينار مرابطي.

وقد جرى تداول الدنانير المرابطية في أُروبا الغربية حيث عثر على دنانير مرابطية في دفائن بدير (طولون) و (فيرنو) و (سانت رومان).

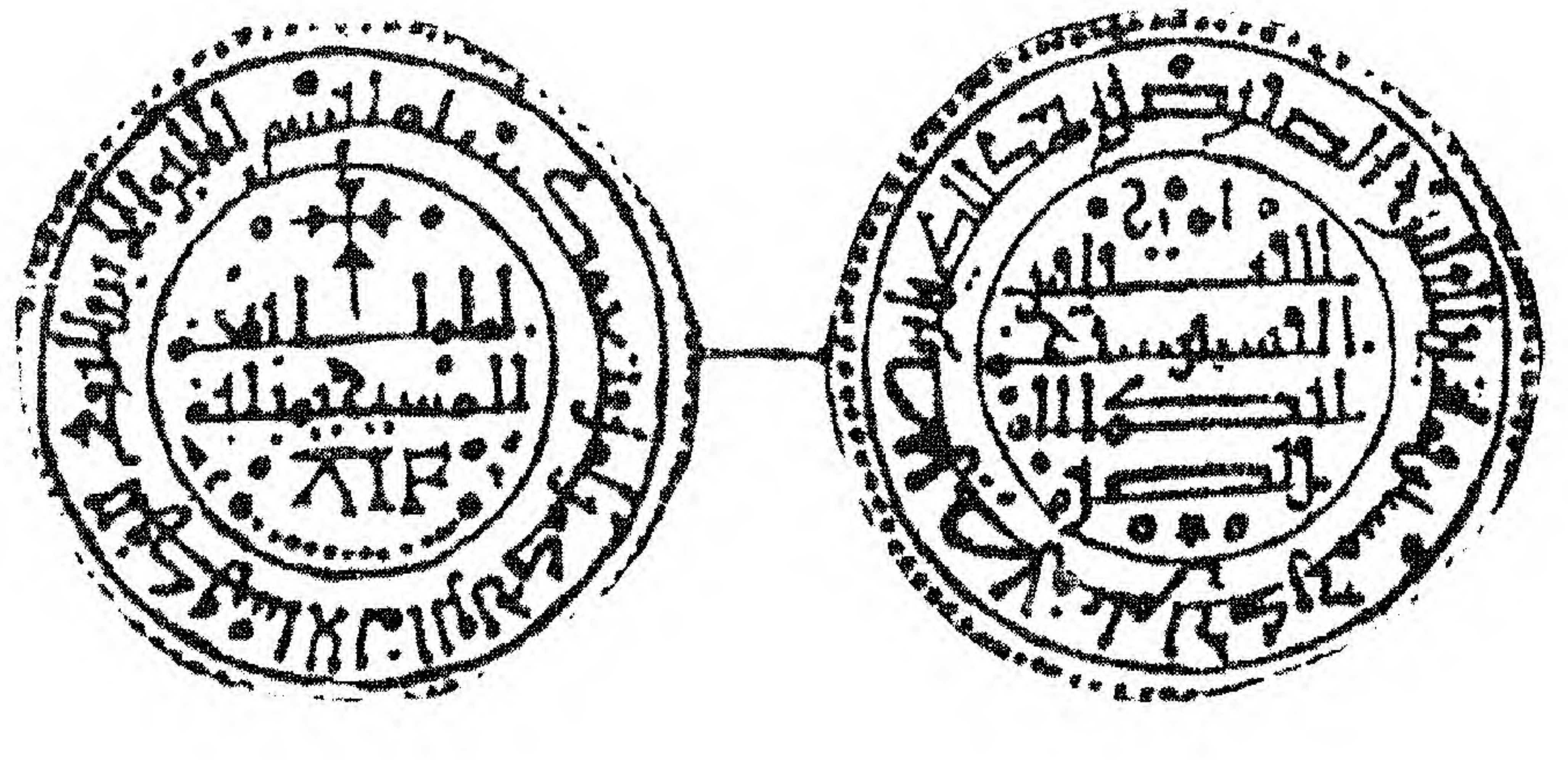
وكان التجار المغاربة الوافدون على الأسكندرية يحرصون على أن يتقاضوا أثمان سلعهم بالعملة المرابطية التي كانت بالتأكيد أكثر قيمةً من غيرها من العملات المتداولة في مصر آنذاك، بل أن سمعة العملة المرابطية امتدّت شرقاً إلى أبعد من مصر، فثمّة وثيقة صينية مؤرخة في سنة 1187 تقول : إن مولابني (Mulapni) ـ وهي محرفة عن كلمة مرابط ـ هي المركز التجاري لأقطار حوض البحر المتوسّط.

وحتى عندما نقرأ عن محاولة كريستوف كولومب القيام برحلته الاستكشافية في أواخر القرن الخامس عشر (صيف 1492م) نجد أن ملكة قشتالة تزوّده بمليون ومائة وأربعين ألف دينار من «المرابطي» الذي كان الفونص الثامن قلده...

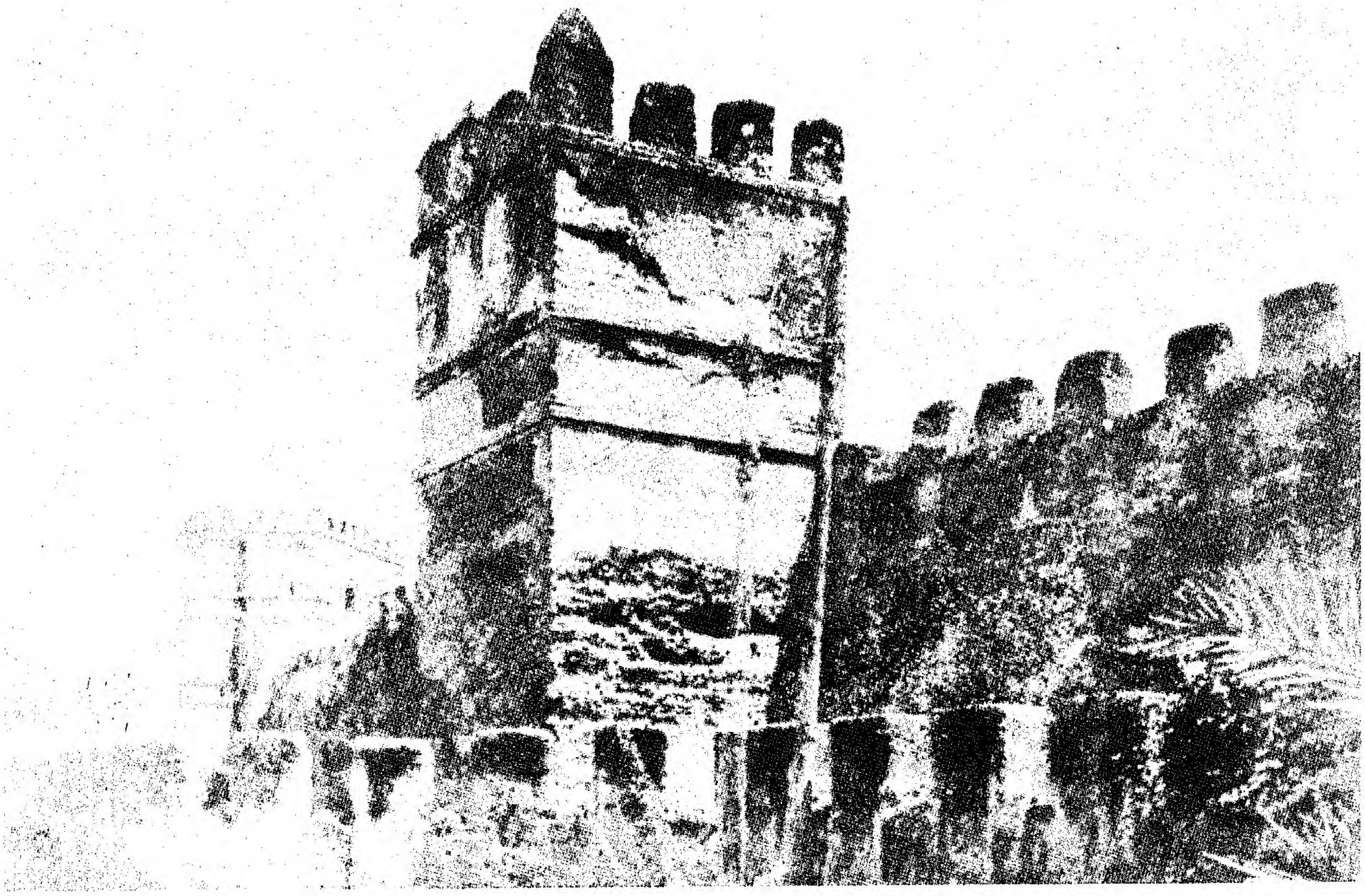
وبهذه العملة أيضاً أديت التعويضات لمن عهد إليهم بمغامرة النزول في الساحل الجنوبي للمملكة المغربية.

وهكذا نرى أن دول أُروبا على ذلك العهد، ولو أنها تعتزّ بسيادتها الوطنية وتدافع عنها، إلا أنها لم تجد مانعاً، مع كلّ ذلك، من تقليد المصطلحات السابقة.

د. التازي. السيادة والقدرات الاقتصادية...
ندوة أكاديمية المملكة المغربية، أبريل 1983



تقليد «الدينار المرابطي» من طرف ألفونسو الثامن،عملة ذهبية (بالمتحف البريطاني)



جدار مرابطي في اشبيلية يرتفع بجانبها البرج (BARBACAN)
بين باب قرطبة وباب ما كارينة باشبيلية

فقهاء الأندلس وأعيانها يشرحون ما يلحقهم من حصن ليبط، وقد عاد ابن عباد لعاصمته إشبيلية بعد أن اطمأن لوعود أمير المسلمين...

ووفّى يوسف بالتزامه وعبر إلى الجزيرة في شهر ربيع الأول[12] 481 = يوليه 1088 حيث استقبله بالجزيرة المعتمد بن عباد، ومن هناك أنفذ أمير المسلمين سفراءه ومكاتيبه إلى ملوك الطوائف يدعوهم إلى ضواحي حصن ليبط.

وبعد حصار يائس للحصن قرر يوسف الانسحاب سيما وقد علم أن ملك قشتالة يسير نحو الحصن في قوةٍ ضخمة ربّما أتت على جيوش دول الطوائف التي ظهر ليوسف هذه المرة أنها متنابذة متحاقدة متنافرة أكثر مما مضى.!

☆ ☆ ☆

دور المرابطين في تطويق الحروب الصليبية

اشتعلت الحرب الصليبية الأُولى عام 488 = 1095، واستمرت إلى عام 492 = 1099، وقد صادف هذا ظهور يوسف بن تاشفين على الساحة الأندلسية بعد أن حقق نصره العظيم على ألفونصو في معركة الزلاّقة الشهيرة عام 479 = 1086 حيث أخذ بأنفاس الحركات التي كانت تستهدف الإجهاز على الوجود الإسلامي بالأندلس..!

ومن ثمت استطاعت هذه الدولة الناشئة أن تقضي على السياسة التي سارت عليها البابوية لإثارة حرب صليبية في الغرب الإسلامي بل لعبت دوراً في غاية الأهمية في تاريخ المعركة الصليبية... فقد نجحت في الحيلولة بين الممالك المسيحية في الأندلس وبين المساهمة في الحملات الصليبية التي نظمت للاستيلاء على بيت المقدس، لأنّ المرابطين كانوا يقفون لهم بالمرصاد، إذْ كانوا يناوشونهم ويهددون بلادهم ولا يكفُّون عن غزوهم ومحاربتهم، وانه لولا قيام دولة المرابطين في ذلك الوقت بالذات لكان النجاح الذي أحرزته الحملات الصليبية في الشرق أبعد أثراً، ولاستطاعت القوى الأروبية كلها أن تنصرف بكلّيتها إلى معركة الشرق... ولم لا نقول : إن قيام دولة المرابطين ونجاحها في المعارك الصليبية الدائرة الرّحى في المغرب قد أحيا موات الآمال وهزّ مشاعر المعاصرين في الشرق فأدركوا أن في المغرب قوةً إسلاميةً ناشئة استطاعت أن تحرز ذلك النصر الرائع في معركة الزلاقة وما تبعها من مثيلات...

وقد اهتم المرابطون بالجهاد في الشرق ويدل على ذلك ما رواه **ابن الأثير** من أن بعض هؤلاء الملثمين رحلوا ـ بعد الحملة الصليبية الأُولى إلى بغداد وخطبوا في الناس يستنهضون الهمم ويلهبون الحماس في النفوس ويدعون إلى الجهاد في الشرق كما دعوا إليه في الغرب..

«وفي سنة 499 ـ يقول ابن الأثير ـ ورد إلى بغداد إنسانٌ من الملثمين ملوك المغرب قاصداً دار الخلافة فأكرموه وكان معه إنسان يقال له «الفقيه» من الملثمين أيضا فوعظ الفقيه في جامع القصر واجتمع له العالّم العظيم وكان يعظ وهو ملثم».

---

12) هذه تقديرات روض القرطاس وفي ابن خلدون أن الجواز الثاني كان سنة 486.

الجواز الثالث لتصفية ملوك الطوائف !

1090 = 483

- □ الأخبار تتوالى على المغرب باستفحال الخلاف بين ملوك الطوائف.
- □ تمالؤهم مع ملوك قشتالة لضمان مصالحهم الشخصية !
- □ تبريراتهم لأداء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون..!
- □ المحاولات الأخيرة لبعض ملوك الطوائف لإنقاذ إماراتهم.
- □ منفى أغمات... قاعدة من قواعد المغرب.

الجواز الثالث لتصفية ملوك الطوائف !

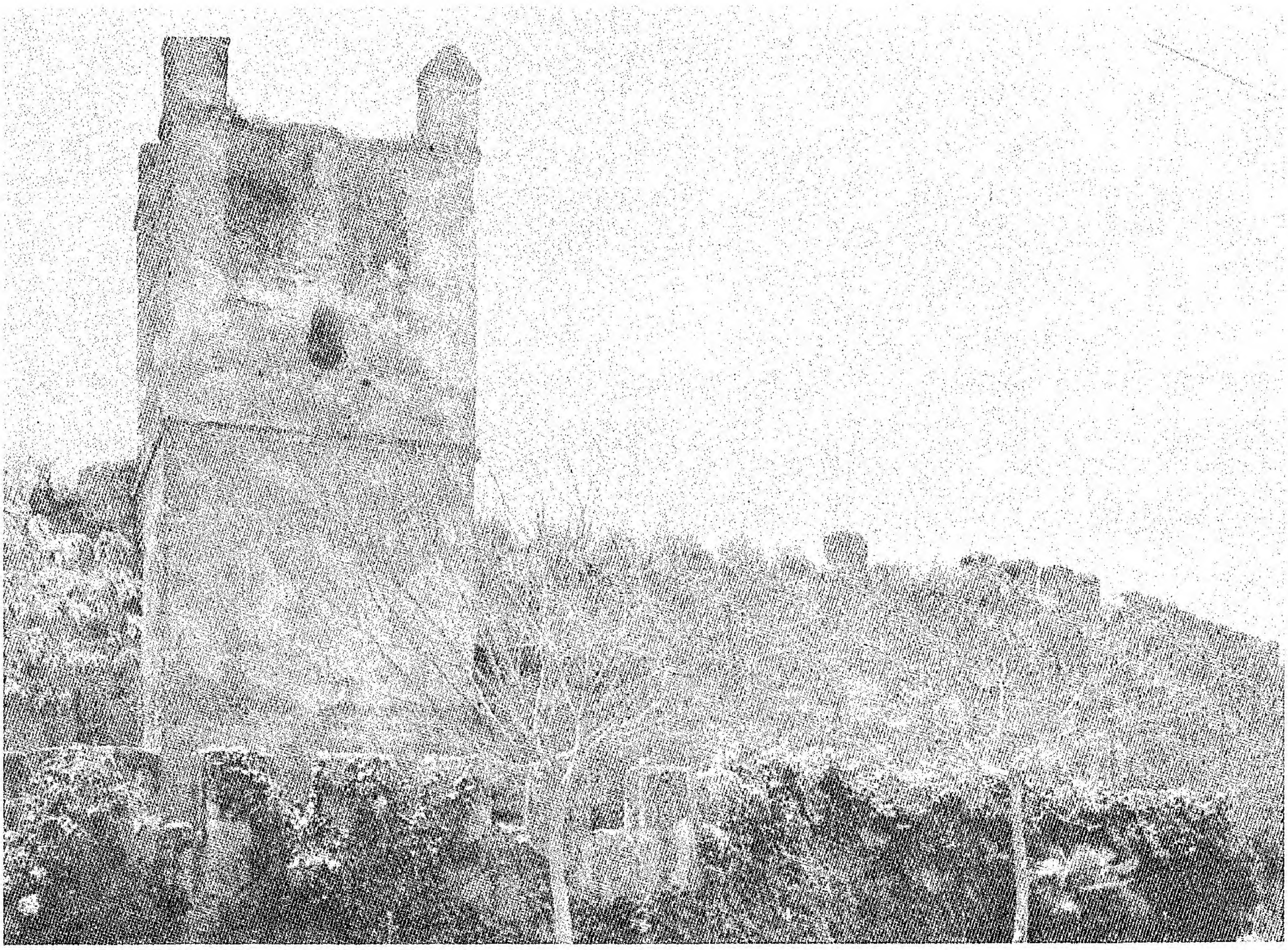
1090 = 483

ولم يمض عام آخر حتى أعد يوسف بن تاشفين عدته للجواز إلى الأندلس مرة ثالثة، وكان ذلك أوائل سنة 483 = 1090، وخلافاً لما كان عليه الحال في المناسبتين الماضيتين، فإن الالتحاق بالأندلس كان هذه المرة بغير دعوة، ولغير نجدة، ولكن لتصفية ملوك الطوائف أو بالأحرى ضمّ إقليم الأندلس إلى الأمبراطورية المغربية !!

لقد بلغ يوسفَ - علاوة على ما كان يعرفه عن الأحوال بالأندلس - أن بعض ملوك الطوائف لم يتردد في ممالأة ألفونصو ملك قشتالة، بل لقد وجّه كلُّ رئيس بالأندلس سفراءه إلى ألفونصو مهنئين، وبأنفسهم وأموالهم مفتدين، وفي أن يشركهم في بلادهم له عاملين ولأموالهم إليه جابين..! بل إن حسام الدين ابن رزين صاحب شنترية سَفِر إلى ألفونصو بنفسه فقصده ومعه هدية عظيمة القدر سنية، متقرباً إليه ! فجعل ابن رزين يفخر بذلك على سائر الرؤساء !![1]

---

1) تاريخ ابن الكردبوس تحقيق الدكتور العبادي ص 88.



جدران مرابطية إلى جانب البرج الذي يعلوها في اشبيلية

تبرير إعطاء الجزية !

فلم يزل دأبهم الأذعان والانقياد، ودأب النصارى التسلط والعناد حتى استصفوا الطريف والتلاد وأتى على الظاهر والباطن النّفاد، بما كانوا ضربوا على أنفسهم من الضريبة، إلى ما يتبعها من هديّات ونفقات، وشعرُ العصر شاهدٌ بالأمر كقول حسّان بن المصيصي **يمدح المعتمد** ويهوّن عليه تلك الإتاوات، في جملة أبيات :

ولم تَطْـــــــو دون المسلمين ذخيرةً	تهينُ كرام المُنفســـــاتِ لتكرمـــــا
تحَيَّـل في فـــكِّ الأَســـارى، وإنمـــا	تعـــاقـــد كفَّـــاراً لتطلـق مسلمـــا !
ومـــا كنت ممن شحَّ بـــالمـــال والقنـــا	فتكنــز دينـــاراً وتركــز لَهْـــذمـــا
فترسلـــــه للصُّفْرِ أصفرَ عسجـــــداً	وإن خـــالفـوا أرسلتَ أبيض مخـــدمـــا

وفي ذلك يقول أبو بكر الداني من جملة قصيدة :

في نصرة الـــدين لا أُعـــدِمت نصرتَـــه	تلقى النَّصـــارى بمـــا تلقى فتنخـــدعُ !
تنيلهم نعْمـــــاً في طيّهـــــا نقمٌ	سيستضِرُّ بهـــا من كـــان ينتفـــع
وقـــلّ مـــا تسلم الأجـــام من عرَضٍ	إذا تـــوالى عليهـــا الريُّ والشّبَـــع
لا يخبـــطُ النـــاس عشْوا عنـــد مشكلـــةٍ	فـــأنت أدرى بمـــا تـــأتي ومـــا تَـــدَع !

ويعلق ابن بسام على هذا بقوله : وهذا مدح غرور وشاهد زور ومَلَقٌ معتفٍ سائل، وخديعةُ طالب نائل، وهيهات !!

ومن الشاهد أيضا على ما تقدم ـ يقول ابن بسام ـ رقاع رأيتُها تكتب يومئذ بأحد بيوت الأشراف، خوطب بها العمال، في استعجال قبض تلك الأموال، منها رقعة عن المعتمد قيل فيها :

«الحال مع العدو ـ قصمه الله ـ بيّنة لا تخفى، ومداراته ـ ما لم تمكنْ مضاهاته ـ أولى وأحرى، والتّزم له في الصلح المتفق عليه بجملة مالٍ رُسِمَ عليك منه بعد النظر لحالك، والتحاشى من الإجحاف بمالك، كذا، فعجل النظر فيه وابعثه بكتابٍ تجاوَبُ على ظهره بوصوله، وبحسب تعجيلك أو تأخيرك يكونُ الاستدلال على طيب نفسك وصدق ضميرك، فتدارك بالمشاركة في هذا الخطب الملمّ المهمّ الذي لا محيدَ عنه ولا بدّ منه».

ومثل هذا الرقع كثيرٌ إلى قواد البلاد...

ابن بسّام ق 2 م 1 ص 248 ـ 252

وقد أقدم يوسف ابن تاشفين على مبادرته تلك بعد مشاورات مع الزعماء والفقهاء سواء في المغرب أو في الأندلس، فقد تلقى عدة فتاوي تبرر خلع ملوك الطوائف وانتزاع الأمْر من يدهم إبقاءً على الوجود الإسلامي بتلك الديار بل حفاظاً على سلامة المغرب ذاته !

وقد كان العاهل المغربي يعتمد أيضاً على رأي عددٍ من علماء المشرق حول هذا الموضوع على ما سنرى في علاقات المُرَابطين بالعباسيين.[2]

وعندما اقترب يوسف من أهدافه بالجزيرة، أدرك بعضُ الأُمراء ضرورة إلقاء السلاح، وهنا نلاحظ عدداً من السفارات تحمل معها رسائل رؤسائها مبديةً استعدادها لتنفيذ التصميم الذي ورد لأَجله أمير المسلمين، وكان في صدر أولئك الأَمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة الذي استسلم يوم 10 رجب 483 = شتنبر 1090.

وشعر المعتمد بخطورة هذا النذير ولم تلبث العلاقات أن ساءت بينه وبين أمير المسلمين بسرعة، وبلغ التوتر مبلغه عندما دعا أمير المسلمين المعتمد للاجتماع به فرفض ! وعندما طلب إليه أن يلتزم الرباط ومدافعة النصارى فلم يجبه !

- رسالة أرسلها إلى المعتصم بالله ولده عبيد الله عز الدولة لما أرسله والده رسولاً إلى يوسف بن تاشفين في أواخر أيامه، فاعتقله يوسف، فأرسلها لوالده من السجن :

أبعد السّنا والمعالي خمول	وبعد ركوب المذاكي كبول
ومن بعد ما كنتُ حراً عزيزاً	أنا اليوم عبد أسير ذليل
حللت رسولاً بغرناطة	فحل بها بيَ خطب جليل
وثقفت إذ جئتها مرسلاً	وقد كان يكرم قبلي الرسول
فقدت ألمريةَ أكرم بها	فما للوصول إليها سبيل !!

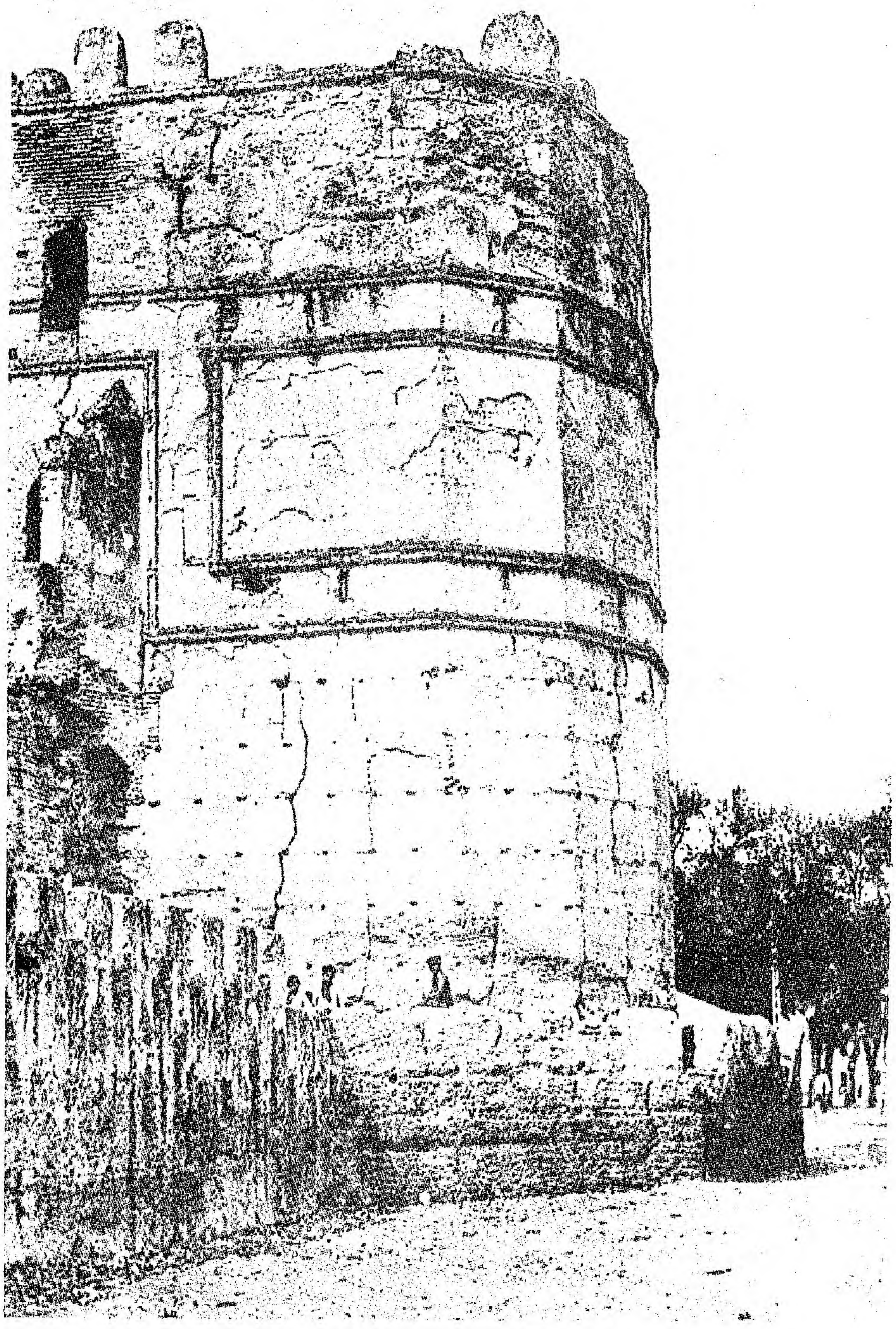
2) ابن خلدون ج 6 ص 187 - 188 - أعمال الأَعلام ص 247.

> **التنازلات التي كان لا يرضى عنها يوسف بن تاشفين !**
>
> ولما حان انصرافنا من لييط ALÉDO (481 = 1088) كلّمنا أمير المؤمنين في عسكر يتركه عندنا بالأندلس خوفاً من الرومي أن يكلب عليها ويطلبنا بثار تلك السفرة وغيرها فلا يكون عندنا مَن يدافع فقال : «**أصلحوا نياتكم تكفوا عدوّكم !**» ولم يعطنا عسكراً، فأيقنا أن الرومي لا يدعنا على هذه الفرصة دون طلب... ولم يلبث أن احتفل وأتى طالباً للمال... وطمعنا أن يقنع رسوله باليسير، فقال لي : لم آت عن ذلك كله إلاّ أن تعطيه مافاتك عنه من **جزية ثلاثة أعوام** ثلاثين ألفا : وقلت : إن **أخذت هذه من الرعية** ضجت وشكت، ويكون مقدمتها بمَرُّوكُش شاكين يقولون : أخذ أموالنا وأعطاها للنصاري... فأنا جدير أن أعطي ذلك من بيت مالي ! ورأيت مع ذلك أن أجدد معه عقداً ألاّ يعترض لي بلداً... فأجاب إلى العقد، فقلت في نفسي إذْ لابدّ من دفعها فبالعقد أولى..!
>
> ثم خاطبْنا أمير المسلمين ننص على ما دفعت الضرورة إليه **وأن الحاضر أبصر من الغائب...** ولم نشك في أن الجواب يردنا بالشكر على ما نظرناه وسددناه لاسيما إذ كان الفداء من عندي ولا أكلف فيه مسلماً درهماً. فوردني جوابه يقول : «أما مراهنتك وقولك الباطل فقد علمناه ! وستعلم عن قريب كيف ترضى الرعية...» وتكررتْ مخاطبتي على أمير المسلمين... وهو في ذلك كله لايراجعني إلا بالشدة وقبول قولهم (الوشاة) عليَّ فبقيت تلك الأيام على أسوأ حال ! وعند الله تجتمع الخصوم !!
>
> **مذكرات الأمير بُلُكين**

لقد غادر أمير المسلمين الجزيرة شهر رمضان 483 = 1090 وفوَّض إلى قائده الأكبر سير ابن أبي بكر اللمتوني بشؤون الأندلس، وكان من أمر هذا أن زحف على إشبيلية أيضا داعياً المعتمد للتفاهم..!

وبصرف النظر عن طرح السؤال : هل إن الأمير سير تصرّف وفْق تعليماتٍ سابقة أو وفق قراراتٍ شخصية، فإنه ليظهر أن المعتمد نسي قولته السائرة : «رعْيُ الجِمال خيرٌ من رَعْي الخنازير»، ولذلك نراه يستغيث هو الآخر بملك قشتالة الذي وجه إليه الجند والعتاد ! على رأس قائده المعروف البار هانيس (ALVAR HENEZ)، لكن المرابطين تغلّبوا على القشتاليين والعبّاديين معاً في معارك ضارية عنيفة... واستسلمت العاصمة يوم الأحد 22 رجب 484 = 7 شتنبر 1091 بعد إضرام النار في أسطول العبّاديين الراسي في الوادي الكبير... وتم بذلك للمرابطين الاستيلاء على سائر قواعد مملكة إشبيلية... ونقل المعتمد وأسرته إلى منافيهم بأغمات عاصمة المرابطين الأولى على مقربةٍ من مدينة مراكش قاعدة يوسف بن تاشفين.

☆ ☆ ☆



جدران مرابطية في إشبيلية... ويلاحظ البرج (Barbacana) المتصل بالجدار

في أعقاب تصفية جماعة
ملوك الطوائف

يقول أبو الحسن ابن الجد، يمدح أمير المؤمنين وناصر الدين معرضاً بملوك الأندلس الذين استنزلهم يوسف ابن بسام : الذخيرة، ق 2 ج 1 ص 256

في كـــلّ يـــوم غريب فيـــــه مُعْتَبَرَ … تَلقـــاه أو يتلقـــانــــا بـــه خَبَر
أرى الملــوك أصـــابتهم بـــأنـــدلس … دوائرُ الســـوء لا تبقى ولا تـــذر
قــد كنت انظرهـــا والشمس طـــالعـــة … لــو صح للقــوم في أمثـــالهـــا النظر
نـــامــوا وأسرى لهم تحت الـــدجى قـــدر … هــوى بـــأنجمهم خسفـــا ومـــا شعروا
وكيف يشعر من في كفــــه قــــدح … تحـدو بـه مـذهـلات النـاي والـوتر !!

وفي بني المظفر يقول ابن عبدون اليابُري قصيدته الشهيرة :

الـــدهر يُفجـــع بعـــد العين بـــالأَثَر … فمـا البكـــاء على الأشبـــاح والصـور ؟
كم دولـــةٍ وليتْ بـــالنّصر خـــدمتَهـــا … لم تُبـــق منهـــا، وســـلْ ذكراك، من خبر
هـــوت بَـــدارًا، وفلّت غربَ قـــاتلـــه … وكـــان غضبـــاً على الأمـــلاك ذا أُثُر
واسترجعت من بني ســـاســـان مـــا وهبت … ولم تـــدع لبني يـــونـــان من أثر
وأهلكت إبْرَويـــزاً بـــابنـــه، ورمت … يـــــزْد جُرْدَ إلى مروٍ فلم يَحُرِ
وبلغت يَـــزْدَ جُرْدَ الصِّين واختـــزلت … عنـــه سوى الفرس جمـع الترك والخـزر
وأسبلت دمعـــــة الروح الأمين على … دمٍ بفـــخٍّ لآل المصطفى هـــدر !
بني المظفَّر، والأيـــام ـ لا نَـــزلَتْ … مراحـــلٌ والـــورى منهـــا على سفر
مَن لـــلأسرة، أو من لـــلاعنّـــةَ أو … من لـــلأسنـــة يُهـــديهـــا إلى الثغر
من لليراعـــــة أو من للبراعـــــة أو … مَن للسمـــاحـــة أو للنفـــع والضرر..

José Mohedano Barceló : Ibn Abdūn de évora Universidade de evora – Nº 1 1982



ابن عبدون كما تخيله الرسام العربي لويس فلسطين

ماذا عن أغمات منفى أُمراء الأندلس ؟
لقد كانت قاعدةً من قواعد المغرب !

قال ابن حوقل... في «المسالك والممالك» إقليم أغمات وهو رُستاق عظيم فيه مدينة أغمات وهي كثيرة الخير والتجارة وليس بالمغرب أجمع بلد أكبر ولا ناحية أوفر خيراً منها ولا أرفه ولا أجمع لفنون المآكل والمشارب منها، وبها الأترج والجوز والنخل **وقصب السكر** والسمسم والعنب وسائر البقول التي لا تكاد تجتمع في غيرها. وذلك أنها تجمع فواكه الصّرود والحَرُود».

أما الإدريسي فقد قال عنها في نزهة المشتاق :

ومدينة أغمات أهلها من قبائل البربر والمتبربرين بالمجاورة، وهم أملياء تجار مياسير يدخلون إلى **بلاد السودان** بأعداد الجمال الحاملة لقناطير من النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمئآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع، وما منهم رجل يسفر عبيده ورجاله إلا وله في قوافلهم المائة جمل والسبعون والثمانون جملا كلها موقرة ولم يكن في **دولة الملثم** أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع أحوالا **وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم** وذلك أن الرجل منهم إذا ملك أربعة آلاف دينار يمسكها مع نفسه وأربعة آلاف يصرفها في تجارته، أقام على يمين بابه وعن يساره عرصتين من الأرض إلى أعلى السقف... فإذا مر الخاطر بدار ونظر إلى تلك العرص مع الأبواب قائمة عدها فيعلم من عددها كم مبلغ مال صاحب الدار... **واما في وقت تأليفنا لهذا الكتاب فقد أتى** على أكثر أموالهم المصامدة وغيّرت ما كان بأيديهم من نعم الله ولكنهم مع هذا أملياء مياسير أغنياء لهم نخوة واعتزاز لا يبخلون... ولمدينة أغمات ضروب من الفواكه وأنواع النعم وكل شيء من المأكول رخيص ممكن..».

☆ ☆ ☆

سيدي محمد بن الحسن...

هذا تاجر كبير من تجار الصحراء الذين كانوا حلقة وصل بين المغرب وبلاد السُّودَان وهو أصلاً من أهل سجلماسة، ولكنه انتقل إلى مدينة فاس... وبها توفي عام 595 = 1199 يقع ضريحه في مبنى معروف على يمين الخارج من باب عجيسة... وقد اشتهر ذكره لدى الذين يهتمون برجالات القرن السادس الهجري... وأصبح هذا المكان منطلقاً يجتمع فيه ركب الحاج كلَّ سنة حيث يرد عليه الناس من سائر أصقاع المغرب الجنوبية والغربية قبل أن يأخذ الحجاج طريقهم نحو المشرق...

المرابطون ومملكة بني هود

- □ المراسلة بين المرابطين وبني هود.
- □ تخوف بني هود من المرابطين واستنجادهم بالكانبيطور.
- □ فتح الكامبيطور لبلنسية ومحرقة القاضي !
- □ خطاب أهل قرطبة إلى المستعين بن هود.
- □ قرار ابن تاشفين بإسناد ولاية العهد لابنه أبي الحسن.
- □ استرجاع بلنسية.
- □ تبادل التهاني وإنشاد الشعر.
- □ جواب الأمير على تقرير الفقهاء حول الحالة في الأندلس.

المرابطون ومملكة بني هود

ولم تبق بالأندلس ولاية مستقلة إلا مملكة بني هود في سرقسطة، ويرجع السبب في ذلك لكون المستعين بالله أبي جعفر أحمد بن المؤتمن بالله أبي الحجاج يوسف بن المقتدر بالله أبي جعفر بن المستعين بالله سليمان بن محمد بن هود، أقام بشرق الأندلس وبيده عمالة الثغر الأعلى وهي سرقسطة وتطيلة Tudele وقلعة أيوب ودرّوقة ووشقة وبربشتير ولاردة وإفراغة ومدينة سالم ووادي الحجارة وما إلى ذلك.. فلم تدخل بينه وبين أمير المسلمين داخلة، هذا إلى ما ظل محتفظاً به من عادة مكاتبة العاهل المغربي وإرسال السفارات لديه ومهاداته باستمرار. وقد قال له في إحدى المكاتبات[1] : «ونحن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم منه ضرر ما دامت فينا عين تطرف، وقد قنعنا بمسالمتكم، فاقنعوا منّا بها إلى ما نعينكم به من نفيس الذخائر[2]...».

وقد وجه ابن هود إلى يوسف ابنه عماد الدولة أبا مروان عبد الملك، على رأس سفارة ضمت الوزيرين أبا الأصبغ وأبا عامر وبعث صحبتهم بهدية جليلة منها أربعة عشر ربعة من آنية الفضة مطرزة باسم ابن هود، فأمر يوسف بن تاشفين بضربها قراريط ووزعها ليلة عيد النحر في طبقات المرابطين[3] ! وقد أجابه يوسف بن تاشفين إلى ما أراد... وممّا جاوبه به ما نصه :

من أمير المؤمنين وناصر الدّين يوسف ابن تاشفين إلى المستعين بالله أحمد بن هود أدام الله تأييده. من حضرة مراكش حيث تتلى آية شرفك ومآثر سلفك، ونحن نحمد الله بجميع المحامد، ونستهديه أحسن الموارد، ونسأله أتم الفوائد وأنجح المقاصد، ونصلي على سيدنا ومولانا محمد ﷺ صفوة أوليائه،

---

1) مما يروى في موضوع المهاداة، الأمير ابن هود - بعد أن ظفر بدانية وجد فيها عددا من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر مما كانت تلقته من بلاد مصر والشام في أعقاب مواساة دانية لتلك الديار - أيام مسغبتها وجفافها بمركب كبير مشحون بالحبوب.. اشباخ ص 104.

2) تاريخ ابن الكردبوس 113 - الحلل الموشية ص 60.

3) A. Huici Mirand A Un Frangmento inédito de Ibn IDARI sobre los Almoravides, Hesp. Tamuda, 1961 p.63.

بين المرابطين وابن هود

ولأبي بكر محمد بن ذي الوزارتين أبي مروان بن عبد العزيز المعروف بابن المرخى أيضا فصول من جواب عن أهل قرطبة على خطاب ورد من قبل أحمد بن سيف المستعين بن هود 503 = 1110 قال فيه : وصل كتابك، فوقفنا على جميع معانيه، وأحطنا علما بما فيه، ورأينا ما تضمنه من المقال الذي لم يوفه أعزه الله - حق النظر، ولا تدبره أحسن التدبر، بل أطاع فيه سلطان هواه، ودعاه الحرج إليه فاستهواه، ولو حكّم عادل النّصفة، وعصى أمر الأنفة، لخاصم نفسه قبل أن يخاصم عنها، وكان قبل أن يأخذ لها آخذا منها، وليعلم أن الحق ليس بأقوال تسطّر، ولا حجج تصرف عن طريقها وتغيّر، والشيطان قد ينصب للعاقل أشراك الخدع، ويروم أن يستنزل الحليم بأصناف الطّمع، فمن صرفته عصمة الله انصرف، ومن وقفته خشيته أحجم ووقف.

وفي فصل منها : وقد كنتَ خاطبتنا المرة بعد المرة، وكاتبتنا الكرة بعد الكرة، تذكر أنك قد حللت عن تلك البلاد يدك، وأصفيت في طاعة أمير المسلمين وناصر الدين - أيده الله - معتقدك، ورأيت أنها أمانة تؤديها، إلى حافظها وراعيها، وتسلمها إلى من يقوم بحق الله عزّ اسمه - فيها، إلا مواضع يسيرة استثنيتها، وأماكن قليلة سميتها، فما الذي نقلك عن هذا الرأي الحميد، والمذهب السديد، إلى التمسك بما قد بان لك وجه الخيرة في تركه، وإرادة التملك بما لا قدرة لك على ملكه ؟ ولو كنت - أحسن الله توفيقك - مليا بالدفاع، قديرا على التحصّن من أعداء (الله) الكفرة والامتناع، لكنت معذورا فيما ترغبه، وجديرا أن يخلى بينك وبين ما تطلبه، لكن العجب كل العجب أن يكون سعيك للكفار، وتوفيرك للدمار، وكيف يسوغ لك أن تحذّره، وتذكّر به تعالى ثم لا تذكره ؟ ألست تعلم أن النصارى - لعنهم الله - قد استولوا على ثغور المسلمين التي كانت بنظرك منوطة، وبمستقر قدميك مخلوطة ؟ فهل كانت لك طاقة بمحاربتهم، أو قوة على مقارعتهم، إو إصراخ لمن استصرخك من قتيل مستشهد، أو أسير مضطهد ؟!.

وفي فصل منها : فحين وصلت دعوتهم لسامعها، واتصلت مظلمتهم برافعها، وتعلقوا من أمير المسلمين وناصر الدين - أيده الله - بالسبب المتين، وأووا منه إلى الحصن الحصين، أردت - والله يعيذك - أن تقطع منه حبالهم، وتفوق اتصالهم، وتذرهم بين أيدي الأسر والقتل نهابا، لا ترجو فيهم ثوابا، ولا تخاف عقابا. وهو - أيده الله - لم يبلغ بلادك ولا **غيرها لمال يبتزه، ولا لتملك يستفزه،** وإنما بغيته أن يقمع شيطان الشرك، ويستنقذ المسلمين من الهلك، ولما نرجوه من حسن إنابتك، واسراعك إلى داعي الحق وإجابتك، خاطبنا أمير المسلمين - أيده الله - محيلين على ماتضمنه خطابك، ووعاه كتابك، ممهدين عنده عذرك فيما تضمنه من القول الذي لا تصح شواهده، ولا ترتبط لمتأمل معاقده، وإنا لنخشى أن ينفض عن ذلك الثغر يدَه، ويحل من عزمه فيه ما كان عقده، فحينئذ لا ينفع النادم قرع سنّه ولو هتمها، والعاض يده ولو كلمها، وقد كان لك مندوحة في القول الليّن، والاحتجاج المبيّن، عن الموافقة والمخالفة، والمدافعة بغير الحق والمكاشفة، حتى انتهيت إلى أن تقول إنه لك في من سلف واعظ يزعك، أو زاجر يردعك، والله يعصمك من أن تختار اختيارهم، وتؤثر ايثارهم.

وفي فصل منها : وقبيح بمن علم بما عند الله علمك، وفهم بما لديه فهمك، أن يزهد في الدنيا وهو يطمع منها في غير حاصل، أو يذم العاجلة وهو يعتدّ بعرض من أعراضها غير طائل، ونرجو أن يكون وراء هذا من ركوبك المثلى، ورجوعك إلى التي هي أولى، وتكذيب ما تلقيه الوساوس، وتمنيه خادعات الهواجس، ما يبقى به دينك نقيا لا يتدنّس إزاره، وذكرك جميلا لا تقبح آثاره، وهو الذي يشبه مذهبك الكريم، وآراء سلفك

القديم، الذي أنت متقيّل حميد آثارهم، مستضيء بأنوارهم، مشيد على ما أسسوه من الأثر الصالح، والعمل الراجح. وما كان في هذا الكتاب من مراجعة، فيها موافقة ومنازعة، فإنما دعا إليها ما ننوي من النصيحة، والموالاة الصحيحة، وقد يعاتب الشفيق فلا يحجم، ويقول الصديق فلا يكتم، وأنت تحمل ذلك على سبله الواضحة، وطرائقه اللائحة، وتعلم أن أخاك من أرضاك باطنه، وإن عصاك ظاهره وعالنه[1].

☆ ☆ ☆

ولقد شعر أمير المسلمين يوسف بن تاشفين عام 495 = 1101 ـ 1102 بالحاجة إلى إسناد ولاية العهد لابنه أبى الحسن عليّ، وقد كتب عنه القرار بولاية العهد لابنه المذكور الوزير أبو محمد بن عبد الغفور، على ما نجده في كتاب الحلل الموشية...

1) هذه نظرية صحيحة لكنها عكس النظرية الأخرى التي يعبر عنها الشاعر :

لقد أجلَّك من أرضاك ظاهره وقد أطاعك من يعصيك مستترا.!!



باب الخميس بمدينة مراكش

وفادة بمراكش سنة 499 = 1106
تحمل خطابا عن اعيان بلنسية إلى أمير المسلمين يوسف الذي أجاب عن الخطاب المذكور

ما انفكت سفارات الاستنجاد تتوالى على أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين في أعقاب السطو على بلنسية وإحراق قاضيها. وهذه رسالة من إنشاء أبى بكر ابن القصيرة عن أمير المسلمين وهي ترجع لسنة 499 = 1106، وهي جواب على خطاب كان يحمله إلى مراكش وفد مؤلف من أعلام بلنسية التي كانت دخلت في طاعة المرابطين منذ منتصف رجب 495 = 5 مايه 1102 بعد أن استعادوها من سيطرة شيمانة (CHIMANA) أرملة القمبيطور[1].. والرسالة تشير إلى اجتماع علي بن يوسف بأخيه أبي الطاهر تميم.

ومن المعلوم أن قضية بلنسية كانت مما سبب غضب أمير المسلمين على حامية المرابطين ببلنسية وقد مرت عليها حيلة القمبيطور... ونظرا لاحتضار أمير المسلمين فقد أصغى الأمير علي إلى الأعيان الذين وردوا من الأندلس، ويبدو من الخطاب مدى اهتمام الحكومة المرابطية بتحصين بلنسية :

كتابنا أطال الله في طاعته عمرك، وأعز قدرك، وأجرى على ما تتخير وحسبما تؤثر أمرك، من فلانة سنة كذا، عن أحوال صالحة، وأعمال مع النجاح غادية ورائحة، والحمد لله رب العالمين، وقد وردنا كتابك الأثير المؤرخ بمستهل ذي القعدة الموفى بين يدي الشهر المذكور، فاجتليناه وتصفحناه، وأتينا على مجمل ومفصل ما وعاه، ولم نتجاوز حرفا إلى ما بعده حتى تأملناه، وأحطنا علما بفحواه ونجواه، وألقى إلينا الأمير أبو الطاهر أخونا الأعز علينا الأجل لدينا، أدام الله عزه، على ما يتأدى إليه بطول المشاهدة من أمور تلك الجهات فتوسمناه، وصرنا ـ علما به وتمثلا له ـ كأنا قد باشرناه وعايَنّاه، وتلاه بمثل ذلك أبو عبد الله محمد بن أبى (بكر) أبقاه الله، ثم أصغينا إلى الأعيان الجلة اعلام حضرة بلنسية أدام الله حراستها وأبقاهم، والواردين معهم من تلقاء يحيى بن تاشفين ومحمد بن تومرت، سلمها الله وأكرمها بتقواه، فخرجوا إلينا عما كان عندهم، وجدوا في بيانه لنا وجلائه علينا جدهم، وكل ذلك وعينا دقه وجله، وتلّينا وعره وسهله، ويعلم الله عز وجل أنا بأحوال تلكم الجهات مهتبلون، ولمجارى الأمور بها مخيلون، ولارتباكها بما أحاط بها من طوائف الأعداء متأملون، وإلى كل ما عسى أن تنحى به عليها المخالب ناظرون، لا يخفى علينا شيء من ذلك، ولا يزال فكرنا يطلع من تلك الثنايا ويتعسف تلك المسالك، ومالنا ـ والله الشاهد ـ إلا النظر في كل ما تتمهد به هناك الأوساط وتحتمى الأطراف، وتتحصن الغرات ويرتفع المخاف، إن شاء الله تعالى، فاعلم ذلك العلم اليقين، واستوضح حقيقته كما تستوضح الصبح المبين، وها نحن فيه أخذون، وبه عاملون، وإلى الله عز وجل نسند فيما نحاول وبه نستعين، وأنت ـ أبقاك الله ـ في تلك السبيل بمثابة بر، وعلى مظنة أجر، فاستقبل في أعمالك وجه الله، واعتمد مصالح المسلمين في كل ما تتولاه، والله يصل يدك، ويسهل مقصدك، ويسعد يومك، ويجعل أسعد منه غدك، بمنه ويمنه. وقد ذكر لنا أبو فلان حسن مجراك وجميل مكارمتك له وأتبع ذلك شكراً جزيلا، وأضاف إليه حمداً عريضا طويلا، وما فعلت معه ـ أبقاك الله ـ فمعنا فعلته، وما أجملته لديه فلدينا أجملته، وإنا لشاكروك على ذلك كشكره، وناشرو محاسنك نحو نشره، وقادرو معتقدك المبرور فيه وفق قدره، والله يبارك لنا فيك، ويجعل عليك واقية تقيك، ولا يخليك من التوفيق في جميع مناحيك، إنه على ما يشاء قدير، والسلام.

---

1) لقد يئس أنصار شيمانة من استطاعتهم الاحتفاظ بالمدينة أمام إلحاح المجاهدين.. وبعثت بأسقف البلد جيروم دي بيريجور ليستصرخ ألفونسو السادس ملك أراغون، فأقبل ورأى استحالة الاحتفاظ بالبلد ونصح بإخلائه فقام النصارى بإحراقه وخلفوه كوم رماد ثم انصرفوا ودخله المرابطون في التاريخ المذكور... محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة صحيفة المعهد 1959 ـ 60.

وخاتم أنبيائه، وأما الذي عندنا، أيدك الله، لجانبك الكريم، ومجدك الصميم، ومحلّك المعلوم، فودّ صريح، وعقد في ذات الله تعالى صحيح، وورَدنا نشأة السيادة والنبل والنباهة والفضل أبو مروان عبد الملك ابنك ولادة وتنسبا، وابننا وداداً وتقرباً زاد الله به عينك قرة، ونفسك مسرة، ومعه خاصتك الوزيران : أبو الأصبغ وأبو عامر أكرمهما الله بتقواه، وكلا وفيناه حق نصيبه، وأتينا برّه من بابه، وأدّيَا إلينا كتابك الجليل الخطير المقبول المبرور، فوقفنا منه على وجه شخوصهما، وأصغينا في تفصيل جملته إلى تلخيصهما، فألقينا لهما مراجعة في ذلك ما لقنوه، وسفرنا لهما عن وجه قصدنا فيه حتى استبانوه وجملته الوفاق وجماعة الانتظام في سلك ما يرضي الله تعالى والاتساق إن شاء الله تعالى والسلام.

وهكذا استمر ابن هود هادئ البال يهدّد النصارى بالمسلمين، ويهدد المسلمين بالروم !!!.

جواب الأمير ولي العهد
على التقرير الذي رفعه الفقهاء

وفي إطار الإتصال المستمر بمراكش وجدنا هذه الرسالة التي أنشأها الكاتب ابن القصيرة بحضرة مراكش بتاريخ آخر ذي الحجة 499 = 1 شتنبر 1106 وقد وجهت عن الأمير عليّ بن يوسف قبل وفاة والده بيوم واحد... إنها جواب عن الخطاب الذي وجهه إلى أمير المسلمين طائفة من الفقهاء أطلعوا العاهل المغربي على أحوال هذا الجزء من الامبراطورية الموحدية.. كما تذكر الرسالة أن الأمير أبا الطاهر (تميم بن يوسف أخا علي) قد تقدم بجلاء أحوال هذه البلاد..

ويلاحظ أن الحديث عن أمثال هذه السفارات قد تكرر في عدد من الرسائل المرابطية مما يدل على أن اهتمام أمراء المرابطين بالأندلس لم ينقطع طوال عهدهم حتى في الوقت الذي اضطربت فيه الأحوال عليهم..

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه، واستعملكم فيما يرضاه، وحملكم على أقرب سبيله إلى حسناه، من حضرة مراكش حرسها الله، عقب ذي الحجة سنة تسع وتسعين وأربعمائة عن أحوال سامية، وأعمال على سوق النجاح قائمة ونامية، والحمد لله رب العالمين، وقد ورَدَنا كتابكم الأثير من قبل الفقيه الأجل أبي فلان، والفقيه القاضي أبى فلان، والفقيه أبي فلان وسلامُهم، فوقفنا على ما وعاه، وأحصينا ما أودعتموه إياه، ولم يمر على سمعنا فصل من فصوله إلا تأملناه، وخرج لنا مناولوه ـ أبقاهم الله ـ عما كان لديهم وأبدأوا وأعادوا فيه، ونحن مصغون إليهم، مقبلون عليهم، وقد كان الأمير أبو الطاهر أخونا الأعز علينا ـ أدام الله عزه ـ تقدم لنا بين يدي ذلك بجلاء تلك الأحوال في مناصبها، وعرض ما تستدعيه من الأعمال عامها وخاصها، وما كنا بذلك جاهلين، ولاعنه غافلين، وإنا بما قبلكم لمهتبلون، وإلى ما يلمّ الشعث ويرمّ المنتكث لديكم ناظرون، وفيما نرجو به الصلاح الشامل لكم عاملون، ويعلم الله الذي لا تخفى عليه خافية، ولا تنطوي دونه سريرة ولا علانية، ولا تفوت إحاطته قاصية ولا دانية ـ أنا لا نألو من قلدنا الله أمورهم من المسلمين نصرة، ولا ندخرهم ـ حيث كانوا ـ نظرا فيما يحوطهم وعملا بما يصلحهم قدرة، وحسبنا الله معينا بأعباء ما حملناه، ومنتهضا إلى ما يقتضى وفور الحظ من قبوله ورضاه، ولا معين غيره، ولا منتهض سواه، وها نحن ـ أبقاكم الله ـ في تلافى ما أشرتم إليه آخذون، وعلى ما يسد الخلل ويربح العمل عندكم عاطفون، وبه ـ دون كل مهم ـ مبتدئون، ولا عمل لنا بعد من سمّيناه من أعلامكم ـ أبقاهم الله ـ غير ذلك : إليه نغدو ونروح، وبه نقوم ونقعد، وعما قليل ينصات لكم الأمل، ويفضى إليكم بما استدعيتموه العمل، إن شاء الله، وعند أعيانكم المتقدمي الذكر أبقاهم الله، وتولاهم وإياكم بحسناه، في بسط ما قبضناه، وتفصيل ما أجملناه، بما يوردونه عليكم، ويلقونه حسبما تلقوه إليكم، فاسمعوه منهم، وعوه عنهم، واسكنوا إليه، واطمئنوا به، والله ولي التأييد، والملى بالصنع الحميد، لا إله إلا هو عز وتعالى، والسلام.

الآمال البعيدة ليوسف...

«كان يوسف بن تاشفين يقول في كل مجلس من مجالسه : إنما كان غرضنا في ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم لما رأينا إستيلاءهم على أكثرها، وغفلة ملوكهم وإعمالهم للغزو وتواكلهم وتخاذلهم وإيثارهم الراحة، وإنما همة أحدهم كأس يشربها، وقينة تُسمعه، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جميع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين، ولأملأنها عليهم - يعني الروم - خيلا ورجالا لا عهد لهم بالدعة، ولا علم عندهم برخاء العيش، وإنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه، أو سلاح يستجيده، أو صريخ يلبى دعوته..».

المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص 241 ـ 242

☆ ☆ ☆

متى اقترن السلطان يوسف بن تاشفين بقَمَر ؟

حاولت أن أصل إلى تاريخ اقتران السلطان يوسف ابن تاشفين بزوجته الرومية التي اعتنقت الإسلام فيما بعد... والتي تحمل إسم قمر، أو إسم «فاض الحسن»...

لقد انجب منها ولده الأمير علي الذي أنفق حداثة سنه في سبتة، فهل كانت سبية من سبايا وقعة الزلاقة ؟ أم إنها كانت هدية من الهدايا التي تقدمت بها سفارة ملوك الطوائف إليه وهو ما يزال بعد في مراكش قبيل جوازه الأول ؟.

إذا ما عرفنا أن الموقعة كانت عام 478 = 1085 وعرفنا أن عليا تولى الحكم وهو ابن ثلاث وعشرين سنة اقتربنا إلى الحقيقة...

معركة أُقليش
أو معركة الكونتات السبعة...
1108 = 501

- □ قمة مجد المرابطين في الأندلس.
- □ معركة أُقليش أو الكونتات السبعة كانت في أهمية معركة الزلاقة.
- □ الخطاب الهام الذي رفع إلى أمير المسلمين...
- □ مساهمة الشعر في تخليد المعركة

1) دالية الأعمى التطيلى في تهنئة الأمير.
2) نونيته في أحد أبطال المعركة.

معركة أُقليش
أو معركة الكونتات السبعة...
1108 = 501

واستمر الحال أيام أمير المسلمين عليّ بن يوسف (500 = 1106) تقريباً كما كان أيام يوسف، حيث تم تحقيق عدد من الفتوحات كان في أبرزها افتتاح قلعة أُقليش (UCLES) المنيعة حيث وجدناه يضرب حصاره الشديد عليها، الأمر الذي جعل ألفونسو السادس - وقد حالت الشيخوخة - دون حضوره بنفسه - يبعث بابنه الوحيد سانشو الذي يذكر الأستاذ أشباخ أنه ولده من الأميرة زايدة بنت المعتمد بن عباد !!.

لقد سقط سانشو في المعركة وسقط في الميدان زهاء عشرين ألفا من النصارى وسبعة من كونتات قشتالة، ولذلك تسمى هذه المعركة أيضا بموقعة «الكونتات السبعة Batalla de los Sieta condes»...

لقد اعتبر بعض المؤرخين انتصار المرابطين في أُقليش يوم 16 شوال 501 = 29 مايه 1108 قمة سلطانهم في إسبانيا لأن المعركة فعلا كانت على نحو معركة الزلاقة، فقد صعد المؤذن أيضا على أهرام من ثلاثة آلاف جمجمة ليرفع أذان الصلاة[1] !!.

وهذا خطاب الوزير ابن شرف عن بعض رؤساء الغرب إلى أمير المسلمين رحمه الله في فتح أُقليش وهو منقول على مخطوط بالأرشيف الاسباني :

---

1) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي - مجلة كلية الأداب، القاهرة مجلد 11 جزء 2، دجنبر 1949 - مجلة تطوان سنة 1957، العدد الثاني ص 130/115 - جزء من كتاب نظم الجمان لابن القطان تحقيق د. محمود علي مكي بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ص 7/6 مع التعاليق... مارمول كربخال : إفريقيا، ج الأول، ترجمة جماعة من الأساتذة، الرباط 1984 ص 313.

أطال الله بقاء «أمير المسلمين وناصر الدين»، عماد الأنام وعتاد الإسلام، السعيد الأيام، الحميد المقام، كبيري بالقدر، وظهيرى على الدهر، الذي أجله بحقه وأقر له بسبقه، وأدام خلوده مؤيدَ الإرادة مؤيدَ السعادة مجدّد النمو والزيادة. والحمد لله الجبار القهار الذي شد الأزر وأمد النصر، وأعطى الفَلَج عن قسر، ففلق عنه يد الماطل وفرق بين الحق والباطل، والحمد لله الذي أسعد بدولة أمير المسلمين الأيام، ونصر بسيفه الإسلام، وغاظ به الكفار، وجعل عليهم الكرة فولوا الأدبار. والله تعالى يُشفع سعوده ويضمن مزيده، وينصر جنوده بمنه.

ولما أن وضعني أمير المسلمين أدام الله نصره حيث شاء من آلة التشريف والعز المنيف، وألحفنى من النعماء وأسحبني أذيالها، وصرف إليّ من عدده وبلده ما أولاني نعمه ووالانى كرمه، حفظتُ تلك الحرمة، وشكرت لأستزيد من تلك النعمة، وأخذت في الاجتهاد في الجهاد عالقا بسببه، آخذا بمذهبه، وهيأت من ماله عندي جيشَه الموضوع بيدي، وأجبت داعي الله بأعظم نية على أكرم طية، لعزمة بيمناه رأسها وعلى تقواه أساسها وأصلها، وسرت عن حاضرة أغرناطة حرسها الله في العشر الأواخر من شهر رمضان المعظم بجيش تصمم صواهله وتطم كواهله، راياته خافقة وعزماته صادقة، ونبراته على ألسنة السعد ناطقة.

ومررنا من طاعة أمير المسلمين وناصر الدين على جهات سمعت منادينا، وتبعت هادينا. وانقادت وراءنا أعداد وأمداد، برزوا من كمون، وتحركوا عن سكون، وأنخنا بناحية بيّاسة، وقد توافد الجمع وملئ البصر والسمع.

وأخذت في الرأى أُخمّره والعزم أضمره والذيل أشمره، وجددت الاستخارة لله تعالى والاستجارة به، وابتهلت إليه داعيا ضارعا، وعولت في كل أمورى على حكمه خاضعا متواضعا.

ولحقنا بطرف بلاد العدو أعادها الله، فوطئناها من هنالك، وقد بان عنوان الأهبة. والتأم بنيان الرتبة، وسرنا بجيش يفيض فيضا على أرض تغيض غيضا، ولسيول الخيل اغراق، ولبروق البواتر إشراق، وقد نطقت ألسنة الأعنة بقدام

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

نسخة خاصة من الوثيقة المتعلقة بمعركة أُقليش

قدام، وأشرقت كواكب الاسنة في عتام القتامِ وسدت الهبوة كل نهج وسبيل، واستقلت الرايات عن كل قبيل بقبيل وأفضت بنا الخيرة إلى المدينة الحصينة «أُقليش» قاعدة وواسطة الصدر، ذات العدد العديد والسور المشيد، فبدر السابق وشفع اللاحق.

وغدونا يوم الأربعاء لأربع عشرة ليلة خلت من شوال، فدرنا بها دور الحلقة بنقطتها، واكتنفناها اكتناف الشيخة لسبطتها، وبهت القوم، واتسع البحر عن العوم، وحاروا وخاموا، حين راموا، وجئنا بكل ضرب من الحرب، نخسف عاليها وننسف هاويها، ونلزها بالرماح، ونهزها هزَّ الغصن في أيدي الرياح، حتى فض الختام وعض منه الابهام، وعجل الله بالنصر وفتحها بالقسر، ونفخ في صورهم، ودارت دائرة السوء بدورهم، ومحقتهم السيوف محق الربا، وأذرتهم ريح النصر فصاروا هبا، وبطحوا بطح زرع الحصيد، وبسطوا بسط كلب الوصيد، وأخذتهم فجأتنا أخذة، ونبذت بهم سطوتنا نبذة، فخروا إلى الأذقان، وسيقوا إلى الموت والاذعان، فما كدنا ننزل حتى كدنا ذلك المنزل، وما أنخنا حتى رضخنا، ولا وصلنا إليه حتى حصلنا عليه، فوردنا ما أردنا.

ولما استحر فيهم القتل، واجتث منهم الأصل، وضاق بهم المزدحم، وغص ذلك الملتحم، قصر الوقت المبغت وشغل الأخيذ عن المفلت، وألهى الكثير عمن قل، ونام الجم الغفير عن الفل، وعاذت بقاياهم بقصبة المدينة فولجوها كما يلج العصفور، ويقوم العثور، قد غلقوا الأبواب، وأسدلوا الحجاب، ونحن نصل الجد ونوحر (؟) لأفل غرب، ولأمكث حرب، نجتث الجراثم، ونحتز الغلاصم، ونخرب الديار وبنيانها، ونهدم البيع وصلبانها، ونتتاحف بهدايا السبايا، ونتكاشف عن بقايا الخبايا، ونصرح بنياناً صدعته الحتوف وغلبته السيوف، فلأطلاله هدم وعلى رسومه ردم، حتى علا على الشرك الإيمان، وبدل الناقوس بالأذان، وزحزحت الهياكل عن موضعها، وطرحت النواقيس عن بيعها، ولاذبنا من هنالك من المسلمين عائذين بنا مستسلمين لنا، فناشدونا بالملة وحرمتها، وكشفوا لنا عن الخلة وسدتها، وفروا من الحملة إلى الحملة، فأوينا شاردهم، وأقمنا قاعدهم، فانجابت كربتهم، وعادت بعد البوار ومجاورة الكفار بشر دار

ملتهم، وأنار لهم الإسلام على منار الإيمان المجدد، واشتهر فيهم التوحيد اشتهار الحسام المجرد وكشف الدين عن مضمره، وخطب الحق المبين على منبره.

وأقمنا بقية يومنا على ذلك إلى أن خام النهار، وحان من الشمس الاصفرار، فعند ذلك أرحنا البواتر، وغيضت تلك الدماء الهوامر، وغدا الخميس في الخميس، مبنيا على ذلك التأسيس، يجر أذيال الظفر في العدد الأوفر، يشفع الأولى بالتوالي، ويشترى العولى بالعولى، فأصبحنا في عز وأنس، وأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كأن لم يغنوا بالأمس.

وتضامت تلك العصبة إلى تلك القصبة، والقوم في السجن، والحصن في الحصر، كالواحد في العالم، والاصبع في الخاتم، «والحصور مأسور وصاحب الحائط مقهور»، ولم نزل نوسعهم قنالا ونوسعهم ضرا ونكالا مسافة اليوم إلى أن جزر النهار مدّة، وبث الليل جنده، فعدنا إلى محلنا وقد أملّ الكالّ ابنه، وغلبت الساهر عينه، وكنت لم آل احتراساً للمحلة بطلائع تحرس جهاتها وتدرأ آفاتها، وفي القدر ما يسبق النذر ويفوت الحذر، ولكن كفاية الله خير من توقينا.

وكان الطاغية زاده الله دلاً قد حشد أقطاره وحشر أنصاره. وأبعد في الاستصراخ مضماره، وعبّأ جيشا قد أسرا إلى ذمر، وانطوى على غمر، فأقدم وصمم، وبئس ما تيمم، فاستسلمت جماعتهم على ابن الطاغية اذفونش وصاحب شوكتهم ألبَرهَانِس والقمط بِقَبْدرة (DE CABRA) وقواد بلاد طليطلة وصاحب «قلعة النسور» و«قلعة عبد السلام»، وكل قاص ودان وعاجل وأخزى الله جميعهم، وطل نجيعهم ولا أقام صريعهم.

وهـــذا دعـــاء لـو سكتٌّ كفيتـــه   لأني سـألت اللـــه ربّي وقـــد فعـل

وطرقوا من طرف مجتمعهم يريدون الغِرة، ويظهرون صلفا تحت الغرة، وتقدموا فتندموا، ودنوا فهووا، ووصلوا فحصلوا، وأرسل الله تعالى من جنده فتى كانوا قد سبوه صغيرا واقتنوه أسيراً، ولله تعالى فيه خبأة أعدها من عنده وبعثها لجنده، ونزع الفتى إلينا من معسكرهم منبئا بهم دالا عليهم. وكاشفا بهم عن النبأ العظيم، ومطلعا منهم على المقعد المقيم، فعند ذلك ثارت ثائرتنا،

ودارت على مركز التوفيق دائرتنا، وقام القاعد وأشار البنان والساعد، وتضام القريب والمتباعد، والليل قد هدأ، والصبح قد بدأ. والدياجير ممدودة السرادق، مجموعة الفيالق، ولا جار إلا الفاسق، ولا مار إلا السما والطارق، وكنت قد استدنيت القائدين المجربين ذوي النصيحة والآراء الصحيحة «أبا عبد الله محمد ابن عائشة» وأبا محمد عبد الله ابن فاطمة وليّيّ أعزهما الله. فجالا في مضمار وساع واصطلاع بذرع وذراع، فاجتمعنا على كلمة الله متعاقدين، وخضعنا إلى حكمه مستسلمين، فعند ذلك حل يده المحتبى، وقيل : يا خيل الله اركبي، فعادت آراء بالرايات، وحكمت النهي في النهايات والأسنة تجول في آمادها، والنصول تصول في أغمادها. وثرنا كما ثار الشهم بفرصته، وطار السهم لفرضته، وأمرت رجالا بلزوم المحلة فسدوا فرج أبوابها، ولاذوا بأوتادها وأسبابها، فداروا بها دور السوار، وانتظموها انتظام الأسوار، قد شرعوا الأسنة من أطرافها، وأجالوا البواتر في أكنافها وأضاقوا الأفنية، وقاربوا بين الأخبية. وعبأنا الجيش يمناه ويسراه، وصدره ولهاه، وساقته وأولاه.

ونهضنا بجملتنا من محلتنا، والصبر يفرغ علينا لامه، والنصر يبلغ إلينا سلامه، وتوجهنا إلى الله نقتفى سبيله، ونبتغي دليله، فما رفع الفجر من حجابه، ولا كشر الصبح عن نابه، حتى ارتفعت ألوية الدين سامية الأعلام، واتسعت أقضية المسلمين ماضية الأحكام، وقيض الليل خُمُسه، وفضح الصبح نفسه، ولسن السنان لمعان، ولشباب العراك ريعان، ولا خفاق الأعلام ضراب أو طعان.

وعند ذلك نجم «العجم» في سواد الليل وازباد السيل، يهطعون إلى داعيهم، ويهرعون إلى ناعيهم، في دروع كالبوارى، ورماح كالصوارى كأنما شجروا باللديد، وسجنوا في الحديد، يزحفون والحين يعجلهم، ويركبون (والموت) يؤجلهم، يتلظّون تلظي الحيات قد تحالفوا أن لا يتخالفوا، وتبايعوا أن يتشايعوا، ووصلوا إلى مقدمتنا، وكان هناك القائد «أبو عبد الله محمد بن أبي زنفى»(2) مع جماعة، فصدمهم العدو بصدور نمرة وقلوب أشرة، فأنحوا بكلكل

---

2) هذه هي المرة الأولى التي يرد فيها ذكر هذا القائد المرابطي ابن أبي زنفى.

أورموا بجندل، وشدوا فماردوا، وصادروا فما صدوا، وتقهقر القائد «أبو عبد الله» غير مولّ وتراجع غير مخل إلى أن أشتد منا بطود، وزحم من جيشنا بعود.

فتراءى الجمعان، وتدانى العسكران، وأمسكنا ولا جُبْن، ووقفنا والاناة يمن، فعند ذلك ثار النصر فمدّ يمناه، وأتى الصبر فأشرق محياه، ونزلت السكينة، وأخلصت القلوب المستكنة، واهتزت الفيالق مائجة، وهدرت الشقاشق هائجة، وجحظت العيون غضبا، وطلبت البواتر سببا، وأذن الحديد بالجلاد، وبرزت السيوف عن الأغماد، وتصاهلت الخيول وتطاولت القبول، فعند ذلك تواقف القوم كوقفة القبر، بين الورد والصدر، فبرز فارس من العرب. فطعن فارسا منهم فأذراه من مركبه، ورماه بين يدي موكبه، فانتهج، ما ارتج، وانفتح المبهم وأفصح المعجم، فعند ذلك اختلطت الخيل، بل سال السيل، وأظلم الليل، واعتنقت الفرسان، واندقت الخِرصان ودجاليل القتام، وضاق مجال الجيش اللهام، واختلط الحسام بالأجسام، والأرماح بالأشباح، ودارت رحى الحرب تَغُر بنكالها، وثارت ثائرة الطعن والضرب تفتك بأبطالها، فلثغر الصدور ابتراد، ولجزم القلوب انتهاد ؟ فلا وضح النهار، ولا مسخ الغبار، حتى خضعت منهم الرقاب، وقبلت رؤسهم التراب، واتصل الهلك بالشرك، وعادت الضالة إلى الملك، وقلم ظفر الكفر، وطالت أيمان الإيمان، وفر الصليب سليبا، وعجم عود الإسلام فكان طيبا، وغمرهم الحتف فهمدوا، وأطفأهم الحين فخمدوا، ومات جلهم بل كلهم، وما نجا إلا أقلهم، وحانوا فبانوا، وقيل كانوا، وكشفت الهبوات. وانجلت تلك الهنات، عن رسوم جسوم قد قصفتها البواتر، ووطئتها الحوافر، خاضعة الخدود عاثرة الجدود، وأخذت ساقتنا في الطلب وضم السلب إلى السلب. وملئت الأيدي بنيلٍ وافى الكيل، خيلا وبغلا وسلاحا ومالا، ودروعا أكلّهم، وأثقلهم جملها، فساءت ملبسا وصارت محبسا، فطرحوها كأنهم منحوها، وألقوها كأنهم أعطوها احتزناها نهبا، وأخذناها كأن لم تكن غصبا، لقطة ولا نكر، وعطية ولغيرهم شكر، ثم أمرت بجمع الرؤوس، فاحتيزت الدانية وزهد في جمع النائية، فكان مبلغها نيفا على ثلاثة آلاف، منهم غرسية أوردونش والقومط وقواد بلاد طليطلة، وأكابر منهم لم يكمل الآن البحث عنهم[3]، فكانت كالهضب الجسم، بل

3) هذه العبارة تدل على أن هذا الكتاب كتب في غد الموقعة مباشرة.

الطود العظيم، وأذن عليها المؤذنون، يوحدون الله ويكبرون، فلما جاء نصر الله ووهب لنا فتح الله، شكرنا مولى النعم ومسديها، ومعيد المنن ومهديها، وصدرتُ غانما وأبت سالما، وبقى القائدان محاصرين لحصن أُقليش آخذين بمخنقهم، مستولين على رمقهم.

فخاطبت أمير المسلمين أدام الله سروره ووصل حبوره، معلما بالأمر، مهنئا بالنصر، فلنحمد الله عز وجل على ما وهب، ونشكره على ما سنى وسبب والله يتكفل بالمزيد ويشفع القديم بالجديد، ويمن بالظفر والتأييد، فهو ولي الامتنان والملى بالفضل والإحسان، لا رب غيره ولا معبود سواه.

☆ ☆ ☆

الشعر في خدمة التاريخ

بالرغم من كساد سوق الشعراء بالنسبة للفقهاء ! فقد سجلنا بعض الشعر مما قيل حول الاحداث الجارية ومن ذلك قول هذا الشاعر نفسه يمدح أحد أبطال موقعة أُقليش (القائد الأعلى أبي عبد الله مُحمد ابن عائشة ؟).

سل الروم في أُقليش يوم تجايشوا ... ألم يعلموا أن الفرائس للأسد
تباروا إلى تلك الحتوف فسلهمْ ... أما كان عنها من محيص ولا بد
ألم يك في الإسلام من متعرض ... بكف ولا في السلم من عرض يفدي
ولا في جنود الله حين أتتكم ... لها من قدير يدفع الهزل بالجد
غداة رماكم كل طود بمثله ... من القصب المنأد والحلق السرد
أعز من الهضب التي قذفت بها ... فما بالكم كنتم أذل من الوهد...

ومن شعره أيضاً في بطلٍ آخر من أُقليش :

وصبّحت أُقليش في جحفل ... أغصَّ الوهاد وآد الرعانا
بكل كمي يروع الأسود ... خماصا، ويرعى عليها بطانا
أيا ابن الجحا جحة الأشعرين ... دعوة صدق، ومَن مان مانا
ويا با الحسين ويا ابن الربيع ... وناهيك أسباب مجد متانا
إليك وإن رغم الكاشحون ... وُدّاً صحيحا وشعراً قُرانا
قوافيَ كالشهب لكن تلك ... تصان فهب هذه أن تصانا
تشمك الورد والياسمين ... وإن كانت الشِّيحَ والأيْهُقَانا

الجواز الثاني للأمير علي بن يوسف

1110 = 503

- □ افتتاح طلبيرة واسترجاع حصن مجريط.
- □ حصار طليطلة.
- □ القرار المرابطي بفك الحصار.
- □ نونية الأعمى التطيلى حول هذه الحركة أيضاً.
- □ الإذن للأمير سير بن أبي بكر بقصد الجهة الغربية (البرتغال).
- □ الاستيلاء على شنترين...
- □ تبادل الخطابات حول الحالة في الأندلس..
- □ أول مصادرة مغربية لإنتاج شرقي !!

الجواز الثاني للأمير علي بن يوسف
1109 = 503

لقد سارت الجيوش هذه المرة صوب طليطلة عاصمة مملكة قشتالة، وهي تمني النفس بإرجاع هذه المدينة إلى حكم المسلمين، خاصة بعد موت ملكها القويّ، وقد حاصرت الجيوش في أول أمرها مدينة طلبيرة غربيّ طليطلة فدخلتها وخلصت من كان بها من أسرى المسلمين... وقد تم هذا في شهر صفر أور ربيع الأول عام 503 = 1109.

وقد كان لفتح طلبيرة فضل كبير في انسياب القوات المرابطية إلى الحصون الأخرى المحيطة بطليطلة.

وبعد أن استرجع العاهل المرابطي مجريط (MAGERIT) ووادي الحجارة قصد مدينة طليطلة وضرب حولها الحصار بقيادته الفعلية، وقد شاركه في هذه الحملة يحيى بن أبي بكر بن علي بن يوسف وعز الدولة أبو مروان عبيد الله بن المعتصم بن صمادح، ويروى أنه لما شارفت قوات الأمير يحيى مدينة طليطلة سقط أحد ألويته من يد حامله فانكسر الرمح، فتطيّر قوم وتفاءل آخرون فقال عز الدولة :

لم ينكسر عود اللواء لطيرة	يخشى عليك بها وأن تتأوّلا
لكن تحقق أنه يندق في	نحر العدوّ لدى الوغى فتعجلا !!

لكن القوات المرابطية لم تلبث عن أن فكت الحصار على المدينة وأسرعت بالرجوع إلى قرطبة ومنها إلى العودة بسبب انتشار وباءٍ في جيش الأمير على ما تقوله بعض المصادر.

وقد سجلنا نونية طويلة يشيد فيها الشاعر الاعمي التطيلي بالأمير علي بن يوسف عند جوازه الثاني للأندلس 503 = 1110، ثم يذكر استيلاءه على طلبيرة ومحاولة الأمير المذكور ـ بعد استرجاع حصن مجريط ووادي الحجارة

محاصرة طليطلة قبل أن يقلع عنها بعد أن تبين له أن الأمر يحتاج إلى استعداد أكثر...

وقد وجدنا الشاعر يعتذر عن الأمير في ذلك الأحجام مشبّهاً إياه بما فعله الرسول ﷺ في مهادنة مكة، قال :

نمى **طلبيرة** الدنيا حديثا ... له في كل قاصية شجون
وكيف رأت طليطلة العوالي ... بحيث (تغيث) باسمك أو تعين
نسقت حبالها بحبال موت ... تدور بها رحى الحرب الطحون
سيشكر سيفك الإسلامُ عنها ... وإن أبت الغلاصم والشئون
لأمر ما رددتَ الخيل عنهم ... وقد جعلت محاينهم تحين
وأسوتك الرسول وإن يشكُّوا ... **فعند** جهينة الخبر اليقين !
وهادن أهل مكة عن حِماها ... وقد تكفي عن الحرب الهُدُون
فإن **تُحرز طليطلة** الليالي ... فسيفك يا عليُّ بها ضمين !
أبا يعقوب أنت ندى وبأس ... وإبراهيم أنت وتاشفين !!
أبا حسن وغية كل حسن ... وفعلك لا يضم إليه سين !!

نحو المنطقة الغربية

وفي أعقاب الجواز الثاني لعلي بن يوسف بن تاشفين (503 = 1110) سار جيش من المرابطين بقيادة الأمير سير بن أبي بكر إلى المنطقة الغربية (البرتغال الحالية) لمقاتلة أميرها ألكونت هنري، وافتتح في جملة ما افتتحه من مدن وحصون، اشبونة ويابرة وشنترين...

وهذه رسالة الأمير سير بن أبي بكر إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين يخبر بالاستيلاء على قلعة شنترين والرسالة من إنشاء الوزير عبد المجيد ابن عبدون.. وقد نقلناها عن (المعجب) للمراكشي :

«أدام الله أمر أمير المسلمين، وناصر الدين، أبي الحسن علي ابن يوسف بن تاشفين، خافقة بنصرة الدين أعلامه، نافذة في السبعة الأقاليم أقلامه، من داخل

مدينة شنترين، وقد فتحها الله تعالى بحسن سيرتك، ويمن نقيبتك على المسلمين».

«والحمد لله رب العالمين، حمدا يستغرق الألفاظ الشارحة معناه، ويسبق الألحاظ الطامحة أدناه، لا يرد وجهه نكوص، ولا يحد كنهه تخصيص، ولا يحزره بقبض ولا ببسط مثال ولا تخمين، ولا تحصره بخط ولا بعقد شمال ولا يمين، ولا يسعه أمد يحويه، ولا يقطعه أبد يستوفيه، ولا يجمعه عدد يحصيه، إذا سبقت هواديه، لحقت تواليه».

«وعلى محمد عبده وأمين وحيه، الصادع بأمره ونهيه، نظام الأمة، وإمام الأئمة، سر آدم من بنيه، وفخر العالم ومن فيه - صلاة تامة نقضيها، وتحية عامة نؤديها، ترفض ارفضاض الزهر من كمامه، وتنفض انفضاض المسك من ختامه، فلقد صدع بتوحيده، وجمع على وعده ووعيده، وأوضح الحق وجلاه، ونصح الخلق وهداه في أم الكتاب».

«وأظهر العزيز عزت أسماؤه، وجلت كبرياؤه دينه على جميع الأديان، على رغم من الصلبان، ووقم من الأوثان، وأنجز لنا تعالى وعده، ونصرنا معه ﷺ وبعده، وجمع في هذه الجزيرة شمل الإسلام بعد انصرامه وانبتاته، وقطع غيل الإشراك بعد انتصابه وثباته، وأنزل الذين كفروا من أهل الكتاب بأيدينا من صياصيهم، نأخذ بأقدامهم ونواصيهم».

«وكانت قلعة شنترين - أدام الله أمر أمير المسلمين - من أحصن المعاقل للمشركين، وأثبت المعاقل على المسلمين، فلم نزل بسعيك الذي اقتفيناه، وهديك الذي اكتفيناه، نخضد شوكتها، وننحت أثلتها، ونتناولها عللا بعد نهل، ونطاولها عجلا في مهل، نخرف الحين بعد الحين سراة رجالها، ونتطرف المرة بعد المرة حماة أبطالها، ونخوض غمار كفاحهم، وبحار صفاحهم، إلى بسط أشباحهم، وقبض أرواحهم، ونهدى للقنا وصدورها رؤوسهم، وإلى لظى وسعيرها نفوسهم، وننقلهم من الشفار اليمانية، إلى النار الحامية، ونرفع بالجد والتشمير حجاب كيدهم الغامض، ونضعضع باستخارة القديم القدير هضاب أيديهم الهائض. ولما رأينا هذه القلعة الشريفة المناسب في القلاع المنيفة المناصيب على

البقاع، قد استشرى داؤها، وأعيا دواؤها، استخرنا الله تعالى على صمدها، وضرعنا إليه في تسهيل قصدها، وسألناه ألا يكلنا إلى نفوسنا، وإن كانت في صيانة ديانته مبذولة، وعلى المكروه والمحبوب في ذاته محمولة، فقصدنا إليها، وهجمنا هجوم الردى عليها، في وقت انسدت فيه أبواب السبل، وأعيت أهلها بحول الله وجوه الحيل، والدهر قد كشر عن أنيابه العُصْل، وقام من الوحول والسيول على أثبت رجل، فنزلنا بساحة القوم، فساء صباحهم ذلك اليوم، فلم نزل نصاولهم مصاولة المحتسب المؤتجر، ونطاولهم مطاولة المرتقب لأمر الله المنتظر، ونشن الغارات، على جميع الجهات، فترد جيوشنا عليهم خفافا، وتصدر إلينا ثقالا، فتملأ صدور الأعداء أوجالا، وأيدي الأولياء أموالا، وأمرنا بإقامة سوق سبيهم وأموالهم، على مرأى ومسمع من نسائهم ورجالهم، فازدادت ريحهم بذلك ركودا، ونارهم خمودا».

«ولما ضمهم لضيقِ ولاجه الحصار، وغشيهم بتفريق أمواجه البوار، وأحاط بهم البلاء، واستشاط عليهم بغضب الجبار القضاء، ولم يكن لليل بأسائهم سحَر يتأمل، ولا لورد ضرائهم صدَر يؤمل، اختاروا الدنية على المنية، ورضوا بالاستسلام للعبودية، وإسلام الأهل والذرية، والسلامة من مدارج الكفَن، وموالج الجنَن، ولو بجريعة الذقن، وكان القتل كما قدمنا قد أتى على صيد أعيانهم، وصناديد فرسانهم، فلم تبق إلا شرذمة قليلة وعصبة ذليلة، لا تضر حياتهم موحدا، ولا تسر نجاتهم ملحدا، نقلناهم من يمين المنون، إلى شمال الهون، ومن أليم الحصار، إلى لئيم الإسار، وكانوا سألونا الإبقاء عليهم فأجبناهم، بعد أن قدموا من الخضوع صدقة بين يدي نجواهم، ووهبنا أولاهم لأخراهم، وجعلنا العفو عنهم تطريقا لسواهم، ممن يتقيل صنيعهم إذا نحن غدا بإذن الله حاصرناهم».

«وهذه القلعة التي انتهينا إلى قرارها، واستولينا على أقطارها، أرحب المدن أمدا للعيون، وأخصبها بلدا في السنين، لا يريمها الخصب ولا يتخطاها، ولا يرومها الجدب ولا يتعاطاها، فروعها فوق الثريا شامخة، وعروقها تحت الثرى راسخة، تباهي بأزهارها نجوم السما وتناجي بأسرارها أذن الجوزا، مواقع القطار في سواها مغبرة مربدة، وهي زاهرة ترف أنداؤها، ومطالع الأنوار في

حشاها مقشعرة مسودة، وهي ناضرة تشف أضواؤها، وكانت في الزمن الغابر، أعيت على عظيم القياصر فنازلها بأكثر من القطر عددا، وحاولها بأوفر من البحر مددا، فأبت على طاعته كل الإبا، واستعصت على استطاعته أشد الاستعصا، ومردت مرود مارد على الزَّبّا، فأمكننا الله تعالى من ذروتها، وأنزل ركابها لنا عن صهوتها».

وأمام توالي الشكوى من المسلمين الذين يتاخمون الممالك النصرانية، وجدنا أن العاهل المغربي يقوم بتعبئة الجيش المغربي لتلبية نداء الواجب.

وهذا بيان من أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين أنشأه ابن أبي الخصال من حضرة مراكش في منتصف شوال 507 = 25 مارس 1114 إلى أهل الأندلس كافة يعلمهم بما استقر عليه عزم أمير المسلمين من التجهز للغزو والجهاد في سبيل الدفاع عن الإسلام، لقد بلغ النشاط العسكري هذه السنة أوجه... ويلاحظ أن البيان المرابطي يكشف عن النزعة الدينية التي تهيمن على الأمير المرابطي الذي نراه يلتجىء إلى الدعاء لله وإخلاص النية وجهاد النفس :

كتابنا أعزكم الله بتقواه، وكنفكم بظل ذراه، ووفر حظوظكم من حسناه، من حضرة مراكش - حرسها الله - يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سبع وخمسمائة بين يدي حركتنا يمّن الله فاتحتها وعقباها، وقد قرعنا الظنابيب، وأشرعنا الأنابيب، وضمرنا اليعاسيب واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين إخلاص نية، وصدق حمية، في نصر دين الإسلام، ومنع جانبه أن يضام، أو يناله من عدوه اهتضام، ونحن إن كنا قد بالغنا في الاحشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد والأمداد، ما يربى على الحصى والتعداد، فإنا نعتقد اعتقاد يقين، بقول رب العالمين، في كتابه المبين لرسوله الأمين «قل مايعبؤ بكم ربي لولا دعاؤكم». إن استنفار الدعاء، واستفتاح أبواب السماء بخالص الثناء - من أنفع الأشياء، وأنجع الدواء فيما أعضل من الأدواء، وأن الدعاء إذا وافق إجابة يمضى حيث ينبو الحديد المذرّب، ويكبو العديد المتهيب، ولذلكم ما رأينا مخاطبتكم، مستنفرين دعاءكم وأدعية من وراءكم من خيار المسلمين وصالحي المؤمنين، لأن يمدنا الله بالنصر والتمكين والملائكة المؤمنين، ويقطع بكل من يريد

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه

كتابنا أعزكم الله بتقواه، وكنفكم بكنف رضاه، ووفر حظوظكم من حسناه، من حضرة مراكش
حرسها الله يوم الاثنين منتصف شوال من سنة سبع وخمسماية بين يدي حركتنا في الله باقتبالها وعقدها
وقد قرعنا الكتائب، وأشرعنا الأنابيب، وضممنا اليعاسيب، واستنفرنا البعيد والقريب، مستشعرين
الإخلاص فيه، وصدق حمية، في نصرة دين الإسلام، ومنع جانبه أن يضام، أو يناله من عدوه اهتضام
وقد أبرز كنانته بالغنا في الاحتشاد والاستعداد، واستنهضنا من الأجناد والأمداد، ما يربي
على الحصى والتعداد، فإنا نعتقد اعتقاد يقين، بقول رب العالمين، في كتابه المبين لرسوله الأمين
قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم، أن استنصار الدعاء، واستفتاح أبواب السماء بخالص الثناء، من أنفع الأشياء
وأنجع الدواء فيما أعضل من الأدواء، وأن الدعاء إذا وافق إجابة يمضي حيث ينبو حد السيف المذرب
ويكبو العديد المتهيب، ولذلكم ما رأينا أن نكتب لكم ونستنفر دعاءكم وأدعية من وراءكم
من خيار المسلمين وصالحي المؤمنين، لأن يمدنا الله بالنصر والتمكين، والملائكة المسومين، ويقطع بكل
من يريد القطع بناء حماية الدين، ويدفع رأيه في حلاقيم المفسدين المعتدين، فإذا وصل إليكم
خطابنا هذا أعزكم الله، فامتثلوا ما تضمنا فيه، وأشيعوه عند الخاص والعام، ليرفعوا
أيديهم بالتضرع في أوقات المناجاة والقيام، ويجمعوا بين تعفير الجباه، وتحريك الشفاه، تحت
جنح الظلام، ويستفتحوا الله من اعتزاز جانبنا، وإذلال مجانبنا، ما الحرب فيه أوفر الحظوظ
والأقسام، ويعدوا الكفيل بإنجاز ما وعد به من الإجابة، لا إله إلا هو ذو الجلال والإكرام والطول
والإنعام، والسلام

نسخة خاصة

القطع بنا عن حماية الدين، ويرفع رأيه في خلافنا من المفسدين المعتدين، فإذا وصل إليكم خطابنا هذا أعزكم الله فامتثلوا مذهبنا فيه، وأشيعوه عند الخاص والعام، ليرفعوا أيديهم بالتضرع في أوقات المناجاة والقيام، ويجمعوا بين تعفير الجباه، وتحريك الشفاه، تحت جنح الظلام، ويستوهبوا الله من إعزاز جانبنا، وإذلال مجانبنا، مالهم فيه أوفر الحظوظ والأقسام، وهو الكفيل بإنجاز ما وعد به من الإجابة، لا إله إلا هو ذو الجلال والإكرام، والطول والانعام، والسلام.

رسالة أُخرى
لأبى عبد الله بن أبي الخصال عن بعض المرابطين
إلى أمير المسلمين علي بن يوسف
تتعلق بشئون حصن أرلبة (أوريخا Oreja)

(منقولة عن المخطوط رقم 519 الغزيرى بمكتبة الإسكوريال لوحة 104 ب و105 أ).

«أطال الله بقاء أمير المسلمين وناصر الدين، مؤيدا بجنوده، معانا بتوفيقه وتسديده، ولا زال عدله ينعش الأمم، وسعده ينهض الهمم. كتبت أدام الله تأييده، من قرطبة حرسها الله، لستٍّ بقين من جمادى الآخرة، وقبل بثلاث وافيتها من الوجهة التي صحبنى ومن معي فيها يمن أمره، واكتنفتنا عزة نصره، بعد أن أودعنا حصن أرلبة حماه الله، قوتا موفورا، ومرفقا كثيرا، وحطت عندهم الأسعار وعم الاستبشار، وتسلم أبو الخيار مسعود الدليل، سلمه الله، الحصن، واحتوى عليه، وصار أمره إليه، ووافينا فلانا أبقاه الله، قد استاق غنيمة ظاهرة، وجملة من البقر وافرة، وقتل من العدو، قصمه الله عددا، وقضى وطرا، وشفى وجدا، فتيمن الناس هناك، بولاية الأمير أبي يحيى أعزه الله، وبقيادة هذا القائد، الذي اقترن الفتح بمأتاه، وكانت (عند) مقدمنا هذا الحصن خيل طليطلة بددها الله، مجتمعة، فوقذهم الرعب وشملهم الصغار، والرغم، وتحققنا هناك أن مواشي تلك الجبال، قد أخذت في الإ... نبساط والإسهال، والدنو من الوادي في طلب الخصب، وتحوله من البرد إلى الدفيء، والله يجعلها للمسلمين طعمة، ويزيدهم بها قوة بعزته، وأنباء العدو، قصمه الله، الآن خامدة، وعزايمهم هامدة، وأيديهم جامدة، استأصل الله، بحد أمير المسلمين نعمتهم، وقطف قممهم، وأداخ بلادهم، وانتسف طارفهم وتلادهم، وألفيت الحضرة حرسها

الله، وقد أخذ السرور من أهلها كل مأخذ، وسرى فيهم كل مسرى ومنفذ، بولاية الأمير أبي يحيى أعزه الله، وكثر الدعاء لأمير المسلمين أيده الله، بما جدد لديهم من حسن نظر، وخلع عليهم من جمال سيرة، ولقيته فلقيت كل ما أبهج، وكان وفقا لما انتشر، ومشاكلا لما استذاع وظهر، ثمم الله النعمة، وظاهر عليه الكفاية والعصمة، ووافتنى كتبه الكرام مما بلغ الأمل، وحسم العلل، وأنا ممتثل في كل معنى ما يحره مجتهد، فيما يقيم ذلك الثغر ويسده، إن شاء الله عز وجل».

أول مصادرة مغربية لإنتاج مشرقي !

1109 = 503

قرر الفقهاء مجافاة «الإحياء» لظاهر الشريعة وساذج العقيدة، فما كان من رجال الدولة إلا أن أمروا بإحراقه، غير مقدّرين موالاة الغزالي لدولتهم حتى لقد كان هم بزيارة يوسف بن تاشفين وقصد البحر ليركب إليه فبلغه موته فرجع ! (على ما نرى في قسم العلاقات بين المرابطين والعباسيين).

وفي هذا الصدد يقول ابن القطان :

«وفي أول عام ثلاثة وخمسمائة عزم علي بن يوسف، عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها، على إحراق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى المسمّى بالإحياء، فأحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته بجلودٍ، بعد إشباعه زيتا ! وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس، ونفذت كتبه إلى جميع بلاده. آمراً بإحراقه وأخذت منه نسخ من أيدي أصحابها».

وقد أكدت هذه السياسةَ تلك الرسالة التي ستصدر من تاشفين بن علي بن يوسف عام 538 = 1143 أثناء مقامه بكرنطة (بين تلمسان وسبتة) والموجهة إلى أهل بلنسية يحدد لهم فيها مناطَ الفتيا ومصدر الأحكام، وهو مذهب مالك، ومحاربةَ البدع وكتبِها وأصحابِها وخاصّة كتب الغزالي...

افتتاح الجزر الشرقية 509 = 1116

- □ الأمير مبشر ابن سليمان ناصر الدولة.
- □ غارة بيزة وجنوة والقاطلانيين على جزيرة يابسة.
- □ سفارة عاجلة لدى أمير المسلمين.
- □ الأسطول المرابطي في عون الجزيرة.
- □ خطاب من مراكش إلى والي الجزيرة.
- □ لامية أخرى للتطيلي في عليّ بن يوسف.
- □ نونية أخرى له في مدح الأَمير المذكور.

إفتتاح الجزر الشرقية (الباليار)

وقد تميزت أيام الأمير علي بن يوسف بن تاشفين كذلك بافتتاح الجزر الشرقية (الباليار) سنة 509 = 1116...

والمعروف عن أمر هذه الجزر : ميورقة، منورقة، يابسة، أن العلاقات بين أمرائها وبين المرابطين كانت على نحو علاقات المرابطين ببني هود، ملوك سرقسطة : أي إن كلتيْ الجهتين كانتا تقفان حائلا بين المرابطين وبين الإمارات النصرانية المتاخمة للملكتين المذكورتين إضافةً إلى أنهما لم تقفا موقف خذلان ولا تقاعس من الدولة المرابطية على نحو ما وقع من معظم ملوك الطوائف..! بل أن ناصر الدولة (مبشر بن سليمان) أمير الجزائر الشرقية كان أكثر غيرة من بني هود على مصالح المسلمين وأقدر على حماية عمله من غارات النصارى...

لهذا كله نلاحظ أن المرابطين سواء أيام يوسف أو بداية عهد ولده عليّ، لم يصلوا إليه، أي إلى أمير تلك الجزائر، إلى أن كانت سنة 508 = 1114 - 1115 حيث سمعنا عن حملة كثيفة لبعض الممالك المسيحية : من البيزيين

شعر ابن حمديس في مبشر ابن سليمان

خلف الأمير مبشر بن سليمان الملقب بناصر الدولة، عبد الله المرتضى الذي كان استقل بحكم الجزر بعد سجن علي بن مجاهد... أقول خلفه في حكم الجزائر الشرقية، وأصله من أهل قلعةٍ من أعمال لاردة، أسره النصارى في صباه فعاش في برشلونة حتى تعرف عليه ذات يوم سفير المرتضى حاكم الجزائر فأعجب بمواهب مبشر وافتداه موأخذه إلى ميورقه، وقدمه إلى المرتضى فسرّ بخلاله واستعان به في تصريف شؤون الحكم ثم خلّفه في الإمارة بعد وفاته..

وقد ازدهرت في أيامه حركة أدبية كان هو قطبها ومحركها فكثر المادحون له، ووفد عليه بميّورقة كبار الشّعراء في الأندلس وخارجها أمثال ابن حمديس الصقلي الذي مدحه بقصيدة تبلغ سبعة وعشرين بيتا وصلتنا كاملة، ابتدأها بقوله :

جاءتك أولاد الوجيه ولاحقٍ   فأرتك في الخلق ابتداع الخالق
نينان أمواه وفتح سباسب   وظباء آجام وعُصم شواهق

وقد ركز الشاعر أبياته على وصف خيل مطهمة ـ والجزائر الشرقية مشهورة بها ـ أهديت لناصر الدولة فذكر ألوانها الزاهية وصهيلها المطرب وحركاتها الرشيقة وعدوها السريع.

وكأني بالشاعر ـ وهو يصف هذه الخيول المهداة ـ قد رسم لوحة جعلها في إطار ذهبي مربع : ضلعاه الأفقيان خصال الممدوح وعناصر الطبيعة كقوله :

وكأنما حيّت علاك وجوهها   فأسال فيها الصبح بيض طرائق
غر محجلة تكامل خلقها   بمجانس من حسنها ومطابق

وكقوله في جواد أحمر :

ورد تميع فيه عندم حمرة   كالورد أهدى في الربيع لناشق !

وضلعاه العموديان ايحاءات غزلية وتلميحات خمرية : كقوله في جواد أغر :

وكأن صبحا خص فاه بقبلة   شفق تألق فيه مطلع شارق
وكأن صبحا خص فاه بقبلة   فابيض موضوعها لعين الرامق
متصيد برياضة وطلاقة   في تيه معشوق وطاعة عاشق

وكقوله في فرس لونه بين الأسود والأحمر :

كاد الكميت ينوب عن لعس اللمى   ويسوغ كالخمر الكميت لذائق !

د. جمعة شيخة : الحياة الفكرية والأدبية بالجزائر الشرقية في القرنين الخامس والسادس

والجنويين والقطلانيين (برشلونة)... أسطول من ثلاثمائة قطعة عبىء لاكتساح جزيرة يابسة أولاً... حيث استسلم عاملها أبو نزار؟... هنا وجدنا الأمير (مبشر بن سليمان) ـ وقد شعر بحجم الغارة ـ يبعث سفارة عاجلة إلى أمير المسلمين... وكان الذي يحمل الرسالة قائدا مرابطا كان بالصدفة راسيا في ميناء ميّورقة، هو أبو عبد الله ابن ميمون الأميرال البحري، المشهور سواء في المصادر الاسلامية أو النصرانية، لقد تمكن من تبليغ الرسالة، لكن الأمير مبشر بن سليمان كان مات أثناء الحصار المضروب على الجزر، فولى أحد قرابته أبو الربيع سليمان الذي واصل المقاومة عبثا !!.

وهكذا استولى النصارى على معاقل الجزيرة يوم 7 ذي القعدة 508 = 3 أبريل 1115 فخربوها ! هنا وجدنا الأمير عليا بن يوسف يجهز أسطولا من 300 قطعة برئاسة الأميرال ابن تافرطست !! الأمر الذي أدخل الرعب على القراصلة ففروا تاركين من ورائهم الخراب والدمار...

وهكذا استمر الاستيلاء علىالجزر إلى عام 520 = 1126 حيث تولاّها القائد المشهور محمد المعروف بابن غانية... لقد كان هذا بعض موضوع الرسالة الهامة التي صدرت عن أمير المسلمين بمراكش تحمل تاريخ 20 أو 21 ربيع الأول سنة 510 = 2 ـ 3 غشت 1116 وهي من إنشاء أبي القاسم ابن الجد رفعت إلى (من) ولّي على جزيرة ميّورقة، ولم يذكر اسمه... وهي تفيد أن الجزيرة تعاقب عليها ثلاثة عمال في فترة قصيرة : «إنها بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوس أمرها ويحوط أهلها» إن بعض العمال كابن أبي السداد لم يكونوا جديرين بها ! ولهذا توصي الرسالة العامل الجديد : «واسع بحسن سياستك في استرجاع من خرج من جيرانهم واجتهد في صرفهم إلى أوطانهم حتى يكثر بفضل الله عددهم وينجبر بلدهم».

وفي نهاية الرسالة إشارة إلى الاسطول وضرورة اهتمام عامل الجزيرة به، ويبدو أن مقر قيادة الأساطيل الأندلسية في ذلك الوقت كان مدينة دانية... وهذا نص الرسالة :

كتابنا أبقاك الله، وأعزك بتقواه، وأناف بك على ما تتمناه، من حضرة مراكش - حرسها الله - لتسع بقين من ربيع الأول سنة عشر وخمسمائة عندما ورد علينا الخبر اليقين بموت أبي السداد رحمه الله، ورأينا - والله الموفق للصواب - أن نوليك جميع ما كان يتولاه، على أنا ما كنا أقررناه بميورقة - حرسها الله - إلا إقرار منعة، وفي سبيل قلعة، وغرضنا كان أن نولى عليها من يصلح من أعيان الرجال، فإنها بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوق أمرها، ويحوط أهلها، فتولّ ما وليناك منها ومن جميع ما كان تحت يد المذكور مضافا إليها بصدر منشرح، وأمل منفسح، واستشعر تقوى الله سرك وجهرك، واجعلها عماد أمرك، فعليها مدار الأعمال، وبها صلاح الأحوال، وحسن في أهل تلك الجزائر - جبرهم الله - سيرتك - وأخلص في النصح لهم والرفق بهم سريرتك، وأكد في إيثار العدل فيهم وسلوك طريق الحق بهم بصيرتك، وسكن بلين الكلمة وحسن النصفة أحوالهم، وارفع بحزمك وعزمك في ضبط البلد أوجالهم، واسع بحسن سياستك في استرجاع من خرج من جيرانهم، واجتهد في صرفهم إلى أوطانهم، حتى يكثر بفضل الله عددهم، وينجبر بلدهم، وانظر في أمر الأسطول المستخلص بدانية حرسها الله، واستنب في ذلك من ترضاه، وإذا وصل إليك خطابنا هذا فلا تتوقف عن النفوذ نحوهم واللحاق بهم، فإنهم مستوحشون بانفرادهم ثم، لا سيما بما أحدثه السفيه المعتوه ابن أبي السداد من إيحاشهم وترويعهم، وبوصولك إليهم يستقيم أمرهم، ويذهب ذعرهم، إن شاء الله تعالى، والسلام[1].

---

1) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد لمجلد السابع والثامن، مدريد 1959 - 1960 ص 157 - 158 - 185.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه وسلم تسليما

كتابنا أبقاكما الله، وأعزكما بتقواه، وأنالكما على ما تتمنياه، من حضرة فاس حرسها الله لتسع بقين من ربيع
الأول سنة عشر وخمسمائة عقب ما ورد علينا الخبر اليقين بموت أبي الشيخ رحمه الله. ورأينا والله الموفق للصواب
أن نوليكما جميع ما كان يتولاه. على أنا ما كنا أفردناه بمدينة [illegible] حرسها الله إلا إفراد منعة. وفي سبيل قلعة. وعزمنا كان
أن نولي عليهما من يصلح من أعيان الرجال. فإنهما بلدة كبيرة تحتاج إلى من يسوس أمرها. ويحوط أهلها. فتولياها وليناكما
منهما ومن جميع ما كان تحت يد المذكور. فأقبلا إليهما بصدر منشرح. وأمل منفسح. واستشعرا تقوى الله سركما
وجهركما. واجعلاها عماد أمركما. فعليها مدار الأعمال. وبها صلاح الأحوال. وحسّنا في أهل تلك الجهات حرسهم الله
سيرتكما وأخلصا في النصح لهم والرفق بهم سريرتكما. وأكدا في إيثار العدل فيهم وسلوك طريق الحق بهم بصيرتكما. وتمسكا
بلين الكلمة وحسن التفقد لأحوالهم. وارفعا جهدكما وعزمكما في ضبط البلاد وأحوالهم. وامنعا بحسن سياستكما في استرجاع
من خرج من جيرانهم. واجتهدا في صرف قلوبهم إلى أوطانهم. حتى يكشف الله عنهم غمهم. ويجمع بلادهم. وانظرا في أمر
الأسطول والمستغلين بفائدته حرسها الله. واستنبا في عزل من تركناه. وإن أرسل إليكما خطابنا مع [illegible]
فلا تتوقفا عن النهوض بحوطهم واللحاق بهم. فإنهم مستوحشون بأثر إعراضكم ثم لا سيما بجبال [illegible] السفينة المعتوه
[illegible] من أجل [illegible] وتهوين سعيهم. ونوصلكم إليهم يستقيم أمركم. ويزيد [illegible] إن شاء الله تعالى والسلام

نسخة خاصة

مما قاله الأعمى التطيلي في أمير المسلمين
علي بن يوسف بن تاشفين

بين سمر القنـــا وبيض النصـــال طُرُق المهتـــدين والضُّـــلاَّل

فـــإلى الأمن والأمـــانـــة أوفى غمراتِ الأوجـــال والآجـــال

☆ ☆ ☆

لـــك ملـــك الملوك في البر والبحـــر وأثنـــاء الحـــل والترحـــال !

أنت قـــدت الجيـــاد مثـــل بنـــات العصم أو مثـــل أمّهـــات الرِّئـــال

قـــد جنبت العـــدا ذلـــولاً وصعبـــاً واشتريتَ العـــلا رخيصـــا وغـــالي

وبلغت المـــدى وزدت عليـــه لا تبـــالي، وقـــل من لا يبـــالي !

إمرة المسلمين أيسر شـــأنيـــك إذا خطـــةٌ ثنت عطف والي

ومحـــل السمـــاك أدنى مكـــانيـــك وإن كـــان عـــاليـــا كـــل عـــالي

وجهـــاد العـــدو أولى زمـــانيـــك بطيب الغـــدو والآصـــال

أو جســـوا منـــك خفيـــة، وتُهـــاب النبـــل قبـــل استـــدادهـــا بـــالنصـــال

لهجـــوا من عـــلاء شـــأنـــك بـــاسمٍ ســـوف يجري لهم بـــأبرح فـــال

يـــوم يغشى ديـــارهم قبلـــك الرعب على نخـــوة بهـــا واختيـــال

ومن شعر الأعمى التطيلي أيضاً في الأمير
علي بن يوسف بن تاشفين

جنـــابـــك للعـــلا حصن حصين وذكرك للمنى دنيـــا ودين

تشـــوفت الملـــوك هـــوى وذعراً إلى ملـــك يـــدان ولا يـــدين

إلى متهلـــل القسمـــات طلـــقٍ كـــأن سنـــا الصبـــاح لـــه جبين

جـــواد بـــالـــديـــار ومـــا حـــوتـــه ولـــو أنّ الـــزمـــان بهـــا ضنين

تعـــز بـــه الركـــائب والقـــوافي إذا كـــانت بـــأقـــوامٍ تهـــون

أبـــا حسن ومـــولى كـــل حسن دعـــاءً لا يميـــل ولا يمين

أدرت على البسيطـــة كـــأسَ طيبٍ تعـــاطتْـــه السهـــولـــة والحـــزون

طليعـــة جيشـــك الظفر المـــواتي وظـــل لـــوائـــك الفتـــح المبين

وليّ العهـــد لي بهـــواك عهـــد كـــأنْ مـــدائحي منـــه يمين !

تدهور العلاقات بين المرابطين وبني هود سقوط سرقسطة واضطراب أحوال الأندلس

- موقف المرابطين من مسالمة بني هود للروم.
- سفارة أمير بني هود لأمير المسلمين.
- المرابطون يستولون على سرقسطة.
- الحلف المسيحي ضد المرابطين وسقوط المدينة.
- ظهور بوادر الفتنة بإشبيلية...
- وفادة ابن رشد على مراكش.
- جواب العاهل المغربي حول مهمة ابن رشد.
- هزيمة القلاعة وبلنسية واختلال أمر المرابطين.
- تبادل الخطابات...

تدهور العلاقات بين المرابطين وبني هود
سقوط سرقسطة واضطراب أحوال الأندلس
1118 = 512

وقد تميزت هذه الفترة ببعض الاتصالات السياسية بين الأمراء الأندلسيين ودولة المرابطين...

وهكذا فإن مملكة بني هود المستقلة ظلت على عهودها ومجاملاتها لأمير المسلمين بالرغم مما أشار به أهل الدولة على العاهل للاستيلاء على مملكة بني هود التي بقيت خارج النفوذ المرابطي مبررين تدخلهم حول الموضوع بمسالمة سرقسطة للروم !...

ولهذا فبمجرد ما بلغت أصداء تلك «السعايات» إلى أميربني هود الجديد أبي مروان عبد الملك لم يتردد في إرسال سفارة للعاهل المرابطي تحمل معها رسالة تتضمن تذكير أمير المسلمين بالعهود التي قطعها يوسف على نفسه فيما يتعلق بكيان مملكة شرق الأندلس، تلك العهود التي شهدها كل من عبد الملك وعلي بن يوسف عندما كانا ما يزالان وليي عهد بمناسبة سفارة أبي مروان إلى المغرب علىما عرفناه...

وقد أتت هذه الحركة الدبلوماسية من أبي مروان، بثمرتها، وهكذا فبالرغم من أن أمير المسلمين أعطى تعليماته للأمير أبي بكر ابن تيفلويت بالإجهاز على المملكة الباقية، عاد فأصدر أوامره بالكف عن بني هود، وقد كان مما ورد في الرسالة الموجهة للمغرب هذه الفقرات :

وقد كان المستعين بالله خاطب أباك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يسأله الدعوة، ويرغب في الهدوء، والاستعانة على العدو، فأقام وأقمنا معه مريحين، ومن تعب النفاق فرحين، فنعمنا بنور الهداية الساطع الإشراق، واغتنمنا الدعوة في هذه الآفاق، ثم دهمنا من جهتكم داهم أبدى صفحته، ونسيم بل عاصف أهدى إلينا نفحته، ولا يمكننا تسليم أيدينا إليكم يتحكم فينا الإذلال، ويتمكن في محالنا الاستنقاص بالحقور والاختلال، ولم تتقدم منا إليكم إساءة جهرت بالقول، ولا أمرت ولا أجلت بجنابكم لا غزو ولا ضرر، بل تفيض عليكم استمالتنا وتستعطفكم في كل حال مقالتنا، وقد كان لكم فيما فعله أبوكم أمير المسلمين إسوة حسنة، وأيام كانت بيننا وبينه مستحسنة، فإن يكن الله أراد أمرا نفذه في خلقه فلا راد لمشيئته، ولا حائد عن بليته، وسيعلم مبرّر هذا الرأي عندكم سوء مغبته، وعظيم هيئته في الفساد ورتبته، والله حسيب من بغى، وابتدأ بالتضريب بيننا وابتغى، وحسبنا الله وكفى، والسلام(1).

لكن الخلاف لم يلبث أن دب بين المرابطين وبين بني هود، الأمر الذي أدى إلى هيمنة المرابطين على المدينة ! وهكذا وجدنا ابن هود يعقد مع ألفونسو محالفة ضمت بها قواته إلى جيش قشتالة، «ولما رأى ابن ردمير ـ يقول ابن أبي زرع ـ ذلك، بعث إلى طوائف الأفرنج يستنصر بهم على أمير سرقسطة المرابطي، فأتوا كالنمل والجراد، فنزلوا بها وشرعوا في قتالها، وصنعوا أبراجا من خشب تجري على بكرات وقربوها منها، ونصبوا فيها الرعادات، ونصبوا عليها عشرين منجنيفا... واستمر الحصار عليها حتى فنيت الأقوات ومات أكثر الناس جوعا...»

---

1) الحلل الموشية ص 81 ـ 82.

وهكذا فإذا كان التفاهم قد استمر إلى حين بين الفونسو وبين أمير سرقسطة فإنه ما لبث أن اضطرب... وهكذا سقطت سرقسطة نهائيا في يد النصرانية ودخلها الفونسو في رمضان عام 512 (دجنبر 1118) ! وبانهيار سرقسطة ينهار معقل من أهمّ المعاقل الإسلامية(2).

إنها معارك مستمرة هنا وهناك، في كل إقليم من أقاليم الأندلس وعلى كل ربوة، وفي كل مدينة وقرية.

☆ ☆ ☆

ولابد أن نلاحظ هنا إلى جانب كل ذلك الصراع من لدن المرابطين ضد تحدي القشتاليين، تلك الانتفاضات التي أخذت تظهر في بعض القواعد الأندلسية والتي كانت تهدد بانتشار بذور الفتنة بين المسلمين، الأمر الذي كان يعكس بآثاره على المواجهات المسلحة التي يخوضها المرابطون حيال الذين يعملون على تقليص الوجود الإسلامي بالجزيرة، وهذه إحدى الرسائل الهامة التي رفعها العاهل المرابطي علي بن يوسف بن تاشفين من مراكش إلى أهل اشبيلية بتاريخ 24 جمادى الأولى عام 512 = 12 يوليه 1118 وهي من إنشاء أبي القاسم ابن الجد ونحن ننقلها عن قلائد العقيان للفتح ابن خاقان...

إلى أهل إشبيلية :

كتابنا أبقاكم الله وعصمكم بتقواه، ويسركم من الاتفاق والايتلاف إلى ما يرضاه، وجنبكم من أسباب الشقاق والخلاف ما يسخطه وينعاه، من حضرة مراكش حرسها الله لست بقين من جمادى الأولى سنة اثنتي عشرة وخمسماية وقد بلغنا ما تأكد بين أعيانكم من أسباب التباعد والتباين، ودواعي التحاسد والتضاغن، واتصال التباغض والتدابر، وتمادي التقاطع والتهاجر، وفي هذا على فقهائكم وصلحائكم مطعن بين، ومغمز لا يرضاه مومن دين، فهلا سعوا في إصلاح ذات البين سعي الصالحين، وجدوا في أبطال أعمال المفسدين، وبذلوا في تأليف الآراء المختلفة وجمع الأهواء المفترقة جهد المجتهدين، ورأينا والله

2) ابن أبي زرع : روض القرطاس 2، ص 83 ـ 88 ـ 89 أشباخ : تاريخ الأندلس ص 144.



سرقسطة مسجد قصر الجعفرية

كتابنا أبقاكم الله وعصمكم بتقواه ويسّركم من الأمر لما تعداه ولا يتطلب إلى ما فيه رضاه وجنبكم من أسباب
الشقاق والاختلاف ما يسخطه ويأباه، من حضرة مراكش حرسها الله لست بقين من جمادى الأولى
سنة اثنتي عشرة وخمسمائة، وقد بلغنا ما تأكد بين أعيانكم من أسباب التباعد والتباين ودواعي
التحاسد والتضاغن، واتصال التباغض والتدابر، وتمادي التقاطع والتهاجر، ووقف
هذا على بعضكم وصلحائكم مكتفين ببيّن ومخفيّ لا يرضاه مؤمن ديّن، فهلا سعوا في إصلاح
ذات البين سعي الناصحين وجدّوا في إبطال أعمال المفسدين وبذلوا في تأليف الآراء المختلفة
وجمع الأهواء المفترقة جهد المجتهدين، ورأينا والله الموفق للصواب أن نعذر إليكم بهذا
الخطاب بدءا، ونُقل إليكم وقد علمكم بأن تقمعوا الأنفس الأمّارة بالسوء وترغبوا في السكون
والهدوء، وتنكبوا عن كل ما يولد البغي الذميم المشنوء، واحذروا دواعي الفتن وعواقب الأحن
وما يجني ذلك الضغائن ويبدي السرائر ويعمي البصائر ويضيع المصالح، واشفقوا على
أديانكم وأعراضكم، وتوجهوا إلى الصلاح في جميع أغراضكم، وأخلصوا السمع والطاعة
لولي أموركم وخليفتنا في تدبيركم وسياسة جمهوركم أخينا الكريم علينا أبي إسحاق
إبراهيم أبقاه الله وأدام عزه بتقواه، واعلموا أن يده فيكم كيدنا ومشهده كمشهدنا
فقفوا عند ما يحكم عليه ويدعوكم إليه ولا تختلفوا في أمر من الأمور لديه، وانقادوا
أسلس انقياد لحكمه وعزمه ولا تقيموا على تتبع عناد بين حده ورسمه، والله تعالى
يفيء بكم إلى الحسنى وييسركم إلى ما فيه صلاح الدين والدنيا بقدرته.

الموفق للصواب، أن نعذر إليكم بهذا الخطاب، فإذا وصل إليكم، وقرئ عليكم، فاقمعوا الأنفس الامارة بالسوء، وارغبوا في السكون والهدو، ونكبوا عن طريق البغي الذميم المشنو، واحذروا دواعي الفتن، وعواقب الاحن، وما يجر داء الضمائر، وفساد السرائر، وعمي البصائر، ووخيم المصائر، واشفقوا على أديانكم وأعراضكم، وتوبوا إلى الصلاح جميع أغراضكم، واخلصوا السمع والطاعة لوالي أموركم، وخليفتنا في تدبيركم، وسياسة جمهوركم، أخينا الكريم علينا أبي اسحق ابرهيم أبقاه الله، وأدام عزه بتقواه، واعلموا أن يده فيكم كيدنا، ومشهده كمشهدنا، فقفوا عندما يحضكم عليه، ويدعوكم إليه، ولا تختلفوا في أمر من الأمور لديه، وانقادوا أسلس انقياد لحكمه وعزمه، ولا تقيموا على ثبج عناد بين حده ورسمه، والله تعالى يفيء بكم إلى الحسنى، وييسركم إلى ما فيه صلاح الدين والدنيا، بقدرته.

وفادة ابن رشد لمراكش قضية المعاهدين وتغريبهم إلى مكناس وسلا !

ومع كل تلك الأحداث نجد سفارة شعبية - إذا صح التعبير - ببلاط مراكش برئاسة القاضي أبي الوليد ابن رشد، لقد أدرك قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد بن رشد (الجد) أن الأحوال في الأندلس تسير على غير هدى، وأنها تنذر بخطر يهدد الوجود الإسلامي بتلك الديار... فلقد برزت مشكلة النصارى المعاهدين التي أخذت تستفحل يوماً عن يوم، وهناك السلوك الغير المحمود الذي يسير عليه بعض ولاة الأندلس من المرابطين مما يضاعف من الشعور بالكراهية ضد الآخذين بزمام الحكم...

لقد كان هناك بالجزيرة عدد من النصارى «المعاهدين» يعيشون في جل القواعد الأندلسية مثل قرطبة واشبيلية وطليطلة وبلنسية آمنين مطمئنين،

وكـانـوا إلى جـانب لغتهم الرومـانيـة الأصليـة مستعربين (Los MOZARABES) يتكلمون اللغة العربية[3]، وقد تمتعوا في أكثر الأحيان بامتيازات خاصة إلا أن الملاحظ مع كل ذلك أنهم لم يتوفروا في وقت من الأوقات، على عاطفة الولاء نحو الحكومات المسلمة ! بل إنهم دائما، على ضغنهم وخصوماتهم لها وتربصهم بها، ينتهزون أية فرصة للإيقاع بها وممالأة الملوك النصارى ومعونتهم بكل وسيلة على محاربة الجماعة الإسلامية وتسهيل مهمة النصارى في غزوها والتنكيل بها، وهناك أمثلة من الوقائع التاريخية لا حصر لها حول الموضوع[4]...

وبهذا نفسر ارتفاع أصوات الفقهاء المطالبين بالتشدد في معاملة هؤلاء «المعاهدين» وتجريدهم من كثير من ضروب الحرية والتسامح التي كانوا يتمتعون بها...

وقد بلغت خيانة المعاهدين ذروتها حينما عملوا على استدعاء (ابن رذمير) الفونسو الأول الملقب (بالمحارب)[5] ملك أراغون (AL FONSO I EL BATALLADOR) لغزو الأندلس، ووعدوه بأن ينضموا إلى جيشه ألوفا... وقام الفونسو بالفعل بالغزوة المنشودة فخرج من سرقسطة (السليبة) في شعبان عام 519 (1125م) واخترق الأندلس من الجانب الشرقي مارا بقرب بلنسية ودانية ومرسية وهو يعبث في بسائطها، و«المعاهدون» يحتشدون في جيشه من كل صوب... حتى بلغ قرية بادِس مالقة (Velez-Malaga) على ساحل البحر المتوسط. وهناك أمر الفونسو بصنع مركب في البحر وأخذ يتلهى بصيد السمك للتدليل على مبلغ ما حققه من آماله، ولكيْ يروى فيما بعد أن ملكا من ملوك أراكون خرج من سرقسطة وترك وراءه كثيرا من أراضي العدو، وقام بصيد السمك على الشاطىء المقابل لديار المغرب[6] !!

---

3) هؤلاء كانوا في مقابلة المسلمين الذين يعيشون في الأراضي النصرانية ويقال لهم المدجنون (Mudejares).

4) الحلل الموشية 76/75 ـ أشباخ : تاريخ الأندلس ص 146 ـ 147.

5) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين وصحيفة معهد الدراسات الإسلامية، المجلد 8/7 مدريد 1959 ـ 1960 ص 132 ـ 124 ـ 125.

6) الحلل الموشية ص 78 ـ أشباخ 149 ـ محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة، صحيفة معهد الدراسات، مدريد 1959 ـ 1960 ص 125.

وشعورا من القاضي ابن رشد (الجد) بالخطر المتزايد لأولئك الذين «يأكلون خيرنا ويعبدون غيْرنا» تطوع نيابة عن زملائه الفقهاء ورجال الدين، بالقيام بسفارة لدى أمير المسلمين، وهكذا رحل في نفس هذه السنة 519 إلى مراكش، حيث تلقاه العاهل بالمبرة والكرامة واستمع إلى تقريره عن الوضع في الأندلس، وبخاصة عن النشاط المعادي الصادر من النصارى «المعاهدين» وعن إمداد ابن رذمير ضد المسلمين... وقد طلب ابن رشد إلى العاهل أن يصدر أمره بتغريب هؤلاء إلى العدوة المغربية، الأمر الذي لقى قبولا حسنا من أمير المسلمين الذي طير التعليمات إلى جميع بلاد الأندلس بإزعاج «المعاهدين» إلى ناحية مكناسة وسلا وغيرها من بلاد العدوة.

ويحتفظ التاريخ برسالة من إنشاء أبى عبد الله بن أبي الخصال عن أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وهي تتعلق بهذه الوفادة : وفادة الفقيه المشاور ابن رشد إلى المغرب والتقائه بأمير المسلمين على ما نستفيده من صاحب «الحلل الموشية»، وعلى ما يقوله ابن الخطيب في الإحاطة نقلا عن ابن الصيرفي، لقد كانت هذه السفارة فيما يبدو آخر ما اضطلع به الفقيه القرطبي... ولم يمت إلا بعد أن وصلته أصداء تغريب النصارى المعاهدين إلى إقليم مكناس وسلا وغيرهما من أراضي المغرب.

كتابنا - أبقاكم الله، وأكرمكم بتقواه، وعصم جانبكم وحماه وتمم عليكم عوارف نعماه - من فلانة حرسها الله، وقبلُ ما وفد إلينا وورد علينا الفقيه الأجل المشاور أبو الوليد ابن رشد - أعزه الله بطاعته -، فبسط لدينا شأن تلك الجزيرة - كلاها الله - وجلاه، ووصف من حالها ما اصخنا له حتى استوفاه، وجال بميدان البيان أفصح مجال، وعرض الأمور في معرضها بأبلغ مقال، فاشفقنا - علم الله - كل الاشفاق، وتضاعف ما كان عندنا وكيدا لصلة النظر واشتياق، ولن نألوا جهدا مبذولا، وجدا حفيلا، وعزما لا نابيا ولا كليلا، فيما ندرأ وندفع، ونذوذ عن حوزة الملة ونمنع ونداب لذلك (الدأب) الحثيث، ونتبع القديم فيه بالحديث، وننصب له النصب الذي ليس حبله السحيل ولا النكيث، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن أهم، بل نصرف نحو جنابكم الحزم الأتم الأهم، وجهد الكفاية مادهم حادث وألم، فاستشعروا أن أموركم إزاء ناظر اهتبالنا، ومن آكد

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه

كتابنا أبقاكم الله، وأمركم بتقواه، وعصم جانبكم وحماه، وتمم عليكم عوارف نعماه
من حضرة مراكش حرسها الله. وقبل ما وقع إلينا ورد علينا الفقيه الأجل المشاور أبو الوليد
ابن رشد أعزه الله بطاعته. فبسط لنا بيان شأن تلك الجزيرة كلأها الله وحاطها. ووصف
من حال العدو ما أكمله حتى استوفاه. وجال فيه إذ البيان أفسح مجال، وعرض الأمور في معرض فضل
بأبلغ مقال. فأشفقنا علم الله كل الإشفاق، وتضاعف ما كان عندنا وكيد الصلة النظر
والاشتياق. ولزمنا الوجهة أمثولا، وجهة احتفالا، وعزما لا ثانيا ولا كليلا. فيما ندرأ وندفع.
ونذود عن حوزة الملة ونمنع. ونذأب له الدأب الحثيث. ونتبع القديم فيه بالحديث، وننصب
له النصب الذي ليس حبله بالسحيل ولا النكيث، ولا يشغلنا عنه شاغل وإن اعتمّ. بل نصرف نحو
جنابكم العزم الأتم الأعمّ. وجهة الكفاية ما دهم حادث وألمّ. فاستشعروا أن أمركم
إزاء ذلك أهم اهتبالنا. ومن آكد موكدات اشتغالنا. وقد عاين الفقيه الأجل المتقدم الذكر
حقيقة الأمر، وسيبلغكم ذلك عنه. فلا تكونوا في ريب منه. والله تعالى يعيننا على ما نحن
بصدده. ويمنحنا من تأييده ما يعز الإسلام ويقيم من تأوده. بحوله وطوله. ومنه وفضله

نسخة خاصة

موكدات اشتغالنا، وقد عاين الفقيه الأجل المتقدم الذكر حقيقة الأمر، وسيبلغكم ذلك عنه، فلا تكونوا في ريب منه، والله تعالى يعيننا على ما نحن بصدده، ويمنحنا من تأييده ما يعز الإسلام ويقيم من أوده، بحوله وطوله، وعدله وفضله.

☆ ☆ ☆

وفي نفس المعنى كتب ابن أبي الخصال رسالة من أمير المسلمين علي بن يوسف إلى ابنه أبي بكر قائد الجيوش المرابطية بالأندلس، وقد حررت بحضرة مراكش يوم الأربعاء 27 صفر 520 = 25 مارس 1126، ونستنتج من الرسالة أن أبا بكر بن علي قد كتب إلى أبيه شارحا الظروف التي وقعت فيها حملة ألفونسو المحارب على الأندلس... وبالنظر لسفارة ابن رشد فإنه يمكن أن نلحق بذلك هذه الرسالة التي وجهها العاهل إلى ابنه يحثه على بذل أقصى الجهد والمال في سبيل حماية المسلمين وتجنب عودة مثل تلك الحملات النصرانية...

وهذا نص الرسالة المرابطية(7) :

كتابنا يمنّ الله أنحاءك ومذاهبك، وأمن أرجاءك وجوانبك، وأسمى بتقواه أحوالك ومراتبك، من حضرة مراكش - حرسها الله - يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة عشرين وخمسمائة، وقد وردنا في اليوم المذكور كتابك الأثير مضمّنا صفة الحال الجارية، بحكم الأقدار النافذة الماضية، وألاّ صارف لما أمضاه، ولا معقب لما شاءه وقدره لا إله سواه، والله جل ذكره المليء بالخير وأجمل الصنع، واصارة المسلمين في كنف الحماية والمنع، والذي أتيته وتوخيته من الثبوت والوقوف، والعمل البادي الصواب والشفوف، مشكور لك محمود، فليطر عليك منك جد موجود، واعتمال لا يكون عليه المستزيد، فهذا وقت بذل النفوس، فضلا عن الأموال، التي تدخر لحاجات الرجال، وهو متعين على الحشوة والكافة، فكيف علينا أو على من كان منا أو منتسبا إلينا ! فجرد عن ساعد اعتزامك، واستفد ما يبقى لك ذكرا، ويذخر أجرا، متعاقب أيامك، فيحوز لك خير الدارين، ويجوز شرف المنزلتين، وقد رأينا - والله الموفق

---

7) محمود على مكي : وثائق تاريخية جديدة صحيفه معهد الدراسات الإسلامية، 1959 - 1960.

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وصحبه

كتابنا أبقاك الله أعزك ومد أمدك. وأمن أرجاءك وجوانبك. وأسمى بتواليه أحوالك ومراتبك. من حضرة مراكش حرسها الله
يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة عشرين وخمسمائة. وقد وردنا في اليوم المذكور كتابك الأثير متضمنا صفة الحال
الجارية. بحكم الأقدار النافذة الماضية. والأسباب لما أمضاه. ولا معقب لما شاءه وقدره ولا راد لما قضاه. والله جل
قد كان المليء بالخير وأجمل الصنع. وإنارة المسلمين في كنف الحماية والمنع والنصر أتيته وتوخيته من الثبوت والوقوف
والعمل البالغ الصواب والشفوف. مشكور لك محمود. فليكن عليك منك جد موجود. واعتمال لا يكون عليه المستزيد
جهدا وقت بذل النفوس. فضلا عن الأموال التي تدخر لحاجات الرجال. ونحو متعين على العشرة والكافة. فكيف
علينا أو على من كان منا أو منتسبا إلينا. فجرد من ساعد اعتزامك. واستبد ما يبقى لك ذكرا. ويدخر أجرا. متعاقب
أيامك. فيحوز لك خير الدارين. ويحوز لك شرف المنزلتين. وقد رأينا والله الموفق للصواب أن نقدمك على جميع الجيوش بتلك
الجزيرة عصمها الله عموما يشمل من كان بتلك الجهة منها. ومن وصل من بلاد العدوة حرسها الله إليها. وخاطبناهم
بالسمع منك والطاعة لك. وأن يطابق كل واحد منهم رأيك. ويوافق عملك. وليست الحال الآن كالحال قبل. فإنها الآن
يتنوع بها الفرق منها والجل. والكثر والقل. فقف إزاء العدو. وصل في المدافعة والمواثبة الرواح بالغدو. ومل
حيث مال. وصل الاجتهاد والاعتمال. وتشاور مع الفقهاء. وأعمل الرأي في الأنحاء. وابعد عن الاستئثار والاستبداد. وأيد
في جميع الأنحاء. وانبذ نبوءة النعم المتقدمة في غرضه بعد توقد الارتياء. وقدم الاستخارة لله تعالى على كل عمل مآله
الأشياء. والمتدارك في اللأواء. ورتب الناس في مراتبهم. وأنزلهم أحسن منازلهم. واعلم قدر هذه النعم تكفلناه وعضدناه
بشكرك. فإنه عظيم جدا. ويتعين عليك أن تقدره حق قدره. وتستفرغ فيه جهدا أو جدا. ووسع صدرك. وادرع الصبر
والأناة أمرك. واحتمل ما تكره بعد. لتنال من مغبة ذلك ما تحمده. ولا غاية بعد ما لدينا من تطلع وكيد إليك. وإن أمكنك
أن تعرفنا مع الأيام بالأنباء. فصل بذلك معهود الاحتفاء. واطلع الله على السراء. وتكفل بقمع الأعداء. بمنّه

نسخة خاصة

للصواب ـ أن نقدمك على جميع الجيوش بتلك الجزيرة ـ عصمها الله ـ عموما يشمل من كان هناك منها، ومن وصل من هذه العدوة ـ حرسها الله ـ إليها، وخاطبنا عملك بالسمع منك والطاعة لك، وأن يطابق كل واحد منهم رأيك، ويوافق عملك، وليست الحال الآن كالحال قبل، فإنها الآن يتنوط بك الدق منها والجل، والكثر والقل، فقف إزاء العدو، وصل في المدافعة والمواثبة الرواح بالغدو، ومل حيث مال، وصل الاجتهاد والاعتمال، وتشاور مع القواد، وأهل الرأى من الأجناد، وأبعد عن الاستئثار والاستبداد، وأيد في جميع الأنحاء، وانفذ نفوذ السهم المسدد في غرضه بعد تردد الارتياء، وقدم الاستخارة لله تعالى على كل عمل مالك الأشياء، والمتدارك في اللأواء، ورتب الناس في مراتبهم، وأنزلهم أمكن منازلهم، واعلم قدر هذا الذي نطناه وعصبناه بنظرك، فإنه عظم جدا، ويتعين عليك أن تقدره حق قدره، وتستفرغ فيه جهدا وجدا، ووسع صدرك، وابن على الصبر والاناأة أمرك، واحتمل ما تكرهه، لتنال من مغبة ذلك ما تحمده، ولا غاية بعد ما لدينا من تطلع وكيد إليك، وإن أمكنك أن تعرفنا مع الأيام بالأنباء، فصل بذلك معهود الاحتفاء، اطلع الله على السراء، وتكفل بقمع الأعداء، بمنه.

لقد أصبحت أحوال المرابطين بالأندلس تسير نحو التقهقر بالرغم مما كانوا يبذلونه... وإن الوسائل السياسية لم يعد لها ذكر في الساحة الأندلسية، وإنما الكلمة للمواجهة المسلحة... كانوا لا يتوقفون عاماً واحداً عن إرسال البعوث لمحاولة استعادة سرقسطة... إن الجزيرة تحولت كلها إلى ميدان حرب رهيب يقتتل فيه النصارى مع المرابطين الذين كانت حالتهم المعنوية تسوء يوما عن يوم بسبب اضطراب أمور دولتهم في المغرب، وتنكر الأندلسيين المسلمين عليهم..!

وهذه الوثيقة تتحدث عن إحدى المحاولات لانقاذ الأندلس وتحدد لنا تاريخها وتصفها وصفا لا بأس به، وقد حررت بمراكش من لدن الكاتب الأندلسي أبي مروان بن أبي الخصال بتاريخ 7 شعبان 523 = 26 يوليه 1129، مرفوعة عن أمير المسلمين إلى الأمير ابن أبي بكر ابن سير حول هزيمة القلعة (ALCOLEA) أو القلاعة على مقربة من جزيرة شقر (ALCIRA).

كتابنا وفق الله رأيك وحسن هديك، ولا أمال عن الهدى والرشد سعيك، من حضرة مراكش حرسها الله في السابع من شعبان المكرم سنة ثلاث وعشرين وخمس مائة. وقبله وافى كتابك تذكر فيه الميْلة التي كانت للعدو ـ دمره الله ـ عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه، بعد أن كان لكم صدره وأتيح لكم نصره، فأواخر (الأمور) أبداً أوكد وأهم، والعواقب هي التي تحمد أو تذم، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أنهى وأتم، وإن لسان العذر بتلك الحال لقصير، وإن الله على ذلك المشهد المضيع لمطلع بصير : تواقفتُم مع عدوكم، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر (جمللعدو ـ دمره الله ـ عليك في اليوم الذي واجهتموه فيه، بعد أن كان لكم صدره وأتيح لكم نصره، فأواخر (الأمور) أبدا أوكد وأهم، والعواقب هي التي تحمد أو تذم، وإذا حسنت خواتم الأعمال فالصنع أنهى وأتم، وإن لسان العذر بتلك الحال لقصير، وإن الله على ذلك المسهد المضيع لمطلع بصير : تواقفتهم مع عدوكم، وأنتم أوفر منه عدة وأكثر (جمعا، وأحرى أن تكونوا أشد عن حريمكم منعا، وأقوى دونه دفعا، فثبت وزللتم، وجد ونكلتم، وشد عقد عزيمته وحللتم، وكنتم في تلك الوقعة قوة عين الحاسد وشماتة العدو الراصد، وقد كانت نصبة توليكم بين يديه بشيعة هائلة، ودعامتكم لولا انثناؤه عنكم مائلة، فشغله عنكم من غرر تموه من الرجل الذي أسلمتموه للقتل، وقررتم، ونصبتموهم دريئة للمرماح ثم طرتم، ولولا مكان من أوردتموه من المسلمين ولم تصدروه، وخذلتموه من المجاهدين ولم تنصروه، لا نكشف دون ذلك الرماح جنتكم ووقاؤكم، وأصيبت بها ظهوركم وأقفاؤكم، عاقبكم الله بما أنتم أهله، فأنتم أشجع الناس أقفاء وظهورا، وأجبنهم وجوها ونحورا، ليس منكم من تدفع به كريهة، ولا عندكم في الرشد روية ولا بديهة، فمتى وأي وقت تفلحون ؟ ولأي شيء بعد ذلك تصلحون ؟ ونحمد الله عز وجهه كثيرا، فقد دفع بفضله الأهم الأكبر، وأجزى بأكثر السلامة القدر : فاكشفوا بعد أغطية أبصاركم، وقصروا حل اغترارکم، والبسوا منه جنة حذاركم، واعلموا أن وراء مجازاتنا إياكم جزاء توفونه ويوما عصيبا تلقونه، فكونوا بعد هذه الهناة لداعي الرشد بين مطيع وسامع، ومن كلمة الاتفاق والتآلف على أمر جامع، فإنكم لو (خلصت غيوبكم) حسنت سريرتكم، واطمأنت على التقوى قلوبكم، لظهر أمركم وعلا حدكم، ولما ذهب ريحكم ولا أخل جدكم، فتوخوا في سبيل الله وطاعته أخلص النيات

وأصدق العزمات، واثبتوا أحسن الثبات، وكونوا من الحذر والتقوى على مثل ليلة البيات.

وقد ذكر أن للعدو دمره الله مدداً يأتيه من خلفه، والله يقطع به، فلتضعوا على مسالكه عيونا تكلأ، ولتكن آذانكم مصيخة لما يطرأ، فإن كان له مدد كما ذكر قطعتم به السبيل دون لحاقه، وأقمتم الحزم على ساقه، والله تعالى يفتح لكم فيهم الأبواب، ويأخذ بأزمتكم إلى الصواب، إنه الحميد المجيد، لا إله غيره».

☆ ☆ ☆

وفي نفس المعنى أي عن انهيار الأحوال في شرق الأندلس نجد أن أمير المسلمين لم يقبل معاذير القائد المرابطي في تأخره عن القيام بواجبه للدفاع عن القلعة، لقد كتب إليه يلومه عن «خزية المقادير» هذه، في أسلوب عنيف، ويستفاد من نص الخطاب أنَّ صدر اليوم كان للمرابطين وأن الهزيمة دارت عليهم في النصف الثاني...

وقد لاحظ المهتمون بفن الكتابة على العهد المرابطي أن المنشئ للخطاب - وهو ابن أبي الخصال - بالغ في إهانة المرابطين... ومن الجدير بالذكر أن هذا الأسلوب في الخطاب أغضب ذات يوم أمير المسلمين الذي كان يرى فيه تعريضا بالوجود المرابطي في الجزيرة الإيبيرية !.

لقد حملت هذه الرسالة تاريخ 11 شعبان 523 = 11 غشت 1129.

كتابنا أبقاكم الله وأكرمكم بتقواه وكنفكم بعصمته وجعلكم في حماه وأسبغ عليكم عوارفه ونعماه، من حضرة مراكش حرسها الله في الحادي عشر من شعبان المكرم من سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، غب ما وافانا كتابكم الأثير، مضمنا وصف اليوم الذي جرت به خزية المقادير، فاستعرضناه وتقرر لدينا جميع ما حواه، وفي علمه سبحانه موقع ذلك لدينا وعزازة شأنه علينا، لكن لا مخرج عن القضاء وحكمه، ولا محيد عن القدر وحتمه، ولن يرد حول محتال ما سبق

في علمه، وما ألونا - وهو عز وجهه أعدل الشاهدين - جدا وعزما وكدحا لإعلاء كلمة الإسلام، وحزما ببذل الأموال وتخير الرجال...[8]

ابن أبى الخصال وانهزام المرابطين في بلنسية !

ولقد اغتنم الكاتب الأندلسي ابن أبي الخصال الذي كان يعمل في بلاط الأمير علي بن تاشفين. أقول : اغتنم فرصة أمرٍ من لدن الأمير المذكور بتحرير رسالة توبيخ إلى القواد المرابطين الملثمين - وقد انهزموا أمام ابن روذمير (الفونسو المحارب) في أرض بلنسية.... اغتنم تلك الفرصة ليكيل شتائم مغلّفة للمرابطين أجمعين، الأمر الذي استدعى إقصاءه عن البلاط المرابطي !

لقد نعت المنهزمين ببني اللئيمة وأعيار الهزيمة... وبرعاة الإبل... وهدّدهم بإعادتهم إلى صحرائهم وتطهير الجزيرة منهم بعد عقابهم ! وبأن اللؤم تحت عمائمهم والفشل طيّ عزائمهم !!.

وهذا نص الرسالة عن مخطوطة ريحان الألباب للمواعيني[9] :

«أما بعد يا فرقة خبثت سرايرها وانتكثت مرايرها وانتفخ سحرها وغاض على حين مرة بحرها، فقد آن للنعيم أن يفارقكم، وللأقدام أن تطأ مفارقكم، حين ركبتموها جلوى عارية، وأصبحتم في ادّراع عارها أمثالا سواسية، قد اختلط المرعى منكم بالهمل، وما يتميز لأنقص من الأكمل، فطأطأتم لها رؤوس

8) حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مجلة كلية الاداب - القاهرة مجلة 11 ج 2 - دجنبر 1149 ص 152.

9) عنوان المخطوطة الكامل :

«ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب» تأليف : أبى القاسم محمد بن براهيم ابن خيرة المواعيني الاشبيلي. الخزانة الحسنية رقم 1406 ورقة 35 - أ - ب.

د. مصطفى الزباخ : النثر الفني الأندلسي في ظل المرابطين، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في الأدب العربي من جامعة محمد بن عبد الله (فاس) 81 - 1982 بنية الخطاب في فنّ الرسالة المرابطية بالأندلس، دار النشر الجديدة - البيضاء - 1987.

عشايرهم، وقضيتم بالفسولة على سايركم، لا جرم أن قد صرتم سمر الندى، والأحاديث الملعنة بالغداة والعشى، بما داخلكم من الجبن والخور، واستهواكم من لقاء العدو بالجانب الأزور، ولا تواجهونهم طرفة عين، ولا تعاطونهم حمة حين، بل تعطونهم الظهر هنيا مريا، وتتخذونهم وراءكم ظهريا، والرماح نحوكم لم تشرع، والخيل لم تسرع، والنفوس في حياض الكريهة لم تكرع، وأنتم ثلة ديابهم، وفريسة أنيابهم، قد نعموا في بؤسكم، وناهضوكم بلبوسكم، فما يستظلون إلا أبنيتكم، ولا يرفعون إلى أوليتكم قرنا، جزوكم عاما على إثر عام، وألصقوكم بالرغام، وتركوكم أسلح من حبارى، وأشرد من نعام فالآن حين ملأتم أيديهم متاعا، وواديهم سلاحا وكراعا، قد غزوكم في عقركم، وأذاقوكم وبال أمركم، فلذتم بالجدران، وبؤتم بالمذمة والخسران، يا بغايا بني الأصفر، وسجايا ذوات الدل والخفر، كرهتم زحافهم، وربما كنتم ـ علم الله ـ أضعافهم، فأنى لكم بالمعذرة ؟ وأين ؟ وقد فرض الله الواحد منكم بالإثنين، فقال تعالى : وإن تكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين.

هذا، وكلمتكم العليا، وطويتكم الحياة الدنيا، ما شئتم من صارم وطرف، وغضن محقف، وسوامق وسوابق، ونضايد وولايد، وخيام ؟ لا إلى الحنيفية تحيزتم، ولا بالأباء والحفيظة تميزتم، فو أسفا للحق يدفعه الباطل، وللحالي يبهره العاطل، ليت شعري فيماذا تقلدتموها هندية، واعتقلتموها سمهرية خطية، وركبتموها جردا سوابق، وملكتموها مغارب ومشارق، ترتشفون ريقها، وترتضعون أباريقها، ثاوين في غير عدادكم، منتزين على أضدادكم يؤدون الإتاوة إليكم، ويحرقون بابا عليكم، حين أشرقتموهم بالهوان وأنتم فيهم غرباء الوجه واليد واللسان، وصيروكم عبيد العصا، ولستم بالأكثر منهم حصا، فيا عجبا من ذهولكم : شبابكم وكهولكم، تأكلون ثمرها، ولا تصلون جمرها، وتذهبون بحلوئها، ولا تصبرون على لأوائها. أي بني اللئيمة يا أعيار الهزيمة إلى متى يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد :

إلى م يريعكم الناقد	ويردكم الفارس الواحد
ألا هل أتاها على نأيها	بما فضحت قومها غامد
تمنيتم مائتي فارس	فردّكمُ فارس واحد
فليت لكم بارتباط الخيول	ضئانا لها حالب قاعد !

ومن لرعاة الإبل بالجد المقبل ؟ أما أنتم فقد قدحتم في ملكنا، وأذنتم في انتشار سلكنا، فلولا من لدينا من ذويكم، وضراعتهم إلينا فيكم، لألحقناكم بصحاريكم ! وطهرنا الجزيرة من رحضايكم ! بعد أن نوسعكم عقابا ونحد ألاّ تلووا على وجه نقابا، فاللؤم تحت عمائمكم ! والوهن والفشل طي عزائمكم ! لكن ما جبلنا عليه من الأناة، وتوخيناه قديما من إيقاظ ذوي السنات، يكفنا عن استئصالكم، ويحملنا على شحذ نصالكم، فاستنسروا يا بغاة الهيجاء. واستيئسوا بعد الرجاء، واحذروا حكيما أغضبتموه، وصدرا رحيبا أحرجتموه، وليثا من أجمته أخرجتموه ! وأيم الله أقسم إعذارا وانتظارا بكم، لنوردن ألفار منكم عن الزحف، ما عفاه من موارد الحتف، لنتجاوزه السوط إلى السيف ! حتى يعلم المحجم عن الإقدام أنه قد سلم من الحمام إلى الحمام ! كما أن من أصيب منكم في حرب، أو ابتلي بطعن أو ضرب، خلفناه في الأهل والولد وبعناه الاثرة يدا بيد، فانظروا لكم ولأعقابكم، وانضوا ثوب الخزي عن رقابكم والسلام على من حمى الإسلام.

استصراخ سرقسطة

1129 = 523

- □ خطابات الاستنجاد والاستصراخ.
- □ الإدارة في العهد المرابطي.
- □ العلاقات بين السلطة القضائية والتنفيذية.
- □ منابر المساجد كمنطلقات لإبلاغ أوامر الدولة.
- □ معركة افراغة 528 = 1134 في إفادة ابن القطان.
- □ أيام الأمير تاشفين بن علي.
- □ خطابه حول فرض المذهب المالكي.

اسْتصراخ سرقسطة...
رمضان 523 = غشت 1129

فهل نسي المرابطون سَرَقُسْطَة التي وقعت في يد الفونسو المقاتل منذ 512 = 1118 والتي تعتبر اليوم عاصمة أراغون ؟

لقد ظلت هذه القاعدة القضية البارزة في ملفّ السياسة الخارجية للمرابطين، وهكذا نقف على نموذج من خطابات الاستنجاد والاستصراخ التي كانت ترد على البلاط المرابطي، مما كتبه قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين أثناء الحصار، حيث كان المسلمون بها ما يزالون يؤملون الأفراج عنهم وتخليص المدينة، وهذا الخطاب مؤرخ يوم 17 شعبان 523 = 5 غشت 1129.[1]

من ملتزمي طاعة سلطانه ومستنجديه على أعداء الله ثابت بن عبد الله، وجماعة سرقسطة من (الجمهور) فيها من عباد الله.

أطال الله بقاء الأَمير الأجل، الرفيع القدر والمحل (حماية ؟)، لحرم الإسلام يمنعه (ودرعاً ؟) من كرب عظيم على المسلمين يزيحه عنهم ويدفعه.

(كتـ)ابنا أيدك الله بتقواه، ووفقك لاشتراء دار حسناه بمجاهدة عداه، يوم الثلاثاء السابع عشر من الشهر المبارك شعبان،[2] عن حال قد عظم بلاؤها، وأدلهمت ضراؤها، فنحن في كرب عظيم وجهد أليم، قد جل العزا(ء وعظم)

---

1) د. حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين، مجلة كلية الأداب ـ القاهرة. مجلد 11 ج 2 ـ دجنبر 1949 ص 132.

2) لم يحدد لنا الكتابُ السَّنَةَ التي كتب فيها، والغالب أنه صدر بين سنتي 520 ـ 523 هـ، لأن الردّ عليه تاريخه سنة 523 هـ.

الخطب، وأظلنا الهلاك والعطب، فياغوثاه ! ثم ياغوثاه ! إلى الله دعوة (....) من دعاه[3] وأمله لدفع الضرر ورجاه، سبحانه المرجو عند الشدائد، الخميل الكرم والعوائد، وياللـه ! وياللإسلام ! لقد انتهك حماه، وفضت عراه ! وبلغ المأمول من بيضته عداه، وياحسرتاه على حضرة قد أشفت على شفى الهلاك ! طالما عمرت بالإيمان وازدهت بإقامة الصلوات وتلاوة القرآن، ترجع مراتع للصلبان ومشاهد ذميمة لعبدة الأوثان. وياويلاه على مسجد جامعها المكرم ! وقد كان مأنوسا بتلاوة القرآن المعظم، تطؤه الكفرة الفساق بذميم أقدامها، ويؤملون أن يدنسوه بقبيح آثامها، ويعمروه بعبادة أصنامها، ويتخذوه معاطن لخنازيرها ومواطن لخماراتها ومواخيرها.[4] ثم ياحسرتاه ! على نسوة مكنونات عذاري، يعُدن في أوثاق الأسرى، وعلى رجال أصبحوا حيارى بل هم سكارى وما هم بسكارى، ولكن الكرب الذي دهمهم شديد، والضر الذي مسهم عظيم جهيد، من حذرهم على بنيات - كن من الستر نجبار ؟ الوجوه - أن يروا فيهن السوء والمكروه، وقد كن لايبدون للنظار، فالآن حان أن يبرزن إلى الكفار، وعلى صبية أطفال قد كانوا نشؤوا في حجور الإيمان، يصيرون في عبيد الأوثان أهل الكفر وأصحاب الشيطان فما ظنك أيها الأمير بمن يلوذ به بعد الله الجمهور بأمة هي هي وقايد هذه العظائم الفادحة والنوائب الكالحة ؟ هو المطالب بدمائها إذ أسلمها في آخر رسوله المصطفى ثم إلى ولي عهد، أمير المسلمين المرتضى، حين ابتعثك بأجناده وأمدك بالجم الغفير من أعداده نادياً لك إلى مقارعة العدو المحاصر لها وجهاده، والدب عن أوليائه المعتصمين بحبل طاعته والمتجملين السبعة الأشهر الشدائد الهائلة في جنب موالاته ومشايعته، من أمة قد نهكهم ألم الجوع وبلغ المدى بهم من الضر الوجيع، قد برح بهم الحصار، وقعدت عن نصرتهم الأنصار، فترى الأطفال بل الرجال جوعا يجرون، يلوذون برحمة الله ويستغيثون، ويتمنون مقدمك بل يتضرعون، حتى كأنك قلت اخسأوا فيها ولا تكلمون ! وما كان إلا أن وصلت وصل الله برك بتقواه

3) كذا في الأصل، والغالب أن صحة اللفظ الناقص : «مؤمن».

4) هذا يدل على أن مسجد سرقسطة الجامع كان قد تم تحويله إلى كنيسة قبل تاريخ الخطاب، أي قبل سنة 523 هـ. مما يدل على أن الفونسو المقاتل لم يكد يدخل البلد حتى خالف الشروط التي كان قد عاهد المسلمين عليها.

على مقربة من هذه الحضرة، ونحن نأمل منك بحول الله أسباب النصرة بتلك العساكر التي أقر اللهَ بهاؤها وسر النفوس زهاؤها، فسرعان ما انثنيت وما انتهيت ! وارعويت وما أدنيت ! خايبا عن اللقاء ناكصا على عقبيك عن الأعداء، فما أوليتنا غناء بل أوليتنا بلاء وعلى الداء داء بل أدواء، وتناهت بنا الحال جهدا والتواء، بل أذللت الإسلام والمسلمين واجترحت فضيحة الدنيا والدين !

لا حول ولا قوة إلا بالله فيالّله ويالّلإسلام ! لقد اهتضم حرمه وحماه أشد الاهتضام ! إذ أحجمت أنصاره عن اعزازه أقبح الأحجام، ونكصت عن لقاء عدوه وهو في فئة قليلة وأمة رذيلة، وطائفة قليلة يستنصر بالصلبان والأصنام، وأنتم تستنصرون بشعائر الإسلام، وكلمة الله هي العليا ويده الطولى، وكلمة الذين كفروا السفلى، وان من وهن الإيمان وأشد الضّعف الفرار عن الضِّعف، فكيف عن أقل من النصف ؟ فما قبح من رضى بالصغار وسيم خطة الخسف، فما هذا الجبن والفزع ؟ وما هذا الهلع والجزع ؟ بل ما هذا العار والضبع ؟ أتحسبون يامعشر المرابطين، وإخواننا في ذات الله المؤمنين، ان سبق على سرقسطة القدر بما يتوقع منه المكروه والحذر، أنكم تبلعون بعدها ريقا، وتجدون في ساير بلاد الأندلس - عصمها الله - مسلكا من النجاة أو طريقا ؟ كلا ! والله ليسومنَّكم الكفار عنها جلاء وفرارا ! وليخرجنكم منها دارا فدارا ! فسرقسطة حرسها الله هي السد الذي ان فتق فتقت بعده أسداد، والبلد الذي ان استبيح لأعداء الله استبيحت له أقطار وبلاد !

فالآن أيها الأمير الأجل ! هذه أبواب الجنة قد فتحت، وأعلام الفتح قد طلعت، فالمنية ولا الدنية ! والنار ولا العار ! فأين النفوس الأبية ؟ وأين الأنفة والحمية ؟ وأين الهمم المرابطية، فلنقدح عن زنادها بانتضاء حدها، وامتطاء جدها واجتهادها، وملاقاة أعداء الله وجهادها، فإن حزب الله هم الغالبون، وقد ضمن تعالى لمن يجاهد في سبيله أن ينصره، ولمن حامى عن دينه أن يؤيده ويظهره، فما هذا أيها الأمير الأجل ؟ ألا ترغب في رضوانه واشتراء جناته بمقارعة حزب شيطانه، والدفاع عن أهل إيمانه ؟ فاستعن بالله على عدوه وحربه، وأعمد ببصيرة في ذات الله إلى إخوان الشيطان وحزبه، فإنهم أغراض

للمنايا والحتوف، ونهز للرماح والسيوف، ولا ترض بخطة العار، وسوء الذك والصيت في جميع الأَمصار، ولا نكن كمن قيل فيه :

يجمع الجيش ذا الأُلوف ويغزو ه ولا يرزا من العدوّ فتيلا !

ولن يسعك عند الله ولا عند مؤمن عذر في التأخر والارعواء، عن مناجز الكفار والأَعداء، وكتابنا هذا أيها الأَمير اعتذار تقوم لنا به الحجة في جمي البلاد، وعند سائر العباد، في إسلامكم إيانا إلى أهل الكفر والإلحاد. ونحر مؤمنون بل موقنون من إجابتكم إلى نصرتنا، وإعدادك إلى الدفاع عن حضرتنا وأنك لا تتأخر عن تلبية ندائنا ودعائنا، إلى استنقاذنا من أيدي أعدائنا فذفاعك إنما هو في ذات الله وعن كلمة (الدين وربه) ومحاماتك عن الإسلا وّحزبه، فذلك الفخر الأنبل لك في الأخرى والدنيا، وموّرث لك عند الله المنزل العليا. فكم تحيى من أُمم، وتجلى من كروب وغمم !

وإن تكن منك الأخرى، وهي الأبعد عن متانة دينك وصحة يقينك، فأقبل بعسكرك على مقربة من سرقسطة - عصمها الله - ليخرج الجميع عنها، ويبرأ إلى العدو وقمه الله منها. ولا تتأخر - كيفما كان - طرفة عين، فالأمر أضيق، والحال أزهق، فعدبنا عن المطل والتسويف، قبل وقوع المكروه والمخوف، وإلا فأنتم المطالبون عند الله بدمائنا وأموالنا، والمسؤولون عن صبيتنا وأطفالنا لإحجامكم عن أعدائنا وتثبطكم عن إجابة ندائنا، وهذه حال نعيذك أيها الأمير الأجل عنها، فإنها تحمّلك من العار ما لم تحمله أحدا، وتورثك وجميع المرابطين الخزي أبدا، فالله الله ! اتقوه وأيدوا دينه وانصروه، فقد تعين عليكم جهاد الكفار، والذب عن الحريم والديار. قال الله : ﴿يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة...﴾ الآية، وقد برئتم بإسلامنا للأَعداء من نصر الإسلام، وعند الله لنا لطف خفي، ومن رحمته ينزل (الصنع) الخفي، ويغنينا الله عنكم، وهو الحميد الغني !

ومن متحملي كتابنا هذا، وهم ثقاتنا، تقف من كنه حالنا على ما لم يتضمنه الخطاب ولا استوعبه الأَطناب بمنه وله أتم الطول في الإصغاء إليهم، واقتضاء ما لديهم إن شاء الله تعالى، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

☆ ☆ ☆

الإدارة في العهد المرابطي

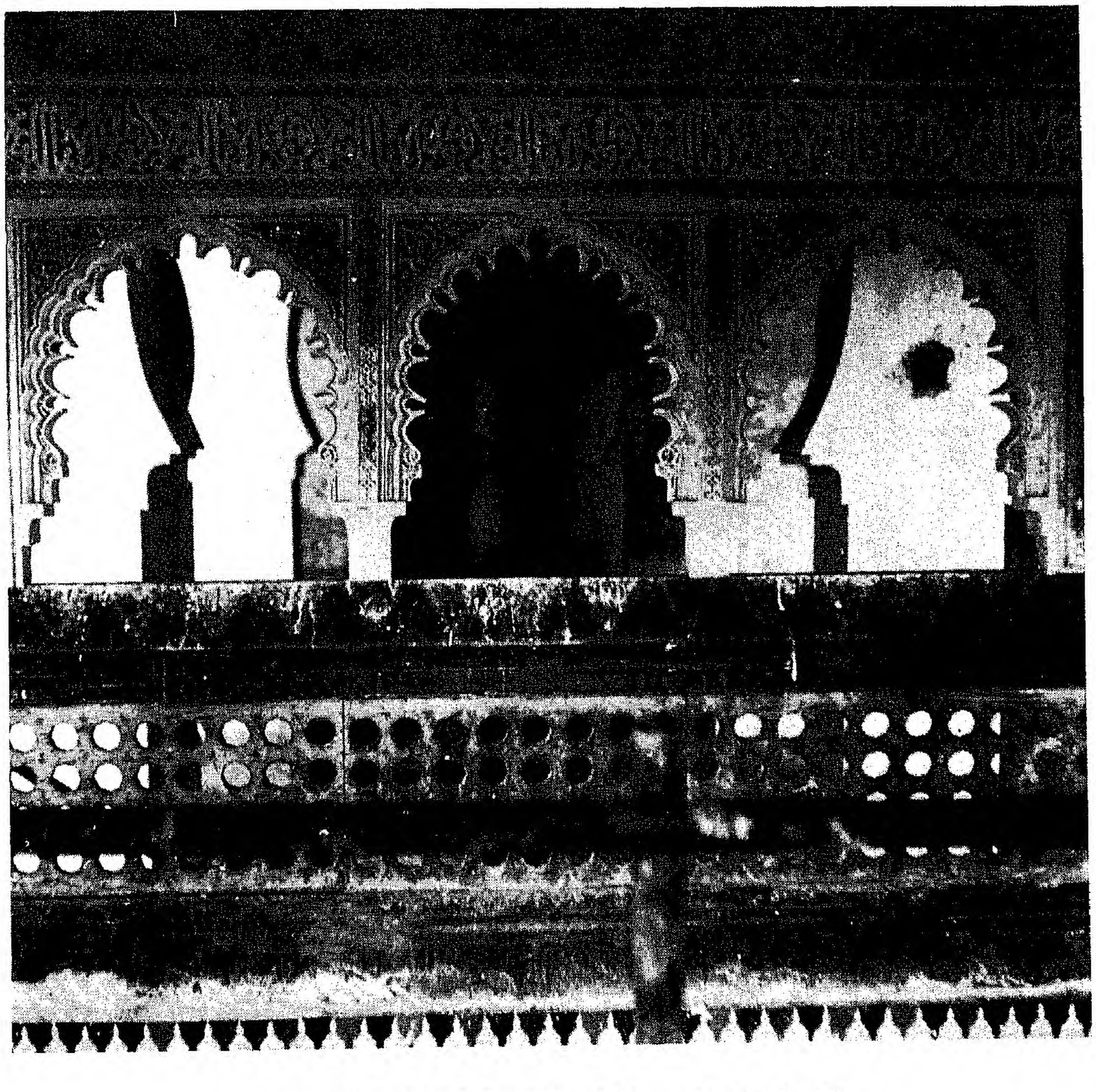
ونحن نعالج علاقات المرابطين مع **الإمارات الإسلاميـة والمسيحيـة في الأنـدلس** ينبغي أن نـأخذ صورة عن الإدارة في هذا العهد، وعن العلاقة بين السلطتين القضائية والتنفيذية، ومدى اختصـاص **القضـاة** في المناطق التي يكون عملهم فيهـا **وعلاقـة القـاضي** بصـاحب البلـد أي العـامل أو الوالي أو حـاكم الإقليم، وهـذا الكتاب يكشف عن مبلغ رعاية السلاطين المغاربة لشؤون رعيتهم وإقرار العدل بينهم... ويدل على ذلك هذه الإشارة التي تطلب إلى القاضي أن يقرأ الكتاب على **الكافة بالمسجد**، فهي أشبه بدستور تسنه الدولة، وننفضل أن نسجل هنا هـذه الوثيقـة الهـامـة التي كـانت من إنشاء ابن أبي الخصـال، صادرة عن أمير المسلمين عليّ بن يوسف من حضرة مراكش بتاريخ 25 من ذي الحجة **سنة** 523 = 28 **دجنبر 1129**، موجهـة إلى أبي محمد عبد الله بن أحمد ابن عمر القيسي المالقي الوحيدي قاضي مالقة، الذي يشدُّ أمير المسلمين من أزره :[1]

كتابنا كتب الله أعمالـك مبرورة، ومسـاعيـك مشكورة، وعرفـك الالاء موفورة، من حضرة مراكش حرسها الله لخمس بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين وخمسمائـة، وإن من رتب من الامر حيث رتبت، وحسب من القيام بالمهمات حيث حسبت، **لم يسعْه أن ينام عن قضية تجْري ببلده**، ولا أن تدركه غفلة عن تفقد ما تحت يده، وقد تجمعت الآن بهـذه الحضرة عصائب الشـاكين، وكثرت أرفـاع المتظلمين، وكـان من أمورهم بين ومشكل وفيهم محق ومبطل، فلم يخل مـا كـانوا يجيئون بـه من قول مـزور، وبـاطـل في صـورة الحـق مصـور، وعندما التبس الكذب من ذلك بالصدق، والتف المبطل بـالمحق، صددنا **أرفـاعهم** عن الوصول، وصرفنـا دونهـا وجه القبول، وأوعزنا إلى جماعتهم لمـا خفنـاه من تلبيسهم في الأُمور، وشوبهم المبـاح بـالمحـذور، بـأنـا لا ننظر لأَحد منهم في حق يدّعيه، ولا أمر يوجبه أو ينفيه، إلا بعد أن يأتي ببيان من **قاضي بلده**، وكتاب ينطلق عن صحة ما بيده، فانصرفوا وفي نفوسنا ـ علم الله ـ من قبلهم ما يشق حمله، ولا يخف مثلـه، فإنـه لا يمكن إلا أن يكـون فيهم الصـادق البر، والرجـل المضطر، لكن الخير أردنـا، والبر قصـدنـا، ولمـا كـان هـذا وجب أن نلتمس لأمورهم وجهاً يتوصل به إلى قضاة البلدان، وألزمناهم القيـام بـه والفحص عنـه مع الأحيـان، لأَن موضوع القضـاء **إنما هو لرفع المشكلات**، وتمييز الحقائق من المتشابهات، والفصل بعـد التبرم في الـدعـاوي والمنـازعـات ومع هذا فنقول إن هؤلاء الرافعين لو وجدوا في بلادهم إشكـاء، وألفوا عنـد متقلـدي الأُمور لرد ظلامـاتهم وفـاء، لمـا تجشموا إلينا بعد الشقة، ولا تحملوا نحونا عظيم المشقـة، ولولا أنـا لا نخليهم من التعسف، وسوء التكلف، لشـددنـا في جهة القضاء عارضة الكلام، ولثقلنا عليهم وطأة الملام، وقد قلدناك تقليدا تامـا أن تنظر بجهتـك من شكـاوي العامة في اللطيف والجليل، وسمناك القيام بـالخفيف منهـا والثقيل، فتفقَّـدْ مـا قبلـك حق تفقـده، وتعهـدْه أحفى تعهده، فإنك إذا أمعنت التطلع وأدمنت إلى جانب الرعية التلفُّت والتسمُّع، لم يشـد عن عملـك مـا يجرى ببلدك لاجتماعه وانحصاره، وتقـارب مـا بين مسـافـاتـه وأقطـاره، **وإن حقـا على الجـار أن يفرج ضغطـة جـاره،** فاستكشف ـ وفقك الله ـ الأَحوال وتعرف صورها، واستعلم مع الرعية شأن الرعية وخبرهـا، فكل مـا رفعتْـه إليـك من أحوالها، وتطلمتْ فيه من عمالها، أجريته مع الحق كيف جرى، وعمت بـالنظر ولم تخص قضيـة دون أخرى، فكلٌّ بك معصوب، وأنت عنه محاسب وبه مطلوب، ومدار هذا الأمر اختيار الحكام الـذين استنبتْهم في أقطـارك القاصية، ونصبتهم في الجهات النائية، فشرطهم الثقة والديانة، والصون والأَمانة، فإنهم إذا كانوا بهـذه الصفـة جرت أُمورهم على سبيلها القـاصـد، وسيرهـا الراشـد، وأمنت في جهـات الرعيـة والأَحكـام، وأمنـا بـك فيهـا من اللبس

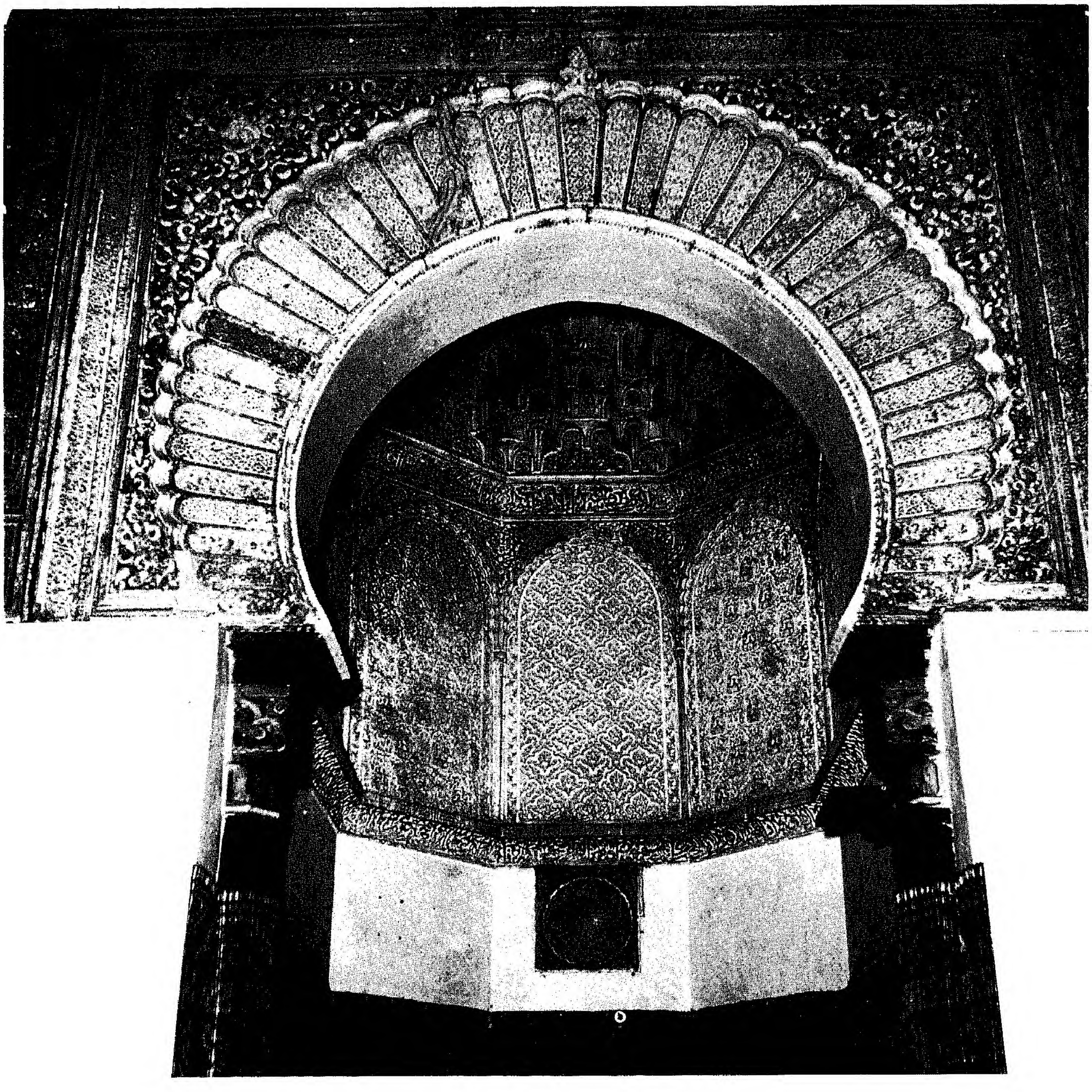
---

1) محمود علي مكي : وثائق تاريخية جديدة، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية ـ مدريد 1959 ـ 1960.

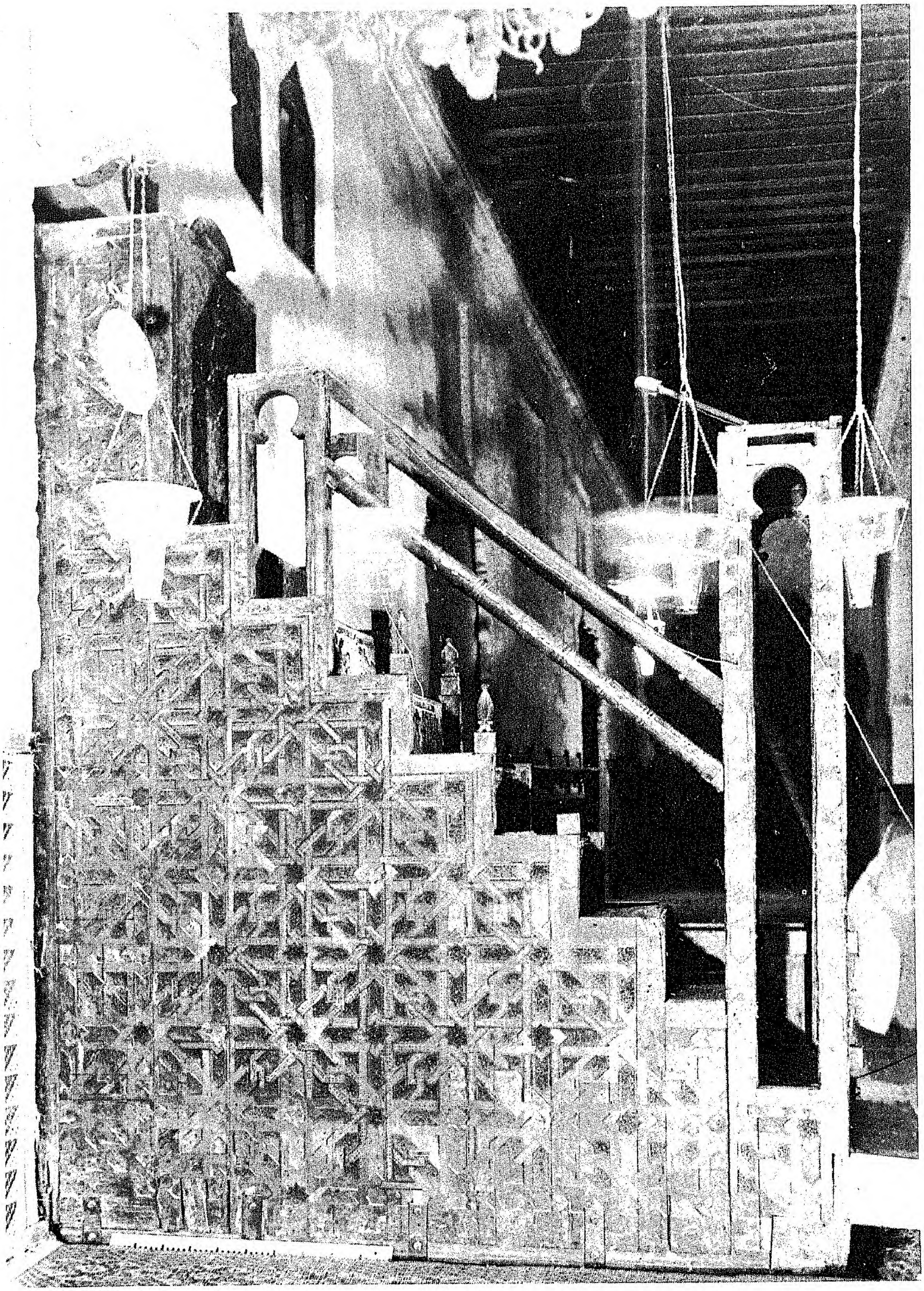
والمداخلة مع الأيام، فلا تقلّدْ عملك إلا معروفاً بلطف النفس والعفاف، ونقِيّاً يقنع بالكفاف، وينتزه عن الاسفاف، وتحفظ من كل منهوم لا يشبع، ومسف لا يتورع، **فالحريص أصم أعمى لا يرى ولا يسمع**، وبَعْدَ توليتك إياهم فأشرفْ عليهم إشرافا يتعقب أحوالهم، فمن رأيت منه جنفا، أو نقص عليك من أطراف الحق طرفا، صرفته مذموماً، وأخرته ملوما، فتفقدْ هذا من أُمورهم فإنك مضطر إليه في الديانة وفيما يباشرونه من أُمور الرعية التي لا ترضى بهضها، ولا تقر أحداً على ظلمها، ومما نعيده ونتقدم إليك فيه أمر **اللوازم الجارية هناك أن تتصفحها وتلمحها**، فما لم يكن منها في عهودنا موجوداً، ولا من قبلنا محدوداً، **ولا في مصالح المسلمين معدوداً**، فهو رد على كل وال رسمه، ومصروف على كل من ألزمه **لا يؤدى منه نقير**، ولا يحمل منه فتيل، وأي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه، وعلمت صحة استهدافه وتصديه فإنّه أمره إلى صاحب البلد مستعمله ومموليه، وأشعره بما ثبت عندك فيه، فإن غلّ يد أذيته، وأنفذ عزله عن رعيته، وإلا فأخف ذلك إلينا في سائر ما يتوقف لديك من الأُمور التي تقصر عنها يدك، وتنقطع دون النفوذ فيها غايتك وأمدك، لينفذ من عندنا ما يقف عنده، ويسهل لك كل صعب بعده، ومما تتفقده من أحوال الرعية **ما يؤخذ به الحاضر عن الغائب، ويطلب به الباقي بعد الذاهب**، فهذا الصنف أيضا من الظلامات تبطله وترد حكمه، وتعفى



الشباك الرخامي بالناحية الشرقية لجامعة القرويين.



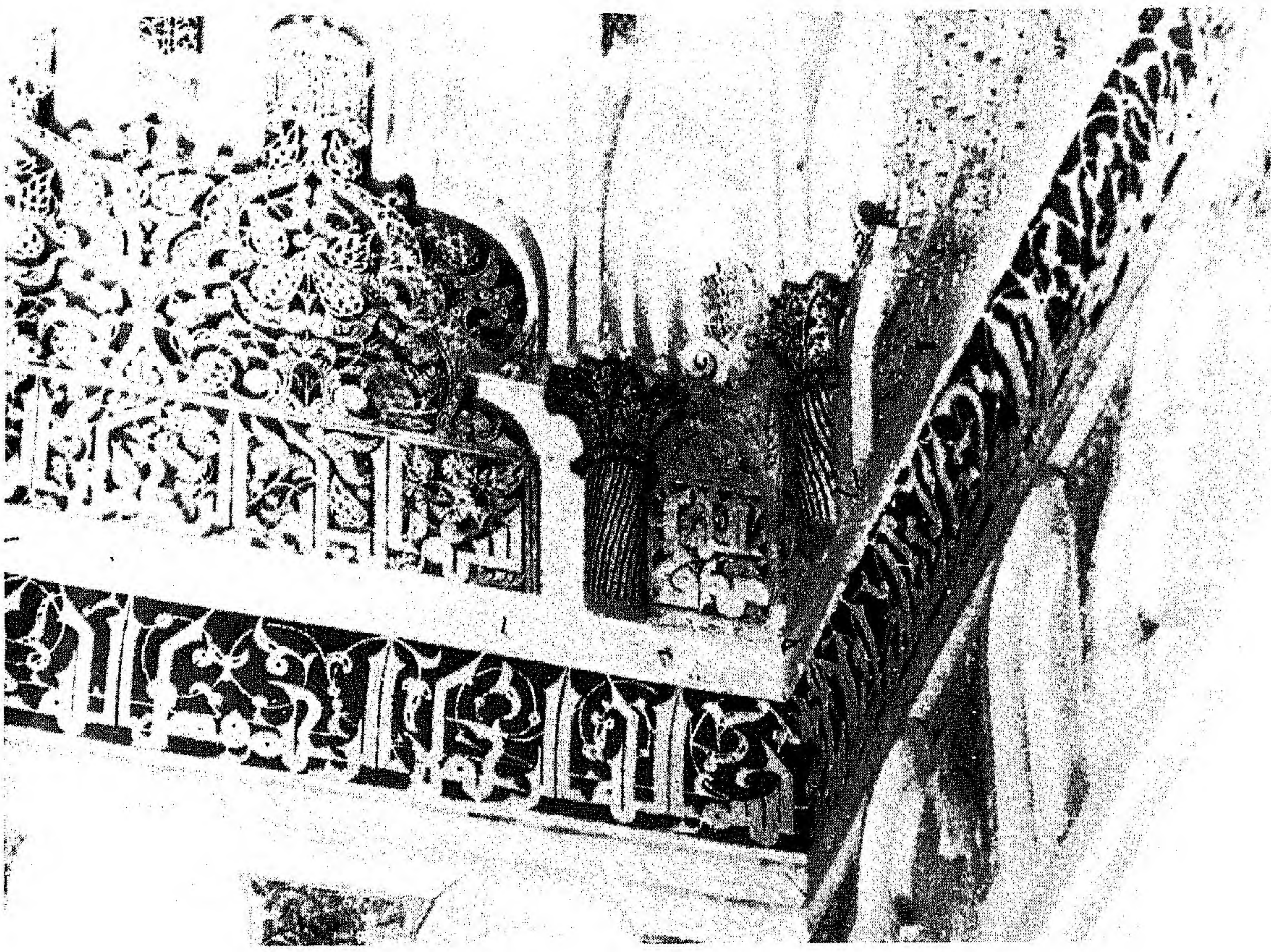
محراب جامع القرويين الذي أسس على عهد المرابطين



منبر جامعة القرويين بفاس عملت فيه أيدي أندلسية، على هذا المنبر كانت تنشر القرارات الهامة للدولة، ظلَّ اللّسان الناطق للّدولة... وظلَّ المكان الذي يتنافس الملوك على تزكية بيعتهم من أعلاه.

كما استمر مفخرةً للعلماء أن يوجّهوا منه خطبَهم للجمهور...

أثره ورسمه، وأمر الزكوات على تباينها في الصفة، وأنواعها المختلفة، تجرى على موجب فرضيتها، وتوقف على حد شريعتها، لا تحرف ولا تبدل، ولا تصرف عن جهتها ولا تعدل، هذه - أعزك الله - أمثال **مضروبة، وهدايات منصوبة،** وقوانين موضوعة وأعلام على طرق الحق مرفوعة، قد تبرأنا إليك من وزرها، وتخففنا بإسنادها إلى نظرك من إصرها، وفي أكثرها كانت الأرفاع ترد، وعصائب المتظلمين تحتشد، وأنت إذا كشفت غيبها، ونفضت طرقها، وأعطيتها من بحثك وتأملك حقها، وارتفعت الشبهة، وانزاحت العلة، وتوفرت على المسلمين الرحلة، وهدأت الرعية وتفرغت لأشغالها، ولزمت صالح أعمالها، فانظر في هذه الأمثلة والجمل إلى أقصى ما ينقسم إليه أقسامها وقفها على حد ما تقف عليه الشريعة وأحكامها، واكفنا ما استكفيناك، وانهض نهوض المستقل بما حملناك، وأيُّ عذر لك **وقد شددنا من أزرك،** وعضدنا من أمرك، وإن تطلعنا لوكيدٌ لما نجده عندك من النفوذ. هذه الوصايا الجامعة، والحجة البالغة، وستبلغنا الأنباء، ويتصل بنا الثناء، وبعد ذلك الصواب والجزاء. لا إله غيره والسلام. أعزك الله ليقرأ **الكتاب على الكافة بالمسجد،** فإنه فيه زجراً للمعتدين، وأخذاً فوق أيدي المفسدين، وبلاغا يحمله ويصيره الراكب ويتلقاه عن الشاهد الغائب إن شاء الله تعالى.



من منشآت المرابطين في جامع القرويين بفاس البلاط الأوسط الذي يربط المحراب بالصحن

معركة إفراغة (FRAGA)

1134 = 528

وقد شهدت الساحة الأندلسية موقعةً لا تقل عن موقعة الزلاّقة ومعركة أُقْليش... إنها الموقعة التي جرت يوم 23 رمضان 528 = 17 يوليه 1134 تلك المعركة التي تحمل اسم إفراغه (Fraga) والتي أسفرت عن هلاك ألفونسو الأوّل ملك أراغون الملقب بالمحارب الذي يعتبر من أعظم ملوك اسبانيا في العصور الوسطى !

ونفتح هنا قوسين لاقتباس إفادة ابن القطان في كتابه نظم الجمان :[5]
«ومن أغرب ما كان في سنة ثمانية وعشرين وخمسمائة هزيمة الطاغية ابن رذمير بمدينة إفراغة من الثغر المصاقب لبلاد الفرنجة، وذلك أن اللعين لمّا تغلب على الثغر الأعلى : مدينة سَرقسطة وذواتها... وهزم عساكر لمتونة وقهرهم في مواطن كثيرة، ورأى ذلك البرشلوني[6] مضاهيهم في الثغر الأعلى، فاشرأب إلى التغلب على ما يجاوره من البلاد : لارده وإفراغه وغيرهما.

ونظر رجال لمتونة إلى ذلك فخافوا أن ينفتق عليهم فتق آخر من البرشلوني، فصالحوا البرشلوني بإثنى عشر ألف دينار يؤدونها له في كل سنة صلحاً عن هذا الثغر الذي يصاقبه، ويستريحون من شره ولا يكابدون حربين، وذلك عن أمر عليّ بن يوسف، ولم يخف عن اللعين ابن رذمير هذا التدْبير، فآسفه وغاضبه، وقال : هؤلاء الفعال الصناع يؤدون الإتاوة للصانع الفاعل، ولو

---

5) نشر هذا الجزء بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي... راجع صفحات 220/219/228.

6) القصد إلى ريموند برنجار 3 Ramōn Berenguer III الملقب بالعظيم El Grande وكان المسلمون حالفوه بل ودفعوا له الجزية أملاً في الاطمئنان منه لكي ينصرفوا إلى مواجهة الفونسو الأوّل. أشباخ : تاريخ الأندلس ص 165/164، عبد الله عنان عصر المرابطين والموحدين قسم 1 ص 120.

أعطوني أنا درهماً واحداً لأخذته، ويعلم أني قهرتهم وغلبتهم ! وحلف بأيمان مغلظة عنده : لأنزلنّ على تلك البلاد التي يؤدون عليها الجزية، فأصيّرها في ملكي، وأقطع منفعتها عن الفاعل الصانع البرشلوني حتى يعلم أهل الأرض أني قهرتهم في كل وجه ! فجيّش جيشه، ونزل على مدينة إفراغة لما كانت أمنع تلك المدن وأحصنها، وأهلها أُسْد ذلك الصقع، فنازلها وأقسم بجميع أيمانه لا يقلع عنها حتى يستحوذ عليها...

ولما طاول ابن رذمير حصار مدينة إفراغة وضاقت بهم الأمور كتبوا إلى يحيى ابن غانية ـ عامل أميرِ المسلمين على بلنسية ومرسية ـ يشكون إليه ويرغبون في إدخال القوت عندهم، فما بقي لهم من القوت إلا اليسير، «وإن لم تفعل خضعنا لابن رذمير وأعطيناه المقادة» فلما رأى كتابهم نظر لهم في الميره، واستجاش وأرضخ العطاء لأهل عسره وأخبرهم أنه باقٍ على لقاء عدوه ابن رذمير... وكتب وصيته، فقال له بعض خاصته : تغزو بهذا العسكر وليس للمسلمين عسكر بالأندلس سواه ؟ فكيف تلقى أمير المسلمين بعد اليوم وقد انهزمت ؟ فأجابهم : فلْيصنع بي ما شاء إلا إن فتح الله تعالى للمسلمين في هذا الغزو !

وقصد قصده وكان اللعين ابن رذمير ملّ الثواء والإقامة على مدينة إفراغة، ونشب في يمينه التي خرجت منه، وكان قد جاءه بعض الرهبان من داخل الفرنجه، وقال له : أنا أدعو عليهم فينهدم حصنهم، وتدخل عليهم عنوة ! وصحّ قوله ذلك عند ابن رذمير، وجاء الراهب إلى قرب سور إفراغة فصعد ربوة من الربى، ونظر السور، وكان خبر الراهب قد سمع به أهل إفراغة، فلما رأوه قائماً على الربوة، لم يشكّوا في خبره أنه هو، وكان عندهم المنجنيق قوي، فصوّبوه إلى الربوة وغرض الراهب، ووضعوا في كفّته حجراً كبيراً ورموا به إلى غرض الراهب وهو في دعائه على المسلمين يجد جده، فأصابه حجر المنجنيق على هذه الحالة فذهب بنصفه، وبقي نصفه في موضعه !

وقد كان اللعين ابن رذمير تهيأ للدخول، وعسكره واقف بإزائه بإزاء الراهب، فلما رأى ذلك هاله وانصرف إلى موضع محلته مهينَ النفس خائبَ

الأَمل، ثم ما زال أمره مختلا، وأهل إفراغة يدبرون الحيل عليه، وهو يدبرها أيضا عليهم، إلى أن وافت عساكر المسلمين، فلما نظر أهل إفراغة إلى مجيئها، وخرج ابن رذمير من معسكره إلى تلك العساكر، فتحوا باب مدينتهم وخرجوا إلى محلته فنهبوا جميع ما كان فيها من الطعام والأدم وأدْخلوها إلى مدينتهم... ولقي اللعين ابن رذمير المسلمين موقناً بالظفر والغلبة على عادته فانعكس عليه الأَمر، وكانت الدائرة عليه، فأهلكه الله تعالى وجنوده وقتلهم المسلمون أبرح قتل...

ومن أغرب ما جرى في أخبار هذه الوقعة أن طائفة من النّصارى لجأوا إلى كهف ظنوا أنه ينجيهم فسقط عليهم فلم ينج منهم أحد ! وفر اللعين ابن رذمير في شرذمة قليلة جداً ولحق بمدينة سرقسطة والِهَ العقل مخبول الذهن، واستخذى للمسلمين الذين فيها وألان لهم القول، ثم خرج منها إلى وشقة فأقام بها مختبلا أشهراً قليلة قبل أن يلقى مصيره...!»(7)

لقد كان لانتصار المرابطين - بقيادة العامل يحيى ابن غانية - صدى عميق في سائر أرجاء الأندلس والمغرب، وفي إسبانيا النصرانية بنوعٍ خاص، وعادت سمعة المرابطين العسكرية إلى سابق مكانتها في شبه الجزيرة... وقد نظم الشاعر أبو جعفر بن وضاح المرسي في واقعة إفراغة ومديح ابن غانية قصيدة يقول فيها من جملة ما يقول :

شمّرت برديك لما أَسْبل الواني	وشبّ منك الأَعادي نار غيان
دلفت في غاية الخَطّيّ نحوهم	كالعين يهفو عليها وطْف أجفان
عقرتهم بسيوف الهند مصلتةً	كأنما شربوا منها بغدوان
هوِّنْ عليك سوى نفس قتلتهم	مَن يكسر النَّبْع لم يعجز عن البان !
وقفت والجيش عقدٌ منك منتثراً	إلا فرائد أشياخ وشبّان
والخيل تنحط من وقع الرماح بها	كأن نصالها ترجيعُ أَلحان !

☆ ☆ ☆

7) ابن القطان : نظم الجمان ص 223.

أيام الأمير تاشفين بن علي

1143 = 537

لقد كان أبو الحسن عليّ بن يوسف عهد بالأمر لابنه تاشفين الذي أنجبه من زوجةٍ له من أصل رومي تحمل اسم «ضوء الصباح»، وهكذا تربع على كرسي الملك يوم 18 رجب 537 = يبراير 1143 في ظروف كانت فيها الفتن والاضطرابات قد أخذت تستفحل سواء في الأندلس أو المغرب، وقد حاول العاهل الفتى، عبثاً، أن يسترجع أيام جده ووالده حينما تحدث عنهما التاريخ بأنهما صارا معدودين من أكابر الملوك «وانقطع إليهما من أهل كلّ علمٍ فحوله حتى أشبهت حضرتها حضرة بني العباس في صدر دولتهم واجتمع لهما من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتحقق اجتماعه في عصر من الأعصار» على ما يقول المراكشي في المعجب.

لقد واجه أمير المسلمين وناصر المسلمين تاشفين طائفة من المشاكل فيها ما كان متخلّف العصر الذاهب، وكان من هذه القضايا قضية أول مصادَرةٍ تظهر في الغرب الإسلامي لِنتاجٍ من نتاج العلماء المشارقة ويتعلّق الأمر بإحراق كتاب الإحياء للإمام الغزالي في أيام والده عليٍّ ابن يوسف على ما عرفنا...

وقد احتفظ لنا التاريخ بوثيقةٍ لا تهم فقط الذين يشتغلون بالفترة الأخيرة من أيام المرابطين[8] بل لدارس تاريخ إسبانيا في عصر السِّيد : في القرن الخامس الهجري : = الحادي عشر الميلادي، وكذلك لدارس تاريخ الفكر في الأندلس والمغرب، ولدارس تاريخ الغزالي[9].

---

8) مخطوطتان تحملان رقم 488 - 538 في القسم العربي من مكتبة الأسكوريال، حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين، مجلة المعهد المصري - مدريد 1374 = 1955، المجلد الأول، العدد الثالث، ص 107.

9) Ambrosio Huici Miranda : un Fragmento inédito de Ibn IDARI Sobre los Almeravides, Hesp Tamuda 1961 p. 76-90

إننا مع الأسف لا نملك نص الأمر الرسمي الأول الذي كان صدر عن الأمير أبي الحسن ابن يوسف بتحريم هذه الكتب لكنا نمتلك صورة أحد الأوامر اللاحقة مما كانت الدولة تبعث به في هذا الشأن، ويتعلق الأمر بهذا الخطاب الصادر عن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، أرسله من مكانٍ يحمل إسم كرناطة إلى أهل بلنسية بعد استعادة المرابطين إياها على ما تقدم.

وقد ذهب كَابَانِيلاَس (Cabanelas) كما يقول مؤنس، إلى أن هذه الرسالة لا بد أن تكون نتيجة لوفودٍ وردت على العاهل المغربي من أهل بلنسية أثناء مقامه بكرناطة[10] كانت من طلائع الثورة على الوجود المرابطي بالأندلس...

إن الخطاب المؤرّخ في العشر الأول من جمادى الأولى سنة 538 = 1143 يهدف إلى تثبيت قلوب الأندلسيين لمواجهة الأحوال، وهو في معظم فقراته يحاول أن يقوي من معنوية الناس ويصرفهم إلى عبادة الله والتمسك بأهداب الدين، ولكن الفقرة التاسعة منه على جانبٍ عظيم من الأهمية، فهي تنص على أنّ مدار الفتيا في بلاد الدولة المرابطية على مذهب مالك وحده، وتحذر الناس من البدع وكُتُبِها وأصحابها وخاصة كتبَ أبي حامد الغزالي !

بسم الله الرحمن الرحيم   وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً

من أمير المسلمين وناصر الدِّين تاشفين بن عليّ إلى وليّه في الله تعالى، الأعز الأكرم الأحظى في ذات الله لديه أبي زكريا يحيى بن علي، والفقيه القاضي أبي محمد بن جحاف،[11] وساير الفقهاء والوزراء والأخيار والصلحاء، والكافة ببلنسية، حرسها الله، وأدام كرامتهم بتقواه.

سلام مبرور كريم مردد عميم على جميعكم، ورحمة الله وبركاته وبعد : فإن كتابنا إليكم، كتبكم الله ممن آثر الحق واتبع سننه وأدرع الحزم وليس جننه، وسمع القول واتبع أحسنه، وحافظ على كتاب الله الذي يسره للذكرى

10) يرسم هذا الموضع كرناطة، وكرنط وكرناط... جبل صغير في سلسلة المرتفعات بين تلمسان وسبتة، أنشأ المرابطون فيه حصناً يحمل نفس الاسم أثناء صراعهم مع الموحدين : المعجب ص 296 تعليق 1.

11) سليل جحاف المشهور في بلنسية، وفيهم أبو جعفر بن جحاف الذي استشهد حريقاً في بلنسية.

وبينه وجعلنا وإياكم ممن جمله بتقواه وزينه، من مناخنا بكَرْنَطة، في العشر الأُول من جمادى الأُولى سنة ثمان وثلاثين وخمس مائة، وبحمد الله من صحيفتنا هذه صدرها الأكرم، وكلٌّ قول فبعد ذلك يترتب وينتظم. وقد جاء في الآثار كل كلام لا يبدأ فيه بذكر الله فهو أجذم.

وبعد أن نستوفي واجب الحمد والشكر ونذكر نعمه السابغة، صلينا أجمل الذكر، فنسأل الله توفيقا قايدا إلى الرشد، وقوة على طاعته نحمل بها من تلزمنا رعايته على المنهج الأفضل والسنن الأحمد، ونستعيذه من قلب لا يخشع، ودعاء لا يسمع، وموعظة لا تنفع وسجية لا تطاع، وهوا يتبع. ونصلي على محمد نبيه ورسوله الذي طهره تطهيرا، وأرسله رحمة للعالمين بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فبلغ رسالة ربه وهداه، وصبر على مشقة البلاغ وأذاه، ولم يخش أحدا إلا الذي رجاه، إلى أن بلغ الكتاب أجله والدين مداه، وانتهى ملك أمته إلى ما كان الله له زواه، صلى الله عليه وعلى صحبه الذين ذبوا عن هذا الدين وحموا حماه، ووالوا من والاه، وعادوا من عاداه.

ولما كان، أعزكم الله، الدِّين ينعت بالنصيحة لله ولرسوله وللمسلمين، والذكرى تنفع المؤمنين، وجب أن نتخذ لكم من الموعظة به أنفسها الذي مرها في العاقبة حلو، وأخفض مراتبها في الله علو، فاعلموا، أعلمكم الله، ولا أقامكم مقاما يريدكم، أن أقرب الناس إلى الله أحناهم على عباده، وأمحضهم للنصيحة لهم بمبلغ جده واجتهاده، وأن أولى الناس بنا من طاب خبره، وكرم أثره، وحسن مورده في الأُمور ومصدره، وكذلك «العامل» منكم و «القاضي»، وفقهما الله، إنما أقعدا بذلك المكان لخير يتوليانه وشر يردعانه وعدل يقضيانه، فليقدما أولا تسديد أمرهما، وينظرا في إصلاح أنفسهما، قبل إصلاح غيرهما، فمن لايصلح أمر نفسه لا يصلح سواه، ومن لايسدد أموره لا يسدد أمر من تولاه. وعليكم أجمعين بتقوى الله في السر والإعلان والتمسك بعصم الإيمان، والاستعانة على حوايجكم بالكتمان، والتنزه عن فلتات اليد واللسان. ولم تخل أمة من جاهل وعليم، ومعوج وقويم، فليردع الجاهل العليم، لينبه المعوج القويم، ولن يزال الناس بخير ما لم يتساووا، فإذا تساووا هلكوا.

وأهم أموركم الصلاة، التي هي النجاة لسالكها، ولا حظ في الإسلام لتاركها، فالزموها في جماعاتها، ولا تخلوا بشيء من مسنوناتها، ومفروضاتها، وأخلصوا فيها لله العلي الأكبر، واعلموا أنها كما قال سبحانه ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾.

وعليكم وفقكم الله بإصلاح ذات البين، وإعماد الحق المخلص في الدارين، وتخير الرفقا وانتخاب الجلسا، فإن مثل الجليس كمثل القين، والصاحب الصالح قوة في الدين وقوة في العين.

وانتدبوا واندبوا من قبلكم للجهاد، الذي هو من قواعد الإيمان والرشاد، أمر الرحمان، وفرض على الكفاية والأعيان، واتصال الهدو بفضل الله وللإيمان. وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القايم الصايم الذي لا يفتر عن صلاة ولا صيام».

والذي نأخذ به عهد الله على العامل منكم الرفق بالرعية، والحكم بالتسوية، وإجراء الأمور على الحميدة المرضية، فهي العنصر الذي منه الاستمداد، والأصل الذي بثبوته تعمر البلاد وتتوفر الأجناد، ويتمكن الرباط في سبيل الله والجهاد، وليعلم أن العدل يقسطها، والجور يسخطها، وقلة المساواة تشتتها وتقنطها. ولا سبيل أن يستعمل عليها إلاّ من يستتق جانبه وتحسن الأحدوثة عنه. وإن ظهر أحد منهم بنظر جميل فيه، وكان في نفسه ما يخفيه، فالبدار البدار إلى عزله وعقابه والتشديد فيما نأمر به.

واعلموا رحمكم الله، أن مدار الفتيا ومجْرى الأحكام والشورى في الحضر والبدّا، على ما اتفق عليه السلف الصالح، رحمهم الله، من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس، رضي الله عنه، فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه ولا يأخذ في تحليل ولا تحريم إلا به، ومن حاد عن رأيه بفتواه، ومال من الأئمة إلى سواه، فقد ركب رأسه واتبع هواه ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة، وخاصة، وفقكم الله، كتب أبي حامد الغزالي فليتتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها وتغلظ الإيمان على من يتهم بكتمانها.

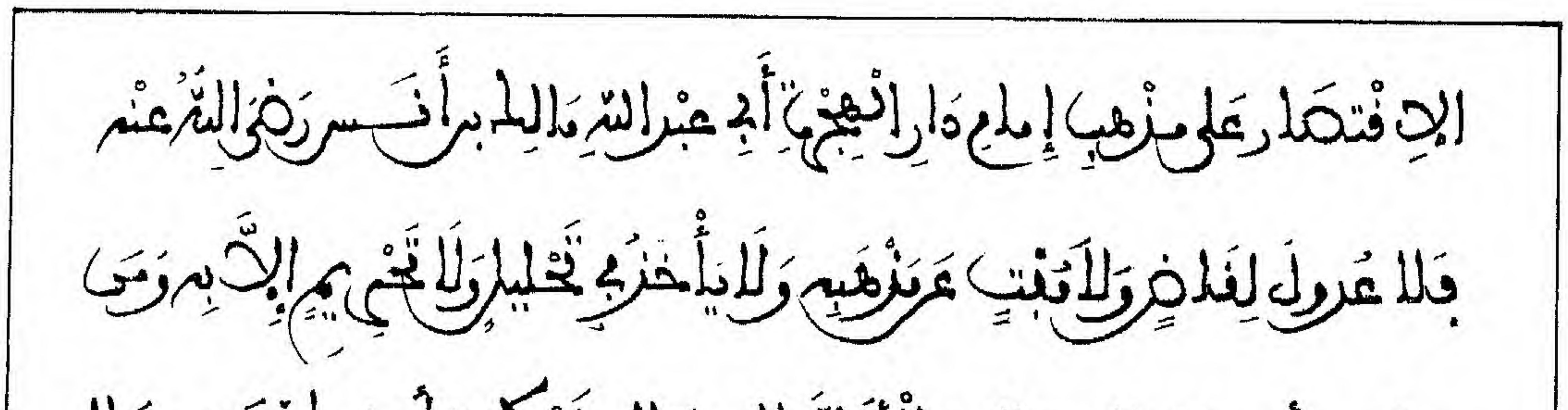
والخمر، نزهكم الله عن خبايث الأُمور، التي هي جماع الإثم والفجور، والباب المفضي إلى سواكن الفسق والشرور، فاجتهدوا في شأنها، وأوعزوا في جميع جهاتكم بإراقة دنانها، فقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لعن الله الخمر وعاصرها وحاملها والمحمولة إليه».

وكذلك نؤكد العهد فيما نوصي به دايباً مما أوجبه الله تعالى في حقوق المسلمين من الأَعشار والزكوات والأَموال المفروضة للأَرزاق المسماه، فليؤخذ ما فرض الله منها في نصابها المعلوم، وعلى سنة نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم.

وكذلك نؤكد عليكم اتم تأكيد أمر أهل الذمة ألا يتصرف أحد منهم في أمور المسلمين، لأَنه من فساد الدين.

والسلام الأبر الأَكرم الأَخطر على جميعكم، ورحمة الله وبركاته، وعلى من هناك من المسلمين[12].

☆ ☆ ☆


الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس رضي الله عنه فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه ولا يأخذ بتحليل ولا تحريم إلا به ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال من الأئمة إلى سواه فقد ركب رأسه واتبع هواه.

12) د. حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحّدين مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الثالث، المجلد الأَول 1374 = 1955.

العلاقات بين المرابطين وبين بني زيري الصنهاجيين

- □ بين بني حماد وبني زيري...
- □ من علاقات الجزر الشرقية بأمراء إفريقية.
- □ خطاب يوسف بن تاشفين إلى الزيريين في أعقاب وقعة الزلاّقة...
- □ المرابطون في نجدة الزيريين ضد تهديدات روجي ملك صقلية.
- □ الأسطول المرابطي يتحرك برئاسة القائد ابن ميمون...

العلاقات بين المرابطين وبين بني زيري الصنهاجيين

جرياً على عادة المرابطين فإنهم كانوا يحرصون على الاكتفاء بما تحت أيديهم دون أن يمتد فضولهم إلى ما وراء بلادهم اللهم في حالةٍ واحدة : عندما يُستصرخ بهم، وفي هذه الحالة نلاحظ أنهم لا يقومون بأية مبادرة دون أن يحصلوا من الفقهاء والأشياخ على إذنٍ بالاستجابة، كذلك كان موقفهم في كلِّ حركة هامة تحرّكوها عبر تاريخهم، وقد رأينا الظروف التي تنقّلوا فيها من المغرب إلى الأندلس على سبيل المثال، كما سنلاحظ الملابسات التي تحملهم على استجاباتٍ مماثلة.

وفيما عدا ذلك فإننا نشاهد مسالمتهم بل ومجاملتهم لكل من بادلهم الود، ومَن نهج في جوارهم سلوك الأخوة.

وهكذا فليس غريباً أن نجد المرابطين يفكرون في إدخال السرور على حلفائهم بني باديس الزّيريين أصحاب إفريقية بمجرد إحراز النصر في معركة الزلاّقة، فيبعث الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية بسفارةٍ تحمل رسالة هامة.

بنو باديس بإفريقية، وبنو حماد بالقلعة

كان المعز ابن باديس (الصنهاجي) هو المؤسس الحقيقي للدولة في إفريقية والقيروان والمهدية، فلقد أعلن خلع طاعته عن الفاطميين وخطب للإمام القائم بأمر الله العباسي في بغداد عام 435. (1043 = 44).

ولما استقل المعز بن باديس بملك إفريقية انفصل عنه بنو عمه واستقلوا بما كان تحت يديهم : أشير والقلعة التي حملت إسمهم.

وهنا وقف أبناء العم بعضهم وجْه بعضٍ متنافسين حيث نشأت بينهم سلسلةٌ من الحروب واتخذ كلّ منهم حليفاً له يناصره على منافسه، حتى ولو كان هذا الحليف من غير دينهم ! وهنا تهيأت الفرصة للفرنجه أن يستولوا على صقلية التي كانت تابعة لمملكة إفريقية بل ولى الفرنجة وجههم نحو المهدية حيث وجدنا (عام 484 = 1091) أسطولاً من جنوة يحمل ثلاثين ألف مقاتل يستولى على المهدية قبل أن يصالحهم تميم على أموال أخذوها ثم لم يلبث الفرنجة على ما سنرى أن احتلوا طرابلس عام 541 = ثم المهدية عام 542 = 1147 حتى انتهت دولة بني باديس على يد صاحب صقلية، في الوقت الذي سنرى فيه طلائع الموحدين يجهزون على مملكة بني حماد.

وهكذا رأينا لذلك التنافس بين المملكتين الشقيقتين عدداً من المضاعفات فلقد قام الفاطميون بمصر بدعوة القبائل العربية للنُّزوح إلى المغرب حيث عاثوا في البلاد عيْثاً شديداً وأعانوا بعضاً من أهلها على بعض، فهم حينا من أنصار بني المعز وأحيانا من أنصار بني حماد وأحيانا يتقاسمون الجهتين !!

لقد تولى على ملك إفريقية بعد المعز بن باديس : تميم بن المعز من سنة 454 إلى سنة 501، ثم يحيى بن تميم من 501 إلى 509 ثم علي بن يحيى إلى سنة 515. ثم أبو يحيى الحسن بن علي وهو آخر ملوكهم بعد أن استولى الفرنجة على طرابلس عنوةً ثم على المهدية على ما أسلفنا...

كما توالى على ملك قلعة حماد بعده : «القائد» إلى أن توفى 446، ثم ولده محسن ثم ابن عمه بلكين ثم الناصر بن علناد بن محمد بن حماد إلى أن ملك يحيى بن العزيز ابن المنصور بن المنتصر الذي أجهز عليه الخليفة عبد المؤمن.

وإذا كان التاريخ لم يحتفظُ لنا بأسماء السفراء الذين حملوا الرسالة المرابطية فإنه لحسن الحظ ترك لنا نصوص هذه الرسالة التي تعطي فكرة عن الحالة الداخلية بالمغرب، كما تؤدي صورة مفصلة للمعركة الحاسمة التي دارت رحاها على مقربةٍ من بطليوس... وبصرْف النظر عن البواعث السياسية التي قد تكون كامنة وراء «زفّ هذه البشرى»، فإن من الملاحظ أن الفرنجة أخذوا يهيئون استحكاماتهم في تلك المنطقة بمساعدة إمارة قلعة بني حماد التي دخلت في تنافس حاد مع إمارة بني عمهم باديس، والتي نرى علاقتها مع الروم تتعزز يوماً عن يوم على ما يشهد به أسلوب الرسائل المتبادلة بين بعض أمراء قلعة بني حماد وبين عظماء النّصرانية علاوةً على ما سنستنتجه من رسائل يوسف بن تاشفين نفسه وهو يخاطب صاحب القلعة !!

لقد حملت الرسالة المرفوعة إلى الزيريين تاريخ شهر رجب تسع وسبعين وأربعمائة دجنبر 1083، وهذا نصها الكامل نقلاً عن المخطوط رقم 488 الغزيري بمكتبة الأسكوريال (FOL 49 R – 53 V)[1] :

«الحمد لله الذي من علينا بالإسلام، وفضلنا بمحمد نبيه عليه السلام، أحمده حمدا يوجب المزيد من آلائه والسبوغ من سرّ الله ونعمائه، كان من قضائه - جل ثناؤه وتقدّست أسماؤه - لما أراد قمع المَرَدة الطغاة من زناتة وغيرهم في بلاد المغرب سبّب لنا إليهم المطلب فقفونا آثارهم، وأخلينا منهم ديارهم، وكذلك نفعل بالقوم الظالمين، فقومنا الدين، ومهدنا بها للمسلمين، فصفت لنا ضمائرهم، وخلصت إلى الله تعالى نياتهم وسرائرهم حتى وصلنا طنجة الركاب، وأذقنا برغواطة سوم العذاب، ففتح الله لنا وبنا، وهو خير الفاتحين وأسرع الحاسبين لا إله غيره وهو أرحم الراحمين.

ولما بلغنا من استحواذ النصارى - دمرهم الله - على بلاد الأندلس ومعاقلها، وإلزام الجزية لرؤسائها واستئصال أقاليمها، وإيطائهم البلاد داراً داراً لا يتخوفون عسكراً يخرج إليهم، فيبدد جمعهم، ويفل حدهم، وهم مع ذلك كله

1) مخطوط يقول عنه عبد الله عنان : إنه ناقص من أوله ولاعنوان له. دول الطوائف - القاهرة 1380 = 1960 ص 424 صلاح خالص : المعتمد بن عباد بغداد 1958 ص 152.

يقتلون الشيب والشبان، ويأسرون النساء والصبيان، فخوطبنا على الجواز إلى الأندلس من جميع الأحواز، المرةَ بعد المرة، وألوتنا الأعذار إلى وقت الأقدار، ولم نجد للجواز بابا، ولا لدخول البحر أسباباً، فانضم لنا منهم الرئيس الأجل المعتمد على الله، المولّى بنصر الله ـ أحسن الله في كل الأمور عونه، وأقرب بكل صالحةٍ عينه ـ فعزمنا على الغزو وجوزنا للعدو أسوداً ضاريةً وسباعاً عادية، شيباً وشباناً، بسواعد قوية، وقلوب في سبيل الله نقية، قد عرفوا الحروب وجربوها، فهي أمّهم وهم بنوها، يتلمظون تلمظ الفهود، ويزأرون إليها زئير الأسود، فشحَنّا بهم القوارب، وأوسعناهم على ظهور المراكب، فخرجنا في مرسى الجزيرة الخضراء من دياره، وفقّه الله، ففزع الناس من كلّ أفقٍ إليهم، ووفدوا من كل قطر إليهم، متعجبين من هيأتهم محتقرين لزيّهم ونغماتهم، لا يروعهم منهم حاشا الخيل والدرق، وهم مع ذلك لا ينالون إلا بعد جفّ الريق ومسح العرق، وقدّروا أنهم طعم للسيوف وغرض للحتوف وسعد للأرماح ونهب للسلاح، فكلّ استصغرهم، والجميع منهم احتقرهم، وتبلغ إلينا أخبارهم وأقوالهم، وتنتهي إلينا أفعالهم، ثم أتبعناهم جيشاً بعد جيش بخيول كالفحول، عليها الكهول، وعددٌ من كل أمرد، على أجرد، يتسابقون إلى اللقاء في الفضاء، تسابق الحين والقضاء، ومع هذا كله فإن أهل الأندلس مستبشرون بنصرهم على أيدينا، وإزاحة غمتهم بسببنا، وعساكرنا تتزيّد، وجوازنا يتأكد، وكان آخر من جاز منّا ومعنا، قطعة من صنهاجة بني عمي، فعسر البحر حينئذ للجواز، واضطربت فيه الأمواج، فاستخرنا الباري تعالى جَدُّه، وعظم اسمه، إن كان في جوازنا خيرةٌ للمسلمين أن يسهل علينا، فما استكملتُ من كلامي حتى سهل الله المركب وقرب المطلب، فخرجنا من الحين في مرسى الجزيرة الخضراء المذكورة، والتأم شعبنا مع من جاز من عسكرنا، فعلمنا على السير، وكان قد تقدّم إلينا بالعدوة من قبل الأدفونش أمير النصارى رسالة يخاطبنا فيها بالجواز إلينا إذا عجزنا عنه، وفرقنا منه، نعطوه ؟ المراكب، ونسلموا ؟ إليه الشواني والقوارب، ليرد علينا ويقاتلنا في مأمننا، فلم نلتفت إليه، ولا عرجنا عليه. ووصلنا أيدينا بالرئيس الأَجل المعتمد على الله المؤيد بنصر الله، واستوثقنا منه غاية الاستيثاق، وبنينا معه على اللحاق بهم، والورود عليهم، ونحن في ذلك كله لما نقل إلينا، وورد علينا من رؤساء الأندلس، مستبطئين سريرة

المخبتين، لابسين قسوة الصالحين، وقلوبنا شتى، حتى لحقنا إشبيلية حضرته - عمرت ببقائه، وقد تجمع له من جنوده أعداد، ومن حشمه وعبيده وخيله ورجله أجناد، فصرنا إلى مدينة بطليوس، وأقمنا بهاأياماً منتظرين لوفد الرؤساء، من جميع أقطار الأندلس، فأخبرنا وصح عندنا أن كل واحد منهم مشتغل مع قطعةٍ كثيرة من النصارى، قد تغلبوهم على حصونهم، وأذلوهم في بلادهم، وأضعفوهم، وشجعوهم على مرادهم، فحمدنا الله تعالى، ودعونا بتيسير المراد، واستنقاذ العباد، فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين، صرفها الله، فسمع بنا وقصد قصدنا وورد ورودنا، واحتل بفنائها منتظراً لنا، فبعثنا إليه نحضّه على الإسلام، ودخوله في ملة محمد عليه السلام، أو ضرب الجزية عليه وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما أمرنا الله تعالى، وبين لنا في كتابه، من إعطاء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون فأبى وتمرد، وكفر ونخر، وعمل على الإقبال علينا، وحث في الورود علينا، فلحقنا وبيننا وبينه فراسخ، فلما كان بعد ذلك، برزنا عليه أياما، فلم يجبنا، فبقينا وبقوا، ونحن نخرج الطلائع إليه، ونتابع الوثوب عليه، وبنينا على لقائه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة فلما كان يوم الجمعة ثانية ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق، وتقلبت تقلب الحتوف للأحداق، قد استلموا الدروع للكفاح، وربطوا سوقهم الألواح، وبطونهم ملأى من الخمور، يقدرون أن الدائرة علينا تدور، ونحن في أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور، كل منا ساهٍ، وجميعنا لاهٍ، فقصد أشدهم شوكة، وأصلبهم عوداً، وأنجدهم عديدا محلة المعتمد على الله المؤيد بنصر الله وفقه الله، عماد رؤساء الأندلس وقطبهم، لايقدرون عسكرا إلا عسكره، ولا رجالاً إلا رجاله، ولا عديدا إلا عديده، وداود[2] من أصحابنا منا إلى إزائه، فهبطوا إليه لفيفاً واحداً، كهبوط السيل، بسوابق الخيل، فلما رآهم من كان معه من جنده ومن جميع الطبقات، الذين كانوا يذخرون من قبله الأموال والضياع، استكت آذانهم، واضطربت أضلاعهم ودهشت أيدهم، وزلزلت أقدامهم وطارت قلوبهم، وصاروا كركب الحمير، فروا يطلبون معقلا يعصمهم، ولا عاصم إلا الله، ولا هاربا منه إلا إليه، فلحقوا من

2) القصد إلى قائد الأسطول المغربي داود بن عائشة.

بطليوس بالكرمات، لما عاينوا من الأُمور المعضلات، وأسلموه - أيده الله - وحده في طرف الأَخبية مع عدد كثير من الرجالة والرماة، قد استسلموا للقضاء، فوثبوا عليه وثب الأَسد على الفرايس، يعظمون الكنايس، فحبسهم حينا وحده مع من إليه ممن ذكرناه، وبسطوا منهم الأَرض، ولم يبق من الكل إلا البعض، ولجأ في الأَخبية، بعد أن عاين المنية، وتخلصه الله بنيته في المسلمين وبلغ أمنيته، بعد أن وقف وقفة بطل مثله، لا أحد يرد عليه، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لا يروعه أحد منهم فيهزم، ولا يهابهم فيسأم، ثم قصدت كتيبة سوداء كالجبل العظيم أو الليل البهيم عسكر داود وأخبيته، فجالوا فيها جولانا، وقتلوا من الخلق ألوانا، واستشهد الكل بحمد الله، وصاروا إلى رضوان الله، ونحن في ذلك كله غافلون، حتى ورد علينا وارد، وقصد إلينا قاصد، فخرجنا من وراء الشعب، كقطع اللّهب، بجميع من معنا، على الخيل المسومة العراب، يتسابقن الطعن والضراب، فلما رأونا، ووقعت أعينهم علينا، ظنوا أن الدائرة فينا ولدينا، وأنا طعم أسيافهم، ولقاء رماحهم، فكبرنا وكبر الكلّ معنا، مبتهلين لله وحده لا شريك له، ونهضنا للمنون الذي لا بد منه ولا محيص لأَحدٍ عنه، وقلنا هذا آخر يومنا من الدنيا فلنموتوا ؟ شهداء، فحملوا علينا كالسهام، فثبت الله أقدامنا، وقوّى أفئدتنا، والملائكة معنا، والله تعالى وليّ النصر لنا، فولوا هاربين، وفروا ذاهلين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنةٍ تلحقه ولا ضربة تثخنه، وأضعف الرعب أيديهم، فطعناهم بالسمهرية دون الوخز بالإبر، وضاقت بهم الأَرض بما رحبت حتى أن هاربهم لا يرى غير شيء إلا ظنّه رجلاً، ! وفتكت فيهم السيوف، على رغم الأُنوف، فوالله لقد كانت تقع على الدروع فتفريها وعلى البيضات فتبريها، وزرقوا الرجالة منا على خيلهم الرماح، فشكوهم بها فرمحت بهم، فما كنت ترى منهم فارسا إلا وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكل يجر عنانه، كأنه معقل بعقاله، ونحن راكبون على الجواد الميمون العربي المصون، السابق اللاحق المعدّ للحقائق، ومن منا إلا من له جرابان فيه سيفان وبيدنا الثالث عسى أن يحدث من حادث، فصاروا في الأَرض مجدلين، موتى معفرين، وقد تراجع الناس بعد الفرار، وآمنوا من العثار، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم، يقطعون رؤوسهم، وينقلونها بإزاء المحلات حتى علت كالجبال الراسيات،عدد لا يقدر، ومدد لا

يحزر، والتجريد فيهم، والأيدي متعاودة لبطونهم، واستأصلنا أكابرهم، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون، وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل أو أقل، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا، قد أثخنوا جراحا بإزاء محلاتهم، يرتادون الظلام للهروب في المقام، ووالله لقد كان الفرسان والرجالة يدخلون محلتهم، ويعثرون في أخبيتهم، وينتهبون أزودتهم، وهم ينظرون شزراً نظر التيوس إلى شفار الجزّارين إلى أن جل الليل وأرخى سدوله، ولوا هاربين، وأسلموا رحايلهم صاغرين، فكم من دلاص على البقاع ساقطة، وخيول على البقاع رابضة. ولقد ارتبط كلّ فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد، وأما البغال والحمير فأكثر من ذلك، وأما الثياب والمتاع فناهيك، والأسرة بأوطية الحرير، والثياب والأوبار عدد ليلهم ولا يكلون من الانتقال، ولا يسأمون من تشريط الأموال، ولحقوا (قورية) ومنها حيث رحلُها أم قشعهم، فصححنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرايرنا، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين، ولم يستشهد منا إلا الفرقة التي قدر الله عليها بذلك، وقدرنا أن الكل منهم هلك لقلة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى، وتراميهم للشهادة، قدس الله أرواحهم، وكرم مثواهم وضريحهم، وجعل الجنة ميعاداً بيننا وبينهم، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلا ممن اشتهرت نجدته في المغرب، وانقلب خير منقلب، ولحقنا إشبيلية حضرته عمرت ببقائه، وأقمنا عنده أياما، ورفعنا عنه مودعين لا توديع قاطع، ولا يمنعنا منه متى أحب مانع، ولحقنا الجزيرة الخضراء، ونحن نريد أشياء أسأل الله تمامها وإنجازها وأن يسهل المراد ويوفقنا للسداد، ومتى تنفس منهم متنفس، أو رجع إلى أحدهم نفس، يذكرون مالقوا، ويتذاكرون ما بقوا، وسنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملي لهم إن كيدي متين، حتى لا يبقى على أديم الأرض منهم حيّ، ولا يحس منهم انسى، والحمد لله رب العالمين على ما قضى وخوّل وأعطى، وهذا كله مَنّاً منه علينا لا منّاً منّاعليه، وصلى الله على محمد خاتم النبيئين، وقائد الغر المحجلين إلى جنات الله النعيم، وآله الطيبين وسلم تسليما، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته.

[illegible]

نسخة خاصة من خطاب يوسف بن تاشفين إلى الإمارة الصنهاجية حول انتصاره

على برغواطة وقشتالة

ذلك نص الرسالة المرابطية إلى الإمارة الصنهاجية، ويخذلنا التاريخ حول رد الفعل الذي خلفته ؟ وهل ما إذا أجاب الولاة هناك عنها بإشارة أو وفادة إلى مراكش عاصمة المرابطين...

المرابطون في نجدة الزّيريين

من المؤكد أن أصداء النّصر الذي حققه المغرب في السّاحة الأندلسية (الزلاّقة مثلاً) نفذت بسرعة إلى سائر أولئك المسلمين الذين أخذوا يتحسّسون شبح خطر المحيط بهم من الذين يجاورونهم من النصارى وقد كان مما لفت الأنظار حقّاً هو ذلك الجسر الذي استطاع الأُسطول المرابطي، أن يربط عن طريقه القارة الإفريقية بالقارة الأروبية، إن عبور كل تلك الجيوش نحو الأندلس جعل الحاجز المائي شيئاً غيرذي بال بالنسبة للمناضلين، وبالتالي فإنه حرّك من رغبة إخواننا بني باديس بإفريقية والمهدية في الاستصراخ والاستنجاد عندما شعروا بمطامع (روجي) الأول في ديارهم.

وهكذا فعلى قياس ما يقال : إن تدخل يوسف بن تاشفين في الأندلس استجابةً لملوكها مدّد في عمر الإسلام بتلك الديار زهاء أربعة قرون، على قياس ذلك يجب، حفظاً لأَمانة التاريخ، أن يقال أيضاً إلى جانب ذلك : إن تدخُّل دولة المرابطين في إفريقية حافظ على الوجود الإسلامي بتلك الجهات وإلى الأَبد.

لقد أحس الأَمير أبو الحسن علي بن يحيى بن تميم 509 (1116 ـ 1121) بمضايقات رُوجار حاكم صقلية الذي راسله طالباً لدوام «السلم»، فواجه أبو الحسن الرسول بغلظةٍ وهدّد بالاستنجاد بمراكش، بالسلطان عليّ بن يوسف بن تاشفين، وقد وجه علي إليه فعلاً ببعثه تحمل إليه كتاباً حول الموضوع، ويقترح على العاهل المغربي أن يقصد صقلية ![3] وكان مجرّد التهديد بالشكوى كافياً لردع روجي الأول واقتناعه بالتراجع، سيما وقد وصلته الأخبار قبل غيره عن إمكانيات المرابطين في الأُسطول الحربي...

وقد كان مما حدث على هذا العهد أن استجار رافع بن مكي قائد قابس وأحد منافسي الأمير علي بن يحيى بن تميم، استنجد بصاحب صقلية روجي الذي وعد بمناصرته، الأمر الذي أحدث أيضاً تغيراً في نفس الأمير عليّ بن يحيى على روجي، حيث ازدادت العلاقات توتراً وقويت الرغبة في الاستنجاد بالمرابطين !

وجرؤ روجي بعد وفاة أبي الحسن أمير إفريقية على أن يجدّد تهديده ويستولي على طرابلس، فبعث الأمير الجديد الحسن بن علي بن يحيى بوفادةٍ إلى المرابطين الأمر الذي دفع بهؤلاء إلى إعطاء الأوامر بتحرك القطع البحرية - برئاسة ابن ميمون - عبر البحر المتوسط في اتجاه المنطقة، وقد وصل أسطول أمير المسلمين فعلاً إلى بلاد (روجار) فافتتح من الحصون وغنم عدداً من الذخائر وسبى منها سبايا كثيرة... وزاد في قوة نفس الحسن بن عليّ فاستمر في المقاومة وهنىء بالفتح، وكتبت عنه في ذلك كتب إلى سائر الجهات.

3) رحلة التيجاني : تقديم حسن حسني عبد الوهاب - المطبعة الرسمية بتونس 1378 = 1958ص 334 - 335. د. التازي : موقف المغرب من القرصلة في العصر الوسيط، أكاديمية المملكة المغربية، الدورة الأُولى لسنة 1986 - الرباط.

علاقات المرابطين مع بني حماد

- ☐ بين بني حماد وبني زيري...
- ☐ ارتباطات بني حماد بزعيم النصرانية في رومة...
- ☐ الرسالة المنذرة التي بعث بها يوسف بن تاشفين إلى صاحب قلعة بني حماد.
- ☐ وثائق حاضرة الفاتيكان تؤيد ما ورد في رسالة يوسف ابن تاشفين.
- ☐ رسالة البابا كَريكَوار السابع إلى الأمير الناصر بن علناس.
- ☐ تعليق الكونط دوماس لا تري.

علاقات المرابطين مع بني حماد

ومن جهةٍ أخرى فإننا سنتساءل عن السبب في عدم وجود رسالةٍ مشابهةٍ إلى أمراء بني حماد أصحاب القلعة ؟ الواقع أن العلاقات لم تكن على ما يرام مع الجيران المباشرين !(1) لقد كان بنو حماد، على العكس، مرتبطين بزعيم النصرانية في رومة بعلاقاتٍ جدّ طيبة - على ما سنرى - الأمر الذي تكشف عنه الوثائق المحفوظة إلى الآن في أرشيف حاضرة الفاتيكان مما نشر بعضه الكونط دوماس لا تري في كتابه بعنوان : «علاقات السلام والتجارة ووثائق مختلفة تتعلق بصلات المسيحيين مع عرب إفريقيا الشمالية في العصر الوسيط».(2)

ونحن قبل هذا وبعد هذا أمام وثائق معاصرة في منتهى الأهمية وغاية الخطورة، ويتعلق الأمر أولاً بالرسالة التي يحتفظ لنا بها ابن بسّام في ذخيرته(3) وهي من إنشاء ذي الوزارتين الفقيه الكاتب أبي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة الذي سفر غير ما مرة إلى الملوك...

والرسالة موجهة من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين(4) جواباً عن خطابٍ سابقٍ من صاحب قلعة بني حماد لم نقف على نصه :

لقد كانت الرسالة المرابطية صريحةً وقاسيةً لأنها لم تتردد في اتهام المرسل إليه بأنه «يجتنى ويثرب على من لم يستوجب التثريب.... وأن وراء كل حجة كان يدلي بها صاحب القلعة، يوجد عند أمير المسلمين ما يوضحها لولا استنكاف الجدال واجتناب تردد القيل والقال...» !!

---

1) إنما سجل التاريخ ربط صلات ودّية مع الحماديين عندما بعث يوسف بن تاشفين بتهنئته للمنصور بن الناصر ابن علناس - ابن الأثير : الكامل ج. 8 ص. 147.

2) Traités de Paix et de Commerce et Documents Divers concernant les Relations de l'Afrique Septentrionale au Moyen âge. Paris 1866.

3) قسم ثاني، مجلد أول ص 257.

4) الذخيرة 2 ر 1 - 257 الذخيرة 3 ر 285. القلائد طبعة تونس، تحقيق العنابي 1966 ص 119.

وبعد أن تذكر رسالة أمير المسلمين بما كان شبّ بين صاحب قلعة حماد وبين ابن عمه أبي عبد الله محمد بن يوسف، تتحدث عن انشغال يوسف بن تاشفين بجهاد المشركين وتُعيّره بأنه «يستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم فيعطيهم ما في خزائنه جزافاً وينفق عليهم ما كنزه أوائله إسرافا...» ثم يؤنبه بأنه «يتداوي من أعدائه بسم ويستريح إلى غم... وأنه يخلي للأعداء الطريق (يعني النورمانديين) لإذاية المسلمين (أي الزيريين).! «ولو أن صاحب رومة المشتمل معه أي مع صاحب صقلية بعباءة الكفر والشرك... تقول الرسالة، يكون مكانك من جوارنا ما أتى من نصره فوق ما أتيت.!! وكلّ ما سفك من دم، وانتهك من محرم واستهلك من ذمم فإليك منسوب وعليك محسوب.!!

ولْنأتِ بالنص الكامل لبعض فصول هذه الرسالة الهامة التي وجدنا فيها التّفسير الصحيح والكامل للأُسلوب الذي كانت تحرر به رسائل كَريكَوار السابع إلى الناصر بن علناس بن حماد...

(ورد كتابك الذي أنفذته من وادي منى منصرفك من الوجهة التي استظهرت عليها بأضدادك، وأجحفت فيها بطارفك وتلادك، وأخفقت من مطلبك ومرادك، فوقفنا على معانيه، وعرفنا المصرح به والمشار إليه فيه، ووجدناك تنجنى وتثرّب على من لم يستوجب التثريب، وتجعل سيئك حسنا، ومنكرك معروفا، وخطأك صوابا بيّنا، وتقضي لنفسك بفلج الخصام، وتوليها الحجة البالغة في جميع الأحكام، ولم تتأول أن وراء كل حجة أدليتها ما يدحضها، وإزاء كل دعوى أبرمتها ما ينقضها، وتلقاء كل شكوى صححتها ما يمرضها، ولولا استنكاف الجدال، واجتناب تردد القيل والقال، لنصبنا فصول ما يبطله، ويخجل من ينتحله، حتى لا يدفع لصحته دافع ولا ينبو عن قبول أدلته راءٍ ولا سامع، ولا يختلف اعترافاً به دان ولا شاسع.

وفي فصل منها : وننشدك الله الذي ما تقوم السماء والأَرض إلا بأمره، ألم نكن عندما نزغ الشيطان بينك وبين أبي عبد الله محمد ابن يوسف رحمه الله، وتفاقم الشنآن، قد توفرنا على ما كان بالحال من إقلاق، وتأخرنا عما كانت النصبة تستقدم من بدار أو سباق، ولم نمد الجهة حق إمدادها ولا كثرنا فوق ما كان يلزم من جماهير إعدادها ولا عدلنا عن جهاد المشركين، ولا أقبلنا إلا على

ما يحوط حريم المسلمين، رجاء أن يثوب استبصار، أو يقع إقصار، وأنت خلال ذلك تحتفل وتحشد، وتقوم بحمية وتقعد، وتبرق غضباً وترعد، وتستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من مبتعد ومقترب، فتعطيهم ما في خزائنك جزافاً، وتنفق عليهم من كنزه أولئك إسرافاً، وتمنح أهل العشارات مئين وأهل المئين آلافاً، كل ذلك تعتضد بهم، وتعتمد على تعصبهم لك وتألبهم، وتعتقد أنهم جُنتك من المحاذير وحماك دون المقادير، وتذهل عما في الغيب من أحكام العزيز القدير.

ونحن أثناء ما فعلت، وخلال ما عقدت وحللت، نؤم العدو ـ قصمه الله ـ فنجبهه ونكافحه، ونقدعه ونناطحه، ونتحيفه من أقطاره ونغزوه بدءاً وتعقيباً في عقر داره، إلى أن استجمعت أخيرا واستجشت وترجعت إلى عرفانك وأجهشت، ولولا ماؤك الذي ثمدوه، وشارفوا إلى أن يستنفدوه، ما أووا لشكواك، ولزادوك ضغثاً على إبالة بلواك، وإنك لمتداو منهم بسم، ومستريح إلى غم، فبلغت معهم ما بلغت، وأرغت بهم ما أرغت، واستقبلتنا بما أثبت عن العدو ولقد أخذناه بمخنقه، وأضفنا أنشوطة وهق الهزي على عنقه، وأشفى على انقطاع ذمائه ورقمه، ففجرت عنه كربة لم يظنها تنفرج، ونهجت له منها وجه مخلص لم يحسبه ينتهج، وأخيت وجهه لأذى المسلمين يبدئه ويعيده وبسطت فيهم يده وكانت في جامعة تقصره عما يريده، ولو أن صاحب رومة المشتمل معه بعباءة الكفر والشرك المنتحل ما ينتحل من كلمة الزور والإفك، يكون مكانك من جوارنا، ويصاقب كما صاقبت قاصية دارنا، ما أتى من نصره فوق ما أتيت ولا تولى من انتشاله، والسعي في استقلاله، إلا بعض ما توليت، ولا أنحى على المسلمين من مضارة إلا بدون ما أنحيت، ولا بغأهم خبالا بأكثر مما بغيت.

وما في تلك الجزيرة ـ عصمها الله ـ من صالح ولا طالح إلا ما يعرضك على الله تعالى، ويرفع إليه فيك عقيرته بالشكوى، وكل ما سفك من دم، وانتهك من محرم، واستهلك من ذمم، فإليك منسوب، وعليك محسوب، وفي صحيفتك مكتوب، وموعد الجزاء غداً وإنه لقريب فانظر ما أنجح أثرك، وأربح متجرك، وأصلح موردك ومصدرك...».

فصول من رقعة كتبها ذو الوزارتين أبو بكر محمد بن سليمان
المعروف بابن القصيرة عن السلطان يوسف بن تاشفين
إلى صاحب قلعة بني حماد.

ورد كتابك الذي أنفذته من وادي منى تشرح ما من الوجهة التي استهمت عليها بأعذار أنجحت فيها بطارفك وتلادك وأخفقت من مطلبك ومرادك موقفنا على معانيه وعن هذا المصرح به والمشار إليه فيه ووجدناك تجني وتعتب على من لم يستوجب التثريب وتجعل سيئاتك حسنات ومنكرك معروفا وخطأك صوابا بينا وتقضي لنفسك بفلج الخصام وتوليها الحجة البالغة في جميع الأحكام ولم تتأول أن وراء كل حجة أدلة تنسخها ما يدحضها وإزاء كل دعوى أمنية ما ينقضها وتلقاء كل شكوى محجتها ما يرفضها ولولا استكفاف الجدال واجتناب تردد القيل والقال المتضمنة بفصول كتابك أولا فأولا ونقضناها تفاصيل وجملا وأضفنا إلى كل فصل ما يبطله ويخل من منتحله حتى لا يدفع لحجته دافع ولا ينبو عن قبول أدلته رائي ولا سامع ولا يختلف اعتقادا فيه دان ولا شاسع ونشهد الله الذي لا تقوم السماء والأرض إلا بأمره أنه لم يكن عندنا ما نزغ الشيطان بيننا وبين أبي عبد الله محمد بن يوسف رحمه الله وتفاقم الشنآن وتوقفنا على ما كان بالحال من إقلاق وتلاحم ثم عما كانت النصبة تستقدم إليه من بدار وسباق ولم نزل الجهة حق إمدادها ولا الكتب نحوها ما كان يلزم من حمايتهم أعداءها ولا عدلنا عن جهاد المشركين ولا أقبلنا إلا على ما يحوط حوزة المسلمين رجاء أن يثوب استبصار أو يقع إقصار وأنت خلال ذلك تحتفل وتحشر وتقوم حمية وتقعد وتسقط غضبا وتزعر وتستدعي ذؤبان العرب وصعاليكهم من بعيد وقريب فتعطيهم ما في خزائنك جزافا وتبعث عليهم ما كنتم أوائلك إسرافا وتمنح أهل العيث منهم وأهل الشين الأبدا كلاما تقتصر بهم وتعتمر على تعصبهم لك وتألبهم وتعتقد أنهم جنة لك من الحوادث وحماة دون الغوادي ويذهل عما في الغيب من أحكام العزيز القدير وفي أثناء ما فعلت وخلال ما عقدت وحللت نفخ العدو قصمه الله بجيشهم ونكايتهم فنفعل ونبادرهم ونتخيفهم من أقطارك ونغزوك بدءا وتعقيبا في عقر دارك إلى أن استحمقت أخيرا واستوحشت وتوجهت الحمى بلادك واجهشت ولولا ما أدركك الذي تداركوا وشاوروا إلى أن يستبدلوا ما أووا الشكوك ولزادوا صفقا على إذالة بلوادك وإيالة لتراؤوا منهم بسيم ويسمى في العدو بلغت معهم ما بلغت وأرغت فيهم ما أرغت واستقبلتنا بما أثبت عن العدو ولقد أخذ ذلك لحنقه وأصبنا التشويه وهو الحزن على عنقه وأشفى على انقطاع ذمائه ورمقه فعوجت عنه كربة لم يكشفها تنبوح ونهجت له منهلا وحجة تخلص به لتحسبه ينتهج وأخليت وجهه لأذى المسلمين يبدئه ويعيده وسكنت فيهم يده وكانت في جامعة تقضمها عما يريد ولو أن صاحب رومة المشتمل معه بعباءة الكفر والشرك المنتحل ما ينتحله من كلمة الزور والإفك لم يكن مكانه من جوارك ويقارب كما قاربت ملابسة دارك ما أتى من نقضها ما أتيت ولا تولى من انتشاله والسعي في استقلاله إلا بعض ما توليت ولا أخنى على المسلمين من مضارك إلا بدون ما أخنيت ولا يعاطيهم خبالا بأكثر مما بغيت وفي تلك الجزيرة عصمها الله من صالح ولا كان طالح إلا ما يعم على الله تعالى ويرجع إليه فيما غمضته بالشكوى وكل ما سبقك من دم وانتهك من محرم واستحلك من ذم فإليك منسوب وعليك محسوب وفي صحيفتك مكتوب وموعد الجزاء غدا وإنه لقريب فانظر ما أنجح آتيك وأربح متجرك وأصلح موردك ومصدرك.

وقد أتينا على ذكر هذه الرسالة التي لها أكثر من دلالة لنذكّر بأن الأمير النّاصر، من دولة بني حماد، كان يتحلى - على ما تذكر المصادر النّصرانية - بكثيرٍ من الودّ، إزاء الجماعات المسيحية التي تقيم بالإقليم الذي كان يحكمه، وكان لهذه الجماعات، من حينٍ لآخر، علاقات منتظمة مع المركز البابوي، وبخاصة في عهد البابا كَريكَوار السابع...

ونأتي هنا بترجمة حرفية لما أورده الكونط دوماص لاتري في كتابه «علاقات وتجارة إفريقيا الشمالية أو المغرب مع الأمم المسيحية في العصر الوسيط».(5)

«طبقاً لتعليمات كَريكَوار السابع، اختار مطران قرطاج وزميله من بين رهبانهما، مرشحاً للرّسامة الأسقفية، وقد حاولا في اختيارهما هذا إرضاء كلٍّ من الإكليروس والشعب «الهيبوني» احتراماً لهذا الاختيار الجليل. وكان الأسقف الذي اختير يسمّى بسرفان (SERVAND)، وقد قبل الناصر ملك موريطانيا اختياره، وعندما ذهب سرفان أسقف بونة إلى روما أعطاه الأمير رسائل وهدايا ليقدمها إلى البابا، بل عمل أكثر من ذلك حيث إنه حرر كل الأسرى المسيحيين الذين كانوا يوجدون في جميع أقطار بلاده، وبعث بهم إلى الحَبر الأعظم، ووعد بإطلاق كل السجناء المسيحيين، إن عثر عليهم. وذلك حرصاً منه على إظهار الود والصداقة للبابا. وليؤكد له كذلك نيته الحسنة تجاه مواطنيه الذين يعتنقون المسيحية.

---

5) De Mas Latrie : Traités de Paix et de Commerce et Documents divers concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique Septentrionale au moyen âge... avec une introduction Historique, Paris 1866-1868 Page 22-23.
– Relations et Commerce de l'Afrique Septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au Moyen âge, Paris 1886 p. 41-42-43-44, Documents. p. 7
مولود قاسم نايت قاسم : شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، دار البعث، الجزائر 1405 = 1985 ج 1 ص 49 - 85 - 86.

بــونـــة

... ومدينة **بونه Hippone** مدينة مقتدرة وهي ليست بالكبيرة ولا بـالصغيرة... وهي على نحر البحر ولها أسواق حسنة وتجارة مقصودة وأرباح متوسطة... وبهامعادن حديد كثيرة ويزرع بها الكتان...وبينها وبين جزائر بني مزغنان مراس، فمنها مرسى **جيجبل** ومنه إلى مرسى **بجايـة...** وهي مـدينـة عليها سور منيع، وهي على نحر البحر، وليس لها مرسى مأمون، وبها فـواكـه رخيصة ومأكـل ومطعم والقمح والشعير والألبـان والأجبان والمواشي ما يعدو غيرهم مما يجاورهم، وبها من الأشجار والتمر والتين خاصة الكثير العظيم مما **يحمل إلى البلاد النائية عنها.**

ابن حوقل : المسالك والممالك ص51 ـ 52

كان لهذه المعاملة تـأثيرٌ عظيمٌ في نفوس الرّهبـان والرومـان حيث إن شخصيات عديدة من بين النبلاء والرهبان السامين أرادوا التقرب من الأمير، وقد اغتنموا عودة سرفان إلى إفريقيا سنة 1076 أو 1077، فأرسلوا معه عدة رُسُل تكلفه بشكر الملك باسمهم. ونقل الأسقف الجديد، بالإضافة إلى ذلك، رسالة مجاملة من عند كَريكَوار نفسه، تختص بطابع الانفتاح والصراحة على خلاف الرسائل التي كان يتبادلها البابوات مع ملوك المغرب. وها هو ذا مضمونها الكامل :

«من عند الراهب كَريكَوار، خادم عباد الله، إلى الناصر ملك موريطانيا من إقليم ستيف بإفريقيا.. تحية وبركة بابوية.

لقد تفضلت فخامتكم بالكتابة إلينا في هذه السنة طالبين منّا أن نرسم كاهناً وذلك حسب القوانين التي تفرضها علينا المسيحية، فبادرنا باختيار الأسقف سرفان لأنّ طلبكم هذا كان صائباً. وبعثتم لنا في نفس الوقت بهدايا، كما أنكم احتراماً لِبيير... أمير الرسل، وحبّاً لنا قد حررتم الأسرى المسيحيين ووعدتم أيضا بالعفو عن الآخرين الذين قد يوجدون عندكم.

إن الله خالق كل شيء والذي بدونه لا نسطيع شيئا، قد ألهمكم الطِّيبَة وهيأكم لهذا العمل النبيل.

إن الله العلي القدير الذي يحب السلام لكل الناس ولا يريد أن يهلك أحداً، لا شيء أحب إليه تعالى أكثر من حبنا لبعضنا، بعد حبنا له سبحانه وكذلك من

التمعُّن في هذا المبدأ : «عامِلْ غيرك بما تحبّ أنْ تُعَامَل به»

فينبغي لنا أن نمارس فضيلة المحبة هذه أكثر من غيرنا من الشعوب. فنحن جميعاً، على أوجه مختلفة، نعبد إلاهاً واحداً، وإننا كل يوم نسبّح بحمده ونجلّ فيه خالق العصور ورب العالمين.

فعندما أخبرنا شرفاء مدينة روما بالصنيع الذي ألهمكم الله إياه، قد أعجبوا بسمو قلبكم وأذاعوا مدحكم، وإن اثنين من بينهم هما اللذان يشاركانا الأكل والشراب عادة، ألبيرِك (AL BERIC) وسنسيوس (Cencius)، وقد تربّينا معنا في قصر روما منذ كانا في سن المراهقة.

وهما يودّان، بحمية، أن يربطا معكم صداقة ومودة، وسيكونان سعيدين بإرضاءكم في هذه البلاد. سيبعثان لكم ببعض رجالهم ليبرهنوا لكم على مدى تقدير أسيادهم لخبرتكم ولعظمتكم وليظهروا لكم رغبتهم في خدمتكم هنا. وإننا نوصي جلالتكم بهم ونطلب منكم أن تكنوا لهم الحب والوفاء مثل الحب والتفاني الذي سنخصكم دائما به وبأي أمير يعينكم.

إن الله العلي القدير يعلم أن عبادته تلهم الصداقة التي محضناكم بها.

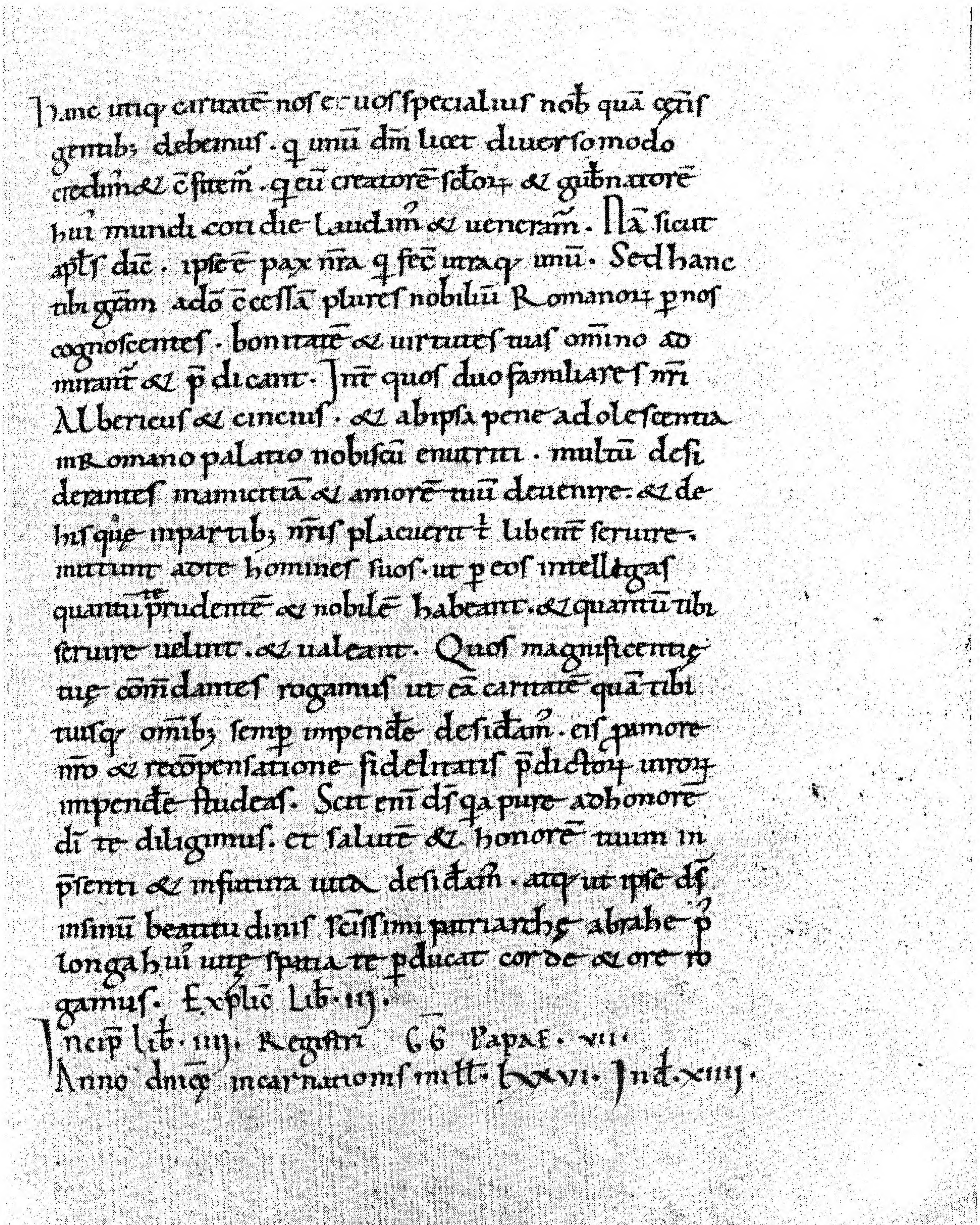
وكم نتمنى لكم السلامة والنصر في هذه الدنيا وفي الآخرة، وإننا نتوسل إليه تعالى من أعماق قلوبنا أن لايأخذكم إليه إلا بعد عمر طويل، إلى صدر ونعيم سيدنا إبراهيم عليه السلام».[6].

لم يعبّر قط حبر روما العظيم عن وده لأمير مسلم على هذا النحو من العطف والحنو. خاصة أننا لم نلاحظ قط من قبل أن أحد البابوات قد باح، بمثل هذا الحب الصميم وهذه المراعاة الحسنة بالإيمان المشترك بين المسلمين والنصارى، بنفس الإلاه، الله الواحد الأحد، الخالد المُبَجّل من طرف ديانات مُوقّرة وإن كانت مختلفة، يقول لا تري، الذي يضيف ما يلي :

---

6) من الطريف أن نجد البابا ليون الثالث عشر يلمّح - عام 1888 - لرسالة البابا كَريكَوار السابع إلى الناصر بن علناس (من بني حماد - بونة) عام 469 = 1076، وذلك في جوابه على خطاب السفير المغربي الحاج محمد الطريس الذي بعثه السلطان المولى الحسن الأول إلى الكرسي الرسولي يوم 25 يبراير 1888 Jacques Caillé : Sur les raports du Maroc avec le Saint Siège Hesp. Tamuda 1969 p. 87

د. التازي : المحاولات التاريخية للتقارب بين الأديان. اللّقاء الإبراهيمي، قرطبة - يبراير 1987.


Hanc utique caritatem nos et uos specialius nobis quam ceteris
gentibus debemus, qui unum deum licet diuerso modo
credimus et confitemur, qui eum creatorem seculorum et gubernatorem
huius mundi cotidie laudamus et ueneramur. Nam sicut
apostolus dicit: ipse est pax nostra qui fecit utraque unum. Sed hanc
tibi gratiam a deo concessam plures nobilium Romanorum per nos
cognoscentes, bonitatem et uirtutes tuas omnino ad
mirantur et predicant. Inter quos duo familiares nostri
Albericus et Cincius, ab ipsa pene adolescentia
in Romano palatio nobiscum enutriti, multum desi
derantes in amicitiam et amorem tuum deuenire, et de
his que in partibus nostris placuerint libenter seruire,
mittunt ad te homines suos, ut per eos intelligas
quantum te prudentem et nobilem habeant, et quantum tibi
seruire uelint et ualeant. Quos magnificentie
tue commendantes rogamus ut ea caritate quam tibi
tuisque omnibus semper impendere desideramus, eis pro amore
nostro et recompensatione fidelitatis predictorum uirorum
impendere studeas. Scit enim deus quia pure ad honorem
dei te diligimus, et salutem et honorem tuum in
presenti et in futura uita desideramus, atque ut ipse deus
in sinum beatitudinis sanctissimi patriarche Abrahe post
longa huius uite spatia te perducat, corde et ore ro
gamus. Explicit Lib. III.
Incipit lib. IIII. Registri GG Papae VII.
Anno dominice incarnationis mill. LXXVI. Ind. XIIII.

صفحتان من يومية البابا كَريكَوار وهما تتحدثان عن الناصر كما نقرأه ابتداء من السطر 13 و 14 من الأول من المخطوط.

صورة من الأَرشيف (حاضرة الفاتيكان) Vat 2 : F 111 v F 112 r

sicut et ego dilexi uos. Maiorē caritatē nemo habet
ut animā suā ponat quis p amicis suis. Aptls qq
Paulus magister & doctor gentiū dicit. Si dns
nr ihs xps posuit animā suā p ouib; suis ac dedit
sanguinē suū redēptionē p multis. debemus & nos
p frib; animā ponere. Sic itaq; uos sedulos erga
cultū xpiane religionis exhibete dilmi atq; aman
tissimi frr quaten post huius uite pelagus ad portū
ppetue quietis. atq; eterne beatitudinis felicit p
uenire possitis. largiente ipso redēptore dno nro ihu
xpo. qui cū patre & spu sco uiuit et regnat ds
p omnia scla sclor am.

Regi mauritanie sitifensi prouincie in africa. 21.

GREGORIUS eps seruus seruor di Anazir
regi mauritanie sitifensi prouincie in africa.
Nobilitas tua hoc in anno litteras suas nob misit. qua
tenus seruandū pbrm epm scdm xpianā constitu
tionē ordinarem. Qd qa petitio tua iusta & opti
ma uidebat facere studuimus. Missis etiā ad nos
munerib; xpianos q apud uos captiui tenebant
reuerentia beati petri pncipis aplor & amore
nro dimisisti. alios qq captiuos te dimissurū p
misisti. Hanc deniq; bonitatē creator omnium
ds sine quo nichil boni facere immo nec cogitare
possumus cordi tuo inspirauit ipse q inluminat
omēm hominē uenientē in hunc mundū in hac
intentione mentē tuā inluminauit. Ille omps
ds q omis homines uult saluos facere. & nemi
nē perire. nichil ē qd in nob magis approbet
quā ut homo post dilectionē suā hominē
diligat. & q sibi n uult fieri alii n faciat.

إن أُسلوب هذه الرسالة، بما تتضمنه من دعاء لسيدنا إبراهيم، وحرص على تذكر النقط الوحيدة التي تقرب ما بين عالمين من الديانات المتعارضة إلى أبعد حد، في كل ما تبقى من الجوانب، يختلف عن الأُسلوب العام للرسائل التي كان يتبادلها البابوات وأُمراء المسلمين.

حقاً كان البابوات يظهرون بعض التقدير والاحترام في الرسائل الضرورية التي كانوا يبعثونها للخلفاء والأُمراء، وذلك لطلب حظوة أو لشكر على فعلٍ مّا، كما كانوا يحافظون على لهجة السيادة والعتاب أو على الأَقل يظهرون الشفقة، وكان للأُمراء المسلمين أُسلوب مماثل في رسائلهم.

أما الشيء الذي لا يكاد يدرك في علاقات الناصر بكَريكَوار السابع هو الأصل البربري والمسيحي لابن حماد وأُمته، وما قد يحدثه هذا النسب من أمل خفي مكتوم. فكان ذلك ولا شك سبب هذه المجاملة الخارقة التي نظن أنه لا مثيل لها....

كان بودنا معرفة نتائج هذه المراسلة العجيبة، إذ أهملها التاريخ، غير أنها بقيت، على أي حال راسخة في نفوس سكان وأمراء موريطانيا.

إنّنا بجانبهم وتحت حمايتهم سنعثر على أُسرٍ من الأَهالي المسيحية التي بقيت زمناً طويلاً.

وكان كل شيء يحمل على الظن أن حسن علاقات الدولة الحمادية مع الكرسي الرسولي للمسيح، لم يكن غريبا عن التحالف الذي وقع قبل آخر القرن، تحت رعاية خليفة كَريكَوار السابع ضد الدولة الزيرية التي تعتبر عَدُوّة لأُسرة الناصر».

وقد استمر الحماديُّون في حماية المسيحيين طوال ملكهم، وفي القلعة ذاتها عاصمة المملكة كانت توجد عام 508 = 1114 كنيسة أهديت لمريم العذراء، وكان يسكن فيها أحدُ الأَساقفة...[7]

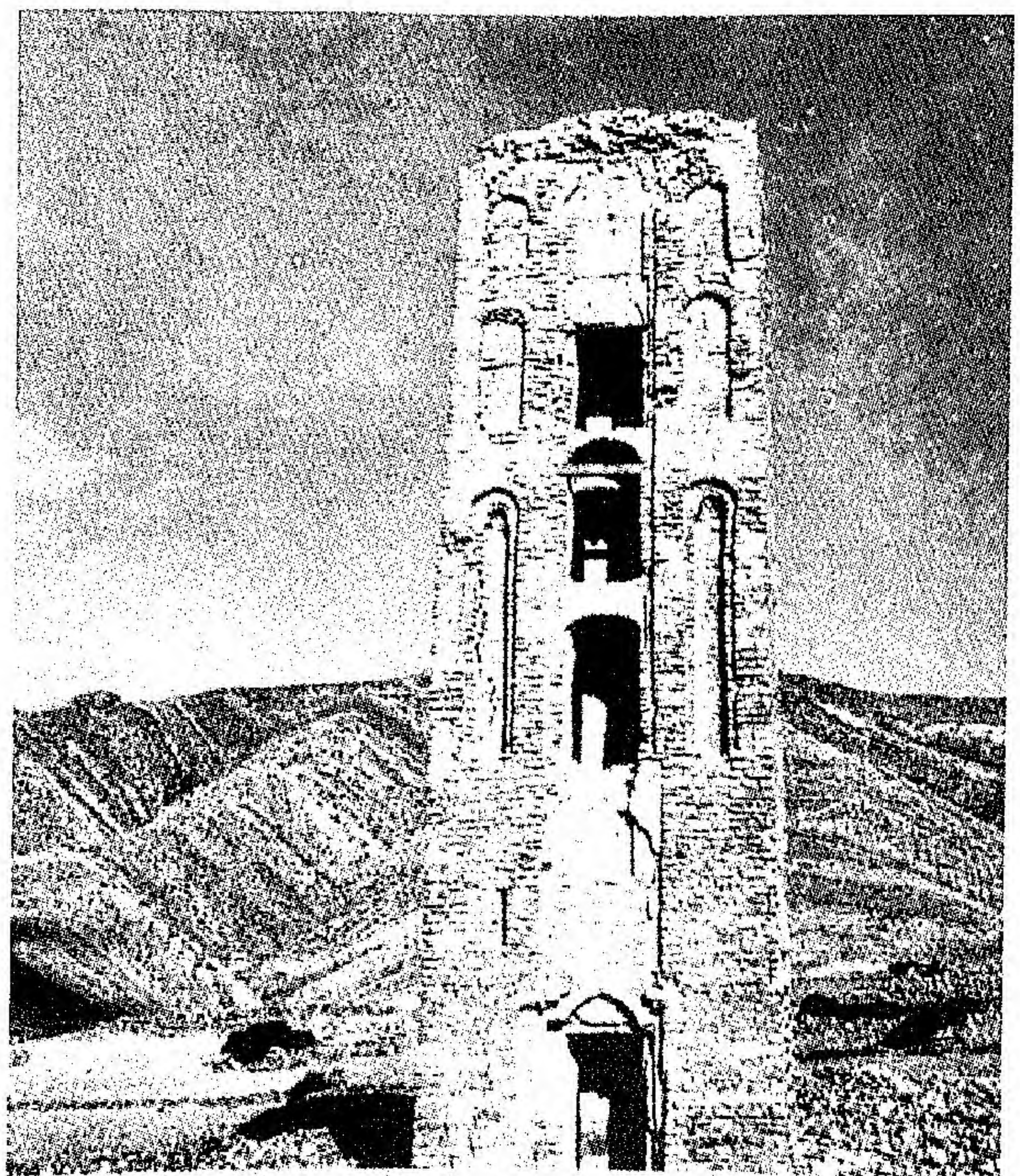
---

7) رشيد بوريبة : الدولة الحمادية : تاريخها حضارتها المركز الوطني للدراسات التاريخية الجزائر 1977 ص 72 ـ 164.

المئذنة العمياء...

يتحدثون في المغرب عن صومعة قديمة عمياء بمكناس، أي لا نوافذ لها من سائر جهاتها ويذكرون أن لذلك سببا يرجع لكون أحد المؤذنين ضبط وهو يتكشف على أحد البيوت الذي كان قريباً من المنارة.

وقد وقفت على بقايا الصومعة الأثرية التي كان المسجد الأعظم يزدان بها في قلعة بني حماد... حيث وجدت أن النوافذ تقتصر على الجهة الجنوبية فوق باب المئذنة وهي الجهة التي تشرف على القلعة وتضبط الطرق الخارجية إلى المدينة. أما الجهات الثلاث الأخرى : الشمالية والشرقية والغربية فإنما تشتمل على متنفسات ضيقة لإدخال الضوء من أعلى، وقد كان مرد ذلك إلى أن الجهات المذكورة تشرف على **القصور الملكية** التي كانت تقع على سفح المرتفعات هناك.



هل كان وراء قصيدة المنفرجة ظرف سياسي ؟

عندما يدرس المرء الأدب في إقليم الجريد سيجد نفسه أثناء العصر الصنهاجي... **مع أبي الفضل ابن النحويّ** الذي ولد بتوزر عام 434، وقد درس بالجامع الكبير عن أبي زكرياء يحيى الشقراطسي، ثم درس بصفاقس على الإمام اللخمي وأخذ عنه صحيح البخاري (كما قال ابن الآبار) كما أخذ عنه «التبصرة» **وكان علم اللخمي كله في كتابه هذا**، قال له اللخمي : تريد أن تحملني في كفك إلى المغرب !!

وأخيرا درس بالمهدية وأخذ عن الإمام المازري ثم اشتغل بالتدريس في العديد من الأماكن منها **سجلماسة وفاس وبجاية عاصمة بني حماد أنذاك**، وقد تخرج عنه علماء أفذاذ منهم محمد بن الرمامة (تـ 567 هـ) رئيس المفتين بفاس[1] والأخوان الفقيهان أبو بكر ومحمد ابنا مخلوف بن خلف الله والفقيه أبو عمران موسى بن حماد الصنهاجي، وعلي بن حرزهم شيخ المتصوف الكبير أبي مدين شعيب دفين تلمسان.

وعندما أفتى فقهاء المغرب بحرق كتاب الأحياء وأذن سلطان المرابطين بذلك، انتصر أبو الفضل النحوي للغزالي ودافع عنه دفاعاً مستميتاً **وكتب للسلطان مفتياً** بعدم لزوم ذلك ! ونسخ الأجزاء الثلاثين بخطه : يقوم كل يوم في رمضان بنسخ جزء قائلا : وددت أني لم أنظر في عمري سواه..! قال عنه القاضي ابن حماد : كان أبو الفضل ببلادنا كالغزالي في العراق علما وعملا...

وأشهر شعره قصيدته المنفرجة التي مطعلها :

اشتدي أزمة تنفرج	قد آذن ليلك بالبلج !
وظلام الليل له سُرُج	حتى يغشاه أبو السرج
وسحاب الخير لها مطر	فإذا جاء الإبّان تجي !
والخلق جميعاً في يده	فذوو سعةٍ وذوو حرج
ونزولهمُ وطلوعهمُ	فإلى دركٍ وعلى دَرَج
فإذا انفتحت أبواب هدى	فاعجل لخزائنها ولج
وإذا حاولت نهايتَها	فاحذرْ إذ ذاك من العرج !
وإذا كنت المقدام فلا	تجزع في الحرب من الرهج
والرفق يدوم لصاحبه	والخرق يصير إلى الهرج
وإذا بك ضاق الأمر فقل	**اشتدي أزمة تنفرج !!**

العلاقات بين المرابطين وصقلية

- □ الفاطميون في مصر يباركون احتلال صقلية لجرْبة !
- □ المغرب يواجه صقلية لمساعدة تونس.
- □ رسالة الحسن بن علي إلى الأصقاع المغربية حول انتصاره على صقلية.
- □ العلاقات المغربية مع صقلية من خلال ابن عذاري.
- □ تاريخ صقلية من مذكّرات سفير مغربي.
- □ وضع المسلمين في صقلية على عهد المرابطين من خلال الوثائق المعاصرة...

الفاطميُّون بمصر
يزكون غزو رُوجي ملك صقلية لجزيرة جربة... تونس

كان مما نقله التيجاني عن أبي الصلت في كتابه الذي ذيّل به على كتاب الرقيق : ان النصارى (أهل صقلية) تغلبوا على جربه سنة 529 هـ فقتلوا مَن قتلوا وبقي الباقون تحت طاعتهم فلما كانت سنة 548 ثار أهلها على النصارى فقتلوا منهم جماعة كثيرة، فغزاهم النصارى من عامهم وتغلبوا على الجزيرة ثانية فنقلوا أكثر أهلها سبايا إلى بلادهم ولم يُبقوا بها إلا من لا بال له... وعن هذه «الانتصارات» التي أحرز عليها ملك صقلية، كتب هذا الملك إلى أحد خلفاء الفاطميين بمصر «يبشّره» بذلك حيث وجدنا ذلك الخليفة يبعث بجواب لملك صقلية رأينا من المفيد نقله هنا عن القلقشندي من صبح الأعشى ج 6 ص 458 - 463.

من عبد الله ووليه عبد المجيد أبي الميمون الإمام الحافظ لدين الله أمير المؤمنين، إلى الملك بجزيرة صقلية وأنكورية وأنطالية وقلورية وسترلو وملف، وما انضاف إلى ذلك، وفقه الله في مقاصده، وأرشده إلى العمل بطاعته في مصادره وموارده.

سلام على من اتبع الهدى، وأمير المؤمنين يحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، ويسأله أن يصلي على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين، صلى الله عليه وعلى آله الطاهرين، الأئمة المهديين، وسلم تسليماً.

أما بعد : فقد عرض بحضرة أمير المؤمنين الكتاب الواصل من جهتك، ففض ختامه واجتلي. وقرئ مضمونه وتلي، ووقعت الأصاخة إلى فصوله، وحصلت الإحاطة بجمله وتفاصيله. والإجابة تأتي على أجمعه، ولا تخل بشيء من مستودعه.

أما ما افتتحته به من حمد الله تعالى على نعمه، وتوسيعك القول فيما أولاك من إحسانه وكرمه، فأن مواهب الله تعالى ومننه التي جعل تواليها اختبار شكر العبد وامتحانه على أنه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور عليم. وهو القائل فيمن أثنى عليهم : أولئك الذين أمتتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم[1]، لا يزال مضاعفها ومرادفها، ومتبعاً سالفها آنفها، وهو يوليها كلاً من عبيده بقدر منزلته عنده، ويخص أصفياءه بأوفى مما تمناه الآمل المبالغ ووده. والله تبارك وتعالى يمنح أمير المؤمنين وآباءه الأئمة الراشدين ما غدت مستقدمات الحمد والشكر عند لوازمه مستأخرة، إذ كان أفردهم دون الخليقة بأن أعطاهم الدنيا ثم أعطاهم معها الآخرة. واختصهم من حبائه بما لا يحصيه عدد، وخوّلهم من آلائه بما لا يقوم بشكره أحد.

وأما ما ذكرته من افتتاحك الجزيرة المعروفة بجربة لما شرحته من عدوان أهلها وعدولهم عن طرق الخيرات وسبلها، واجترائهم في الطغيان على أسباب لا يجوز التغافل عن مثلها، واستعمالهم الظلم تمرداً، وتماديهم في الغي تباهياً في الباطل، وغلواً، يأساً من الجزاء لما ستبطئوه، فإن من كانت هذه حالته حقيق أن تكون الرحمة عنه نائية، وخليق أن يأخذه الله من مأمنه أخذة رابية، كما أنه من كان من أهل السلامة وسالكاً سبيل الاستقامة، ومبقلاً على صلاح شأنه، وغير متعد للواجب في سره وإعلانه، تعين أن توفر من الرعاية سهمه، وتجزل من العناية نصيبه وقسمه، ويؤمّن ما يقلقه ويزعجه، ويقصد بما يسره ويبهجه، ويصان عن أن يناله مكروه، ويُحمى من أذى يلم به ويعروه.

---

1) I DIPLOMI GRECI ED ARABI DI SICILIA PUBBLICATI... DA SALVADORE CUSA Nit Einem Worwart von Albrecht-Noth, 1982
DIPLOMI E CANCELLERIA DI RUGGERO II Con un contributo... di ALBRECHT NOTH, 1983

وأما شكرك لوزيرك الأمير تأييد الدولة وعضدها عز الملك وفخره نظام الرياسة، أمير الأمراء، فإن من تهذب بتهذيبك وتخلق بأخلاقك وتأدب بتأديبك لا ينكر منه إصابة المرامي، ولا يُستغرب عنده نجح المساعي، وواجب عليه أن لا يجعل قلبه إلا مثوى للنصائح، وأن لا يزال عمره بين غاد في المخالصة ورائح.

وأما المركب العروس ووصول كتاب وكيله ذاكراً ما اعتمده مقدم أسطولك من صونه وحمايته، وحفظه ورعايته، وحفظه ورعايته، وإعادة ما كان أخذ منه قبل المعرفة بأنه جارٍ في الديوان الخاص الحافظي، ففعلٌ يجمل عنك صدره، ويليق بك أن ينسب إليك ذكره وخبره، ويدل على علم أصحابك برأيك وإحكام معاقدة المودة، ويعرب عن إيثارك إبرازها كلما تقادم عهدها في ملابس بهجة مستجدة. وهذا الفعل من خلائقك الرضية غير مستبدع، وقد ذخرت منه عند أمير المؤمنين ما حصل في أعز مقر وأكرم مستودع، لا جرم أن أوامره خرجت إلى مقدمي أساطيله المظفرة بما يجنيك ثمرة ما غرسته، ويعلي منار ثنائك الذي قررته على أقوى أصل وأسسته، وقد نفذت مراسيمه بإجرائك على غلاتك المستمرة في المسامحة بما وجب للديوان عما وصل برسمك على مراكبك، وبرسم الأمير تأييد الدولة وزيرك، والرسولين الواردين عن حق الورود إلى ثغر الإسكندرية، حماه الله تعالى، ثم إلى مصر، حرسها الله تعالى، وحق الصدور عنهما وكل ما يصل من جهتك فعلى هذه القضية.

وأما شكرك على الأسرى الذين أمر أمير المؤمنين بإطلاقهم إجابة لرغبتك، ورسم بتسييرهم إليك محافظة على مرادك وبغيتك فأوزعنا شعارهم أنهم عتقاء شفاعتك وإرقاء منتك، فذلك من الدلائل على ما ينطوي عليه من جميل الرأي وكريم النية، ومن الشواهد بأنه يوجب لك ما لا يوجبه لأحد من ملوك النصرانية.

وأما سؤالك الآن في إطلاق من تجدد أسره، وإنهاؤك أن ذلك مما يهمك أمره، فقد شفعك أمير المؤمنين بالإجابة إليه على ما ألف من كريم شيمته، وسيَّرَ إليك مع رسولك من تضمن الثبت ذكر عدته. وقد علمت ما كان من أمر

بهرام ووصوله إلى الدولة الفاطمية ـ خلد الله ملكها ـ شريداً طريداً، قد نبتْ به أوطانه، وقذفته دياره، لا مال له ولا حال، ولا عشيرة ولا رجال، فقبلته أحسن قبول، وبلغت به في الإحسان ما يزيد على السول، وغمرته من الأنعام ما يقصر عن اقتراحه كل أمل، وجعلته فواضلها يقلب الطرف بين الخيل والخول، وكانت أموره كل يوم في نمو وزيادة، وأحواله توفي على البغية والإرادة، إلى أن جرت نوبة اقتضى التدبير في وقتها أن عدقت به الوزارة، ونيطت به السفارة، فوسوس له خاطره ما زخرفه البطر وزينه، وصوره الشيطان وحسنه، وأظهر ما ظهرت إماراته ووضحت أدلته وعلاماته، فاستدعى قبيله وأسرته، وجنسه وعشيرته، بمكاتبات منه سرية، وخطوط عثر عليها بالأرمنية، فكانوا يصلون أول أول، إلى أن اجتمع منهم عشرون ألف رجل من فارس وراجل، ومن جملتهم أبنا أخيه وغيرهما من أهله، فدلوه بالغرور، وحملوه على ما قضى بالاستيحاش منه والنفور، وقووا عزمه فيما يؤدي إلى اضطراب الأحوال واختلال الأمور، فامتعض العساكر المنصورة مما أساء به سياستهم، وأبوا الصبر على ما غير به رسمهم وعادتهم، فلما رأى أمير المؤمنين ذلك استعظم الحال فيه، وتيقن أن التغافل عنه يقضي بما يعسر استدراكه وتلافيه، فكاتب وليه وصفيه الذي ربي في حجر الخلافة، وسما به استحقاقه إلى أعلى درج الأنافة، وحصلت له الرياسة باكتسابه وانتسابه، وغدا النظر في أمور المملكة لا يصلح لغيره ولا يليق إلا به، السيد الأجل الأفضل، وهو يومئذٍ والي الأعمال الغربية، وصدرت كتب أمير المؤمنين تشعره بهذا الأمر الصعب، وتستكشف به ما عرا الدولة من هذا الخطب، فأجاب دعاءه ولبى نداءه، وقام قيام مثله ممن أجزل الله حظه من الإيمان، وجعله، جل وعز، حسنة هذا الزمان، واختصه بعناية قوية، وأمده بمواد علوية، وأيده بإعانة سماوية، تخرج عن الاستطاعة البشرية. فجمع الناس وقام خطيباً فيهم، وباعثاً لهم على ما يزلفهم عند الله ويخطيهم، وموضحاً لهم ما يُخشى على الدولة من الأمر المنكر، فاجتمعوا إليه كاجتماعهم يوم الحشر، وغصت النجود والأغوار، واملأت السهول والأوعار، وضاقت الأرض على سعتها بالخلائق، وارتفعت في توجههم لطلب المذكور الأعذار والعوائق، ولم يبق فضاء، ألا وهو بهم شَرق، ولا أحد ألا وهو منزعج بنصده وعلى تأخر ذلك قلق، وكان بهرام

وأصحابه بالإضافة إليهم كالشامة في اللون البسيط، وكالقطرة في البحر المحيط، وساروا مع السيد الأجل نحوه مارعين، وعلى الانقضاض عليهم متهافتين. فلما شعر بذلك لم يبق له قرار، ولاذ بالهرب والفرار، يهجر المناهل ويطوي المراحل ويرى الشرود غنماً، ويعد السلامة حلماً. واستقرت وزارة أمير المؤمنين لهذا السيد الأجل الأفضل الذي لم تزل فيه راغبة، وله خاطبة، ونحو توليه إياها متطلعة، وإلى نظره فيها مبادرة متسرعة، ولم تنفك لزينة دستها مستبطئة، وفي التلهف على تأخر ذلك معيدة مبدئة، فأحسن إلى الكافة قولاً وفعلاً، وعمل في حق الدولة ما لم يجعل له في الوزراء شبهاً ولا في الملوك العظماء مثلاً، وغدا للملة الحنيفية حجة وبرهاناً، وأولى الأولياء إعزازاً وتكريماً، والأعداء إذلالاً وأهواناً، وصان الخلافة عن نفاذ حِيَله وتما غيله، ومخادعة ماكر، ومخاتلة غادر، فلذلك انتضاه أمير المؤمنين حساماً باتراً ماضي الغرار، واجتباه هُماماً في المصالح لا يطعم جفنه غير الغرار، واصطفاه خليلاً وظهيراً لتساوي باطنه وظاهره في الصفاء، واستخلصه لنفسه لمفاخره الجمة التي ليس بها من خفاء، وانتظمت الأمور بكفالته في سلك الوفاق، وعمت الخيرات بوزارته عموم الشمس بأنوارها جميع الآفاق، فسعدت بنظره الجدود، وتظاهرت ببركاته الميامن والسعود، وأصبح غصن المعالي بيمنه مورقاً، وعلى الملة من يمن أرائه تمائم من مَسِّ الحوادث ورقى، فآثاره توفي على ضياء الصباح، وعزماته تزري بمضاء المهندة الصفاح، ومآثره تفوت شأو الثناء وغاية الامتداح. فالله تعالى يحفظ النعمة على الخلافة الحافظية، ويوزع شكره على سبوغها كافة البرية بكرمه وفضله، ومنّه وطوله.

ولما أمعن بهرام في الهرب وجدت العساكر المنصورة وراءه في الطلب، وضاقت عليه المسالك، وتيقن أنه في كل وجهة يقصدها هالك، عاد لمكارم الدولة وعواطفها، وسأل أماناً على نفسه من متالفها، فشملته الرحمة وكُتب له الأمان، فعاودته النعمة، واختلط برجال العساكر المنصورة، وصار حظه بعد أن كان منحوساً من الحظوظ الموفورة.

وأما اعتذار الكاتب عما وُجِّه إليه بأن من الكلام ما إذا نقل من لغة إلى لغة أخرى اضطرب مبناه فاختل معناه، ولا سيما أن غرس فيه لفظ ليس في إحدى

اللغتين سواه، فقد أبان فيما نسب إليه السهو فيه عن وضوح سببه، وقد قبل عذره ولم تفك يد ه على التمسك به.

وأما ما سيرته إلى خزائن أمير المؤمنين تحفة وهدية، وأنْبت به عن همة بدواعي المجد ملية، فأنه وصل وتسلم كل صنف منه متولي الخزائن المختصة به بعد عرضه على الثبت المعطوف كتابك عليه وموافقته، وقد أجريَ رسولك في إكرامه وملاحظته على أفضل ما يعتمد مع مثله بمنزلة من ورد من جهته، وعلى قدر من وصل برسالته. وقد سير أمير المؤمنين من أمراء دولته، ووجوه المتقدمين بحضرته، الأمير المؤتمن المنصور المنتخب، مجد الخلافة، تاج المعالي، فخر الملك، مُوالي الدولة وشجاعها، ذا النجابتين، خالصة أمير المؤمنين، أبا منصور جعفراً الحافظي، رسولاً بهذه الإجابة، لما هو معروف من سداده، وموصوف من مستوفق قصده ومستصوب اعتماده، وألقِيَ إليه ما يذكره ويشرحه، وعول عليه فيما يشافه به ويوضحه، وأصحبه من سجاياه وألطافه ما تضمنه الثبت الواصل على يده، إبانة لمحلك عنده وموقفك منه، ومكانك لديه. وأمير المؤمنين متطلع إلى ورود كتبك متضمنة من سار أنبائك وطيب أخبارك ما يسكن إلى معرفته، ويثق بعلم حقيقته، فاعلم هذا واعمل به إن شاء الله تعالى.

العلاقات مع صقلية من خلال ابن عذاري

وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة (1117) أغزى أمير المسلمين عليٌّ بن يوسف أبا عبد الله محمد بن ميمون قائد الأسطول مدينة **نقوطرة** من عمل رُوجار صاحب صقلية ففتحها وسبى نساءها وأطفالها... فيها، وكان عليٌّ بن يحيى صاحب المهدية كتب كتاباً إلى روجار عندما وقع بينهما وحْشَة يضمّن تهديده في بإدخال الملثمين والعرب إلى صقلية، فلما كان من غزو أبي عبد الله بن ميمون، ما كان لم يشك روجار صاحب صقلية أن السبب الباعث على ذلك والمحرك له هو صاحب المهدية فاستنفر أهل بلاد الرُّوم قاطبة... الاستنصار واستجاش وحشد كأنما في ذلك كله لأمره يمنع السفر إلى سواحل المسلمين التأم له ما لم يعهد مثله».

وفي سنة ثمان وثلاثين و(خمسمائة) (1144) وصلت قراقر المجوس في مائة وخمسين مركباً بين كبار وصغار إلى سبتة فخرجت إليها أجفانها فتقاتلوا فقتل من الفريقين خلق كثير...

ابن عذاري : قطعة نشرها امبروسيو ويسي ميراندا
مجلة هيسپريس تمودا 1961، ص 81. 108

المغرب يواجه صقلية لمساعدة تونس !
حسب إفادة التيجاني..

«ولم تزل الفتنة متأكّدة بينهما (علي بن يحيى بالمهدية ورافع بن مكي بقابس) إلى أن مات عليّ الذي كان أمر باستجْداد الأساطيل لقتال رُوجار. وقد ولي بعده ابنه الحسن **فكاتب أمير الملثمين** بالمغرب علي بن يوسف بن تاشفين، واتفق بإثر ذلك أن وصل أسطول علي بن يوسف مع قائده علي بن ميمون إلى بلاد روجار فاستفتح منها حصوناً وسبى منها سبايا كثيرة، فلم يشك النصراني أن الباعث لعلي بن يوسف على ذلك إنما هو الحسن فاستحاش من قبله وحشد أجناده ومقاتليه وبالغ في كتم أمره... ولم يخف على الحسن مقصده... فأمر باستقدام القبائل من العرب وغيرهم للجهاد...

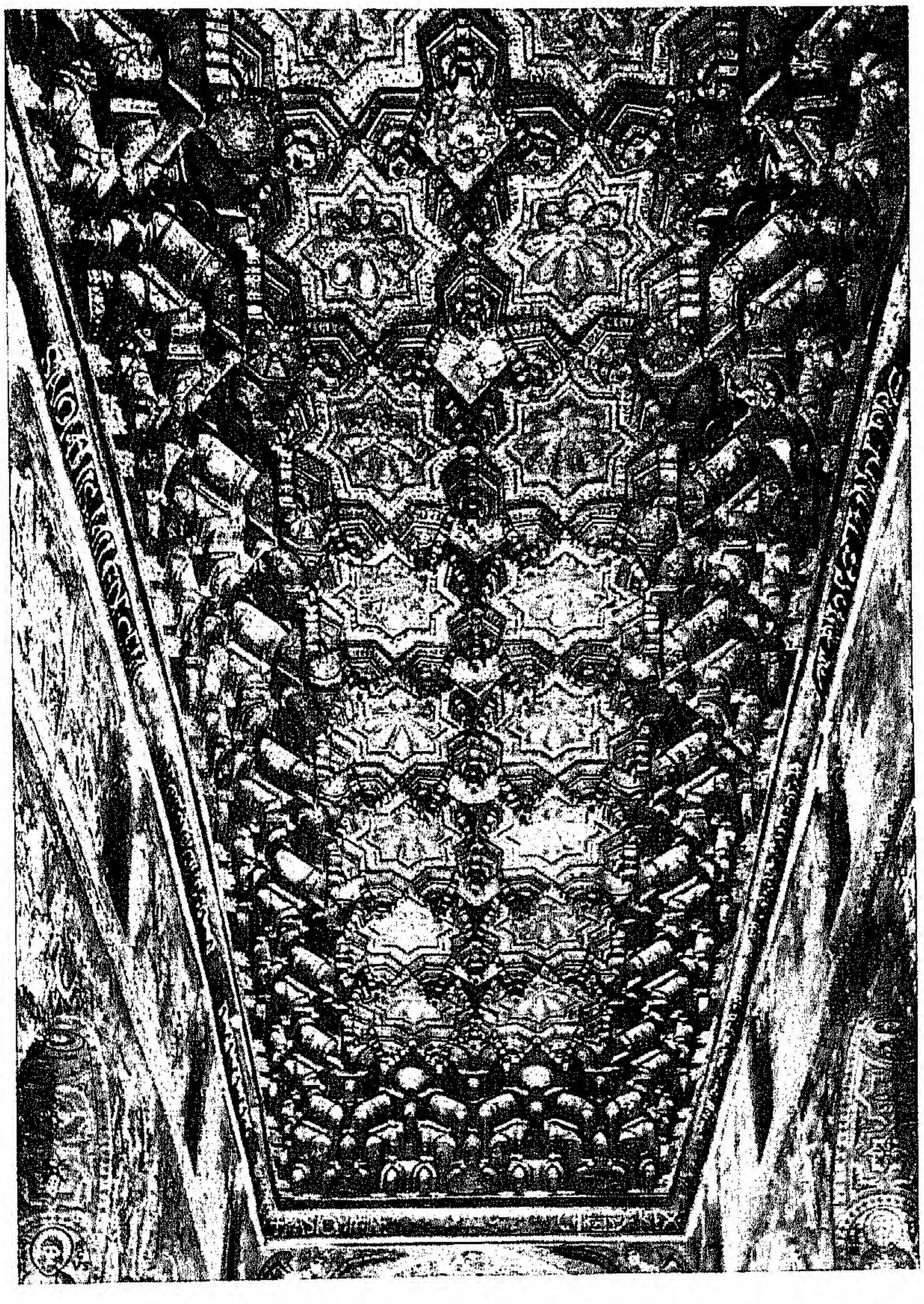
وهنئ الحسن بهذا الفتح... وكتبت عنه في ذلك كتب إلى سائر الجهات منها كتاب يقول في بعض فصوله :

«وإن صاحب صقلية لجّ في طغيان غيه، واستمر على عدوانه وبغيه، وحمله سوء تقديره، وفساد تدبيره، على اهتضام جانب الإسلام، وظن أن ذلك سهل الملتمس قريب المرام، فاستجاش وحشد واستنفّر واستمدّ، ولما استتمت له في ظنه أموره، وكمل تدبيره الذي كان فيه تدميره، سيّر أسطوله نحو المهدية - حماها الله - في نحو من ثلاثمائة مركب حُمل على ظهرها ثلاثون ألف راكب وزهاء ألف فارس، وكان إقلاعه في طالع مقارن للنحوس، قاضٍ عليه بتلف الأموال وهلاك النّفوس، فمن أول ما أسناه الله فيه من صنعه الجميل، وأظهره من عنايته التي لا يُؤدّى حقها بغير الشكر الجزيل، أن أرسل عليهم ريحاً صيرت جميعهم إلى التبار، وأصلتهم ببرد الماء حر النار، ونابت في إهلاكهم مناب زُرق الأسنة وبيض الشفار، وكان روجار قد رام إخفاء كيده ومكره، بمنع السفر إلى سواحل المسلمين وحظره، فسقط إلى الساحل مركب من جملة أسطوله يعرفنا من ركابه صورة أمره، وما يسر الله سبحانه من تشتيت شمله ونثره، ولم نكن قبل ذلك مهملين لما يقتضيه هذا الحادث من التأهب والإستعداد، واستضافة الأجناد إلى الأجناد، فاستظهرنا باستقدام قبائل العرب المطيفة بنا، فأقبلوا أفواجاً أفواجاً، وجاءوا مجيء السيل يعتلج اعتلاجاً ويتدفق أمواجاً، وكلهم على نيات في الجهاد خالصة، وعزمات غير متردّدة في مواقف الموت ولا ناكصة، ووصل الأسطول المخذول بمن أسلمه السوق إلى حد الحسام، وتخطاه الغرق فنجا من الحمام إلى الحمام، **ونزلوا على عشرة أميال من المهدية بجزيرة هنالك ذات أحساء،** بينها وبين البحر مجاز متداني المعبرين، قريب ما بين الشطين، هيّن مرامه، سهل على الفارس والراجل خوضه واقتحامه، فتسرع إليهم من جندنا، ومن إنضاف إليهم من العرب المنجدة لنا، طائفة أوسعت أعداء الله طعناً وضرباً، وملأت قلوبهم خوفاً ورعباً، فلما عاينوا ما نزل بهم، أنزلوا عن ظهور مراكبهم، ما كان أبقاه الغرق من أفراسهم، وكانت نحو من خمسمائة فرس وظنوا أنهم إن امتطوا متونها مستسلمين، وصدموا بها جيوش المسلمين، أمكنهم بها انتهاز فرصة، فأكذب الله ظنونهم وخيّب آمالهم، وجعل الدائرة عليهم لا لهم، وخامرهم من الرعب الذي نصر الله به المسلمين، وخذل به المشركين، وما ولّوا بهم أدبارهم يرون الهزيمة والهرب غلبا، وتركوا كثيراً من خيلهم وأسلحتهم نهباً مقتسماً، وفيئاً مغتنما، واتفق في مدة مقام هذا الأسطول بالجزيرة أن رجلاً من طغاة العرب وَمَرَدتهم دعاه فساد دينه، وضعف يقينه، أن اغتال لهم قصراً على المجاز المذكور شديد الإمتناع فحصل به منهم زهاء مائة علج، وتسربت العرب إليهم من كل فج، فجردنا من خيلنا من تولى أمره، وباشر حصره، إذ كانت العرب لا تباشر مثل هذا وإنما تعرف الحصن لا الحصون، وإنما يعظم غناؤها في السهول لا الحزون، ثم أقلع جميع الأسطول حين علم عجزه عن استنقاذ أصحابه ولبثوا بعده والقتل يمحقهم، والنار تحرقهم، إلى أن استؤصلوا عن آخرهم، وكبّهم الحتف على جباههم ومناخرهم، وجرى أمر هذا العدو المخذول من أوله إلى آخره وفاتحته إلى

خاتمته على ما قاله سبحانه : ﴿**يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها**﴾ فالحمد لله الذي أيد الإسلام ونصره، وأعلاه وأظهره، وأباد الشّرك ودمره، وأذله ودحره».

ولما أقلع الأسطول إلى صقلية خائباً خاسراً... اتفق بإثره أن وصل أسطول **الملثّم** من المغرب وقائده محمد بن ميمون المذكور قبل، فعاث في بلاد روجّار وقتل وحمل نساءها سبيا إلى بلاده، وكان لجار كلما وصل أسطول من المغرب إلى بلاده نسبه إلى الحسن...

رحلة التيجاني ص 334 ـ 335



السقف الرائع (للكابيلا بلاتينا) في باليرمو (صسية) وهو ينزع إلى هندسة السقف الذي شيده المرابطون في البلاط الأوسط من جامعة القرويين بفاس، ويلاحظ أن قبة (الكابيلا) ترجع لتاريخ 1150 بينما قبة القرويين ترجع لسنة 1137.

وضع المسلمين في صقلية على عهد المرابطين من خلال الوثائق المعاصرة

مهما قيل عن «التساهل» و« التسامح» الذي عرفته الفترات المتقدمة من حياة الحكام الصقليين النورمانديين إزاء المسلمين الذين كانوا يعيشون هناك آنذاك، فإنه لا يمكننا بحال أن نغض الطرف عن «الوجه الآخر» من أنواع الضغط والقمع والقهر التي كانت تمارس ضد أولئك المسلمين حتى يعتنقوا الدين المسيحي أو يتركوا البلاد للذين احتلّوها... ومن هنا فإنه سيكون مفيداً بالنسبة للذين يدرسون هذه الفترة من التاريخ أن يقفوا على نماذج من الوثائق التي حررت باللغة العربية في شكل صفقات بيع عقار أو في شكل تنازلات عن بعض الحقوق، أو في شكل آخر من الأشكال التي تعني التركيع والإخضاع... كان في هذه الوثائق.

1) ما لم يحمل تاريخاً بمعنى أنه قديم، ومنها ما ضبط تاريخه، مثلا :
2) العشر الأول من رجب سنة 506 = اكتوبر 1112.
3) العشر الأواخر من جمادى الأولى سنة 526 = أبريل 1132.
4) العشر الأواخر من ربيع الأول سنة 528 = يناير 1134.
5) سلخ ذي القعدة من سنة 531 = غشت 1137.
6) رجب 539 = (من تاريخ العالم 6653 = 1145).
7) رمضان 539 (من تاريخ العالم 6653 = 1145).
8) سنة 539 (من تاريخ العالم 6653 = 1144 ـ 1145).

إن مثل هذه الوثائق تعطي الدليل، إن كنا نحتاج لذلك، على أن المسلمين كانوا يوجدون على حال من الحرج والشدة والياس بحيث لم يكن في مستطاعهم إلا أن يقبلوا ما يفرض عليهم أو يرحلوا عن البلاد... ولا ينبغي بحالٍ أن يغرّنا

تعامل النورمانديين مع الحرف العربي في الوثيقة وفي التخاطب، فإنه لم يكن في مستطاعهم غير ذلك في انتظار أن يجهزوا وبصفة نهائية على كل بقايا الإسلام والعروبة بتلك الديار...

وقد رأينا أن نشير إلى بعض النصوص والصور التي تتصل بهذا الموضوع أملاً في إلفات النظر إليها، وفي دراستها من الوجهة الأدبية والاجتماعية، وكذلك من خلال الأعلام الشخصية والجغرافية التي توجد فيها :

فممَّا لم يحمل تاريخاً :

أسماء الرجال الذين «أعطوا» إلى السُّلطان الكنيسة الكبيرة : كنيسة القديسة البركين توق مريم بمدينة صِقلية... وجملتهم خمسة وسبعون رجلاً من بينهم الرحالي والمجاطي والمرابط، والأشقر وأبو طالب...

ومن هذه الوثائق ما حمل تاريخ رجب 506...

ويتعلق الأَمر بما اشتراه زكري النصراني بن الشيخ سليمان العطار وكالةً للقائد غفور بن الشيخ الاروطو حرسه الله، بأمره وماله من الكاتب أحمد بن.... التميمي، اشترى منها له بإذن كل واحد منهما لصاحبه في البيع والقبض والتسليم والإبراء جميع حظهما ومبلغ ملكهما الذي بينهما نصفان بالسواء وذلك النصف يتبايعاه من جميع الفوارذي القصب الفارسي الذي من رباع مدينة بلرم بقرب الدجاجين هو الذي نصفه الباقي من أملاك القائد غفور المشتري له جميع هذا الفوار المبيع نصفه في هذا الكتاب وتحيط به حدود أربع هي نهاياته وآخر غاياته... إلى أن يختم العقد بهذه العبارات والتوقيعات :

ثم شهدوا أجمعون على معرفة أرغيسه عبد الرحمن الكاتب المعلم البايع المذكور وعلى معرفة زكري بن سليمان العطار النصراني المشتري المذكور وعلى إقرارهما وإشهادهما على أنفسهما بجميع ما سمى ونسب إليهما في هذا الكتاب من عرفهما بحال الصحة وجواز الأمر، وذلك بتاريخ العشر الأَول من رجب من سنة ست وخمسمائة، شهد بذلك كله : مجاهد بن حسين الكندي، محمد... بن محمد القيسي، علي بن أبي الفتح بن... آمحمد بن أبي الفتح بن....

وكان مما حمل تاريخ العشر الأَواخر جمادى الأُولى 526.

هذا الكتاب الذي يتعلق بتوزيع حصة ماء، وهو يبتدئ هكذا :

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد نبيه وصحبه وعلى أهله وذريته وسلم تسليما.

هذا كتاب من عبد الرحمن بن عمر بن أبي السمرا اللواتي ومن حسين بن علي الكندي المعروف ابن الحندرو كتباه فيما بينهما وثيقة وحجة ومناقلة ومعاوضة ومبادلة صحيحة جايزة وأشهدا بجميع ما فيه على أنفسهما طايعين متبرعين راضين متسرعين في صحة عقولهما وأبدانهما وعميم سلامتهما وجواز أمورهما، وهو أن الحاج عبد الرحمن المبتدأ بذكره منهما في هذا الكتاب في يديه وحيازته وملكه جميع نوبة ما من العين التي بأرض صقلية بالفحص الغربي من مدينة بلرم وهي العين المعروفة بالمناني الجارية إلى سقي جناب الموضع المعروف ببرج البطال ثم إلى فحص مارية...

إلى أن ينتهي العقد المذكور بهذه العبارات :

وأشهد بذلك كله على أنفسهما بجميع ما نصه الذّكر عنهما في هذا الكتاب بعد أن قرئ عليهما وبيّن لهما ثم استفهما عنه وأقرابه وبعميم جميعه وأذنا في الإشهاد عليهما بكليته لمن عرفهما بالعرف الاسم وهما بحال الصحة وعميم السلامة وجواز الأمر بالطوع منهما والرضى بتاريخ العشر الأَواخر من جمادى الأُولى سنة ست وعشرين وخمسمائة... شهد بذلك كله :

عبد العزيز الموذن بن السبع الهواري - حسين اللواتي - أحمد بن حسين اللواتي.

ومما حمل تاريخ العشر الأَواخر من ربيع الأَول 528...

من ما..... علي..... هذا من السرادعة والترارية والعمال وأمنا التجار إلا يتعرض رهبان بقطس فيما يوسقوه في قواربهم من القمح والسمن والجبن الذي هو لخاصيتهم من ساير أماكنهم وما يعطي لهم هبا برسم الكنيسة ولا يمنعوا من

سفيره إلى ليبر وبقطس سوى ما كان من القمح المشتري فأنهم يودوا ما يخب عليه من السراح على العادة على ما رسم لهم في هذا السجل ولا يخرج معهم لخلاف ما ثبت فيه وقد ختمناه بالطابع المشهور تأكيدا ودليلا على صحته وكتب بالتاريخ العشر الآخر من شهر ينار من سنة ثماني وعشرون وخمسمائة بالأندقتس الثاني عشر حسبنا الله ونعم الوكيل.

ومما حمل تاريخ سلخ ذي القعدة 531

وثيقة تتعلق ببيع عقارٍ وهي تبتدئ هكذا :

صحيح هي....

بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله حق حمده
كما هو أهله ومستحقه ومستوجبه

هذا ما اشترى غرتيل النصراني بن غرتيل الشيخ الأركالأرك هرز بمسيني حرسها الله بأمره وماله من علي بن أبي القسم بن عبد الله العطار المعروف ابن الباروقي ومن والدته سيدة بنت يوسف القيسي القائمة في ماا سيذكر على ولدها عبد الله المرامق وبلبلة البكر ولدين زوجها أبي القسم المذكور بإقامة الشيخ الفقيه القاضي أبي القسم عبد الرحمن بن رجا أكرمه الله ووفقه وهو حينئذ القاضي بصقلية إياها في البيع عليهما وقبض الثمن للنفقة عليهما في ما لا بد لهما منه ولا غنا لهما عنه ولتعتاض لهما عن ذلك ما تتوجه أين تملكه وتتغير وان نكسه وإذ كان هذه الدار المذكورة بعد البيع عليهما ما سيذكر قد تواهب حذرا لهما وخشي على بعضهما السقوط قرار الشيخ الفقيه القاضي وفقه الله بيع ما سيذكر عليهما من حسن النظر لهما وحمد العافية فأقام لهما والدتهما سيدة المذكورة في البيع عليهما وقبض الثمن للوجوه المذكورة فقامت في ذلك بأمره وولته عن إذنه بعد أن توذن على ما سيذكر بيعه وأشهر منه ما يجب فكان أوفر العطا فيه الثمن المذكور تعديل لم يبلغه سوى غرتيل المشتري المذكور فاشترى غرتيل المذكور لمن ذكر بحق ما ذكر من علي ومن والدته

سيدة البايعة على من ذكر بحق ما ذكر جميع الدار التي في أيديهم وحيازتهم إلى حين هذا البيع المذكور وهذه الدار المبيعة المذكورة من أرض صقلية وبداخل القصر القديم ومن دور الزقاق المعروف بزقاق ابن خلفون النافذ من جهة قبلية إلى الشارع الحامل من باب الأبنا إلى باب السودان ومن جهة دبوره إلى سماط البلاط ولها هناك حدود أربعة تحيط بها وتشتمل على جميعها...

إلى أن يختم العقد هكذا :

وشهد على شهاداتهم بذلك كله بأمرهم ومحضرهم وإذنهم في نقل ذلك عنهم إلى ما يجب نقل ذلك إليه من القضاة والحكام وولاة النظر بين الأنام فنقلوا ذلك وتحملوه، وكل صحيح العقل والبدل حاز النقل وتأخر النقل إلى شهر رمضان من سنة اثنين وثلاثين وخمسمائة، شهد بذلك كله :

عبد الرحمن الأنصاري وعمر القبسي وعذر التميمي وعمر الزناتي وعبد الله الهواري ومحمداللواتي...

وكان مما حمل تاريخ رجب 539... هذه الوثيقة :

لما كان بتاريخ يوم الإثنين أول ينار الأندقتس لثامن سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ومن تاريخ العالم ستة آلاف وستمائة وثلاثة وخمسين سنة حضر بالمدينة حماها الله الأراكنة والأساقفة والقمامسة والترارية وغيرهم من ساير صقلية صانها الله لتجديد جرايدهم لأجل تمحيصها واندراسها وحضرتم أنتم رهبان قطانية وأحضرتم جريدة من قبل السلطان الكبير قدس الله روحه ونور ضريحه كان أمر بكتبها إلى كنيسة أسقفية قطانية لتاريخها خمسين سنة فيها ذكر ما كان أقطعها من الرجال بقطانية فطولع المجلس السامي رفع الله سمك مجده بذلك فخرج الأمر العالي المطاع الملكي المعظمي القديسي الرُّجاري زاده الله علا ومضا بتجديدها وإثبات من بها من الرجال على شريطة أنه إن كان يوجد أحد منهم في جرايد الديوان المعمور أو في جرايد الترارية وغيرهم فتتلفه الكنيسة لأجل أن الجريدة القديمة التي نسخت منها هذه الجريدة كتبت بعد الجرائد التي كتبت تمامة قديما بسنتين.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد نبيه وصحبه وعلى اهله وذريته وسلم تسليما هذا كتاب من عبد الرحمن بن عمر بن ابي السمر اللواتي وحسن بن علي

الكتبي المعروف ابن الجندرو وكتابه فيما بينهما وثيقة وحجة ومناقلة ومعاوضة ومبادلة صحيحة جائزة واشهد الجميع بما فيها على انفسهما طائعين متبرعين راضيين شرعيين

في صحة عقولهما وابدانهما وعدم سلامتهما وجواز امورهما وهو ان الحاج عبد الرحمن المبدا بذكره منهما في هذا الكتاب في يديه وحيازته وملكه جميع نوبة ماء من ماء العين التي من

ارض صقلية بالفحص الغربي من مدينة بلرم وهي العين المعروفة بالمناني الجارية الى سقي جنان الموضع المعروف ببرج البطال ثم الى فحص مارية وهذه النوبة

[illegible]

جميعا قد تعاوضا فيما ذكر بطوعهما ورضيهما وهما بحال الصحة وعدم السلامة وجواز الامر وهو صار ما نوبة ماء من فرخ وعين البتية ما نصه الذكر عنهما في

لحسين بن علي دون عبد الرحمن الحاج بن عمر ودون كل احد بسببه وكذلك صار كله على انفسهما الجميع واشهدا بذلك كله على الاشهاد عليهما بكتابتها لمن

الرحمن بن عمر دون ملك حسين بن علي ودون كل احد بسببه واشهدا بذلك جميعه واذنا في الاشهاد بتاريخ العشر الاواخر من جمادى الاولى

هذا الكتاب بعد ان قرئ عليهما وبين لهما ثم استفهما عنه واقرا به وبجميع جميعه والرضى منهما والطوع وجواز الامر وعلى الثالث قبض وذلك

عرفهما بالعرف الاسم وهما بحال الصحة وعدم السلامة وجواز الامر بالطوع منهما والرضى بتاريخ العشر الاواخر من جمادى الاولى

سنة ست وعشرين وخمسماية وفيه حك في ثلثة مواضع مكتوب على الاول نوبة ماء وعلى الثاني [illegible] وعلى الثالث قبض وذلك

صحيح منا باسم الاصل نشهد بذلك كله

عبد العزيز [illegible] ابن ... القاسم [illegible]

حسن [illegible]

احمد بن حسين ابن [illegible]

من الوثائق العربية في أرشيف صقلية الخاصة بتوزيع الماء

S. Cusd : Diplom. P. 563 – A. [illegible] : Diplom XXX

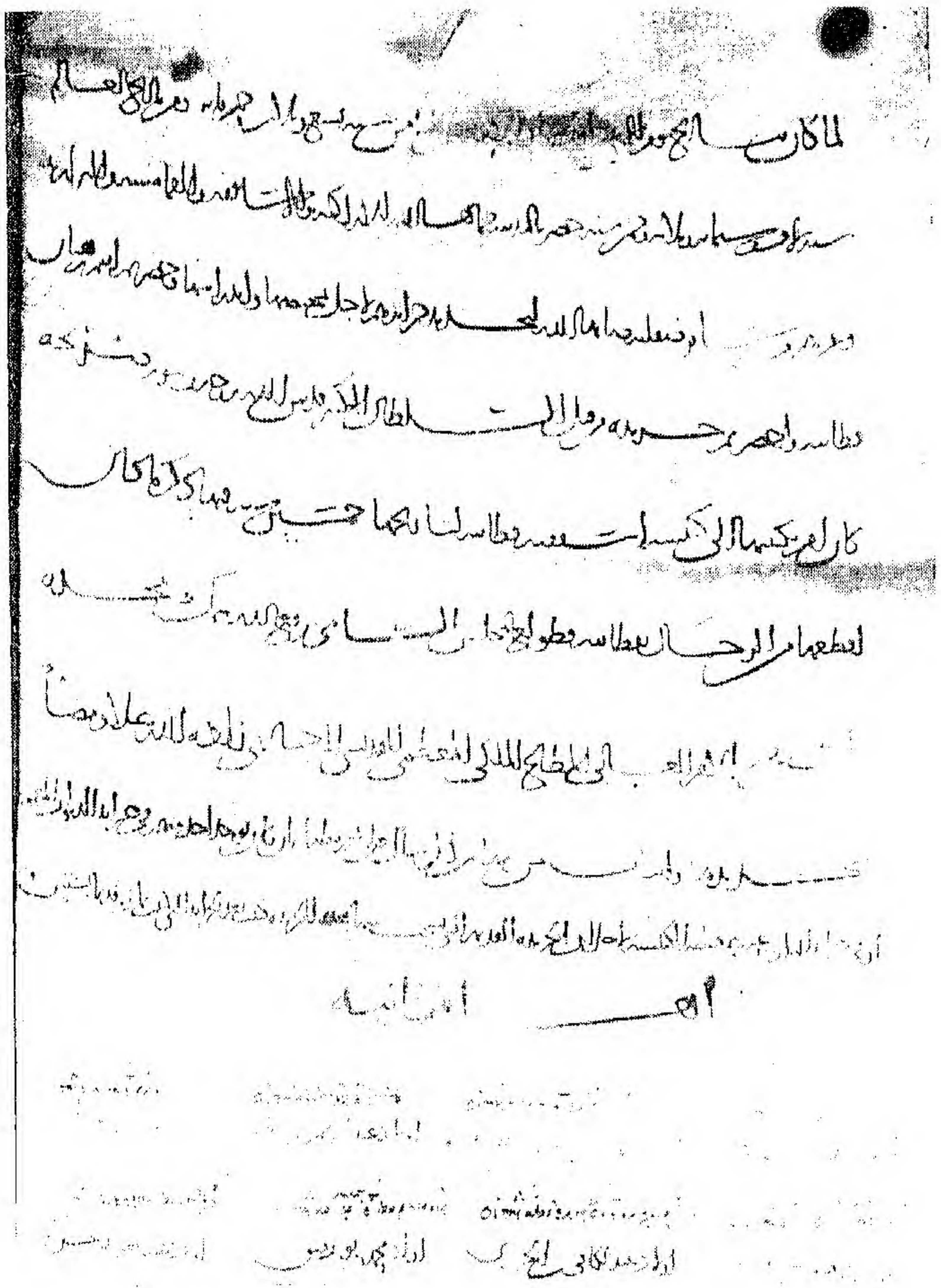
د. التازي [illegible] لمصالح الخاصة بالماء.

محاضرة أمام المؤتمر الدولي 13 للري شتنبر 1987

الدار البيضاء

وكان مما حمل تاريخ رمضان 539 نجده هذه الوثيقة :

لما كان بتاريخ الرابع وعشرين من مارسو الأندقتس الثامن سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ومن تاريخ العالم ستة آلاف وستمائة وثلثة وخمسين سنة حضر بالمدينة حماها الله الأراكنة والأساقفة والقمامسة والترارية وغيرهم من ساير صقلية صانها الله لتجديد جرايدهم لأجل تمحيصها واندراسها وحضرت أنت يا غرتيل فرستال وأحضرت جريدة كان كتبت بأمر السلطان الكبير قدس الله روحه وبعث ضريحه إلى رجير فرستال والدك فيها ذكر ما أقطعه من الرجال من جريدة جالصو وليسهم مكتوبين في جريدة قرلون فطولع المجلس السامي رفع الله سمك مجده بذلك فخرج الأمر العالي المطاع الملكي المعظمي القديسي الرجاري زاده الله علا ومضا بتجديدها وإثبات من بها من الرجال :



علاقات المرابطين بالجمهوريات الساحلية على البحر المتوسط

- التردد على الموانئ المغربية بعد الحصول على الإذن.
- المراكب المغربية في ميناء بيزة ومعاهدة 527 = 1133.
- المركز الدولي لبيزة على هذا العهد....
- منافسة جنوة لبيزة.
- مرسيليا تبحث عن الحليف في المغرب...
- اتّفاق بين مرسيليا وبين جنوة حول المغرب.
- دور الإتّفاقيات الشّفوية.
- عن تاريخ تعامل الإسلام مع الأُسرة الدَّولية.
- المرابطون والبابا...

المرابطون والجمهوريات الساحلية على المتوسّط

لقد أسهمت وقعة الزلاّقة، ومهاجمة صقِلية في الدفع باسم المغرب إلى الأمام وغدت بعض الجمهوريات التي تقع على البحر المتوسط تتوسل للتعرف على المغرب والتعامل معه... وكان في صدر هذه البلاد طائفة من الدُّويلات الساحلية : بيزة، جنوة، مرسيليا...

وهكذا فقد عرفت أيام المرابطين عهداً جديداً على صعيد العلاقات الدَّولة، وفي ميدان التعامل التجاري على الخصوص.

وإذا لم نعثر لحد الآن على آثار مكتوبة ومحدّدة عن الشُّروط التي كانت تجري على مقتضاها تلك الاتفاقيات، فإنّ هناك على الأقلّ، أذوناً بالمرور كانت تمنح بشكل أو بآخر لبعض السفن المتوسطية لتقصد الموانئ المغربية.

وإن بيزة وجنوة لم تتأخَّرا بدورهما عن التفاهم مع الملوك المغاربة من أجل عقد اتفاقيات محدّدة، سواء أكانت شفوية أو مكتوبة، وذلك لتتمكّن تلك الجهات من التردد في أمان على الموانئ المغربية... الأمر الذي كان أيضاً هدفاً من أهداف الأمراء المغاربة.

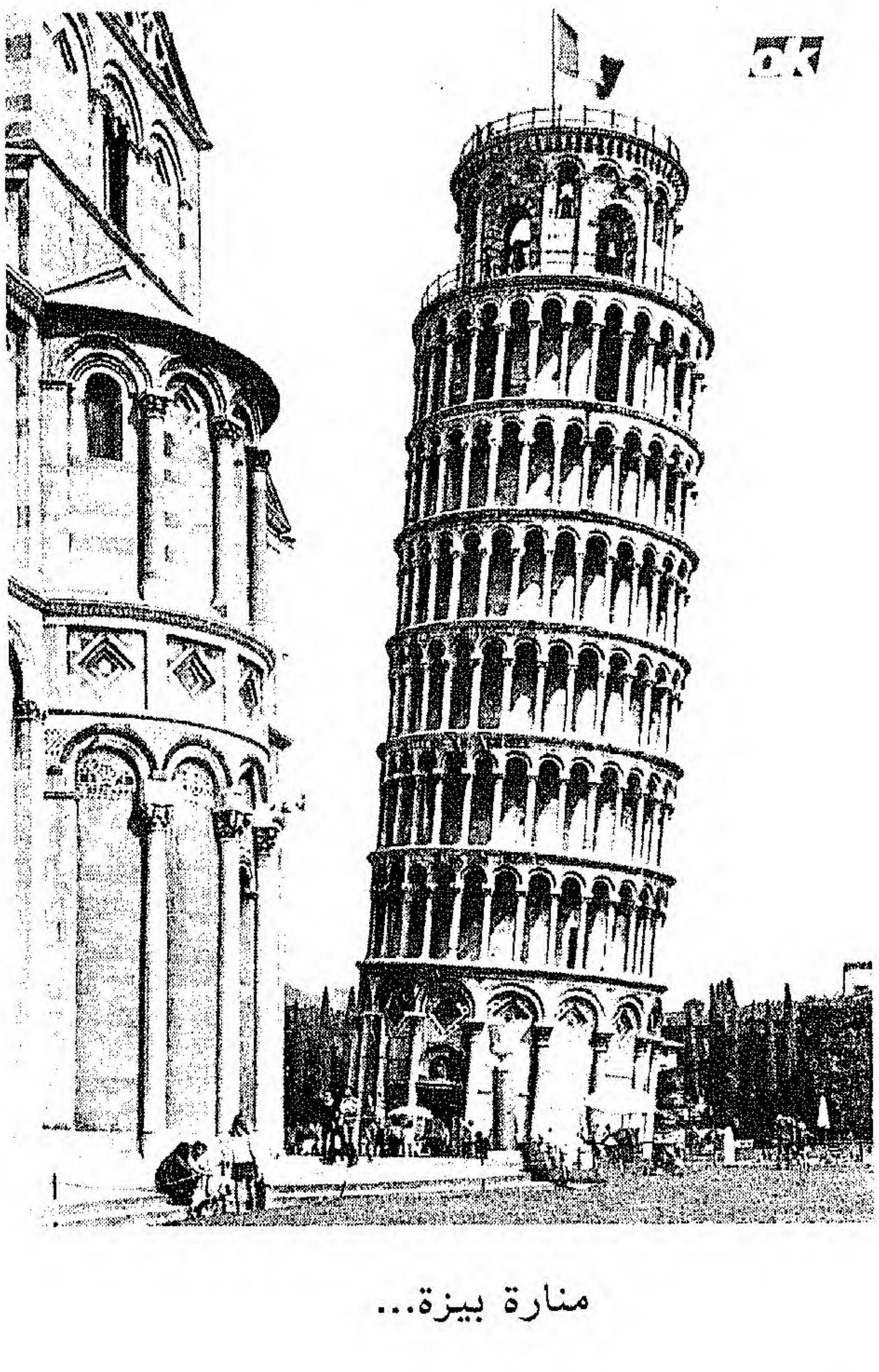
وهكذا فقد عرفت أيام المرابطين سنة 527 = 1133 عهداً جديداً حيث أبحرت باخرتان إفريقيتان إلى بيزة (PISE) من طرف «ملك المغرب» « ROI de Maroc » عليّ بن يوسف بن تاشفين(1)، حملت على ظهرها بعثة دپلوماسية من المغرب، وكانت بيزة آنذاك مصدراً من مصادر قوة البحر المتوسط... وهناك جرت مفاوضات بين قادة جمهورية بيزة وبين السفراء الأفارقة تم على إثرها التوقيع على معاهدة السلام والتجارة يوم 20 شعبان 527 = 26 يونيه 1133...

1) ذُكر لاتري أنَّ القصد إلى يحيى ابن العزيز، وهذا خطأ فإن هذا ينتسب لبني حماد وليس للمرابطين De Mas Latrie P.36

إن العقد كان يشمل منطقة أمير تلمسان، ويتحدث عن شخصية ثانية ربما كان حاكم الجزر الشرقية (باليارس) أو أمير الأسطول المرابطي القائد ابن ميمون الذين لا نستغرب من وجوده في بيزة[2].

لقد كان لبيزة على هذا العهد سمعة مدوية في البحر المتوسط فقدتها مدينة أمالفي وناپولي.

كان في استطاعتها أي بيزة أن تجهز بورطو بيزانوا (Porto – Pisano) وهو حوض واسع داخلي يوجد غير بعيد عن مصب أرْنَو (ARNO)، نحو ليڤورن (Livourne)، أقول أن تجهّز هذا المكان بأسطول يتألف من مائة إلى مائة وخمس



منارة بيزة...

2) المصدر السابق.

قطعة، لقد كانت لها الهيمنة المطلقة بحرياً وتجارياً على كل ساحل البحر التيريني ابتداء من بِيُومبينو (Piombino) وسيفيطا ڤيشيا (Civita - Vecchia) إلى ليريسي (Lerici) في خليج سپيسيا (Spezzia).

ومع أن الدلائل كلها تشير إلى أن البيزيين كانوا سبّاقين إلى عقد الإتّفاقيات المؤكّدة مع المرابطين إلاّ أنه من غير المشكوك فيه أن «الجنوبيين» - ولو أن البيزيين تجاوزوهم في ذلك - لهم علاقات «امتياز في المستودعات والمراكز بالمغرب على نحو ما كان بالنسبة للبيزيين.

لقد كانت جنوة تُساس بواسطة حكومة يقظة ومنافسة للقوة البيزية حيث رأيناها تبحث بكل وسائلها عن توسيع رقعة نفوذها في سردينية وانتهى الأمر بتفوقها على المصالح البيزية(3)...

وفي كاكَلياري (Cagliari) جنوباً شيّدت الحصن الجنوي (Castel - Genoves)، الذي يعرف اليوم بكاسطل صاردو لحماية الخليج الذي يقابل كورسيكا، وشيدت ألغيرو (Alghéro) إقطاعيةَ دوريا (DORIA) التي تكوّن المرسى الأساسي في الغرب تجاه (بالْياريس)، ولقد خضعت لهيمنتها السياسية سائر المدن التي تقع على ساحليها ابتداءً من فِينتيميل (Vintimille) على مقربة من كونتية (مقاطعة) نيس (Nice) إلى بورطو ڤينير (Porté - Venère) قريباً من خليج سپيزيا (Spezzia) حيث تبتدي أرض بيزة.

وهكذا أخذت المناطق المجاورة (پروڤانس Provence) تبحث عن جنوة لمحالفتها والتوسُّل بها.

ومن ثمت وجدناها عام 1138 = 532 - 533 أيام علي بن يوسف بن تاشفين تنشئ حلفاً على شكل ضيّق جداً مع البلديات والمجالس المنتخبة ومع سادة مرسيليا وهيير (Hyères) وفريجيس (FREJUS) وأنتيب (Antibes)، وكان الهدف على الخصوص تجارياً وأيضاً ضمان الإتّصالات مع إفريقيا.

وهكذا نرى أنها، أي جنوة، على ذلك العهد، بل وقبل هذا، تنعم بوضعٍ محترم ومُربح بالمغرب.

3) المصدر السابق 35 - 37.

وبالعودة إلى حلف دفاعي وهجومي عقدته جنوة مع مرسيليا، نجدها تتعهد للبلديات والمجالس بأن تساعدها على التفاوض من أجل إبرام معاهدة مباشرة «مع ملك المغرب» وقد حصلت من سائر المدن البحرية التابعة لپروڤانص (Provence) على الإلتزام باحترام الأشخاص والممتلكات التابعة لأمير المؤمنين وكذلك الوعد، في حالة ما إذا أمرت قراصلتها بالتحرك بأن ترغم هؤلاء القراصلة على احترام المغاربة.[4]

ومن حقنا هنا أن نفتح قوسين عن تاريخ اندماج المسلمين في الأسرة الدولية للحديث عن تاريخ تعامل المسلمين مع الأسرة العالمية، واعتراف الإسلام بالمسيحية، وكذلك عما سمي بتأثير الغرب في مفاهيم الإسلام لقانون الدول...

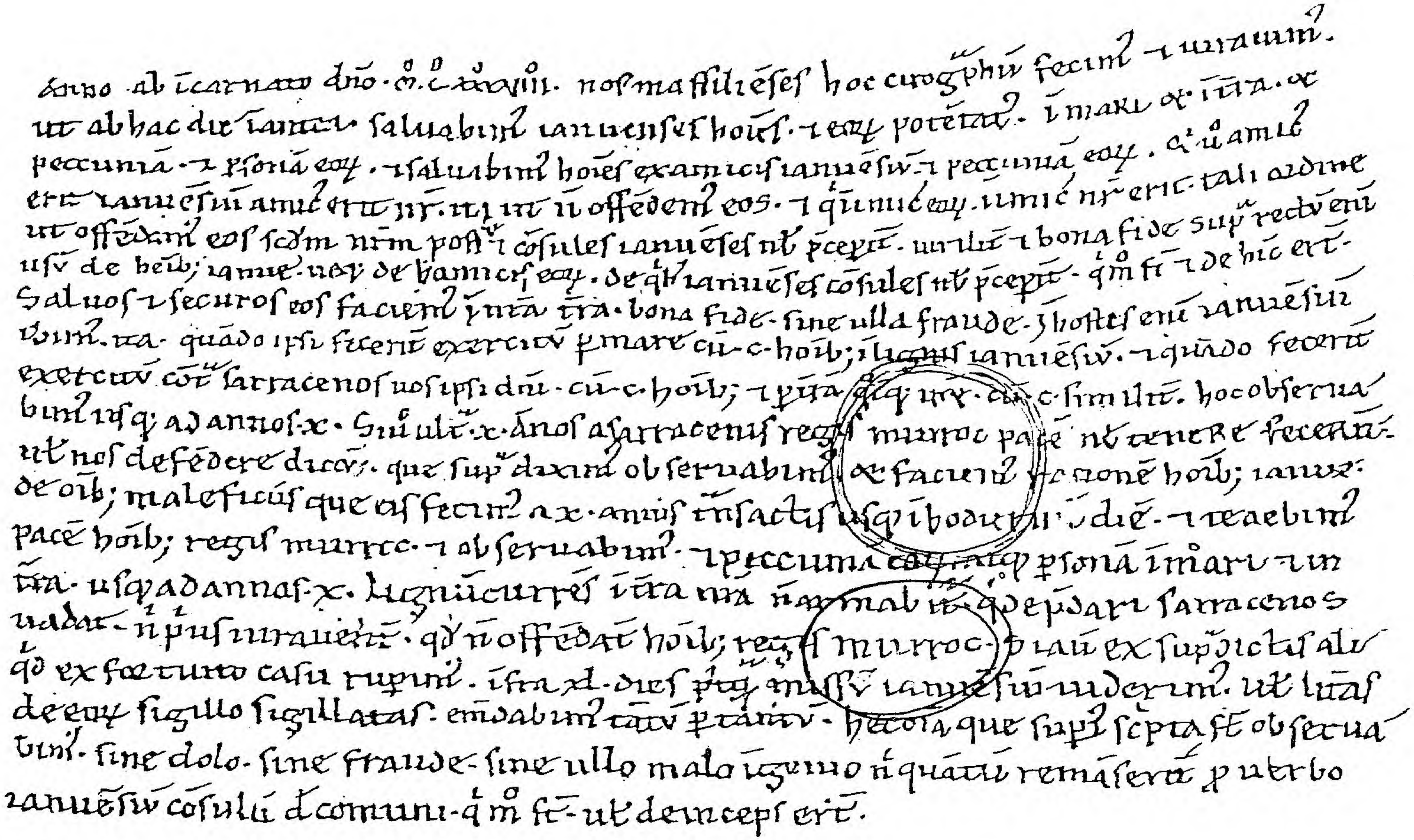
لقد بدا لبعض الناس - نتيجةً لغيْبتهم عن التاريخ الدولي للمغرب... أن المجموعة الإسلامية إنما «اندمجت» و«اعترفت» و«تأثرت» و«عرفت» القانون الدولي أيامَ العثمانيين عندما أبرم السلطان سليمان القانوني معاهدته عام 1536 مع فرنسوا الأول ملك فرنسا مدة حياتهما، هنا فقط دخل المسلمون الأسرة الدولية ! أكثر من هذا فإن ذلك «البعض» يتمحّل ويتكلف ليذكر أن السبب في ذلك «التفتح» هو أن العثمانيين أحناف وأنهم ذو عرف معهود سلفاً وأنهم تابعوا ذلك بعد انهزامهم في حصار فيينا كسباً للأصدقاء !!

ونحن نرى الآن - إذا نحن غضضنا الطرف عن المعاهدة التي أبرمت بين عبد العزيز بن موسى بن نصير وبين ثيودمير منذ شهر رجب 94 = أبريل 713 - أن دولة المرابطين - وهي مالكية المذهب - نراها منذ عام 527 هـ = 1133 م تبرم الاتفاقيات مع الدول المسيحية قبل العثمانيين بأكثر من أربعمائة سنة[5]...

---

4) انظر القسم الثاني من مقدمة هذا التاريخ ص 193-194 Traités de paix et de commerce et documents divers : concernant les relations des chrétiens avec les arabes de l'Afrique septentrionale au moyen âge par M.L. De Mas Latrie Paris 1866 Préf. 37 docu. p. 88.
Relations et commerce de l'Afrique septentrionale ou Maghreb avec les nations chrétiennes au moyen âge – Paris 1886 Page 70.

5) محمد فريديك المحامي : تاريخ الدولة العلية العثمانية، بيروت 1399 - 1977 ص 91 - 92.



من أقدم الوثائق الأُوروبية التي تتحدث عن ملك المغرب (MURROC) وهي تحمل تاريخ 1138 (532 ـ 33 هـ) وقد وقفت عليها في أرشيف الدولة في مدينة جنوة...

المرابطون والبابا.

وفي الوقت الذي كنا نشاهد فيه مدّ اليد إلى الجمهوريات الساحلية على البحر المتوسط - باستثناء صقلية - نلاحظ أنه لم يكن هنا رابطٌ بين الباب وبين قادة المرابطين بل إننا نلاحظ، على العكس من ذلك، أن العاهل المرابطي يقوم بتحرير رسائله المعروفة إلى ملوك بني حمّاد مما أسلفنا ذكره وهو يحمل في تلك الرسائل على «تطوّع» أولئك الملوك لخدمة «صاحب رومة»..!

وهكذا فبالرغم من وجود «ميلشيات مسيحية» تعمل في صفّ الجيش المرابطي على ما أكّده ابن الأثير... وبالرغم من وجود بعض المعابد المخصصة لتلك الميليشيات إلاّ أنّنا لم نعثر على ما يثبت بأنه كانت هناك مراسلات أو خطابات بين الباباوات وبين أمراء المرابطين الذين عرفوا بكثافة الحجاب وإغلاق الباب على ما يقولون...

العلاقات مع القسيسين من خلال الحسبة....

وفي معرض الحديث عن علاقات المسلمين باليهود والنصارى، قال ابن عبدون : يجب أن لايحكّ مسلم (في الحَمّام) يهودياً ولا نصرانياً ولا يرمي زبله ولا ينقي كنيفه... ولا يخدم مسلم دابة يهودي ولا نصراني ولا يستزمل ولا يضبط بركابه، وإن عرف هذا أنكر على فاعله !

ويجب أن يمنع النساء المسلمات من دخول الكنائس المشنوعة، ويجب أن تمنع الافرنجيات من الدخول في الكنيسة إلا في يوم فضل أو عيد، فأنهن يزنين مع القسيسين، وما منهم واحد إلا وعنده منهن إثنتان أو أكثر يبيت معهن ! وقد صار هذا عرفا عندهم لأنهم حرّموا الحلال فاستحّلوا الحرام، يجب أن يؤمر القسيسون بالزواج كما في ديار المشرق !

يجب أن لا يترك في دار القسيس امرأة : لا عجوز ولا غيرها إن تأبّى الزواج، يجب أن يجبروا على الختان كما كان يفعل بهم المعتضد بن عباد فإنهم متبعون - بزعمهم - لسنن عيسى صلعم، وعيسى قد اختتن، ولهم في يوم اختتانه عيد يعظمونه.!!

المبادئ العامة للاتفاقيات بين المغرب والدُّوَّل المسيحية

- حماية الأَجانب أفراداً وممتلكات.
  - □ وضعية القنصل في المغرب تختلف عنها في المشرق.
  - □ امتلاك المسيحيين للفنادق...
  - □ المسؤولية الشخصية...
  - □ تحريم القرصلة بين الطرفين.
  - □ استقبال الأَجانب تحت علم حليف.

- التزام الأَجانب باحترام قوانين البلاد.
  - □ التقيّد بِعَدم تجاوز الأَماكن المخصصة للتجارة.
  - □ رسوم الدِّيوَانة على الواردات والصادرات.
  - □ الإجراءات المتحدة ضد التّهريب.
  - □ حقّ الدولة في حجز كلّ بضاعة ترى المصلحة في حجزها.
  - □ ضمان حماية المغاربة في الخارج.

المبادئ العامة للاتفاقيات المبرمة بين المسيحيين والمسلمين ببـــلاد المغـــرب

سلفت الإشارة في المجلد الأوّل من مقدمة الكتاب ص 313 إلى هذا الموضوع الذي نعود إليه بتفصيل حتى تكتمل الصورة بالنسبة للذين يهمهم الأمر، معتمدين على المعلومات القيمة التي قدمها إلينا الكونت دوماص لآتري في كلّ من كتابيه حول اتّفاقيات السلام والتجارة بين المسيحيين وعرب شمال إفريقيا في العَصْر الوسيط.[1]

وهكذا وجدنا أن هناك عنصرين لضبط هذه الأُمور، الأوّل يتعلق بحماية الأجانب أفراداً وممتلكات، والثاني يتعلق بما يلتزم به هؤلاء من قوانين لضمان تلك الحماية لهم...

ففيما يتّصل بالعنصر الأول نذكر أن هناك :

أوّلاً : أمان الأشخاص - حرية المعاملات التجارية.

لقد كان التجار ومواطنوا الدولة التي بينها وبين العاهل المغربي اتفاقية يتمتعون بالحماية وكذا أولئك الذين خوّل لهم السلطان إمتيازاتٍ وتشمل هذه الضمانات الإقامة في المدن والأسفار عبْر البحار. ولقد كانت بعض الإتّفاقيات تؤكد هذه الوضعية حيث كانت بعض السفن الإسلامية تخول لمواطني القوة الحليفة التسهيلاتِ الكاملة سواء أبحروا على سفنهم أو على سفن دولة أخرى. لقد كانوا بذلك تحت الرعاية الكاملة للسلطان، هذه الرعاية التي يعبَّر عنها بكلمة (Sauvegarde) عند المسيحيين وكلمة (Aman) «الأمان» عند العرب.

---

1) M. L. DE MAS LATRIE : TRAITES DE PAIX et de Commerce, Paris 1866-1872 p. 92.
Relations et Commerce de l'Afrique Septentrionale Paris 1886 p. 172

كان القانون صارماً في معاقبة كلّ من أساء للمسيحيين كما أن رجال الجمارك يتابعون المُتَّهم إلى أن يصلح الح الخطأ ويعوض الضَّرر، ولقد وضعت مصالح المسيحيين ومعاملاتهم التجارية مع العرب تحت رعاية مدير الجمارك أو الوالي أو القاضي.

وهكذا فلم يكن في إمكان الضابط والمواطن المسلم إعاقة النشاط التجاري للمسيحيين، بينما كان لهؤلاء الخيار في بيع بضاعتهم أو العودة بها إلى أروبا إذا لم يمكنهم التخلص منها، كما كانت لهم الحرية في شراء كلّ السلع الإفريقية ما عدا الرصاص الذي كان مقصوراً تصديره على تجار البندقية، وفي هذا الصدد فإن الاتفاقيات المبرمة كانت تتضمن مبادئ تمنع أيّ دولة مسيحية ترغب في احتكار أيّ منتوج وذلك من أجل إلحاق الضرر بتجارة دولة أخرى. كما كان من المتفق عليه والمطبّق كذلك أنه في حالة حرب فإن السواحل المغربية كانت بمثابة مخابىء تلجأ إليها الجيوش الحليفة للاستنجاد بالسلطان أو الأمير...

إن العبارات التي ترجمت على أساسها الوثائق المسيحية القديمة عن العربية والتي تعبّر عن وضعية الدّولة الحليفة لا تعبّر فقط عن حالة لا حرب ولكن تعني العلاقات والتحالف والاتحاد الفعلي الناشيء عن الاتفاقية.

ثانيا : الصلاحية القضائية للقناصل وعدم مسؤولياتهم.

لقد كان القنصل هو ممثل الدولة في الخارج ولم يكن في المغرب كرهينةٍ كما كان الشأن في الشرق. وكان يوجد، مبدئياً، في أيّ مكان يقطن فيه مسيحيون متحالفون حيث يملكون مؤسسةً تجاريةً دائمة وخصوصية تسمى بالفندق، غير أنه في الواقع لا يوجد بكلّ فندق مسيحي قاضي من نفس الدولة له نفس وضع سلطة القنصل.

كان الفندق مكان إقامة القناصلة حيث يباشرون مهامَّهم، وكانوا يعينون من طرف سلطات بلادهم وكان بإمكانهم تعيين خلفائهم أو مساعديهم بالإضافة إلى أنهم كانوا مكلَّفين بتسيير شؤون جاليتهم والدفاع عن سيادة الوطن إزاءهم وإزاء العرب، والفصل بين المتنازعين من المواطنين، ثم الحصول على عقود الأَهلية المدنية، وذلك عن طريق القناصلة أو مستشاريهم أو موثقيهم

ظفيهم وكتابهم، وكذلك وضع إحصاء للتركة التي لم ترد في الوصية، وبعبارة ى، الدفاع عن مصالح الغائبين والحاضرين إزاء الجمارك والحكومة المغربية.

لقد كان بإمكان القناصلة المثول أمام الملك لعرض الشكاوي وملاحظات طنيهم، كما كان مسموحاً للقناصلة الذين يقطنون مدناً أخرى غير العاصمة أن دموا للعمال مرةً في كل شهر. كما كان بإمكان التجار العاديين في بعض حيان التعبير عن استيائهم للسلطان، هذا الامتياز منحه الأمير أبو زكرياء نه المستنصر لتجار جنوة (GENES)، ولم تتضمن معاهدات ما بعد حكم أبي ياء هذا الامتياز الذي ظلّ المسيحيون وسكان جنوة يتمتعون به طوال القرن بع عشر. ويذكر (Malipiero) أن تجّاراً من البندقية قد نفّذ طلبهم لنيل هذا تياز، وكان هذا استثناءً لأن القناصلة ومديري الجمارك كانوا وسطاء - رسمياً ين التجار المسيحيين والسلطان.

لقد كان للقناصلة سلطة الفصل في كلّ النّزاعات المدنية والجنائية التي بين مواطنيهم وقد كان هذا من المسلّم به بديهياً بحيث أهملت المعاهدات ه.

وكانت القضايا التي تنشب بين المسيحيين من جنسيات مختلفة تُحَلُّ عن يق الأعراف المتبعة وكان المدعي عليه يستدعي أمام قنصله. وإذا ما اشتكى بي من مسيحي فإن القنصل المسيحي هو الذي ينظر في القضية، غير أنه مارسة أدخلت تعديلات من بينها أنه في حالة غياب القنصل المسيحي يمكن يض صلاحيته القضائية إلى مصالح الجمارك العربية، ولقد أدخل أهل بيزة (P في معاهدتهم موادّ تخول للسلطات حق الفصل في كل القضايا ذات الأهمية برى. وقد يكون الوالي قائد القصبة أو مديرَ الجمارك غير أن القاضي المسلم المختص في القضايا التي يكون فيها المسلم مدّعًى عليه.

ولقد كان القناصلة يعيّنون في جمهورية البندقية وجنوة من طرف القاضي ل (Le Doge) وفي پيزا (Pise) من طرف مجلس قناصلة البحر. ولقد كانت ية التعيينات بمرسيليا تتم من طرف رئيس الجماعة أو عمدة المدينة.

إن القوانين في مرسيليا تعطى الحقّ للتجار الذين يوجدون في أية مدينة المدن في المشرق، أو المغرب والذين يتراوح عددهم من عشرين إلى عشرة

على الأقلّ، حيث لا يوجد قنصل، تعطيهم الحق في أن ينصبوا من بينهم مَن تخول له السلطة القنصلية... إلى أن يصل القاضي الذي تسلمه الجماعة السلطة الكاملة.

وقد كانت مدة عملهم جدّ محدودة، فقد كانت تتراوح بين سنة أو سنتين لدى البندقيين والمرسيليين، وفي جنوه كانت سلطة المستشار تنتهي بعد سنتين.

وتظهر من المراسيم العمومية أهمية المدة التي يستغرقها عمل القنصل.

واحتراماً للمهنة، كان قناصلة إفريقيا يستعينون بكاهنٍ وببعض الخدم يشغل أحدهم وظيفة كاتب علاوة على حصانين، فقد كانت هذه وضعية القناصلة في القرن الثالث عشر، بعد ذلك كبرت مساكنهم وصلاحياتهم، كما كانت أجورهم تتكوّن من جزء من حقوق القنصلية والبحرية التي تمتلكها الدولة. وقد كان لقناصلة الكطلان (Les Catlans) التّفويض حول دخل الجمارك في تونس وفي بجاية، وقد ظهرت منذ القرن الثالث عشر، في قوانين مرسيليا، قاعدة سنّها التشريع الفرنسي تنص على ألاّ تكون للقنصل مصالح شخصية فيما يخص التجارة والسمسرة.

وقد كان المبدأ الذي يضْمن المسؤولية الفردية محل انتقاد من سائر الجهات التي كانت تزكي عدم مسؤولية القناصلة فيما يرتكبه مواطنوهم.

وفي سنة 1397، (968 ـ 69) وقعت مخالفة كبيرة لهذه الأَعراف بفعل الحرب بين جنوة وتونس حيث قامت بعض السفن من بيزا (pise) بالمشاركة فيها وأرادت هذه الجمهورية تحميلَ قناصلتها مسؤولية الأَضرار التي تعرض لها المسلمون على يد جاليتهم، وقد كان من المستحيل الإبقاء على تشريع كهذا لمدّةٍ طويلة.

أما بمصر فقد كان القناصلة عبارة عن رهائن مسؤولين عن أفعال وديون جاليتهم، بينما كان القناصلة الأَتراك رغم المعاهدات ونظام الامتيازات الأَجنبية يكفرون عن أخطاء مواطنيهم !

ثالثا : امتلاك المسيحيين للفنادق والكنائس

الفندق يعني باللغة العربية مؤسسة لخزن وبيع البضائع، وللسكن الجماعي للمسيحيين، وقد كانت تقع إما داخل المدن حيث تكوّن حيّاً معزولاً أو بالضاحية خارج المدينة العربية مثل المهدية شرقا وسبتة غرباً.

ويشار في القرون الوسطى إلى هذه الأماكن بكلمات : **alfundega, fondigum,** بالاتينية وبالإيطالية **fondegus, fundigus, fonticus, fondaco** وبلغة الكاطلان **fondech** و **fondégus**، **fondigues** بالفرنسية. ويسمى مساعد القنصل بكلمة **fundegarius**.

وقد كان الفندق المسيحي بالمغرب عبارة عن حاضرة بالمعنى العصري والبلدي لهذه الكلمة مشابه بخانات التجار الأجانب «بازارات» الشرق كالتي توجد بالقسنطينية أو إزْمير (SMYRNE) ودمشق والقاهرة. وقد كان هناك حائط من الحجر أو الآجر يقام بين فنادق مختلف الجنسيات. وهناك بقايا من هذه الأحياء من طرابلس إلى سبتة يمكن للباحث العثور عليها.

وأهم هذه المؤسسات هي التي كانت في تونس والمهدية وبجاية (Bougie) وسبتة في القرن الثالث والرابع عشر حيث كانت التجارة مزدهرة.

كان هناك باب واحد منحدر وصلب يؤدي إلى ساحة مليئة بالأشجار المسقية بالماء تحيط بها أروقةٌ توجد فيها مداخل للمنازل والمحلات الخاصة بالتُّجار والصناع والعمال بمختلف اختصاصات الدول، وقد كان للبندقيين مكاتب للصرف وكتاب عموميون وبعض المتاجر حيث كانت تعرض للبيع الجواهر والمصنوعات الزجاجية، على نحو ساحة القديس مارك يقول الكونت لاتري..

وقد كانت الدولة تمتلك في بعض الأحيان متاجر خارج الفندق. وقد اعتاد المرسيليون إكتراء متاجر بالمستودع العمومي للمدينة بتونس حيث يتم بيع خمور شمال إفريقيا وذلك حتى سنة 1228 = 625 وقد كانت بلدية مرسيليا تفرض على مندوبها بسبتة ووهران وتونس وبجاية كراء متجر واحد لبيع الخمر للمسيحيين بفندق الدولة وتمكنهم من كراء متجر لخياط، وآخر لإسكافي ومتجران لصانعي الجلود، وتوصيهم بتخصيص متجرين : واحد لهم وآخر لكاتب. وينص القانون على أن توضع رهن إشارة التجار الموازين والمكاييل المصدّقة من طرف السلطات

المعنية بالبلدية، ويمنع هذا القانون تربية الخنازير كما يمنع إقامة العاهرات بالفندق.

ويوجد بكل فندق فرن عمومي.

وحيث إن الفنادق لم تكن كلها مجهزة بحمامات فإن الاتفاقيات كانت تنص على أن يوضع حمام المدينة العمومي يوماً كلّ أسبوع رهن إشارة المسيحيين. وقد خُصِّصَ جانب من المساكن للقنصل ومستشاريه.

وقد كان منزل القنصل مزخرفاً بأعمدة وبه شرفة وتسمى (La logé)، وفي الطابق السفلي هناك بعض الحجر التي استعملت كسجن أو كمحلّ للمحاكمة. وفي ساحة هناك جناح متصل مع الحجر الأخرى كانت هناك الكنيسة والمقبرة.

ولم تنص المعاهدات التي أمضاها الملوك المسيحيون مع الملوك المغاربة على إعطاء الحق لمواطنيهم لإقامة فندق غير متوفّر على مقبرةٍ وكنيسة حيث يؤدون صلواتهم ويشيّعون أمواتهم بكل حرية بما في ذلك التراتيل الدّينية بصوتٍ مرتفع. وينبغي أن تكون هذه الكنائس أكبر من مجرد زوايا متواضعة.

وقد كانت كنائس بعثة جنوة وبيزة بتونس موضوعةً برسم مريم العذراء. وقد كان أحد رجال الدّين المعروفين من بين شهود معاهدة 1687 = 686، كما كان لكاهن بيزة لقب خوري (Curi)، وقد كان خوري بجاية كخوري بيزة تابعاً لكبير أساقفة بيزة ويؤدي له جزية سنوية وكانت إحدى متاجر الفندق بتونس تحت تصرف مقر الخوري الذي يخصصه لأموره الخاصّة. وقد تركت معاهدة 1251 = 649 لسكان البندقية الحق في توسيع كنيسة تونس. وفي 1460 = 864 قامت كنيسة فندق جنوة باستقبال جثة (B. Antoine de Rivli) الذي رجم حتى الموت لأنه مس بمشاعر المسلمين وشريعة الإسلام، وقد تم نقل رفاته إلى ريڤولي (Rivoli).

وقد كانت فنادق المسيحيين موجودةً بحي واحد ومجاورة لبعضها البعض، وقد حرصت المعاهدات على تفريق الفنادق لكي تستقل كل دولة بفندقها...

وكانت مصاريف البناء والصيانة والتوسيع على حساب الجمارك أي السلطات المغربية، غير أنه في 1281 = 679 - 80 أعطى المجلس الأعلى

للبندقية تعليماته لقنصلهم بتونس باستعمال جزءٍ من حقوق كراء المتاجر والحمام العمومي وذلك لإصلاح الفندق.

ويكوّن مجموع المؤسسات الأُوربية بتجاورها واختلافها ما يسمى : المنطقة الحرة (le quartier franc) بالمدن الشرقية.

ولم نشاهد في هذه المراكز المسيحية المتغلغلة في مدن المغرب ظواهر التحدي والإهانة التي كان يتعرض لها الأُوربيون في بعض موانىء الشرق والأسكندرية حيث كان للسلطات الإسلامية الصلاحية المطلقة في فتح وإغلاق أبواب الحي. أما الأَمن الداخلي للفندق فقد كان من اختصاص قنصل الدولة ومفوّضيه. أما البوابون فكانوا من أهالي البلد المعروفين، وكان يمنع من الدخول إلى الحي كل من اشتبه فيه أو لم يؤذن له بالدخول. ويخرج عن هذه القاعدة من اصطحب معه ترجماناً أو جمركياً، ولا يسمح للضباط العرب بالدخول إلى فندق للتفتيش أو القبض على مواطن مسيحي مهما كان المبرّر. وكان الحل الوحيد للقبض على المجرمين المحتميين بالفندق هو التماس مساعدة القنصل إلا في حالة خرق صارخ للقانون !

وقد أقام مؤسساتٍ تجاريةً بالمغرب العربي كلٌّ من أهل بيزة وفلورانسا وجنوة والبندقية والصّقيليتين ومرسيليا وميورقة والأراغونيين والرُّوسيين وكونط مونبوليي (Momtpellier) اللذين كانوا رعايا ملوك ميورقة وأراغون حتى سنة 1349 = 750.

وكانت تونس والمهدية وطرابلس وبجاية (Bougie) وتلمسان وسبتة ووهران من أهم المدن التي توجد بها فنادق المسيحيين وقد كان لبيزة وجنوة مراكز تجارية بكل من صفاقص وقابس وسلا منذ القرن الثاني عشر، لكن قليلاً ما كانت المعاهدات تبلغ أهدافها.

وقد جاء في وثيقة لأراغون أن تجارة جنوة كانت لها وكالة دائمة وإعفاء خاص بجيجل : هذه المدينة المجاورة لبجاية والتي أهمل ذكرها بالوثيقة.

ولم يكن من الضروري إقامة فنادق في المدن الثانوية التي يتاجر بها المسيحيون. وكان بالإمكان الاكتفاء بمحل متميّز عن المتاجر المسيحية الأُخرى

حيث يودعون بضائعهم في أمان. وكان ملك المغرب عام 1358 = 759 يضع تحت تصرفهم منزلاً في حالة تعذر وجود فندق بالمدينة، وكان هذا الحق مخوّلاً لكل المسيحيين اللذين منحهم السلطان امتيازات تجارية.

رابعا : المسؤولية الشخصية

لا يمكن متابعة أي مسيحي بسبب ديون أو اخطاء مسيحي آخر باستثناء من كان المذنب تحت كفالته، وتشمل هذه القاعدة الضرورية للأمن والتجارة، حتى أعمالَ القرصلة،[2] وقد زكى هذا المبدأ من طرف كل الدول المسيحية ذات الامتياز بتونس. وهناك استثناء واحد ـ على ما في علمنا ـ تتضمنه معاهدة المغرب وبيزة سنة 1358 = 759.

«في القضايا التي يتنازع فيها سكان شمال إفريقيا وسكان البندقية. لا يمكن قبض أو متابعة بندقي بسبب جناية بندقيٍّ آخر إلا إذا كان ضامناً له. وإذا كان هناك بندقي مدينٌ لمغربي وفرّ بالمال فعلي القنصل وعلى حاكم البندقية متابعته ومحاكمته.. وإذا انطلقت سفينة للقرصلة من البندقية وألحقت ضرراً بسكان شمال إفريقيا فإن هذا العمل لا يتحمل مسؤوليتَه بندقيٌّ آخر. ويتوجب على القاضي البندقي تسديد التعويضات من ممتلكات المذنب...»

وتنص المعاهدات المبرمة مع جنوة على عدم اعتقال أو مصادرة أملاك مواطن من جنوة لخطإ يقترفه، ويوضع سكان جنوة في منأى عن المضايقات التي قد تسببها جرائم غيرهم من سكان جنوة.

ونقرأ مثل هذا في معاهدة بيزا وفلورانسا لسنة 1397 (768 ـ 69) و 1421 (ـ 824) بأنه لا يمكن مضايقة أو سجن شخص بسبب جرائم أم ديون فرد آخر.

وعلى النقيض من ذلك وباستثناءٍ لا نعرف سببه أو مدته ـ يقول لاتري ـ يضع امتياز السلطان أبي عنان المريني سنة 1358 = 759. وبموافقة البيزيين، مسؤوليةَ الجالية الجماعية في بعض القضايا المشار إليها بصفة غامضة في الشكل التالي : «وشرطنا عليهم أيضاً أنه إن وقعت من واحد منهم خيانة

---

2) الكونت لاتري : المقدمة ص 92 ـ 93 مع هوامشها، كذلك المختصر ص 172 ـ 173.

للمسلمين أو غدر في نفس أو مال فيثقف جميع من يكون ببلادنا حرسها الله تعالى من تجارهم ويكونون محوطين محفوظين في نفوسهم وأموالهم إلى أن يقع الخلاص في ذلك ويحصل الإنصاف منهم».

خامسا : حماية تركة الأجنبي المتوفّى.

لم يكن لحقّ وراثة الطارئ الذي يخول للإقطاعي حق امتلاك تركة الأجنبي، تطبيق في دول المغرب العربي. وقد نصّت المعاهدات على أن ممتلكات المسيحي المتوفى بإفريقيا تُودع لدى منفّذ الوصية، وفي حالة عدم وجود هذا الأخير تودع عند القنصل أو عند أحد مواطني المتوفّى إذا لم يترك وصية، غير أنه في حالة وفاة المسيحي في مكان أو بلد لا يوجد به قنصل أو مواطنون من نفس الجنسية، فإن الممتلكات تودع لدى السلطة العربية : عند والي الجمارك بمراكز الحدود، وكان القاضي يضع لائحةً تقديرية لممتلكات المتوفى بحضور شهود وتسلم هذه الممتلكات إلى شخص يعين من طرف حكومة المتوفّى. وتنفّذ هذه القوانين التعليمات النظرية للقانون الإسلامي التي تضع الشرطين التاليين لتسليم ممتلكات الأجنبي غير المسلم المتوفّى في بلد مسلم : أولا - أن يكون الأجنبي على سفر. ثانيا - أن يعرف ورثته.[3]

سادسا : تحريم القرصلة بين الطرفين

لقد كانت القرصلة[4] محظورة من الجانب العربي والجانب المسيحي، لكن شكاوي الحكومات المتعددة ومواد المعاهدات العمومية تبيّن عن أهمية وخطورة ظاهرة القرصلة التي كانت الآفة العظمى في القرون الوسطى حتى قيام الدول الكبرى والأساطيل العصرية، حيث لم تسهل القرصلة مأمورية هذه الأخيرة في ضمان سلامة الملاحة. ويجب في هذا الصدد - يقول لاتري : رفض ادعاء مسؤولية العرب والمسلمين في انتهاب السفن في البحر الأبيض المتوسط، لقد كانت القرصلة آفةً دولية، اشتهر بها اليونانيون وسكان سردينية وسكان جنوة...

---

3) لا تري : المقدمة ص 94 التعليق 3. نقلاً عن الشيخ خليل في مختصره.

4) لقد اقتنعت بوجاهة كتابة هذا اللفظ هكذا (القرصلة) باللام وليس بالنون، لأن اللفظ من أصل لاتيني ويكتب عندهم باللام، يضاف إلى هذا أن المصادر الدبلوماسية العربية القديمة تكتبه هكذا باللام وليس بالنون، (القرصلة والقانون الدولي) ندوة أكاديمية المملكة المغربية 1986.

ويلاحظ أن المعاهدات حتى القرن الرابع عشر تخص بالذكر القراصلة المسيحيين أكثر ما تخص القراصلة المسلمين. وكان سلاطنة المغرب يفرضون على الشعوب المرتبطة معهم أخذ الإجراءات الصارمة ضد قراصلتهم ! وقد احتوت كل المعاهدات على مواد خاصة بالقرصلة وبالضبط أحد نتائجها الخطيرة والمؤسفة وهي التجارة في الرهائن. وقد ساهمت ثلاثة عوامل في تطور هذه الظاهرة :

أولا - توسيع رقعة التّجارة إثر الحروب الصليبية.

ثانيا - تعتبر القرصلة سلاحاً فعالاً يغيّر مجرى الحرب - قاعدة أقرّها القانون العام -.

ثالثا - غياب أُسطول نظامي يحمي الملاحقة ويمكن من التمييز بين قرصلة الحرب وقرصلة التجارة لتشجيع الأُولى وردْع الثانية.

وقد كان من الناذر في القرون الوسطى وجود دولة في سلم مع كل الدول، فقد كان حق الحرب يشمل المدن والخواص. وكان بجانب المسيحيين والشعوب والبلديات، مجهّز سفن لضرب مصالح العدوّ أو الانتقام من الخسائر التي يتكبدها أولئك. ولقد كانت قرصلة الحرب حقّاً يُزَاوَل ضد العدو واستثناءً ضدّ مواطن خارج عن القانون، وقد كان من السهل في غياب سلطة السواحل وقوع بعض التجاوزات : كأن يقوم قراصلة بجانب محاربين بالسطو عشوائياً على كل الشواطئ والسواحل دون التمييز بين العدو والصديق. ناهيك بحر الشمال حيث كانت «مآثر» القراصلة والمحاربين تستقبل بنفس الحماس والترحيب، وأرخبيل اليونان حيث كانت أرباح القرصلة تضاهي مداخيل النشاط التجاري. وتبين الوثائق كيف أن القرصلة أصبحت لها مكانتها في عادات الشعوب الساحلية حتى في الغرب !!

ونقرأ في الامتياز الذي منحه السلطان المغربي لأَهل بيزة عام 1186 = 582 «إذ تعرض منهم متعرض للمسلمين - عصمهم الله - بنوع من أنواع المضرة والإذاية، فعليهم أخذه بجرريته ومعاقبته بما يوجبون على من جنى عليهم مثل جنايته دون مسامحة في ذلك ولا مساعدة في شيء منه ولا مداهنة».

وحسب وثيقة بتاريخ 11 يوليه 1251 = (19 ربيع 2 ر 649) واتفاقية ـ مع جنوة عام 1236 (633 ـ 34) نجد نفس الإلتزام بمحاربة القرصلة الأُروبية وتعويض المسلمين عما فقدوه...

وتتضمن معاهدة تلمسان الموقعة سنة 1339 = 739 بين أبي الحسن وجاك الثاني ملك ميورقة وسيد روسوليا ومونپُوليي (Montpelier) المواد الآتية : «وليمنع القراصلة في الجهتين من التعرض لما يعود على هذا العقد بالنقض أو يكر على حكمه بالرفض من إفساد المراسي أو ترويع المسافرين أو غير ذلك من وجوه الإفساد والاضرار ومن فعل شيئا من ذلك فسلطانه يشتد عليه من غرم ما أتلفه ورد ما أخذه ويعاقبه في نفسه بما يحسم علته، ويجعل عقابه ردعا لغيره، ودفعا لفساده وضيره...».

وتستمر المعاهدات المبرمة بين البلاد الأُروبية وبلاد المغرب على هذا المنوال : تحريم القرصلة ومقاومتها بشتى الوسائل على ما يؤخذ من مختلف الاتفاقيات التي تحتضنها أرشيفات الدولة في بيزة وفلورانسا وجنوة وغيرها...

ولم يقتصر الملوك المسيحيون والمسلمون على شجب أعمال المفسدين ومنع سفن القراصلة من الإبحار مع السفن التِّجارية والمعاقبة بالموت ومصادرة ممتلكات كلّ من جهز سفن القراصلة ضد قوة حليفة، بل قروا أن يمنع دخول سفن القراصلة إلى الموانئ... وأن تمنع من النار والماء، وأن يمنع القراصلة من بيع غنائمهم بالمزاد العلني، وأن يسمح بمصادرة كل المواد والبضائع التي نهبها القراصلة وأن يحرص على منع المتاجرة بالرَّهائن. وقد كان أسْرَى الدولة الحليفة يحررون دون فدية ولكن ابتداء من القرن الرابع عشر تعذر الالتزام باحترام هذه التعهدات...

سابعا ـ حماية الذين تعرضت سفنهم للحوادث

إن القوانين الخاصة بحماية السفن والممتلكات والغرقى في سواحل المغرب كانت تحترم أكثر من القوانين الخاصة بقرصلة الحرب غير أن الحكومات ولو سلمت نيتها عاجزة عن الالتزام باحترام هذه القوانين في مجموع هذه الأَقاليم، وقد كان هذا فوق طاقة الكثير من الدول الأُوربية حيث استمرت حقوق الحطام

حتى القرن السادس عشر. «ويتمتع بالسلامة كلُّ المجهزين للسفن المتاجرين مع إفريقيا، وانه في حالة كارثة فإن المعاهدات الجاري بها العمل بالمغرب تلزم سكان البلد بمديد المساعدة إلى السفن التي تعرضت للصعوبات أو الملقاة بالسواحل. وباحترام الغرقي ومساعدتهم على النجاة، وأن يحتفظ ببضائعهم وحطام سفنهم»، وكان هذا هو المبدإ الذي أقر عامة في بلاد المغرب حتى القرن الثالث عشر والذي كان مطبقا من طرف الملوك الحفصيين في مجموع مملكتهم، وقد طوّرت معاهدات أبي زكرياء وخلفائه تطبيق هذا المبدإ على كلّ ظروف الغرق. «عندما ترمي العاصفة بسفينةٍ إلى سواحل إفريقيا يجب أن تمد لها يد المساعدة وأن يحتفظ بها تحت حمايتنا» إذا هلك جزء من هيكل السفينة فإن المتبقى منها يعود إلى الناجين، وإذا هلك الجميع تتكلف الجمارك بالسفينة والبضائع المتبقية حتى وصول شخص تعينه الحكومة المعنية تسلم له الممتلكات التي جمعت، وكان مقام وتمويل الغرقى معفياً من كل الرسوم مع التزامهم بعدم استغلال إقامتهم لمزاولة الأعمال التجارية....

ودون توضيح ظروف حماية الغرقى فإن معاهدات ملوك المغرب وجزر الباليار تمنع بصفة قطعية حقوق الحطام وتضمن صيانة الغرقى.

ثامنا : استقبال الأجانب تحت علم حليف.

من الواضح أن روح المعاهدات المغربية إلى تحبّذ الارتباط مع المسيحيين، تمكّن الدول الحليفة من اقتياد تجار أجانب إلى سفنها وإشراكهم في الامتيازات التي يتمتعون بها، وقد انبثق عن هذه التشريعات المبدأ البحري القائل بأن الراية تحمي البضائع، وقد يمكن ذلك أهل بيزة من إشراك أهل فلورانسا وأهل (لك) والتجارِ الرومانيين في رحلاتهم.

وقد كان هذا التسامح وراء حفز أصحاب سفن نهري جنوة، الذين كانوا مستقلين عن حكم الجمهورية على المتاجرة تحت علم حليف لإفريقيا غير أنه لم تكن هناك معايير محدّدة لهذا النشاط، اختلفت العادات باختلاف الأجناس، ولم تحدد نصوص أبي زكرياء وضعية المحميين. أما معاهدة بيزة فتكتفي بالقول «إذا صحبهم أجنبي إلى إفريقيا فلا يؤدي أقل من البيزيين». وتعد معاهد جنوة أكثر دقةً وأقلَّ تحمسا. «إذا أقلَّ الجنويون على سفنهم الأجانب في

حالة سلم مع شمال إفريقيا أو في حالة ارتباط معهم باتفاقيات، فإن الأفارقة يعاملون أولئك الأجانب كالجنويين. وفي حالة تنازعهم مع شمال إفريقيا يحرمون من الحماية المَلَكية لأرواحهم.

وقد كان المسافرون الجنْويون المنتمون إلى دولة غير حليفة لتونس مثلا يتاجرون في إفريقيا ويعرضون أرواحهم للمخاطر ولم يكن بإمكانهم الاحتماء بالجنويين، كما كانت رسوم الجمارك أكبر بكثير مما يؤديه الجنويون بينما كان رعايا الدولة الحليفة يعاملون كالجنويين، وتمنح لهم كلّ الضمانات طوال إقامتهم بالمغرب. وقد أبقت اتفاقية 1250 = 671، نظريا، على هذا المبدأ ولكن مصالح العرب والجنويين حالت دون تطبيقه. وفي غياب تأكيد معاهدة جنوة في القرن الرابع والخامس عشر تنص المعاهدة الخاصة لسنة 1433 = 836 بأن كل مواطن دولة مسيحية حليفة يحل بإفريقيا بصحبة الجنويين يعامل كمواطن جنوي باستثناء من أساء إلى ملك البلاد.

ولا تحدد اتفاقيات البندقية الشروط التي يبحر بها الأجانب على سفنهم. ويحتمل أنه من باب التسامح، ولكي يحصلوا على جلب الأرباح من الحمولة والوساطة كانوا يحشرون أنفسهم وبضائعَهم في السفن البندقية...

وقد مكنت معاهدة البيزيين والجنويين تجاراً محرومين من الإبحار أو التعاطي لملاحة السواحل، من التردد مباشرة على ملوك أفارقة. وكان هؤلاء التجار يلتجئون إلى جيرانهم أصحاب السفن في الأسفار البعيدة، وكان هذا حال الفلورانسيين حيث أعطاهم ابن أبي زكرياء امتيازات خاصة للمتاجرة في تونس، وقد كان هؤلاء يصدرون وينتقلون على متن سفن البيزيين.

لقد كانت حماية الأرواح والممتلكات أمراً جدّ طبعيٍّ وبديهي، ولا يعتقد أنه لم يمنح للأجانب الغير المتحالفين المبحرين تحت عَلَم سفينةٍ مسيحية.

وقد أكدت هذا ضمنياً معاهدة البيزيين بعد حكم أبي زكرياء «كل إنسان معروف ـ تقول معاهدة 1264 = 662 له نفس حقوق وواجبات البيزيين وكل من رافقهم من تجار أجنبيين له نفس حقوقهم وواجباتهم كما تنص على ذلك معاهدتان لاحقتان.

ومع مرور الزّمن أصبح المبدأ يطبق على كلِّ الأجانب في سفن البيزيين والفلورانسيين وإن لم يكن حليفا لسكان شمال إفريقيا من العرب المسلمين، لكن هناك اختلافاً في رسوم الجمارك بين الحلفاء وغير الحلفاء «يعامل كلُّ مسيحيٍّ سواء، كان أو لم يكن في حالة سلم مع ملك تونس - مبحرٍ على ظهر سفينة من بيزة كمواطنٍ بيزيّ».

وتتبنّى معاهدة 1421 = 824 نفس القوانين باسم جمهورية فلورانسا كما كرّستها اتفاقيات 1445 = 848 وأوضحتها : «كل مواطن دولة غير حليفة مسافر على سفينة تنتمي إلى فلورانسا يؤدي للجمارك ما يؤديه الأجانب غير الحلفاء ويتوجب على قائد السفينة الإدلاء بأسمائهم إلى مدير الجمارك، وبتسديدهم رسوم الجمارك تضمن صيانة أرواحهم وبضائعهم».

تاسعا : ضمانات نقل وحفظ وبيع وتسديد شحن البضائع

في نفس الوقت الذي كانت التّعهدات تَضمن للأوربيين حماية أرواحهم وممتلكاتهم، كانت معاهداتٌ أخرى تدخل في إطار توضيح أساليب وتنفيذ تلك التعهدات وحماية وتسهيل التجارية وربط علاقة التجار بأهالي البلد. وقد كانت هذه القوانين تمكّن التجار الأوربيين واللّذين كانت سفنهم ووسطاؤهم من وسيلة لإيجاد السفن والعمال لشحن وتفريغ البضائع بمقر الجمارك أو بالفندق.

ويعتقد أن «المستودعات» كانت هي الفنادق ويترك جزء كبير من البضائع بالجمارك بينما يتم البيع والشراء بالفنادق أو بمقر الجمارك وكانت المزايدة تتم على شكل حلقة.

وكانت هناك مجموعة من المترجمين يشترط فيهم الثقة والأمان، تختارهم الإدارة المعنية ويوضعون تحت إشارة التجار الأجانب للتحدث بكل حرية وثقة مع أهالي البلد والضباط المكلفين من قبل الملك ببيع منتوجات هذا الأخير. وكانت الجمارك تسدد أثمان البضائع بواسطة عملاء، وكان هناك كتابٌ مختصون يتكلفون بتسجيل العمليات التي يقوم بها كلُّ تاجر وبحقوق الخزينة العامة من عمليات الاستيراد والتصدير، وكانت إجراءات الأمن المتخذة تسهل العلاقات بين المسيحيين والعرب وحكوماتهم وتعطى كل الضمانات لتسديد الديون وتسوية الأعمال.

عاشرا : السماح بعودة السلع التي لم تبع مع إعفائها في الديوانة.

كانت رسوم الجمارك تؤدى عن تجارة المسيحيين مع المغرب، ويأتي هذا الالتزام بعد احترام أعراف وقوانين البلد، غيْر أنَّ فرض رسوم الجمرك على البضائع التي بيعت فعلاً أصبح عرفا، مع فتح المجال للتجار لإعادة تصدير البضائع التي تبقت، وقد تضمنت المعاهدات بصفة علنية ما سلف ذكره. وهذا الامتياز الذي قرره ملوك المغرب كان يترجى من ورائه ازدهار تجارة المسيحيين مع المغاربة. ولم يكن لهذا الامتياز تقليدٌ قديم بإفريقيا، ويعتقد أن الجمارك كانت ترفضه حتى بداية القرن الرابع عشر، ويرجع تاريخها عند البيزيين بتونس إلى 1157 = 552 حيث كتب أبو عبد الله إلى كبير أساقفة بيزة يقول له بأن حقوق الاستيراد ستقتصر في المستقبل على البضائع المبيعة فعلاً في مختلف مقاطعات الجمهورية.

☆ ☆ ☆

وفيما يتصل بالعنصر الثاني وهو القوانين التي يلتزم بها الأجانب...

نذكر أولاً أنه كان هناك مبدآن أساسيان يطبعان علاقات المسيحيين مع البلد وسكانها وذلك إضافة إلى إجراءات الأمن البحرية والحضارية التي كان على المسيحيين المتاجرين مع المغرب الامتثال لها. ولقد كان المبدأ الأول مضمناً في الوثائق الدبلوماسية، بينما المبدأ الثاني أكثر تشدداً وصرامة :

أولاً : لا ترسى السفن إلا في موانئ الساحل الإفريقي المشار إليها في المعاهدات أو المشهورة كسوقٍ مفتوحة للتجارة الخارجية.

ثانيا : تلافي كلّ ما من شأنه أن يجرح شعور وتقاليد العرب والإسلام وأن يزاول المسيحيون طقوسهم الدينية في الأماكن المخصصة للأجانب كالفنادق، ويكون تفصيل ذلك على الشكل التالي :

أولاً : الموانئ المخصصة للتجارة المسيحية،

تحدَّد الطريقة التي تمارس بها المتاجرة في بعض المعاهدات وفي نقاط معينة وهذا الإجراء يجب دراسته في كل المعاهدات لتقييم دوافعه وخاصيته، ومن النادر أن تعين المعاهدة أسماء المسيحيين والموانئ التي يمكن الإرساء

والمتاجرة بها باستثناء أبي يوسف يعقوب 1186 = 582 الذي يخول للبيزيين حقّ التوقف والمتاجرة في سبتة ووهران وبجاية وتونس بالمغرب العربي وفي ألمرية بالأندلس، وتتضمن الاتفاقية تحذيراً صارماً لكل السفن غير المرخصة للإرساء بسواحل الموحدين لغير ضرورة وتصادر ممتلكات المخالفين ويحتجزون تحت قبضة السلطان الذي بإمكانه إعدامهم. ولكن هذه ما هي إلا ظروف استثنائية كما أننا لا نقف عند الحالات التي تعمتد على الافتراضات الاستثنائية، وبغضّ النظر عن مينائي تونس وبجاية اللذين يعتبران سوقين تقليديين بحكم أنهما مدينتان رئيسيتان لم تذكر المعاهدات المدن التي يمكن للسفن المسيحية الإرساء بها، فالأعراف تتكفل بذكرها. وتقتصر المعاهدات على القول بأنه مسموحٌ للمسيحيين بتفريغ بضائعهم بالسواحل التي اعتادوا التوجّه إليها كما تضيف هذه الاتفاقيات بأنه باستثناء ظروف قاهرة كنقصٍ في المؤونة أو التعرض لخطر عاصفة أو متابعة خصم، يُمنع على هذا السفن الإرساء في منطقة ساحلية أُخرى، وهذه الإجراءات الردعية لا تبرَّر بأي دافع سياسي وهي لا تناقض المعاهدات التي تشجع توسيع العلاقات التجارية بين المسيحيين والعرب، وقد كانت مصالح الجمارك ومصالح بيت المال وراء اتخاذ هذا الإجراء. ولم يكن الهدف هو تقليص رقعة التجارة بل ضمان حقوق بيت المال. هذا ما تؤكده المقارنة بين معاهدة البندقية وأراغون، وبعضُ تفاصيل نصّ معاهدة بيزة وجنوة.

وتوصي معاهدة 1186 = 582 ذاتُ القوانين الصارمة المسيحيين المضطرين للإرساء في موانئ غير مفتوحة لتجارتهم بعدم مزوالة البيع والشراء باستثناء ما يخص المؤونة وعتاد السفينة والامتناع عن التكلّم في التجارة للسكان !

وتوضح معاهدة جنوة لسنة 1236 = 633 هذه القوانين المتعذرة التطبيق «يقول الفصل الأول من المعاهدة : «إن الأمير أبا زكرياء يمنح للجنويين صيانة أرواحهم وممتلكاتهم في مجموع مملكته من طرابلس بإفريقيا الشمالية حتى حدود مملكة بجاية ليُسهِّل عملية البيع والشراء خاصةً في الأماكن التي تعود الجنويون المتاجرة بها. بينما يمنع عليهم الإبحار أو الإقامة في الموانئ التي لم يتعودوا الإلتجاء إليها، اللهم إلا إذا كانت هناك ظروف قاهرة كشراء المؤونة

أو إصلاح السفينة. وفي هذه الحالة يمنع عليهم التعاقد مع التجار أو المتجارة مع أبناء البلد !

وفي نفس الإطار يمكن تصنيف معاهدات أراغون وصقلية ومملكة ميورقة ومقاطعة مونبُّوليي سنة 1271 = 669 و 1285 = 684 : «لا يحق للرعايا الإرساء في بلاد أمير المؤمنين إلا في الأماكن التي رخصوا للإقامة بها باستثناء ظروفٍ قاهرة كإصلاح سفنهم أو تجديد مؤونتهم مع التزام عدم الشراء والبيع والمتاجرة مع أبناء البلد». ولم يستهدف سلاطين إفريقيا من ذلك عرقلة العلاقات مع العرب، لكنّ همّهم كان تطبيعَ الاتصالات ومحاربة التهريب وضمان مصالح خزينتهم المالية بتركيز عمليات الاستيراد والتصدير بمراكز معينة حيث يمكنهم بواسطة مكاتب الدّيوانة ضمان تسديد حقوقهم، فهذا إجراء ضرائبي ولا يتضمن أي تحدي للأجانب...

وكانت القاعدة أن المسيحيين الحلفاء يمكنهم الإرساء والمتاجرة في كل الموانئ التي توجد بها مكاتب للدّيوانة، وهذا المبدأ المضمّن في كل المعاهدات والواضح في فصول معاهدات 1236 = 633 و 1271 = 669 ثم 1284 = 683 السابقة الذكر والذي تبنّتْهُ معاهدات أخرى كمعاهدة البندقية لسنة 1231 = 628 «لايمنع أيّ بندقي بمركزٍ ديوانيّ في مملكة إفريقيا الشمالية من البيع أو الشراء».

وقد أصبحت مقتضيات معاهدةٍ 1231 = 628 التي تكررت في معاهدة 1251 = 649 منذ 1305 = 704 واضحة في الفصلِ الأول من كل معاهدات جمهورية البندقية مع ملك تونس بخصوص حرية التجارة والسلامة الفردية لرعايا الجمهورية : «يحمي كل تاجر ومواطن من جمهورية البندقية في موانئ جلالة الملك حيث يوجد مركز للدّيوانة».

ويتبنى الفصل العشرون من معاهدة 1313 = 713 بين ملك ميورقة ورسيون ومونبوليي هذا المبدأ بوضوح : «يمنع على الرعايا النزول في مملكة أمير المؤمنين حيث لا توجد ديوانة إلا لاقتناء المؤونة أو شراء عتاد السفينة مع الالتزام بعدم مزاولة الشراء أو البيع بهذا المكان.

ثانيا : حرية التديّن

قليلاً ما أهملت المعاهدات التي تخول للدول المسيحية التي تمتلك فنادق بإفريقيا إمكانيةَ توفر هذه الأماكن على كنيسة ومعبد ومقبرة خاصة بالدولة صاحبة الامتياز. وكانت المعاهدات تكفل حرية مزوالة الطقوس الدينية داخل الفندق وملحقاته، وكان بإمكانهم مزوالة العبادة والدعاء والتراتيل الدينية والتجول داخل المنطقة وتحت أروقة الفنادق التي تزيّن في هذه المناسبة بالورود والبسوط.

ولم تأت معاهدة تونس بأية إضافة في هذا المجال، ومن الخطإ الاعتقاد - على غرار قول بعض الباحثين - بأن الملوك المسيحيين قد رخصوا لمواطنيهم - قبل مغادرة إفريقيا - الدعوة لاعتناق المسلمين الدّين المسيحي. ويوضح الفصلُ السادس من اتفاقية 1270 = 668 = 69 ضمانات حرية الأديان بالنسبة للتجار المسيحيين العاملين بإفريقيا : «يمكن للرهبان والكهنة المسيحيين الإقامة في مملكة أمير المؤمنين كما بإمكانهم بناء صوامع وكنائس ودفن موتاهم ويتعبد هؤلاء الكهنة والنساك علنياً في كنائس تابعة لطقوس ديانتهم كما تعودوا ذلك في أوطانهم».

بإمكان رعايا أمراء فرنسا... وصقلية... استناداً لهذا الفصل أن يطلبوا إنشاء فنادق مع لوازمها... وذلك تطبيقاً لعرف قديم، ولم يتضمن الامتياز امتيازاتٍ أخرى، ولا تتخذ الصوامع أماكنَ للعبادة بمكانٍ معزول في المدن أو البوادي كالتي يمتلك المسيحيون، ومن المعروف أن هذه الصوامع كانت مسكناً للكاهن ووُسّعت وأصبحت ديراً للكهنة المكلفين بالكنائس المسيحية.

لم تقتصر خدمات كنيسة القديس فرانسوا، والقديس دوفينيك وجان دُو ماثا على الكهنوت في الأحياء الأوربية، وقد كان احترام أهل البلد والمدن لهم يحفزّهم للتحرك بكل حرية والتحدث إلى الشيوخ وزيارة الأسرى والدعاء لهم ومحاولة تحريرهم. وقد كان حلم هؤلاء هو استرجاع المسيحية لنفوذها بإفريقيا ! لكنهم اصطدموا بقوة إيمان سكان إفريقيا. وإذا كان المسيحيون قد عجزوا عن زعزعة الإفريقيين عن دينهم الإسلامي فإن ذلك قد زادهم تشبثا بمسيحيتهم ! وكم من مبشّر أقل شهرة من (Antoine de Rivoli, Raymond, lulle) كان طيشه سبباً في هلاكه !!

وقد كانت كل مظاهر التعبد تقام بالكنيسة أو الفندق المسيحي ولم يكن باستطاعة رجال الدين المسيحيين استعمال النواقيس والطقوس خارج الكنائس، كما كان يمنع نفوذ الأصداء من المعابد إذا كانت توجد بمكانٍ عمومي، وكان المسيحيون يجدون في المواطنين والحكومات المسلمة الاعتبار والحماية طالما احترموا حساسيات المسلمين والاتفاقيات المبرمة مع ملوكهم !

ثالثا : قوانين مختلفة ـ الحمَّامات، شرطة الموانىء.

تكشف المعاهدات عن بعض الأعراف والتَّعليمات الخاصة بالأمن الحضري وشرطة الموانىء والتي كانت مطبقة على المواطنين الأصليين وعلى الأجانب. وقد جاء في المعاهدات أنه في حالة عدم توفر فنادق البيزيين على حمامات، فإن أحد حمَّامات المدينة توضع يوماً كل أُسبوع رهن إشارتهم. وقد كان البندقيون يتمتعون بتسهيلات أكبر لاستعمال الحمامات، أما شرطة الموانئ فكانت من اختصاص مدير الدِّيوانة الذي كان له الحق في إغلاق الموانئ وتحديد أوقات انتقال البضائع من الموانئ إلى الرصيف ومن الرصيف إلى الموانىء.

وقد كان تجاوز سلطة موظف عربي وراء قرار ملك تونس 1271 = 669 منح امتياز إلى (Jean Dandolo) لتجديد معاهدات جمهورية البندقية القديمة : «بأي حال من الأحوال لا يمكن تعذيب أي بندقي». إن معاهدات دول أخرى لم تتضمن هذا الامتياز، كما أن جمهورية البندقية تخلت عنه في الاتِّفاقيات التي أبرمها سفراؤها...

رابعا : رسوم الدِّيوانة على الواردات والصادرات.

بما أن التجارة تعتبر الفائدة الكبرى، فإن أُمراء المغرب في علاقتهم مع الأُوربيين أقاموا رسوماً جمركية على دخول وخروج البضائع، وكان إعفاء أُمراء جزر البليار في القرن الثاني عشر لجنوة استثناءً عابراً، فقد كان المسيحيون في البلدان الإسلامية يؤدون حقوق الجمارك على كل مبيعاتهم وصادراتهم بإفريقيا. كما أن إدارة الدِّيوانة كانت تخضع لنفس القواعد والشروط في كلّ الموانىء المفتوحة للمسيحيين، وقد كانت كتابة المعاهدات عاجزة أحياناً عن مسايرة التغيّرات التي تطرأ على تعريفات الاستيراد والتصدير حسب الحقب والدول. وقد كانت الأعراف وبعض الاتفاقيات الشفوية تكمل هذا الفراغ.

لا يوجد أيّ توضيح قديم لهذا المبدأ، وتذكر مرسالة 1175 = 552 بين بيزة وملك تونس بأنه ستؤدّى حقوق الجمارك لبلادهما دون التمييز بين الاستيراد والتصدير وحرصاً على تخفيض بعض الضّرائب العيْنية يقتصر على أربع حفنات من القمح عوض خمسة، وتحدد نسبة واحد في العشرة على البضائع غير المبيعة وعشرة في المائة تعرفة على الواردات، وقد كانت الأعراف تكمّل ثغرات الوثائق المكتوبة والتي كانت معرفة النّاس بها محدودة.

وقد تكونت المبادئ مع مرور الزمن، وتضع معاهدة 1186 = 582 بين جمهورية بيزة والخليفة الموحّدي أبي يوسف يعقوب نسبة 10 في المائة على الواردات، وأن يترك للأعراف حلُّ الكثير من القضايا المهمة : «يجب على البيزيين تأدية عشرةٍ في المائة تبعاً للتقاليد القديمة والمعاهدات المعروفة دون زيادةٍ باستثناء البضائع المبيعة بينهم».

لاتفرض نسبة عشرةٍ في المائة في جميع الحالات، ابتداءً من عهد أبي زكرياء انطلاقا لتوثيق هذه المبادئ ووضع الخصوصيات الأساسية. وقد كثرت التعبيرات رغم وجود بعض النقاط المبهمة في الوثائق المكتوبة التي توجد بها الشروط العامة للمعاملات بين المسيحيين والمسلمين.

إن التجارة والملاحة خضعت في إفريقيا إلى نوعين من التشريع : حقوق أساسية، وحقوق إضافية، تدفع الأُولى على الواردات والصادرات فتعريفة واردات الدول الحليفة أي المرتبطة مع الأُمراء بمعاهدات، تبلغ عشرةً بالمائة ولا تتغير هذه النسبة إلا قليلاً. وقد اعتاد التجار في إفريقيا والبحر المتوسط أداء هذه الحقوق وهي تدعى بالعُشر، ويهمل بعض الأحيان ذكرها في ترجمة المعاهدات. ولقد كان تطبيقها عامّاً ومشهوراً. أما الصادرات فكانت تخضع لخمسة في المائة على العموم، وهناك حالات خاصة تقتضي الإعفاء، وتشمل المعادن الثمينة والمجوهرات والسفن وعتادها من الأعراض التي كان الأُمراء يشجّعون استيرادها.

أما فيما يخص النوع الثاني من الحقوق الإضافية المحصلة عن الترجمة ووزن البضائع وحقوق الإرساء وبعض الخدمات فلم تكن لها الطابع الدقيق الذي كان للحقوق الأساسية. كما أن المعاهدات لا تحدد معدل هذه الحقوق فهي تختلف

حسب ظروف وتقاليد الدول. وكانت التقلّبات تخلق اختلافات في مجموع الحقوق التي تؤديها الدولة، غير أن هذا الاختلاف لم يكن مهما جداً بحيث لا يتجاوز نسبة عشرة إلى عشرة وربع، وعشرة ونصف، باستثناء الفلورانسيين فقد بلغت حقوقهم الأساسية الإضافية 11,5 % ففي النّصف الأول من القرن الخامس عشر رفعت ديوانة تونس تعرفة الواردات من 10 إلى 10,5 % فقد كان إلغاء بعض الضرائب الثانوية وراء هذه الزيادة التي تعتبرها معاهدة 23 أبريل سنة 1445 = 15 محرم 849 كشيء جارٍ به العمل في كل الدول الحليفة ما عدا جنوة طبقاً لمعاهدة دجنبر من نفس السنة...

وفيما يخص التعريفات الثابتة والتعريفات الأساسية فهذا ما تحتفظ به الوثائق كجوانب إيجابية لعلاقات الدول المسيحية مع المغرب :

1) الواردات - حقوق أساسية.

- بيزة : يؤدي رعايا وزبائن جمهورية بيزا التي كانت تشمل في القرن الثاني عشر الساحل من (Spezzia) إلى (Cévita-Vecchia) عشرةً في المائة سنة 1157 = 552 وما يليها، وبعد سنة 1421 = 824 كانوا يؤدون نفس ما يؤديه الفلورانسيون.

- فلورانسا : ما داموا يتاجرون تحت عَلم بيزة فإنهم يؤدون على بضائعهم $11 \frac{1}{2}$ % ويعتقد أن هذه النسبة تصل إلى خمسة أو أربعة في المائة عن الأحجار الثمينة بالنسبة للفلورانسيين وكل المسيحيين، كان الفلورانسيون يؤدون عشرةً في المائة بعد معاهدة 1421 (= 824) و 11,5 بعد معاهدة 1445 = 848 - 49.

- جنوة : في عام 1160 = 555 طبقا للمعاهدة المبرمة مع السلطان الموحدي تسدد جنوة 8 % في كل المغرب باستثناء بجاية (Bougie) حيث يصل المعدّل إلى عشرة في المائة. وقد كان ربع مداخيل الجمارك مخصّصاً ببجاية لجمهورية جنوة وقد طبقوا ذلك على وارداتهم ابتداءاً من معاهدة 1236 = 633 واستمر تطبيق هذه النسبة علىالجنْويين والمملكة العربية على الأقل في معاهدة 1205 = 601 وما يليها.

2) الصادرات ـ حقوق أساسية.

نادراً ما تذكر الرسوم المفروضة على الصادرات في المعاهدات إلا بصفة غير مباشرة حول الأسواق المعفية من جزء أو كل التعْرفة التي لا يذكر مقدارها. وهناك بعض المعلومات الواضحة والدقيقة التي تؤكد وجود هذه الحقوق. وهكذا فإن رسوم الصادرات بإفريقيا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار إعفاء البضائع من أُجْرة السفينة وأن المسيحيين يعاملون بصفة عادية عند دخول وخروج البضائع، وأداء الجنْويين نفس الحقوق التي تؤديها فلورانسا وبيزة ويوضح الإصلاح المستعمل لتحصيل «نصف الحقوق» حول بعض المواد وبعض الأسواق ذات الامتياز بأن معدّل التعرفة يصل إلى خمسة في المائة، ويعبر عن نسبة عشرة في المائة في كل المعاهدات بالاصطلاح القانوني (Drictum) أي العشر ودون التعرض لأي نص عام تذكر معاهدة جنوة لسنة 1236 = 633 و 1250 = 648 بأن حقوق الصادرات تبلغ خمسة في المائة بالنسبة لبعض البضائع.

وقد كانت القاعدة في مملكة إفريقيا والمغرب الأوسط تقوم على تحصيل خمسة في المائة حول الصادرات التي تفوق نصيب واردات كل تاجر. ويقول بِكَولوتي (Pegolotti) أن كل تاجر له الحق في تصدير قسطٍ من البضائع معفىً من الرسوم الجمركية يساوي في قيمتها قيمة البضائع المستوردة إلى تونس وأن فائض أو مجموع صادرات التاجر الذي لم يستورد شيئاً تؤدى عنها نصف الحقوق أي خمسة في المائة، وتظهر هنا أهمية الحسابات الجارية بالدّيوانة العربية بالنسبة لكل مسيحي.

خامسا : الإجراءات المتخذة ضد التهريب.

لقد كانت ثقة الحكومة المغربية إزاء التجار المسيحيين تظهر في النصوص الخاصة بالتهريب كباقي الإجراءات التي تتضمنها المعاهدات. وقد كانت هذه النصوص، باعتدالها، تشجع على التملص من الضريبة، وتفرض على البضائع المستوردة أو المصدرة الغير المصرح بها لدى الجمارك «التعرفة» العادية والإضافة، ولا تفرض غرامات أو مصادرات أو ارتفاعاً استثنائياً للتعرفة،

وتمنع الحكومة حق زيارة السفن أو الفنادق التي تنقل إليها البضائع بطريقةٍ مخالفةٍ للقانون، وفي هذه الحالة يخبر القنصل ويتم التفتيش تحت المراقبة المزدوجة للمفوضين العرب والمندوب المسيحي أو مندوب للقنصل، وعند إثبات المخالفة تؤدى الرسوم كما لو كانت البضائع قد مرت بالجمارك، وقد استمر هذا بإفريقيا في أواسط القرن الرابع عشر حينما كتب (Pelogotti) مؤلفه «دليل التاجر» الذي يتضمن نصائح حول مصلحة التجار في عدم استغلال ثقة العرب أو إهمالهم. وكانت هذه الملاحظات تخص المعادن الثمينة والنقود التي كان الفلورانسيون يتاجرون بها، يقول (Pegolotti) : «الذهب والفضة المستوردان من تونس من طرف المسيحيين يؤدى عليهما 5 % مع الخمر الذي يعطي حلوانا للخدم المغاربة ! وإذا لم يكتشف التزوير لا يؤدي شيء عن البضائع أو إذا اكتشف التزوير أثناء النقل فيجب تأدية الحقوق دون الغرامة. أما إذا نقل المعدن إلى المخزن فلا تؤدى عنه أيُّ حقوق، ويسهل تهريب الذهب لأنه أصغر حجماً من الفضة. وحتى إذا لم تؤد عن المعادن المهربة إلا حقوق الجمارك، فإن المهرب يفقد سمعته !! والعرب لا يمنحون ثقتهم بسهولة»، وقد تخلّى ملوك تونس عن سلوكهم هذا وقرروا بأن يؤدى ضعف الحقوق على البضائع المهربة. ولقد رفض البندقيون هذا التشريع الجديد. وفي 1392 = 794 قدّم سفير البندقية للمفوضين المغاربة المكلّفين بتحضير معاهدة جديدة للتجارة نصّاً يتضمن إخضاع التهريب لحقوق عادية : «يقال إن البندقيين أمناء - يذكر المفوض المغربي - أتريدوا أن نقابل الشر بالجميل ؟ لا يمكن - ذلك - أو تفضل أن تصادر البضائع المهربة والمحجوزة وأن يؤدى عنها الضّعف كما رضي بذلك المسيحيون الآخرون !» وتقرر المعاهدة بأن يؤدى المنحرفون ضعف الحقوق. ولا يظهر أن القاعدة غيّرتْ منذ ذلك الحين.

سادساً : حقوق الشفعة.

حقٌّ السّبق في شراء البضائع التي تحملها السّفن الأجنبية، أي حق الشفعة الذي لم يأت في الوثائق بصدده أي ذكر لصالح السلطان، يشار إليه ضمنياً في المعاهدات. وقد كان هذا الامتياز رغم كونه يخفض أرباح السوق الحرة يضرٌّ بالتجار المسيحيين في إفريقيا. وكانت ظروف البيع جيدة وتحت مراقبة

الجمارك العربية التي تحمل خاتم الأُمراء. وتتعلق بعض النصوص، خاصة في معاهدة البيزيين بمبيعات الملوك أو باسمهم. وجاء في معاهدة 1358 = 759 أنه إذا جاء تاجر من بيزة إلى المغرب ببضاعة لعرضها على السلطان : (مجوهرات، أثواب، أسلحة طيور للقنص)[5] لا يمكن لأَي مندوب تفتيشه، وإذا أَعجبت البضاعة الأَمير فإنه لا تؤدَّى عنها أية حقوق، أما إذا لم يشترها الأَمير فإن الرسوم تؤدى في الوقت المعين وحسب الإجراءات الجاري بها العمل.

ولتلافي التأخير الذي يضر بمصالح التجار والذي لا يكون موظفو القصر دائما مسؤولين عنه، جاء في المعاهدات أنه إذا أراد السلطان تقويم بضائع أجنبية فإنه لا يحتفظ بها في القصر أكثر من عشرة أيام. وكان عليه إرجاع البضاعة بعد هذا الأَجل أو تسديد ثمنها.

أما بالنسبة للمبيعات التي تتم بالدِّيوانة لحساب السلطان أو قصره، خاصة اقتناء القماش والزرابي والأَشياء التي لا يمكن للأَمير انتقاؤها شخصياً فقد كان التعامل يعلن نهائيا، إذا كان في اسم الملك، بمقر الدِّيوانة وبحضور الشهود والمراقبين. ولا يمكن للمستغل الذي عقد الاتفاق ولا نائبه التملص من ذلك باستثناء وجود خطأ أو تدليس في البضائع المسلمة أو بالنسبة للتسديد، فكان على البائع تقديم صك البيع المكتوب بحضور الشهود لكي يتناول موافقة الجمارك.

وجاء في معاهدة الكاطلان بأنه إذا باع تاجر من أراغون بضائع لحساب ملك تونس وأدى عليها الحقوق الأَساسية فتعفى هذه البضائع من الحقوق الإضافية. وتتغير ظروف البيع من سلاطنة المغرب إلى سلاطنة تونس.

سابعا : حقّ الحاكم في الحجز لبضاعة تعلق الغرض بها

يعتبر توقيف الأَمير، في عرف الملاحة، بمثابة الحجز القانوني للسفينة... وقد كان لسلاطين إفريقيا حق الاستيلاء على السفن المسيحية كما كان الحجز يتم طبقاً للظروف والمقاييس المتفق عنها في المعاهدات. وإذا

---

5) إشارة إلى هواية المغاربة بالقنص بالصقر... د. التازي : القنص بالصقر بين المشرق والمغرب. المطبعة العصرية ـ الرباط ـ 1980.

احتاج الأمير أو ضباطه إلى سفينةٍ لمصلحة عامة، أو لنقل منتوجات ممتلكات الأمير، أو للضرائب المسددة عينيا، في كلّ هذه الحالات يمكن لضباط الملك حجز سفينةٍ من ثلاثة، أو حجز ثلث السفن المنتمية للدول الحليفة الراسية في موانئ الدولة.

وقد كانت هناك تدابير أو معايير عادلة وراء اختيار السفن وتحديد ثمن كرائها، فاختيار السفينة كان من اختصاص قنصل الدولة. أما ثمن الكراء طوال مدة الخدمة فكان يقرره الربان وضباط الملك. كما لا يمكن حجز سفينة بدأت عمليةُ شحن البضائع بها. أما إذا حجزت سفينة وقرر مندوب الملك التخلّي عنها فإن ذلك لا يمنع من أن يؤدي الملك ثمن كرائها. ومعاهدة أراغون لسنة 1325 = 725 لا تحصر حق الحجز في ثلث السفن الراسية بإفريقيا، بينما تعتبر معاهدات 1271 = 1285.669 = 1314.683 = 714 تحديداً لهذا الحق. وتنص معاهدة أراغون على أن صاحب السفينة المحجوزة لحساب ملك تونس وبجاية، مقابل أجرة، لا يؤدى رسوم الخمس عن كراء السفينة.

وقد خلّصت جمهورية البندقية سفنها من حق الحجز لكي لا يزعج ملاحوها في رحلاتهم وذلك بسبب التجاوزات التي يعرفها تطبيق الحجز هذا. وقد عوّض بتسديد كلّ سفينة ترسي بشواطىء مملكة تونس ثلاث (Doubles) من الذّهب وسكوارين (Squarine). وقد وجد الملوك هذه التسوية مربحة نظراً للعدد الكبير من سفن البندقية التي تتردد على موانئهم، لذلك رفضوا تعديلها عند طلب القاضي وذلك سنة 1392 = 794 وقد أصر السلطان أبو العباس أحمد بن محمد... على أن يحتفظ بذلك التقليد القديم في التعامل مع سفن البندقية، ولكن هذا الاستثناء ألغاه هو عند تجديد معاهدة 1392 = 794 وأصبح القانون العام يجري على البندقيين، وقد وضع ثلث سفنهم الموجودة بتونس رهن إشارة السلطان الذي كان يؤدي لأصحاب السفن أثماناً عادلةً مقابل كراء سفنهم....

ثامنا : تبادل الحماية والتعامل بين المسلمين والمسيحيين.

لا تتضمن معاهدات القرون الوسطى كلّ المواد الضرورية لكتابة التزامٍ دبلوماسيٍ ثنائي، ولم يكن لها بعد النظر الذي تمتاز به المعاهدات العصرية. وفي المعاهدات التي تهمّنا يهمل أحياناً النّص على شروط وإجراءات الأمن العام الخاصة برعايا الأطراف المتعاقدة لأنه لا يعقل أن تقوم علاقات طيبة بين

دولتين دون احترام مبادئ العدل والقانون الدولي. وقد كان احترام قوانين وعادات سكّان البلد الأجنبي الذي يحل به المسلمون أو المسيحيون التزاماً ضرورياً وبديهياً بحيث تهمل المعاهدات ذكره. ويذكر تبادل حماية التجار أو الرعايا العرب المسافرين والمتوقفين في البلد المسيحي قليلاً، لكنها مضمنة ومفترضة في كل المعاهدات...

ويفسّر اختلافُ عادات وتجارة الشعبين اختلافَ ظروفِ إقامتهم بالخارج، ومعظم المعاهدات التي نشرت استهدفت تقنين شروط تجارة الأوربيين بإفريقيا. ولم تتضمن المعاهدات المصالح الإسلامية في البحر أو بالبلد المسيحي إلا نادراً. ولم يكن عدد كبير من سكان البلد يهتم بالتجارة بالخارج حتى في المدن التي كان حضورهم بها معروفاً كبرشلونة ومرسيليا ومدن إيطاليا. حيث يبرِّر ذلك بعدم إقدام الحكومات على أخذ تدابير لحماية تجارها. وقد جاء في هذه المعاهدات بعض حالات التبادل الخاصة بالملاحة والتجارة، وسفر المغاربة وشجب القرصلة وتحرير الرهائن وحماية السفن المتابعة من طرف العدو أو القراصلة، وضمان أن كلّ مسيحي مدين أو معتدي على مسلم يتابع ويعاقب في شخصه وفي ممتلكاته، غير أنها لا تتضمن تعرفة الجمارك وحرية الأسواق ومسؤولية المترجمين التي كان المسيحيون يحبذون كتابتها بالمعاهدات.

وإذْ لم يكن للمغاربة قنصل في بلد مسيحي فإنهم يوضعون تحت الحماية المباشرة للحكومة، وتطبيقاً لهذا المبدإ أعلنت معاهدة ملك تونس مع فلورانسا سنة 1445 = 849 أن الجمهورية مسؤولة عن ممتلكات وأرواح كلّ رعايا تونس المسافرين على سفن الدولة. وفي المقابل كانت الجمهورية تلزم المسلمين من رعايا ملك تونس مثلاً بعدم الركوب على سفينةٍ من فلورانسا أو بيزة دون وجود ضامنٍ لهم معروف.

أما بالنسبة للعبادة التي لا تتدخل مصالح الشؤون الدينية، عند المسلمين، في تنظيمها. فإن الأُمراء لم يدمجوا في معاهداتهم عنها فصولاً لصالح رعاياهم في الخارج، ولا يعتقد أن الأُوربيين قد رخصوا في النصوص المسيحية إدماج صلاحيات كالتي يتمتعون بها في إفريقيا. وكان بإمكان المغاربة التمتع بالمساواة في المعاملة لو أن السفراء العرب فرضوا تحرير هذا الفصل في الكتابة الأُولى للمعاهدات.

إن المعاملة بالمثل وإن لم يأت ذكرها في المعاهدات إلا نادراً لكنها كانت تهيمن على طابع العلاقات بين الأوربيين والمغاربة وكانت حرية المعاملة يشترطها كلُّ الأُمراء لرعاياهم فكانوا يمنحون شواهد ملكية أو يبرمون معاهدات في هذا الشأن. وإذا لم تتضمن المعاهدات علنياً هذا المبدأ فإن ذلك كان بديهيا وإن الأُمراء كانوا يأخذون بعين الاعتبار الحجم الكبير للتجارة المسيحية التي تعد أهمّ بكثير من تجارة رعاياهم هم بالدول المسيحية.

كانت هذه معظم المبادئ والعادات التي نظمت طوال أربعة قرون علاقات الأُوربيين مع عرب إفريقيا الشمالية، ويلاحظ أن هذه المبادئ كانت أهمّ من تلك التي عرفتها أُوربا الفيودالية في عددٍ من المسائل المهمة كالتي تتعلق بالملاحة والتجارة، وحق الحطام، وإنقاذ الغرقى. وحق الطارئ واحترام السفن التجارية...

وكانت كلُّ الشعوب تتحمّس لهذه القوانين اللّيبيرالية وتساهم في حماية التجارة بمختلف وسائلها واحتياجاتها. فكان الأُوربيون يجلبون للمغرب المعادن والبسط والأنسجة والأقمشة الفاخرة والحبال والسفن وعتادها والجواهر ومواد صناعية أُخرى، بينما يزودهم المغاربة بمنتوجات أراضيهم وماشيتهم مثل الصوف والجلود والحب والملح والقمح وغير ذلك من الموادّ التي كانت أُوربا في حاجة إليها...

الإتّفاقيات الشّفوية بين المغرب والأمم المجاورة

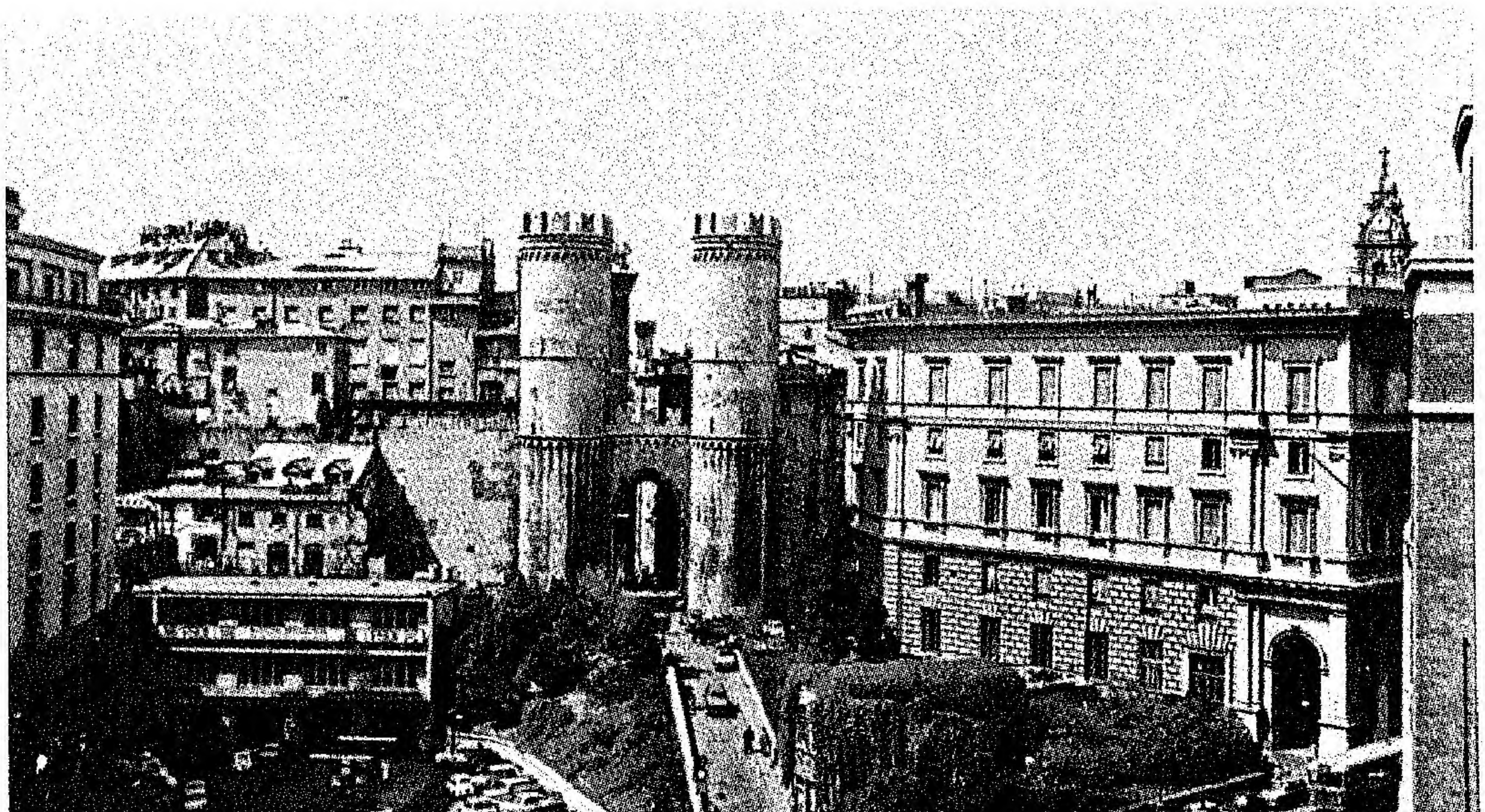
وهناك علاوةً على الاتفاقيات المكتوبة، نوعٌ من الإتّفاقيات أشارت له الكتب التي اهتمت بتاريخ العلاقات المغربية في العصر الوسيط، اعتماداً على ما يوجد في الارشيفات المحفوظة بالممالك المسيحية، ويتعلق الأمر بالاتفاقيات التي يقتصر فيها على «إعطاء الكلمة» أو «التّصفيق باليد» أو السؤال الشفوي والإجابة عنه كذلك بتعبيرٍ شفوي.

وهذا النوع من الاتفاقيات لا يختلف قيمةً ولا قوةً عن أشكال الأوفاق الأخرى، لأنّ كلام القادة أو التزام ممثليهم يقوم مقام الوثيقة المكتوبة على ما ورد في بعض الرسائل المتبادلة بين ملوك المغرب وحكام الجمهوريات المتوسطية وعلى نحو ما نرى في الرسالة التي بعث بها أمير تونس، وربما وقعت الإحالة عليها في المعاهدات اللاّحقة... ومن هنا يكون لزاماً علينا أن نتنبّه لسائر هذه الاتفاقيات التي تعقد رأساً لرَأس بين رؤساء الأساطيل، أو بين الممثلين التجاريين أو بين القواد العسكريين...

De Mas Latrie : TRAITES... .P. 69 – 71 – 74 – 76.



لقطة من جنوة



جنوة : دار كولومب وباب صوبّرانا

العلاقات بين المرابطين والعباسيين

- □ عهد العبّاسيين للمرابطين...
- □ ذكر العباسيين على المنابر ونقش أسمائهم في العملات والكُسا والأَعلام.
- □ البعوث المغربية إلى بغداد.
- □ سفارة ابن العربي لدى العباسيين.
- □ الوثائق المتعلقة بهذه السفارة...
- □ جواب الخلافة على البعثة المغربية.

العلاقات بين المرابطين وبين العباسيين

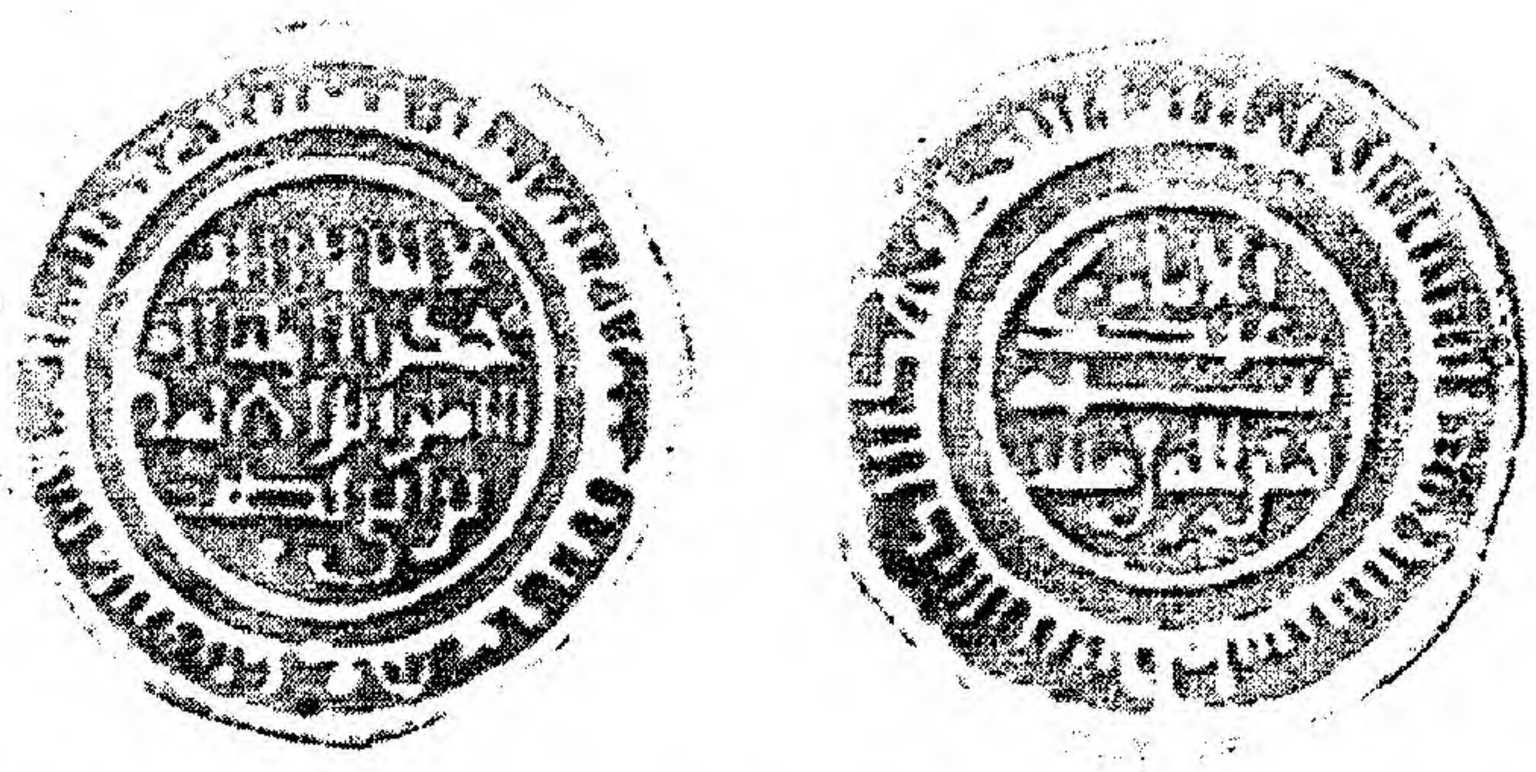
العلاقات بين المرابطين وبين الخلافة في بغداد.

إذا كان هناك من مثل أعلى لحسن النية وسلامة الطوية لحكومةٍ من الحكومات التي عرفها التاريخ الإسلامي فهو المثل الذي ضربته دولة المرابطين في المغرب الأقصى، فلقد فصلتها عن الخلافة في بغداد آلاف الأميال وكانت تسمع بل وتشاهد عن عددٍ كبير من الممالك الصغيرة التي ضربت بأمر الخلافة في بغداد عُرض الحائط، لكنها أي دولة المرابطين ـ بقيادة أميرها الشهم يوسف بن تاشفين ـ اتخذت منذ بدايتها شعار الانضواء تحت لواء الخلافة بالرغم من أنها أي دولة المرابطين كانت من القوة والمنعة بحيث لاتخاف بأس أولئك على ضفاف دجلة.

ولا يتعلق الأمر إطلاقا بتهيب مؤامرة كالتي دبّرت للإمام إدريس الأول على يد سليمان بن جرير الشماخ ولكنها قضية مبدأ، قضية ولاءٍ مقدّس لآل البيت الذين جعل الإسلام الخلافةَ فيهم، وعاش مَن عرف قدْرَه ! كما يقولون.

عهد العباسيين إلى المرابطين

تؤكد كتب النقود أن المرابطين دعوا للخليفة العباسي قبل فتح الأندلس بوقت طويل، وهكذا نقشوا أسماء الخلفاء العباسيين على السكة منذ سنة 450 = 1058 أي أيام الخليفة القائم بأمر الله الذي كان يحمل اسم عبد الله، وكان عهده يصادف أيام الأمير المرابطي الشهير أبي بكر بن عمر الذي ـ كما نعلم ـ عهد إلى يوسف بن تاشفين بحكم شمال المغرب عندما توجه هو إلى فتوحاته فيما وراء الصحراء...



عملة ذهبية مرابطية تحمل اسم الأمير إبراهيم بن أبي بكر ضربت بسجلماسة بتاريخ 462 هـ

وقد ظل اسم الخلفاء يذكر مقروناً باسم أبي بكر بن عمر حتى توفي سنة 480 هـ = 1087 وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه أيضا على السكة مع اسم الخليفة العباسي، وفي هذا تأييد للفكرة التي تقول بأن الدولة المرابطين قد دعت للعباسيين من أول الأمر وليس فقط بعد الزلاَّقة كما يذكر...

البريد بين المشرق والمغرب
على عهد يوسف بن تاشفين

ورد في كتاب (البيان المغرب) لابن عذاري المراكشي 4، 28 : «وفي سنة سبع وستين وأربعمائة» وصل الخبر إلى يوسف بن تاشفين بوفاة الخليفة العباسي القائم بأمر الله وبيعة الخليفة المقتدر بالله في الثالث عشر لشعبان.

كما ورد في كتاب الذخيرة لابن بسام لدى ترجمته لذي الوزارتين أبي بكر محمد بن سليمان المعروف بابن القصيرة 2، 1 ـ 240 أن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين تذكره بما كان عهد فيه من حسن خليقته وسداد طريقته، وقد حُدثت ـ يقول ابن بسام ـ أن سبب ذلك الذكر **كتاب كان ورد** من صاحب مصر لم يكن بد من الجواب عليه والإنصاف منه، وتفقد يومئذ أعلام المشاهير فكان ذو الوزارتين أقرب مذكور فاستدعاه لحينه، وولاّه كتابة دواوينه...

وكلا النّصين يبرزان الصلة الوثيقة بين المرابطين وبين الخلافة في المشرق...

وقد وقفنا على هذه الوثيقة الهامة في صبح الأعشى (ج 10 ص 31) عندما أوردها القلقشندي صدفةً كنموذج لما يكتب في متن العهود، قال : إن فيه ثلاثة مذاهب، الأول، أن يفتتح العهد بلفظ «هذا»، وللكُتَّاب فيه طريقتان : الأولى : أن لا يأتي بتحميدٍ في أثناء العهد ولا يتعرض إلى ذكر أوصاف المعهود إليه والثناء عليه... ثم يقول «وأَمَرَه بكذا» حتى يأتي على آخر الوصايا... ثم يقول في آخره : هذا عهد أمير المؤمنين إليك وحجته لك وعليك...»

وبعد أن ساق أمثلةً لذلك... قال : «وعلى هذا الأُسلوب كتب أمين الدين أبو سعيد، العلاء بن وهب بن موصلايا عن القائم بأمر الله عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بسلطنة «الأندلس»[1] وبلاد المغرب بعد العشرين والأربعمائة، فيما رأيته في ترسُّل ابن موصلايا المذكور.

وهذه نسخة «الرسالة البرنامج» بعد البسملة الشريفة :

هذا ما عهد عبد الله ووليه، عبد الله القائم بأمر الله أمير المؤمنين، إلى فلان حين ٱنتهى إليه ما هو عليه من ٱدّراع جلابيب الرشاد، في الإصدار والإيراد؛ وٱتّباع سنن من أبدى وأعاد، فيما يجمع خير العاجلة والمعاد؛ والتخصيص من حميد الأَنحاء والمذاهب، بما يستمد منه أصناف الآلاء والمواهب، والتحلي من السداد الكامل، بما فاز فيه بامتطاء الغاربِ من الجَمَال والكاهِل؛ واتضح ما هو متشبث به من صحة الدين واليقين، والمواظبة من اكتساب رضا الله تعالى على ما هو أقوى الظهير والمعين؛ في ضمن ما طوى عليه ضلوعه، وأدام لهجه به وولوعه : من موالاة لأَمير المؤمنين يدين الله تعالى بها، ويرجو النجاة من كل مخوف باستحكام سعيها؛ ومشايعة لدولته ساوى فيها بين ما أظهر وأسرّ، وأمل في ٱجتناء ثمرها كل ما أبهج وسر؛ فولاه الصلاة بأعمال المغرب، والمعاون، والأَحداث، والخراج، والضياع، والأَعشار، والجهبذة،[2] والصدقات، والجوالي، وسائر وجوه الجبايات، والعرض، والعطاء، والنفقة في الأَولياء، والمظالم، وأسواق الرقيق، والعيار في دور الضرب، والطرز، والحسبة، ببلاد كذا وكذا : سكونا إلى استقلاله بأعباءِ ما ٱستكفاه إياه، واستقباله النعمة عليه في ذلك بكل ما ينشر ذكره ويطيب رياه؛ وثيقة بكونه للصنيعة أهلا، وبأفياء الطاعة الإمامية مستظلاً؛ وتوفرة على ما يزيده بحضرة أمير المؤمنين حظوة ترد باع الخطوب عنه قصيرا، وتمد مقاصده من التوفيق بما يضحى له في كل حالة نصيرا؛ وعلما بما في اصطناعه من مصلحة تستنير أهلتها، وتستثير من شبه الغي شواهدها وأدلّتها؛ واله تعالى يصل مَرامي أمير المؤمنين

---

1) يلاحظ أن ذكر (الأَندلس) هنا كان تساهلا اللهم إلا إذا كان ذلك من القلقشندي باعتبار ما آلت إليه الأحوال فيما بعد...

2) عبارة عن نقد الذهب والفضة.

بالإصابة، ويعينه على ما يقر كل امرئ في حقه ويحله نصابه؛ ويحسن له الخطرة في كل ما يغدو له ممضيا، ولمطايا الاجتهاد في فعله منضيا؛ وما توفيق أمير المؤمنين إلا بالله، عليه يتوكل وإليه ينيب.

وأمره باعتماد تقوى الله تعالى في الإعلان والإسرار، واعتقاد الواجب من الإذعان بفضلها والإقرار؛ وأن يأوي منها إلى أمنع المعاقل وأحصنها، ويلوي عنان الهدى فيها إلى أجمل المقاصد وأحسنها؛ ويجعلها عمدته يوم تعدم الأنصار، وتشخص الأبصار : ليجتني من ثمرها ما يقيه مصارع الخجل، ويجتلي من مطالعها ما يؤمنه من طوارق الوجل؛ ويرد بها من رضا الله تعالى أصفى المشارب، ويجد فيها من ضوال المنى أنفس المواهب : فإنها أبقى الزاد، وأدعى في كل أمر إلى ورْي الزناد؛ وقد خص الله بها المؤمنين من عباده، وحض منها على ماهو أفضل عدة المرء وعتاده؛ فقال تعالى : ﴿يَـأَيُّهـا الَّـذين آمَنُوا اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُون﴾.

وأمره أن يأتمَّ بكتاب الله تعالى مستضيئاً بمصباحه، مستضيماً لسلطان الغيّ بالوقوف عند محظوره ومباحه؛ ويقصد الاستبصار بمواعظه وحكمه، والاستدرار لصوب التوفيق في الرجوع إلى متقنه ومحكمه؛ ويجعله أميراً على هواه مطاعاً، وسميرا لايرى أن يكشف عنه قناعا؛ ودليلا إلى النجاة من كل ما يخاف أثامه، وسبيلا إلى الفوز في اليوم الذي يسفر عن فصل الحساب لثامه؛ ويتحقق موقع الحظ في إدامة درسه، وصلة يومه في التأمل بأسمه؛ فإنه يبدي طريق الرشد لكل مبدئ في العمل به معيد : ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لاَ يَـأْتِيهِ البَـاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَميد﴾.

وأمره أن يحافظ على الصلوات قائماً بشروطها وحدودها، وشائما بروق التوفيق في أداء فروضها وحقوقها؛ ومسارعا إليها في أوقاتها بنيةٍ عائفةٍ مناهل الكدر والرنق، عارفة بما في إخلاصها من نصرة الهدى وطاعة الحق؛ وموفّرا عليها من ذهنه، ما الحظُّ كامن في طيه وضمنه؛ وموفيا لها من الركوع والسجود، ما الرشاد فيه صادق الدلائل والشهود؛ متجنبا أن يلهيه عنها من هواجس الأفكار، ووساوس القلب العُونِ منها والأبكار؛ ما يقف فيه موقف المقصر الغالط، وينزل فيه منزلة الجاحد للنعم الغامط؛ وقد أمر الله تعالى بها وفرضها على

المؤمنين وأوجبها وحث من إقامتها، على ما يفضي إلى صلاح المقاصد واستقامتها، فقال عز من قائل : ﴿فأَقِيمُوا الصَّلاَةَ إنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى المُؤْمِنينَ كِتَاباً مَوْقُوتاً﴾.

وأمره بالسعي في أيام الجمع إلى المساجد الجامعه، وفي الأَعياد إلى المصليات الضاحية؛ بعد أن يتقدم في عمارتها، وإعداد الكسوة لها؛ بما يؤدّي إلى كمال حلاها، ويحظى من حسن الذكر بأعذب الموارد وأحلاها؛ ويوعز بالاستكثار من المكبّرين فيها والقُوَّام، وترتيب المصابيح العائدة على شمل جمالها بالاتساق والانتظام : فإنها بيوت الله تعالى التي تتلى بها آياته، وتعلى فيها أعلام الشرع وراياته. وأن يقيم الدعوة على منابرها لأَمير المؤمنين، ولولي عهده العدة للدين؛ أبى القاسم عبد الله ٱبن محمد ابن أمير المؤمنين، أدام الله تعالى به الإمتاع، وأحسن عن ساحته الدفاع؛ ثم لنفسه جاريا في ذلك على ما أُلف من مثله، وسالكاً منه أقوم مسالك الاهتداء وسبله؛ وقد بين الله تعالى ما في عمارتها من دلائل الإيمان، والفوز بما يعطي من سخط الله تعالى أوثق الأمان، في قوله سبحانه : ﴿إنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ باللهِ واليَوْمِ الآخِرِ وأَقَامَ الصَّلاَةَ وآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إلاَّ الله فعسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ المُهْتَدِينَ﴾. وقال في الحثّ على السعي إلى الجوامع التي يُذْكَر فيها اسمه، ويظهر عليها منار الإسلام ورسمه : ﴿يأَيُّهَا الذِينَ آمَنُوا إذَا نُودِيَ لِلصَّلاَةِ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللهِ﴾.

وأمره أن يعتمد في إخراج الزكاة ما أمر الله تعالى به، وهدى منه إلى أرشد فعلٍ وأصوبه؛ ويقوم بذلك القيام الذي يحيطه بجميل الذكر، وجزيل الأجر، ويشهد بزكاء المغرس وطيب النجر؛ ويقصد في أداء الواجب منه ما يصل أمسه في التوفيق بيومه، ويطلق الألسنة بحمده ويكفها عن لومه؛ متجنّبا من إخلال بما نص عليه في هذا الباب، أو إهمال فيه لما يليق بذوي الديانة وأولي الألباب؛ ومتوخياً في المسارعة إليه ما يتطهر به من الأدناس، ويتوفر به حسن الأُحدوثة عنه بين الناس؛ فقد جعل الله تعالى الزكاة من الفروض التي لا سبيل إلى المحيد عنها، ولا دليل في الفوز أوفى منها؛ وأمر رسوله ﷺ بأخذها من أمته، وأبان عن كونها مما يجتنى كلٌّ مرغوب فيه من ثمرته؛ ووصل الأمر له في ذلك بما يوجب فضل المسابقة إلى قبوله : لما فيه من الحظ الكامل في

استنارة غرره وحجوله، في قوله سبحانه : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

وأمره أن يهذب من الدنس خلاله، ويصل بأقواله في الخير أفعاله؛ ويمتنع من تلبية داعي الهوى المضل، ويتّبع سنن المتفيء بالهدى المستظل؛ ويقبض يده عن كل محرم توثق أشراكه وتوبق غوائله، وتؤذن بسوء المنقلب شواهده ودلائله؛ ويجعل له من نهاره رقيباً على نفسه يصونها عن مراتع الغي ومطارحه، وأمينا يصد عن مسارب الإثم ومسارحه؛ فإنها لاتزال أمارة بالسوء إن لم تقد إلى جدد الرشد، وتقم لها سوق من الوعظ يبلغ فيها أقصى الغاية والأمد؛ فالسعيد من أضحى لها عند سورة الغضب وازعا، وأنحى عليها بلوم يغدو معه عن كل ما يسخط الله تعالى نازعاً، وأن يتنتزه عن النهى عما هو له مرتكب، والأمر بما هو له مجتنب : إذ كان ذلك بالهُجنة حاليا، وبين المرء وبين مقاصد هديه حائلاً، قال الله تعالى : ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾..

وأمر أن يضفي على من قبله من أولياء أمير المؤمنين وجنوده، أصناف جلابيب الإحسان وبروده، ويخصهم من جزيل حبائه بما يصلون منه إلى أبعد المدى، ويملكون به نواصي الآمال ويدركون قواصي المنى؛ ويميز من أدى واجبه في الطاعة وفرضه وأبدى صفحته في الغناء بين يديه بمزيد من الاشتمال يرهق بصيرة كل منهم في التوفر على ما وافقه، ووصل بآنفه في التقرب إليه سابقه، ويدعو المقصّر إلى الاستبصار في اعتماد ما يلحق فيه رتبة من فازت في الحظوة قداحه، وفاتت الوصف غرره في الزلفة وأوضاحه : ليمرح به في الاغتذاء بلبان النعمة، كما انتهج جدده في إحسان الخدمة. وأن يرجع إلى آراء ذوي الحنكة منهم مستضيئا بها مسترشداً، وطالبا ضوال الرأي الثاقب ومنشداً، وقد بين الله فضل المشورة التي جعلها لقاحا، وفي حنادس الشكوك مصباحا؛ حيث أمر رسوله ﷺ بها، وبعثه منها على أسدّ الأفعال وأصوبها، فقال تعالى : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

وأمره أن يعدل في الرعايا قله، ويحلهم من الأمن هضابه وقلله، ويمنحهم من الاشتمال، ما يحمي به أمورهم من الاختلال، ويحوي به من طيب الذكر

بحسب ما اكتسب من رضى الأنحاء والخلال؛ ويضفي على المسلم منهم والمعاهد من ظل رعايته ما يساوي فيه بين القوي والضعيف، ويلحق التليد منهم بالطريف : ليكون الكل وادعين في كنف الصون، راجعين إلى الله تعالى في إمدادهم بالتوفيق وحسن الطاعة والعون. وأن ينظر في مظالمهم نظراً ينصر الحق فيه، وينشر علم العدل في مطاويه؛ وينصف معه بعضهم من بعض، وينصب[3] به لهم من اهتمامه أسنى قسم وحظ؛ مليناً لهم في ذلك جانبه، ومبينا ما يظل به كاسب الأجر وجالبه؛ ويزيل عنهم ما شرعه ظلمة الغلمان بتلك الأعمال. ويديل من تلك الحال باشتئناف ما يوطئهم كواهل الآمال، جامعا لهم بين العدل والإحسان، وجاعلا أمر الله تعالى في ذلك متلقى بالطاعة الواضحة الدليل والبرهان؛ قال الله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون﴾.

وأمره بأن يكون بالمعروف آمراً، وعن المنكر زاجراً، ولله تعالى في إحياء الحق وإماتة الباطل متاجرا. وأن يشدّ من السّاعين في ذلك والدّاعين إليه، ويعد القيام بهذه الحال من أفضل ما يتقرب به إلى الله تعالى يوم العرض عليه. ويتقدّم بتعطيل ما في أعماله من المواخير ودحضها، وإزالة آثارها ومحوها؛ فإنها مواطن بالمخازي آهله، ومن مشارب المعاصي ناهله؛ وقد أسست على غير التقوى مبانيها؛ وأخليت من كل ما يرضى الله تعالى مغانيها؛ وقد أبان الله تعالى عن فضل الطّائفة التي ظلت بالمعروف آمرة وعن المنكر ناهية، وضنت بما ترى فيه عن مقاصد الخير ذاهلة لاهية، فقال : ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ﴾.

وأمره أن يرتب لحماية الطرقات من يجمع إلى الصرامة والشهامة، سلوك محاج الرشاد والاستقامة؛ ويجعل التعفف عن ذميم المراتع شاهدا بتوفيق الله إياه، وعائداً عليه بما تحمد مغبته وعقباه؛ ويأمر بحفظ السابلة، واختصاصهم بالحراسة السابغة الشاملة، وحماية القوافل واردة وصادرة، واعتمادها بما تغدو به إلى السلامة مفضية صائره : لتحرس الدماء مما يبيحها ويريقها، والأموال

---

3) يقال أنصبه جعل له نصيبا. انظر اللسان والقاموس.

مما يقصد فيه سبيل الإضاعة وطريقها، وأن يخوّفهم نتائج التقصير، ويعرفهم مناهج التبصير، وأن عليهم رقباء يلاحظون أمورهم ويوضّحونها : ليكون ذلك داعياً إلى التّحوط والتّحرّز، واعتماد الميل إلى جانب الصّحّة والتّحيز. ويوجب لهم من بعد ما يكفي أمثالهم مثله، ويكفّ أيديهم عن الامتداد إلى ما تذم سبله، فإن أخلّ أحدهم بما حدّ له، أو مزجَ بالسّوء عمله، جزاه بحسب ذلك وموجبه. قال الله تعالى : ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ﴾.

وأمره أن يتقدّم إلى نوابه في الأعمال بوضع الرصد على من يجتاز بها من العبيد الاباق والاستظهار عليهم بحسب العدل والاستحقاق، واستعلام أماكنهم التي فصلوا عنها، ومواطنهم التي بعدوا منها؛ فإذا وضحت أخوالهم وبانت، وانحسمت الشكوك في بابهم وزالت، أعادوهم إلى مواليهم أبوا أم شاءوا. وأن يقصدوا إنشاد الضوال، ويجتهدوا من إظهار أمرها بما يغدو جمال الذكر به في الظلال؛ ويتجنبوا أن يمتطوا ظهورها بحال، أو يمدوا أيديهم إلى منافعها في إسرار وإعلان؛ حتى إذا حضر أربابها سُلِّمت إليهم بالنعوت والأوصاف، وأجري الأمر في ذلك على ما يضحى به علم العدل عالي المنار حالي الأعطاف؛ فقد أمر الله تعالى بأداء الأمانات إلى أهلها، وهدى من ذلك إلى أوضح محاج الصّحّة وسبُلِها، فقال : ﴿إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾.

وأمره أن يختار للنظر في المعاون والأجلاب من يرجع إلى دين يحميه من مهاوي الزّلل وصلف[4] عن مد اليد إلى أسباب المطامع، وكلف بما يعود على ما كلف إياه بصلاح مشرق المطالع؛ ومعرفة بما وكل إليه كافية وافية، ولما يوجب الاستزادة[5] له ماحية نافية؛ ويوعز إليهم بالتشمير في طلب الدعار، من جميع الأماكن والأقطار، وحسم مواد العار في بابهم والمضار. وأن يمضوا فيهم حكم الله بحسب مقاصدهم في الضلال، وتجرى أمورهم على قانون الشرع المنير في خنادس الظلام، ممتنعين أن يراقبوا من لم يراقب الله تعالى في فعله، ويجانبوا الصواب بقبول الشفاعة فيمن شهدت آثاره بذميم سبله؛ وإذا وقع

4) لعله بالظاء المشالة بمعنى الكف. تأمل.

5) لعله الاستزراء أي الزراية عليه والتهاون به.

الظفر بجان قد كشف في الغيّ قناعه، وأظهرت مساعيه إباءة من إجابة داعي الرّشد وامتناعه؛ أقيم حدّ الله تعالى فيه من غير تعدٍّ للواجب، ولا تعرّ من ملابس السالكين للجدد اللاحب، ﴿وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُون﴾.

وأمره أن يوعز إلى أصحاب المعاون بأن يشدوا من القضاة والحكام، ويجدوا في إجراء أمورهم على أوفي شروط الضبط والإقدام، ويأمرهم بحضور مجالسهم لتنفيذ أحكامهم وإمضائها، والمسارعة إلى حث مطايا التشمير في ذلك وإنضائها؛ والتّصرف على أمثلتهم في إحضار الخصوم إذا امتنعوا، وسوقهم إلى الواجب إذا زاغوا عنه وانحرفوا. وأن يتقدم بإمداد عمال الخراج بما يؤدي إلى قوة أيديهم في استيفاء مال الفيء واجتبائه، واعتماد ما ينصر الحقوق في مطاويه وأثنائه، إذ كان في ذلك من الصلاح الجامع وكف المضار وحسم المطامع، ما المعونة عليه واجبة، وللتوفيق مقارنة مصاحبة، قال الله تعالى : ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَاب﴾.

وأمره بعرض من تضمه الحبوس من أهل الجرائم والجرائر، وتأمل أحوالهم في الموارد والمصادر، والرجوع إلى متولي الشرطة في ذكر صورة كل منهم والسبب في حبْسه والتعيين من ذلك على ما يعرف به صحة الأمر من لبسه، فمن ألفي منهم للذنوب آلفا، وعن سنن الصواب منحرفا، ترك بحاله، وكف بإطالة اعتقاله، عن مجاله في ميادين ضلاله، وإن وجد منهم من وجب عليه الحد، أقيم فيه بحسب ما يقتضي الحق، ومن اعترضت في بابه شبهة تجوز إسقاط الحد عنه ودرأه، اعتمد إلحاقه في ذلك بمن اتصل اليه صوب الإحسان ودرُّه، ومن لم يكن له جرم وتظهر صحة شاهده ودليله، قدّم الأمر في إطلاقه وتخلية سبيله، وإن غدا لأحدهم سعي في الفساد واضح وبان، وغوى به في محاربة الحق وخان، قوبل بما أمر الله تعالى به في كتابه حيث يقول : ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الذِينَ يُحَارِبُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَاداً أن يُقَتَّلُوا أو يُصَلَّبُوا أو تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلاَفٍ أو يُنْفَوْا مِنَ الأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيم﴾.

وأمره باختيار المرتّب للعرض والعطاء، والنفقة في الأولياء، من ذوي المعرفة والبصيرة، والمشهورين في العفّة بتساوي العلانية والسّريره، وممن

تحلّى بالأمانة جيدُه، واعتضد بطريفه في الرشاد تليده، وكان بما يسند إليه قيما، وفي مقر الكفاية ثاوياً مخيما. وأن يتقدم إليه بضبط حلى الرجال وشيات الخيول، وأن يقصد في كل وقت من تجديد العرض ما يشهد بالاحتياط السّابغ الأهداب والذيول، فإذا وضح وجه الإطلاق، وسلم مال الاستحقاق، كانت التفرقة على قدر المنازل في التقديم والتأخير، وبحسب الجرائد التي تدل على الصغير من ذلك والكبير، ومتى طرق أحدهم ما هو محتوم على خلقه، أعاد على بيت المال من رزقه بقدر قسطه وحقه، وأن يلزمهم إحضار جياد الخيول وخيار الشكك، ويأخذهم من ذلك بأوضح ما نهج المرء الطريق فيه وسلك، فإن أخل أحدهم بما يلزمه البروز فيه يوم العرض، أو قصر في القيام بالواجب عليه الفرض، حاسبه بذلك من الثابت باسمه، والمطلق برسمه، تنبيها له على تلافي الفارط، وتبصيرا في البعد عن مقام المخطئ الغالط، إذ كان في قوتهم وكمال عدتهم إرهاب للأعداء والأضداد، وإرهاف للبصائر فيما يؤدي إلى المصالح الوافية الأعداد والأمداد، قال الله تعالى : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

وأمره باختيار عمال الخراج، والضياع، والأعشار، والجهبذة، والصدقات، والجوالي، وأن يكونوا محتضنين من الأمانة والكفاية بما يقع الاشتراك في علمه، ومتقمصين من ملابس العفة والدراية ما تحمد العواقب في ضمنه، ومتميزين بما يغنيهم عن الأفكار بنتائج الاتعاظ والاعتبار، ويغريهم بالاستمرار على السنن المنجي لهم من مواقف التنصل والاعتذار. وأن يأمر عمال الخراج بجباية الأموال، على أجمل الوجوه والأحوال، سالكين في ذلك جددا وسطا، يحمي من مقام من ضعف في الاستخراج أوسطا، و(أن يتقدم) إلى الناظرين في الضياع بتوفية العمارة حقها والزراعة حدها، والتوفير من حفظ الغلات الحاصلة على ما يقتفى فيه أرشد المذاهب وأسدها، متحرزين من أمر ينسبون فيه إلى العجز والخيانة، فكل من الحالين مجز في وضوح أدلة الفساد ومخز. وإلى الجهابذة بقصد الصحة في القبض والتقبيض، وحفظ النقد من التدليس والتلبيس، أداء للأمانة في ذلك، واهتداء فيه إلى أقوم المسلك. وإلى سعاة الصدقات بأخذ الفرائض من مواشي المسلمين السائمة دون العاملة، والجزي

في ذلك على السنة الكاسبة للمحمدة الوافية الكاملة، متجنبين من أخذ فحل الإبل وأكولة الراعي، وعقائل الأموال المحظورة على سائر الأسباب والدواعي، فإذا استوفيت على المحدود من حقها، أخرجت في المنصوص عليه من وجوهها وسبلها. وإلى جباة جماجم أهل الذمة بأخذ الجزية منهم في كل سنة، على قدر ذات أيديهم في الضيق والسعة، وبحسب العادة المألوفة المتبعة، ممتنعين من مطالبة النسوان، ومن لم يبلغ الحلم من الرجال ومن علت سنه على الاكتساب وتبتل من الرهبان، ومن غدا فقره واضح الدليل والبرهان، وفاء بالعهد المسؤول، وتلقياً لأمر الله تعالى بالقبول حيث يقول : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً﴾.

وأمره أن يرد أمر المظالم وأسواق الرقيق ودور الضرب والطرز والحسبة إلى من عضد بالظلف الورع، وانتظم له شمل الهدى واجتمع : فكان ذا معرفة بما يحرم ويحل، وبصيرة يتفيأ[6] بها من عوارض الشبه ويستظل، وأن يكون النظر في ذلك مضاهياً للحكم ملائما، ولن يقوم به إلا من لا يرى عاذلا له في فعله لائما. وأن يتقدم إلى من يلي المظالم بتسهيل الإذن للخصوم في الدخول عليه، وتمكين كل منهم من استيفاء الحجة بين يديه، والتوصل إلى فصل ما بينهم بحسب ما يقود الحق إليه، وأن يقصد فيما وقع الخلف معهم فيه، الكشف الذي يقوم به ويستوفيه، فإن وضح له الحق أنفذه وقطع به، وإلا ردَّهم إلى مجالس القضاء لإمضاء ذلك على مقتضى الشرع وموجبه. وإلى المرتبين في أسواق الرقيق بالتحفظ فيما يبتاع ويباع، وأن يستعمل في ذلك الاقتفاء للسنن الجميل والاتباع : ليؤمن اختلاط الحر بالعبد، وتحرس الأنساب من القدح والفروج من الغصب، في ضمن حفظ الأموال، والمنع من مزج الحرام بالحلال. وإلى ولاة العيار بتصفية عين الدرهم والدينار من الغش والإذغال، وصون السكك من تداول الأيدي الغريبة لها بحال من الأحوال، متحذرين من الاغترار بما ربما وضح الفساد فيه عند الاعتبار، وما نعين التجار المخصوصين بالإيراد، من كل قول مخالف للإيثار في الصحة والمراد؛ ومعتمدين إجراء الأمر فيما

6) في اللسان «فاء الفيء فيأ تحوّل وتفيأ فيه تظلل».

يطبع على القانون بمدينة السلام، من غير خلاف لمستقر القاعدة في ذلك ومتسق النظام، وأن يثبت ذكر أمير المؤمنين، وولى عهده في المسلمين، على ما يضرب من الصنفين معا، والمسارعة في ذلك إلى الأفضل ما بادر إليه المرء وسعى. وإلى المستخدمين في الطرز بملاحظة أحوال المناسج والإشراف عليها، وأخذ الصناع بالتجويد على العادة التي يجب الانتهاء إليها، وإثبات اسم أمير المؤمنين على ما ينسج من الكسا والفروش والأعلام والبنود، جريا في ذلك على السنن المرضي والمنهاج المحمود. وإلى من يراعي الحسبة الشريفة بالكشف عن أحوال العوام في الأسواق، والانتهاء في ذلك إلى ما ينتهي به شمل الصلاح إلى الانتظام والاتساق، وأن يتقدم (إليهم) بما يجب من تعيير ما يختص بهم من المكاييل والموازين، وحملها على قانون الصحة الواضحة الدلائل والبراهين، وأن يقصد تبصيرهم مواضع الحظ في الاستقامة، ويحذرهم مواقع الانتقام الذي لا تفيد فيه أسباب الاستصفاح والاستقالة، فإن عرف من أحد منهم إقداما على إدغال فيما يزن أو يكيل، قوبل من التأديب بما هو الطريق إلى ارتداعه والسبيل، قال الله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾.

وأمره أن يعرف قدر النعمة التي ضفت عليه برودها، وحلت جيده عقودها، وزفت منه إلى أوفى أكفائها، وحفّت بجزيل القسم من جميع أكنافها وأرجائها، وأن يقابلها بإخلاص في الطّاعة يُسَاوي فيه بين ما يبدي ويسر، وسعي في الخدمة يوفي على كلّ مُجازٍ ومبرّ ويبدأ أمامَ ما يتوخاه بأخذ البيعة لأمير المؤمنين وولي عهده على نفسه وولده، وكافة الأجناد والرعايا في بلده، عن نية صفت من الكدر والقذى ووفت للتوفيق بما ضمنت من خذلان البغي ونصرة الهدى، ويتبع ذلك بالحقوق في كل خدمة ترضى، والوقوف عند الأوامر الإمامية في كل ما يؤدي إلى الوفاق ويفضي، وأن يحمل إلى حضرة أمير المؤمنين من الفيء والغنائم ما أوجبه الله تعالى وفرضه، من غير تأخير لما يجب تقديمه من ذلك ولا تقصير منه فيما يقتضي التلافي والاستدراك : ليأمر أمير المؤمنين بصرفه في سبيله المشار إليها، ووجوهه المنصوص عليها، قال تعالى : ﴿واعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

ثم إن أمير المؤمنين آثر أن يضاعف له من الإحسان، ما يقتضيه مقامه لديه من وجيه الرتبة والمكان، وشرفه بما يرفل من حلاه في حلل الجمال، وتكفل له علاه ببلوغ منتهى الآمال؛ وبواه بما أولاه محلا تقصر عن الوصول إليه الأقدام، وتعجز عن حل عراه الأيام؛ ولقبه بكذا، واذن له في تكنيته عن حضرته، وتأهيله من ذلك لما يتجاوز قدر أمنيته؛ إنافة به على من هو في مساجلته من الأقران طالع، وإضافة للنعمة في ذاك إلى ماٱقترن بها فيما هو لشمل الفخر عنده جامع؛ وأنفذ لواء يلوي به إلى الطاعة أبيَّ الأعناق، ويحوي به من العز ما أنواره وافية الإشراق.

فتلق يا فلان هذه الصنيعة الغراء، والمنحة التي أكسبت زنادك الإيراء؛ بالاستبشار التام، والاعتراف فيها بسابغ الطول والإنعام؛ وأشع ذكر ذلك عند كل أحد، وٱنته في الإبانة عنه إلى أبعد أمد؛ وٱعتمد مكاتبة حضرة أمير المؤمنين متسميا، ومن عداه متلقبا متكنيا؛ وتوفر على شكر تستدر به صوب المزيد، وتستحق به إلحاق الطريف من الإحسان بالتليد، والله تعالى يقول : ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾.

هذا عهد أمير المؤمنين إليك، والحجة لك وعليك؛ قد أوضح لك (فيه) الصواب، وأذل به الجوامح الصعاب؛ وحباك منه بموهبة كفيلة بخيري البدء والمعاد، وفية فيهاالمنى بسابق الضمان والميعاد؛ وضمنه من مواعظه ما هدى به إلى كل ما الجنيٌّ ثمره، وغدا محظيا بما تروق أوضاحه في المجد وغرره؛ ولم يألك فيه تجملا يكسبك الفخر النامي، ويجعل ذكرك زينة المحفل والنادي؛ وتقديما ينيء عما خصصت به من المنح المشرقة اللآلي، وإكراما يبقى صيته على تقضي الأيام والليالي، وتبصيرا يقي من فلتات القول والعمل، ويرتقي المستضيء بأنواره إلى ذرى الأمن من دواعي العثار والزلل، فأصغ إلى ما حواه، إصغاء الفائز بأوفى الحظ، وتدبر فحواه، الناطق بفضل الحث على الهدى والحض، وكن لأوامر أمير المؤمنين فيه محتذيا، ومن تجاوز محدوده في مطاويه محتميا، وبمواعظه الصادقة معتبرا، وفي العمل بما قارن الحق مستبصرا، تفز بالغنم الأكبر، وبالسلامة في المورد والمصدر، وإياك واعتماد ما تذم فيه مكاسبك، فإن لك بين يدي الله تعالى موقفا يناقشك فيه ويحاسبك.

واعلم أن أمير المؤمنين قد قلّدك جسيما، وخوّلك جزيلا عظيما، فلا تنس نصيبك من الله تعالى غدا، ولا تجعل لسلطان الهوى المضل عليك يدا، وإن خفي عليك الصواب في بعض ما أنت بصدده، أو اعترض فيه من الشبه ما يحول بينك وبين طريق الرشاد وجدده؛ فطالع حضرة أمير المؤمنين به، واستنجد الله في ذلك بأسد رأي وأصوبه؛ يبدلك من الشك يقينا، ويبد لك ما يغدو لكل حير ضمينا؛ إن شاء الله تعالى.

☆ ☆ ☆

ولقد كان يوسف بن تاشفين في بداية أمره يلقّب بالأمير فلما فتح المغرب وترامت حدود مملكته عمودياً وأفقياً أراد بعض أشياخ المرابطين أن يحملوه على اتخاذ سمة الخلافة فاقترحوا عليه أن يلقّب بأمير المؤمنين، فأجابهم : «حاشا الله ! إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لأنهم من تلك السلالة الكريمة، ولأنهم ملوك الحرمين : مكة والمدينة، وأنا رجل الخليفة العباسي والقائم بدعوته في بلاد المغرب». فلما ألحوا عليه في الامتياز باسم مّا من الأسماء، قال لهم : «يكون أمير المسلمين»، وهكذا صدر مرسوم منتصف محرم 466 (8 غشت 1077 بهذا الصدد إلى الولاة والأعيان هذا نصه :

«من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة من أهل فلانة الحمد والشكر وميسر اليسر وواهب النصر، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر، وأنا كتبنا إليكم من حضرتنا العلية بمراكش حرسها الله في منتصف محرم سنة 466، وانه لما من الله علينا بالفتح الجسيم، وأصبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة برود النعيم، وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، رأينا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل، وهو «أمير المسلمين وناصر الدين، فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى والله وليّ العدل بمنه وكرمه والسلام».

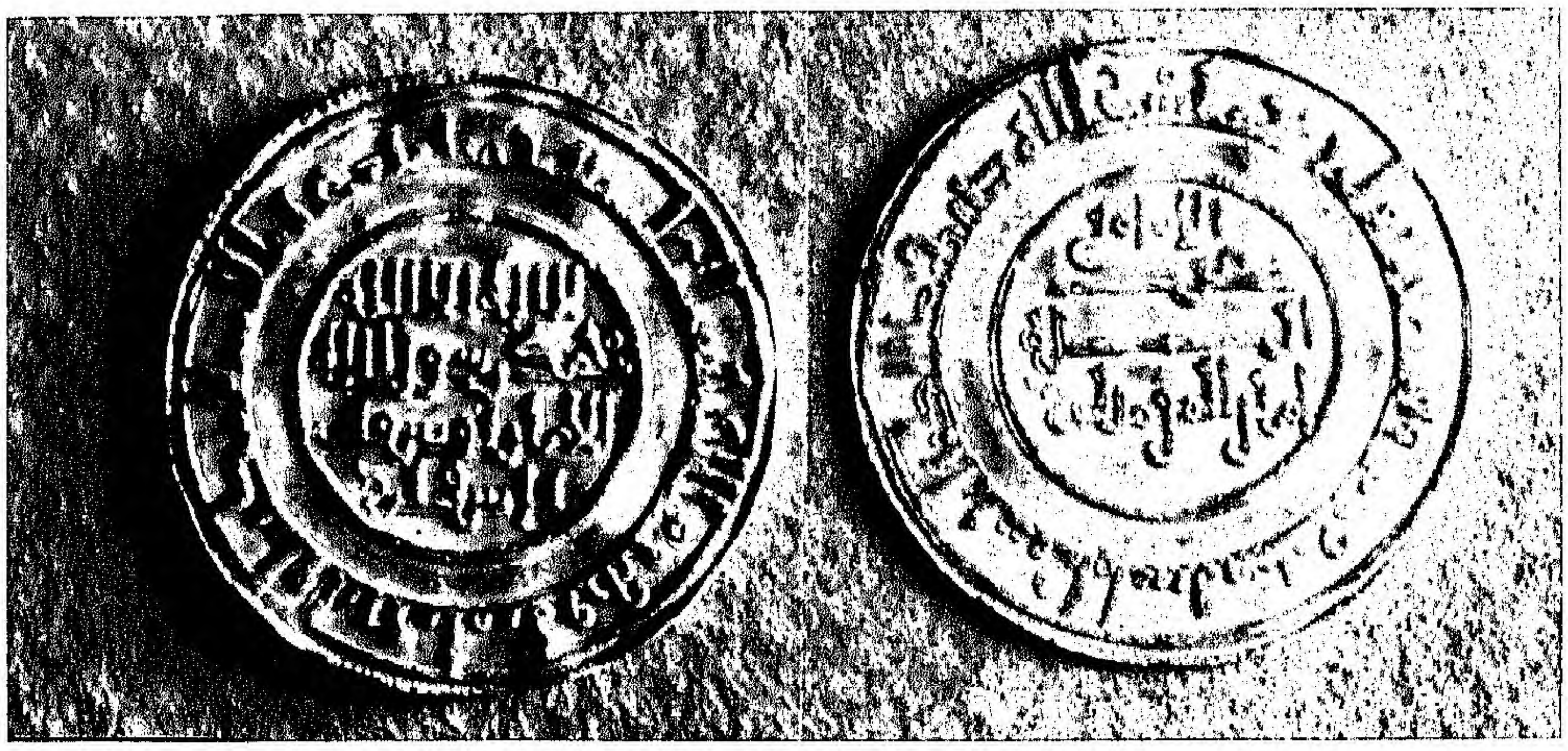
وإلى هذا فقد دأب المرابطون على ذكر اسم العباسيين على منابر المغرب - التي بلغت أكثر من 2000 منبر - أيام الجمع والأعياد إلى جانب أسمائهم هم ولو أن هذا كلفهم غالياً من لدن الخصوم السياسيين.

كما أنهم أعطوا التعليمات لطائفة[7] من المعامل النقدية في المغرب والأندلس بنقش اسم «أمير المؤمنين العباسي» على إحدى صفحتي الدينار المرابطي بينما نقش على الجهة الأخرى «اسم أمير المسلمين»، وهكذا كتب ـ في الغالب ـ على الوجه «لا إله إلا الله محمد رسول الله، وتحت ذلك أمير المسلمين... وكتب على الإطار ﴿ومن يتبع غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ـ السورة 3 / 85 ـ وكتب على الظهر «عبد الله أمير المؤمنين العباسي»، وعلى الدائرة سجل مَوضع ضرب السّكة وتاريخ ذلك.

الدنانير المرابطية في عدن

«قال كاتب هذه الأحرف : دخلتُ عدن سنة 540 وكان العميد بها بلال بن جرير والمشرف عليه خالي أحمد بن غياث من قبل سلطانها محمد ابن سبأ وكان ضمان عُشُر المراكب فحسب مائة ألف وأربعة عشر ألف دينار مرابطية، وهذا أكثر مما ذكره مصنف الكتاب بأضعاف...

في ذيلٍ لكتاب المسالك والممالك لأبي القاسم ابن حوقل



7) نقول : طائفة لأن لقب أمير المؤمنين أيضا وجد في عدد من وحدات العملة المرابطية وقد حلى به العاهل المغربي، ويتأكد أن التفرقة بين اللقبين إنما برزت بصفة شاملة منذ عهد علي بن يوسف، علَى أن إيثار الخليفة بلقب أمير المؤمنين كان في عهد الأمير أبي بكر سلف يوسف بن تاشفين، فقد ضرب ديناره الأول بسجلماسة عام 451 ونقش على ظهره «الإمام عبد الله أمير المؤمنين» كما نقش في وجهه اسم الأمير أبي بكر. ولابد من الرجوع إلى المصادر التي عالجت دراسة العملة المغربية بصفة خاصة.

كل ذلك يكشف عن طبيعة الصلة الوثيقة بين مراكش وبغداد، ولهذا فإننا على مثل اليقين من أنه في الوقت الذي اتجهت فيه سفارة مرابطية إلى أمير افريقية الصنهاجي حاملة معها الرسالة السالفة الذكر توجهت أخرى لدار السلام : بغداد لحمل طلائع البشرى بالنصر... وأن التاريخ ولو أنه ظلّ إلى الآن يخذلنا في الوقوف على جلية الأمر، لكنه ظلّ مع ذلك يشير إلى أنه قبل السفارة الشهيرة للإمام ابن العربي التي ابتدأت من ربيع 485 إلى 490 كانت هناك بعوث إلى المشرق...

ونعتقد أن في صدر تلك البعوث المبكّرة ما تمّ أيام الأمير أبي بكر بن عمر سلف يوسف بن تاشفين وواضع أسس الدولة المرابطية، فقد عثر على دينار مما ضرب له في سجلماسة منذ عام 451 وهو يحمل إلى جانب اسمه اسم «الإمام عبد الله أمير المؤمنين وليس من شك في أن أبا بكر ما أقدم على ذلك إلا بعد اتصال سابق بأمير المؤمنين الخليفة العباسي، وإلا بعد أن تلقّى جواباً بالموافقة، وهذا ما يثبت آثار سفارة مغربية إلى بغداد ظلت مجهولة الرجال والتاريخ.[8].

وبعد هذا تأتي السفارة الخاصة التي حملت للخليفة المقتدي بأمر الله أنباء المعركة الظافرة[9]، وعن ابن الأثير أنه بعد عودة ابن تاشفين من الأندلس خاطبه علماؤها بأنه ليست طاعتُه بواجبة عليهم حتى يخطب للخليفة، ويأتيه منه تقليد بحكم البلاد، وان أمير المسلمين نتيجة لذلك ـ أرسل إلى الخليفة المقتدي بأمر الله ببغداد فأتاه بالخلع والأعلام والتقليد، ولقب بأمير المسلمين وناصر الدين، وقد وصل التقليد فيما بين شعبان وآخر عام 481 = 1088 قبل وفاة المقتدى بست سنوات[10]، ولا ندري على سبيل التحقيق عناصر الرسالة التي حملت إلى بغداد ولا التاريخ الذي تحمله بالضبط، ولو أننا نرجح أن يكون

---

8) ابن الأثير : الكامل ج 8 ص 143 حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد 2، 1954 ـ ص 60 ـ 63 ـ 64 ـ 65.

9) عرف التاريخ المغربي القيام بإرسال مكاتيب إلى أمراء البلاد في الخارج كلّما مروا بمعركة أو حققوا نصراً، وسنرى سفارات من هذا النوع في مختلف العصور وخاصة في العهد المريني عندما بعثوا لأمير مصر سنة 737 برسالةٍ تتعلق بفتحهم لتلمسان. صبح الأعشى ج 8، 87 ـ 99.

10) ابن الأثير : الكامل ج 8، 143.

نفس الموضوع ونفس التاريخ الذي كان بالنسبة للرسالة النافذة إلى تميم بن المعز بالمهدية[11]...

على أن هناك بعثة سياسية راحت لبغداد وقبل سفارة ابن العربي... تلك التي كان على رأسها القاضي عتيق بن عمران صاحب يوسف بن تاشفين التي أشار إليها ابن النجار في ذيل تاريخ بغداد، فلقد أدى عتيق مهمته ببغداد على نحو ما يجب أن تؤدّى ولكنه عندما كان في طريق عودته إلى المغرب ألجأته عاصفة من الرياح إلى النزول بالأسكندرية 482 ـ 484 وهنا ألقي عليه القبض من طرف الفاطميين، من رجال أمير الجيوش بدر الجمالي وساقوه إلى التحقيق حيث ضبطت معه مكاتيب من المقتدي بأمر الله 467 ـ 487 إلى أمير المغرب[12].

وكان المغاربة يفضلون عدم القيام بمناسك الحج حتى يتجنبوا المرور بمصر لأن أبا الجيوش كان يوقف كل من وقع بيده منهم بعد أن أعجزه اجتذابهم إلى المذهب الشيعي.

☆ ☆ ☆

أما عن السفارة التي قام بها الإمام عبد الله ابن العربي ونجله الشاب أبو بكر فقد تضافرت نقول المؤرخين على الحديث عنها ونخص بالذكر هنا العلامة ابن خلدون الذي يعتبر في هذا الموضوع حجة، لأنه أعلم من غيره بما كان يجري في الديار المغربية[13] بالإضافة إلى القلقشندي الذي كان على خبرة أكثر مما يجري بالمشرق...

لقد ورد في تاريخ ابن خلدون عند حديثه عن يوسف بن تاشفين ما نصّه :

---

11) راجع الحديث عن صلة المرابطين بإفريقية وقلعة بني حماد.

12) G. Vajda : la venture Tragique d'un Magrebin... ARABICA 1968 T. XV

13) ابن خلدون : كتاب العبر وديوان المبتدإ والخبر : طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت 1983 ـ المجلد السادس القسم الثاني، ص 384 ـ 386.
القلقشندي في صبح الأعشى ج 5 ص 258 ـ الروضة السليمانية للزّياني، مخطوط بالخزانة العامة الرباط ص 15 (ب) ـ الحلل البهية، للمشرفي : مخطوط بالخزانة العامة كذلك، إحسان عباس : الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق مجلة الأبحاث عدد حزيران (يونيه) ـ 1963 ـ ص 217 ـ 236 ـ البيروتية وعدد كانون الأول (دجنبر) 1968 ـ عنان : عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس القسم الأول ـ 1، 1964 ص 39 ـ 40 ـ ص 59 ـ 91.

«وتسمى بأمير المسلمين وخاطب المستنصر العباسي الخليفة لعهده ببغداد وبعث إليه عبد الله بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي وولدَه القاضي أبا بكر فتلطفا في القول وأحسنا في الابلاغ وطلبا من الخليفة أن يعقد له على المغرب والأندلس، فعقد له وتضمن ذلك مكتوبٌ من الخليفة بذلك منقولٌ في أيدي الناس، وانقلبا[14] اليه بتقليد الخليفة وعهده على ما إلى نظره من الأقطار والأقاليم... وخاطبه الإمام الغزالي والقاضي أبو بكر الطرطوشي يحضّانه على العدل والتمسك بالخير ويفتيانه في ملوك الطوائف بحُكم الله».

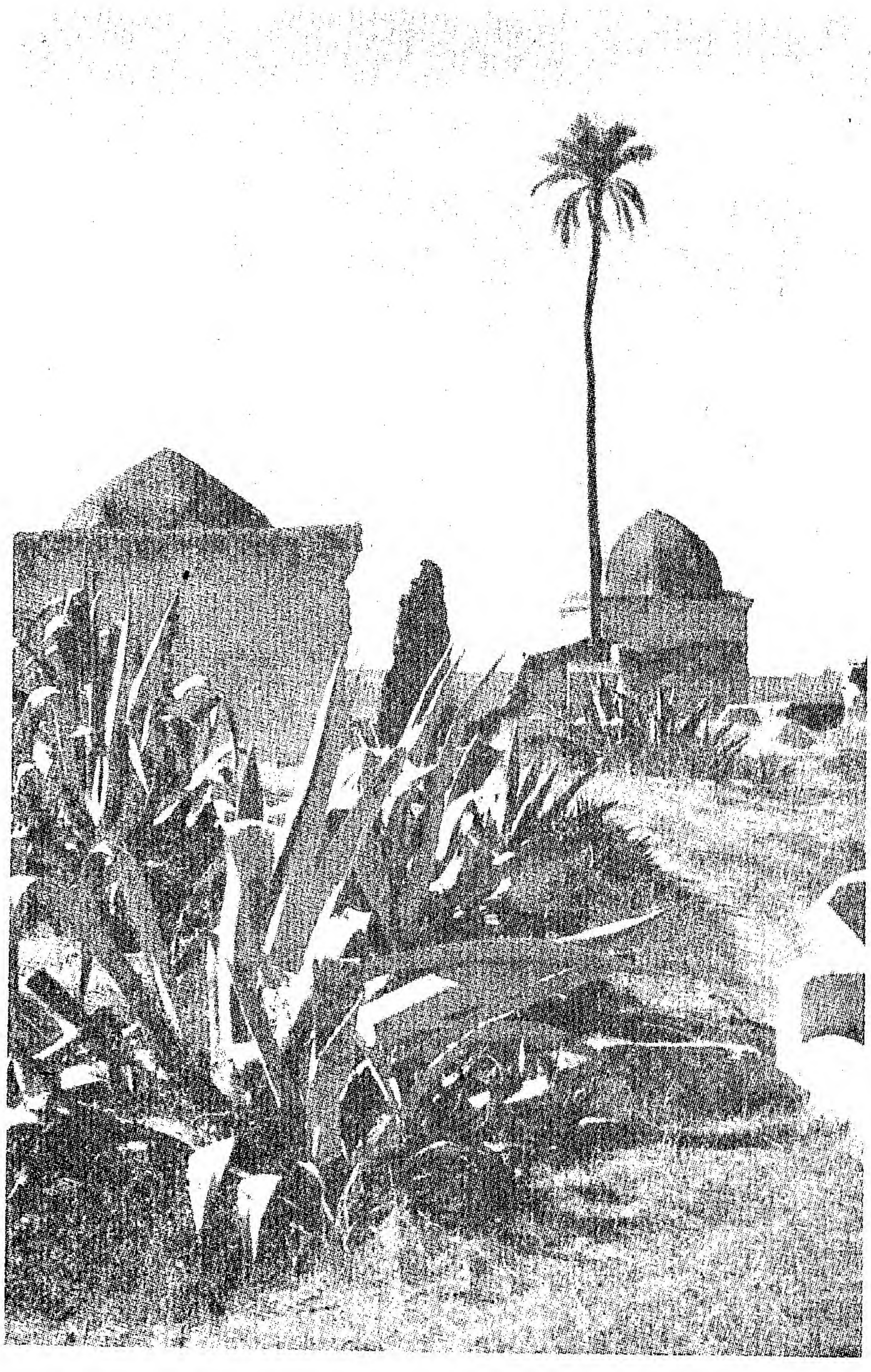
الا أنه على الرغم من هذا النص الصريح الذي يحدد اسم الخليفة العباسي والسفير المغربي، فإن بعض المؤرخين والكتاب الذين ترجموا لحياة القاضي أبي بكر بن العربي قد تكلموا عن رحلته وأشياخه ومؤلفاته وأفكاره وآرائه حول بعض القضايا الشائكة[15] بل وأشعاره في شيء من التفصيل، إلا أنهم لم يبرزوا الجانب السياسي الهام الذي قام به هو وولده من خلال الرحلة،[16] بل أنكر

---

14) انقلبا : ليس علي ظاهره فإن عبد الله أدركته منيته بالإسكندرية سنة 493 فلم يتم انقلابه وإنما رجع ولده.

15) كان مما عنى به بعض الذين ترجموا لابن العربي رأيه في مقتل الإمام الحسين أو بالحرى استشكاله لخروج الحسين : يا أسفا على المصائب مرة ! ويا أسفا على مصيبة الحسين ألف مرة ! وكأنه قال : إن الحسين قتل بسيف جدّه، عندما ذكر : «وما خرج أحد للحسين إلا بتأويل ولا قاتله إلا بما سمعوا من جدّه المحذّر من الدخول في الفتن، وأقواله في ذلك كثيرة منها قوله ﷺ : «إنها ستكون هناة وهناة فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة فاضربوه بالسيف كائناً من كان «فما خرج الناس إلا بهذا وأمثاله ولو أن الحسين وسعه بيته !!
العواصم من القواصم لأبي بكر بن العربي طبعة الجزائر 346 هـ 1927م المطبعة الجزائرية الإسلامية. تاريخ القرويين 1، 156.

16) قصدت السفارة المشرق عن طريق البحر الذي ركبتْه من إفريقية حسبما ذكر في كتابه «قانون التأويل» وتعرض المركب لعواصف أرغمت الوالد وولده على النزول حيث آواهم أمير بيوت بني كعب بن سليم، ولعب الشاب ابن العربي الشطرنج مع الجماعة التي التقى بها هناك فاظهر حذقاً ألفت الأنظار... في حديث طويل تعرضت له المصادر التي ترجمت له... المقري : النفح، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار صادر 1968 المجلد 2، 25 وما بعدها... أزهار الرياض في أخبار عياض ج 3 ص 62، ابن بشكوال : كتاب الصلة ترجمة رقم 1181 الحسن النباهي : المرقبة العليا ص 105 - 107 - ابن أبي زرع : روض القرطاس، تحقيق الهاشمي الفيلالي طبع الرباط 1936 جزء 2 ص 141 - 142 دكتور أحمد مختار العبادي دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، طبعة أولى إسكندرية 1968 ص 101. 7 ص 106. أبو بكر بن العربي : العواصم من القواصم مقدمة الناشر محي الدين الخطيب إضافة إلى طبعة الجزائر 1927.



رسم قديم ضريح ابن العربي على مقربة من باب الشريعة بفاس

بعضهم أن تكون لابن العربي صلة بقادة الحُكم في بغداد وأن سائر اجتماعاته اقتصرت على رجال العلم والتصوف، الأمر الذي تزيفه هذه السطور التي حررها مؤرخ معاصر لابن العربي هو ابن صاحب الصلاة في كتابه تاريخ المن بالإمامة : «... وكما قال الفقيه القاضي أبوبكر بن العربي فخر الأندلس وبحر علم الأنفس في تأليفه في(كتاب الرحلة) له، حين دخل بغداد وتعرّف بسلطانها : «نعمت المعرفة التعرف بالسلطان، والتشرُّف به عند التغرب من الأوطان، ونعم العون على العلم الرياسة بالأمن والاستيطان»(17).

وان الذي انكر الدور السياسي لابن العربي من أساسة، حاول نقض رواية ابن خلدون بقوله :

«وما ذكره ابن خلدون في هذا الصدد منقوض، فإن ابن العربي ووالده ذهبا للمشرق فراراً من يوسف ابن تاشفين لما سقطت دولة المعتمد بن عباد بدليل أن عبد الله بقي بالمشرق متجولاً إلى أن مات هناك إجماعا، وولده أبو بكر بقي بعده ورجع لبلده لا لمراكش، وفي مدة انتقالهما وجولاتهما بالمشرق اعتقلت أملاكهما عليهما إلى أن رجع أبو بكر فتشفع في ردها عليه الحافظ ابو علي الصدفي»(18).

وقد أشار الحجوي في ترجمة أبي بكر محمد بن عبد الله بن العربي الى هذه السفارة بصيغة التمريض فقال : «ويقال إنه ذهب في سفارةٍ من يوسف بن تاشفين اللمتوني بالبيعة لخليفة بغداد...»

ومن الواضح أن الشيء الذي يورده ابن خلدون بصيغة الجزم ويقول فيه : «تضمن ذلك مكتوب من الخليفة منقول بأيدي الناس، لايجوز ذكره بصيغه (يقال) الدالة على ضعف المقول مع أن أثره كان موجوداً في المائة الثامنة بأيدي الناس حتى استغنى المؤرخ المعاصر لتلك الفترة بذلك الوجود عن إيراده نصه...

---

17) ابن صاحب الصلاة، المن بالأمامة، تحقيق عبد الهادي التازي. طبع دار الأندلس بيروت ص 258 ـ 259.

18) الكتاني : التراتيب الإدارية ج 1 ص 12 ـ 13 عبد الهادي التازي : صحيح الإمام البخاري بخط الحافظ الصدفي في دعوة الحق، مارس 1973 ص 22.

وقد انتقد الدكتور احمد مختار العبادي استاذ التاريخ الاسلامي بجامعة الاسكندرية وجامعة بغداد وجامعة محمد الخامس بالرباط والجامعة العربية ببيروت وجامعة الكويت ومدير معهد الدراسات الاسلامية بمدريد، انتقد التشكّك حول ما أورده العلامة ابن خلدون مؤكداًبأن ما ظهر بعد ذلك من وثائق ونصوص حول موضوع السفارة المغربية يتفق مع ما جاء في كلام ابن خلدون ويناقض رأي المنكرين، فمن حسن الحظ أنه توجد لدينا الآن قطعة خطّية من كتاب «ترتيب الرحلة للترغيب في الملة[19]» لهذا العالم المشهور أبي بكر بن العربي المالكي قاضي قضاة اشبيلية على عهد المرابطين (468 ـ 542 = 1076 ـ 1148)، ففي هذا الكتاب تحدّث ابن العربي (الإبن) عن رحلته التي قام بها إلى المشرق صحبة والده في مستهل ربيع الأول في عام 485 هـ (11 أبريل 1092) وكان عمره إذ ذاك لا يتجاوز سبع عشرة سنة، كما أورد في كلامه خطابات ووثائق رسمية هامة تضمنت الحقائق التالية :

أولاً ـ أن الغرض من هذه الرحلة هو طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب من أول بلاد الإفرنج إلى بلاد غانة، إلى

---

19) الكتاب يحمل عند ابن صاحب الصلاة، وهو معاصر «للقاضي أبي بكر بن العربي، إسم (كتاب الرحلة) على ما سلفت الإشارة إليه، ويعتبر في حكم المفقود، إلا أن الأمل في العثور عليه لم ينقطع بعد، على ما قاله المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في مقدمته لرحلة التجاني. وقد قرأت في رحلة ابن عبد السلام الناصري الكبري المخطوط بالخزانة العامة تحت رقم 1651 ص 160 أن أبا الحسن علي بن أحمد بن عبد الصادق كان وقف على رحلة ابن العربي بتونس. وقد ذكر مؤرخ مراكش العباس بن إبراهيم أنه توجد قطع من ترتيب الرحلة في المكتبة الكتانية بفاس، ومعلوم أن مكتبة الكتاني آلت إلى الخزانة العامة بالرباط، وقد استدرك العباس ابن إبراهيم بأن ابن العربي ذكر في كتابه (رسالة المستنصر) ما علق بذهنه وبقي من رقاع من الرحلة الضائعة، ومما يلاحظ أن (رسالة المستنصر) يوجد نصيب منها ضمن مجموع في الخزانة العامة بالرباط تحت رقم 251 من صفحة 364 إلى 396... هذا إلى جانب من الرسائل التي حملها من بغداد والتي توجد أيضا بالخزانة العامة تحت رقم د. 1020/3... ـ ابن إبراهيم : الإعلام 3، 11 ـ 13 ـ 390 ـ رحلة التيجاني ص 5م ـ رسالة خاصة إلى المؤلف من الأستاذ عبد الكريم بن الشيخ المدني بن الحسني رحمهما الله بتاريخ 19 ذي العقدة 1385 ـ عبد الهادي التازي : ليبيا لدى الرحالة المغاربة، مجلة المجمع العلمي العراق 1970 ص 3 ـ عبد الكريم ابن الحسني من خلال رسائله : ملحق العلم الأسبوعي 12 يناير 1973 ـ د. التازي : ليبيا من خلال رحلة الوزير الإسحاقي، مطبعة فضالة، المحمدية 1976 ص 40. إحسان عباس : الجانب السياسي من رحلة ابن العربي إلى المشرق، مجلة الأبحاث بيروت 1963.

الأمير ناصر الدين يوسف بن تاشفين ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين ويتعين جهاده على كافة المسلمين.

ثانياً ـ أن الخليفة العباسي في ذلك الوقت وهو الخليفة أحمد المستظهر بالله (487 ـ 512 = 1094 ـ 1118 م) قد استجاب لهذا الطلب وسلم ابن العربي ووالده تقليده وعهده للأمير يوسف ابن تاشفين موقعاً عليه بعلامته «القاهر بالله».

ثالثاً ـ نص خطاب الوزير العباسي أبي منصور محمد بن جَهِير إلى أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين في هذا المعنى أيضا.

رابعاً ـ نص الاستفتاء الذي قدمه ابن العربي ووالده إلى الفيلسوف أبي حامد الغزالي الطوسي (450 ـ 505 = 1058 ـ 1111) حول المشاكل التي تتعلق بشرعية حكم الأمير يوسف ابن تاشفين.

خامساً ـ فتوى الإمام الغزالي...

سادساً ـ نص الخطاب الذي بعث به الغزالي إلى يوسف، وقد أشار إلى الموقف العدائي الذي وقفه ملوك الطوائف في الأندلس تجاه العاهل المغربي ورفضهم التعاون معه بحجة أنه ليس إماما من قريش أو نائباً عن إمام، واتهامهم له بالاحتيال لعدم وجود ما يثبت ذلك لديه، وقد نصّ الغزالي في إجابته على أن تأخر منشور التقليد الخلافي عن يوسف بن تاشفين، لاعتراض العوائق المانعة من وصوله،[20] لا يمنع من أن يكون ابن تاشفين نائباً عن الإمام بحكم قرينة الحال، وأن على الإمام أن يتدارك مثل هذه الأحوال بالسرعة الواجبة لوقوع الفتن...

---

20) لابد أن نعيد إلى الذاكرة ما سبق قريبا من وقوع عتيق بن عمران الذي كان أثناء طريقه من بغداد إلى المغرب، في كمين بالأسكندرية عندما اضطرته الرياح للنزول هناك حيث ألقى عليه القبض من طرف رجال أبي الجيوش وضبطت معه مكاتيب من المقتدي بأمر الله ـ 467 ـ 487 موجهة إلى أمير المغرب الذي لم يكن على صلة طيبة وقتها مع أمير مصر...
ابن الكازروني : مختصر التاريخ تحقيق د. مصطفى جواد، وضع فهارسه سالم الألوسي، وزارة الإعلام، 1390 = 1970.

وقد ذكر شيخنا الرئيس السيد المدني بن الحُسْني في مخطوطته «منح المَنِيحة في شرح النصيحة» لدى المبحث الخامس أنه وقف كذلك على رسالة للقاضي أبي بكر بن العربي يذكر فيها ملخص رحلته للشرق وفيها رسالة من والده عبد الله، للخليفة المستظهر العباسي في شأن يوسف بن تاشفين وتأييده على جهاده وتقليده من الخلافة، والجواب عن ذلك من وزير الخلافة ابن جهير بما لفظه : «أنه قد أنهيت إلى المواقف المقدسة العلية، الشريفة النبوية المستظهرية، زاد الله في جلالها وامتداد ظلالها - هذه الجملة فخرج من الشكر للأمير - أطال الله بقاءه وأعلاه وأحمد طرائقه - وحسن سيرته وجميل مقاصده والدعاء بمثابرته على جهاد عدو المسلمين، وتصديق ما جاء عن سيد المرسلين : لايزال أهل المغرب على الحق ظاهرين، وذلك لنصوع عقائدهم في خالص اليقين وافترار مذهبهم عن صحة الدين، على يد الشيخ الفقيه أبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي وابنه الفقيه أبي بكر - أدام الله عزتهما - ما يزدهي به المغافر، وتتأرجح به سطور الدفاتر، وتنتعش منه جدود العواثر الخ... وفي آخره : «وكتب في الثاني عشر من رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة. ثم نقل عن ابن العربي استفتاءه للغزالي فيمن عارضوا ناصر الدين يوسف بن تاشفين وحالفوا العدو وقالوا : لا جهاد إلا مع إمام من قريش وليس به - أو مع نائب إمام - وما هو ذاك - وذكر جواب الغزالي عن ذلك، ومنه بعد ذكر عبد الله بن العربي «وتركته مشمرا» عن ساق الجد في طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الأمير ناصر الدين في حمايته ثغور المسلمين، ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه ليكون رئيسهم ورؤوسهم تحت طاعته، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين، ويتعين جهاده على كافة المسلمين، كما نقل نص كتاب الغزالي إلى أمير المسلمين يوسف، وذكر بعده لقاء ابن العربي ثانيةً للطرطوشي في الأسكندرية. ونقل طرفاً من الكتاب الذي بعثه الطرطوشي إلى يوسف(21)...

---

21) يتأكد لدى أن الشيخ المدني يقصد إلى مخطوطة شبيهة بالتي توجد بالخزانة العامة تحت رقم 3. د/1020 والتي نشرها الدكتور أحمد مختار العبادي ضمن كتابه : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، الطبعة الأولى - إسكندرية 1968 ص : 471 - 478 - 481.

هذه خلاصة بعض الحقائق التي تضمنتها الوثائق السالفة الذكر. وأرجو أن تكون كافيةً لإقناع الزميل الدكتور إحسان عباس الذي استنتج خلافه هذا من قول ابن العربي في (رسالة المستنصر)[22] إن الرحلة «فرضت» عليه بعد نزول المرابطين في الأندلس، وأن تعرفه على الوزير ابن جهير إنما كانت «صدفة» بواسطة أبي الحسن المبارك البغدادي وبدافع من قهر الغربة ! وبالتالي فإن الرسائل التي حملها ابن العربي إلى المغرب إنما كانت «رسائل توصية» بشخص ابن العربي..!

وهل هناك ما يمنع شخصاً كابن العربي أن يكلف بمهمة سياسية أو «يتبرع» بها على الأقل وهو يقوم برحلة خاصة، سيما وقد سمعنا عن اتصال القاضي ابن القاسم به وإحاطته علماً بالأحوال السياسية في المغرب، وقد حصل معي ذات يوم أن كنت في رحلةٍ علمية أثناء إجازة، وطيرت لي برقية تعهد إلي بمهمة سياسية في الدولة التي كنت أقيم فيها.. وهل هناك ما يمنع أن يبحث السفير له عن شخصية تقدمه إلى رجال الحكم بمركزه وجاهه ؟ وكيف يصح أن تنعت الرسائل التي حملها ابن العربي برسائل توصية، دون أن تلتفت إلى ما تحمله من مضمون سياسي صريح وخطير على ما يؤخذ من المخطوطة التي توجد في قسم المخطوطات بالخزانة العامة[23].

وكلنا يمكن أن يتصور الأسباب التي كانت تكمن وراء ترك ابن العربي للحديث عن سفارة والده إذا ما عرفنا أن الرجل عند وصوله إلى المغرب وجد دولة أخرى تنعت سابقتها بشر النعوت وألعن الصفات، فكيف يجرؤ على ترديد أسماء أقوام غير مرغوب فيهم... لقد أمسيت أشك في قول ابن العربي : إن الرحلة ضاعت وأنه لا يتوفر إلا على رقاع منها ! وإلا فكيف نفسر حديث الرحالة عن وقوفهم عليها في تونس مثلاً ؟.

☆ ☆ ☆

22) ذكر الدكتور إحسان عباس أنه وقف على قانون التأويل بمكتبة الحاج سليم آغا باسكدار بأسطامبول، وبالمقارنة مع (رسالة المستنصر) المحفوظ بالخزانة العامة في الرباط في مجموع تحت رقم ك/251 من صفحة 364 ـ 396 يتجلى أن النص واحد... د. مجلة الأبحاث كانون الأول 1968 ص 59 ـ 91.

23) توجد هذه الرسائل محفوظة تحت رقم د، 1020/3.

نص الخطاب الذي رفعه الفقيه ابن العربي إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله (487 ـ 512 هـ = 1014 ـ 1118 م) يلتمس فيه تقليداً خلافياً يخول يوسف بن تاشفين (ت 500 = 1106م) حكم بلاد المغرب والأندلس، ورد الخلافة عليه :

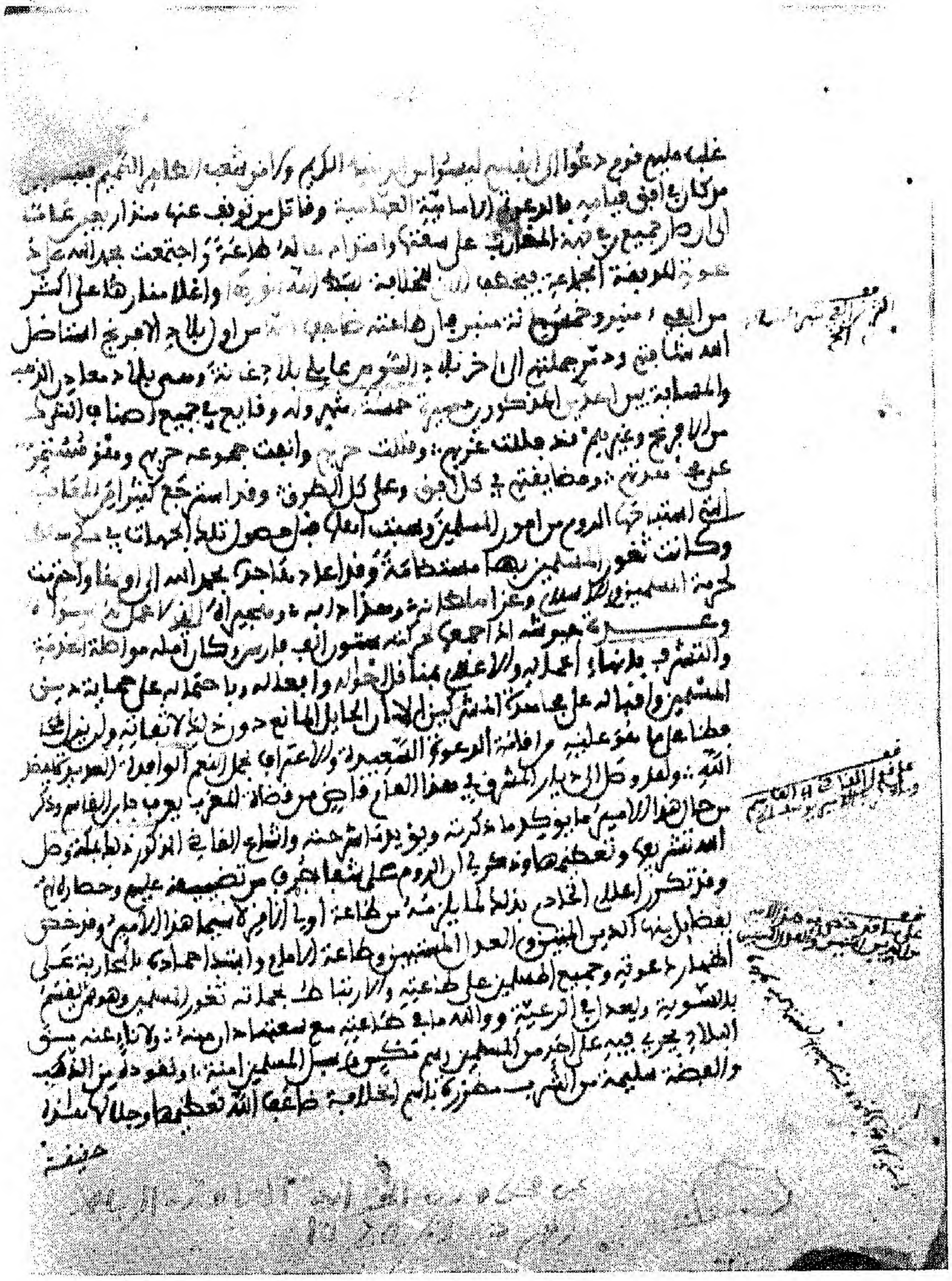
الخادم بالأدعية، تقبلها الله، ابن العربي الأندلسي.

بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلي :

أسعد الله الدنيا وأهلها بدوام أنوار المواقف المقدسة النبوية الأمامية المستظهرية، وضاعف مددها ولا أرى المسلمين أمدها بغرائب مجد تبدعها حوادث أيام تدلل صعابها، ومستأنف سعود تحرس جنابها، ولازالت الأيام التي هي لأيامها غرر، وفي إكليل الخلافة درر، للدهر تمائم، وفي المحل غمائم، والحمد لله الذي جعل للمواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية شرائط السواد، وخصها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب، كابرا عن كابر إلى أعلا خندف[24]، فهي أعلاها عمادا، واوراها في مواقف الفضل زنادا، أورمة الرسالة، وجرثومة الخلافة، إليها ينزع هاشم، وعنها أخذت المكارم، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل، وعهد بتخليدها مخبراً عن الوحي في آله وعقبه النبي المرسل. قد أمنت بعصمة الله من الغير، وتحققت أواخرها على سنن أولها في هداية البشر بحسن السير، أوزعنا الله الشكر على ما منّ به من توفيقنا للتمسك بعراها الوثيقة، والاهتداء بهداها إلى واضح الطريقة، فهم في الدين أمتنا ويوم الدين وسيلتنا، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي إلى مرضاته ومرضاتهم، إنه الموفق الهادي لا رب غيره..

وإن الخادم بالأدعية المتقبّلة لمواقف المقدسة النبوية الأَمامية المستظهرية، ألهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع أن بيعة الإمام العادل من أركان الديانة، ومما يتعين ما يحتمل من رعاية الأَمانة هاجر إلى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من أقصى المغارب، معتقدا أن عمله أفضل القرب والرغائب، واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر، واقتحم دون ذلك

24) خندف هي امرأة الياس بن مضر أحد جدود العرب، وقد عرف بنوه بها. (القلقشندي : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ص 248) د. العبادي : المهدر السابق ص 472.



عن مخطوطة الخزانة العامة ـ الرباط رقم د. 20/3 10

جانب من الخطاب الذي رفعه أبو بكر بن العربي الذي كان مصحوباً بابنه أبي بكر، إلى المستظهر بالله العباسي، وقد كان يوسف ابن تاشفين وجَّهَه في مهمة على ما نقرأه في تاريخ ابن خلدون (ج 6 ص 386 طبعة بيروت).

ويتحدث الخطاب عن إجهاز يوسف بن تاشفين على برغواطة وتحركه نحو الأندلس استجابةً لأُمرائها حيث كانت وقعة الزلاقة عام 479 = 1086 التي تمكِّن العرب ـ بعد النصر الذي تحقق فيها ـ من البقاء في الأندلس بضعة قرون.

عن مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم د. 1020/3

مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر، ولم يثنه بحر يزخر ولا فقر يذعر، يحتسب في ذلك أثره، ويرجو أن يقبل الله يوم الجزاء عثره، إلى أن انتهى هو وابنه إلى مدينة السلام، لا زالت محروسة من غير عاصمة لمن التجأ إليه من مهتضمي الأنام.

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسل بهجرته، ويتقرب بخلوص علانيته، ويسأل تشريف رقاعه، بملاحظتها، والنظر من انقطاعه، رغبة في الحظ الجسيم، إلى أن وصل إلى المجلس السامي، وخدم البساط العالي، زاده الله تشريفا وتعظيما، وأنهى أغراض وفادته ومقاصد إرادته، فنفذت الأوامر الشريفة، أدام الله سموها وتشريفها وأضفى على الجميع ستر سلطانها، وكنف إحسانها بقبول وسائله، والحاح مطالبه، وإفاضة الإحسان عليه..

ولما بسط له في الأمل، وكان هو وابنه في محل الكرامة والجذل، بدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدين، وجامع كلمة المسلمين، القائم بدعوة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد، المتجهز إلى المسلمين باستئصال فئة العناد، ولمة الفساد، قام بدعوة الإمامة العباسية والناس أشياع وقد غاب عليهم قوم دعوا إلى أنفسهم ليسوا من الرهط الكريم، ولا من شعبه الطاهر الصميم، فنبه جميع من كان في أفق قيامه بالدعوة الإمامية العباسية، وقاتل من توقف عنها منذ أربعين عاما إلى أن صار جميع من في جهة المغارب على سعتها وامتدادها له طاعة، واجتمعت بحمد الله على دعوته الموفقة الجماعة، فيخطب الآن للخلافة، بسط الله أنوارها، وأعلا منارها على أكثر من ألفي منبر وخمسمائة منبر، فإن طاعته، ضاعفها الله، من أول بلاد الله الإفرنج، استأصل الله شأفتهم، ودمر جملتهم إلى آخر بلاد السوس مما يلي بلاد غانة وهي بلاد معادن الذهب، والمسافة بين الحدين المذكوْرين مسيرة خمسة أشهر. وله وقائع في جميع أصناف الشرك من الإفرنج وغيرهم قد فللت غربهم وقللت حزبهم، وألفت جموعه حربهم، وهو مستمر على مجاهدتهم، ومضايقتهم في كل أفق وعلى كل الطرق. وقد استرجع كثيراً من المعاقل التي استباحها الروم من أمور المسلمين، وسبت أهلها قبل حصول تلك الجهات في حكم سلطانه وكانت ثغور المسلمين بها مستضامة، وقد أعادها

جـده[25]. بحمـد اللـه إلى أولهـا، واحترمت لحرمـة المسلمين والإسلام، وعز سلطانه، وهذا دأبه وهجيراه الذي لا عمل له سواه.

وعدة جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس، وكان أمله مواصلة الخدمة والتشرف بإنهاء أعماله، والإعلام بمناقل أحواله وأفعاله وباحتماله على حماية دين المسلمين، وإقباله على مجاهدة المشركين، إلا أن الحائل المانع دون ذلك لاثفاته[26]، ولم يزل محافظاً على ما هو عليه من إقامة الدعوة السعيدة، الاعتراف بحمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله. ولقد وصل إلى ديار المشرق في هذا العام قاض من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم،[27] وذكر من حال هذا الأمير ما يؤكد ما ذكرته، ويؤيد ما شرحته، وأشاع القاضي المذكور ذلك بمكة، وصل الله تشريفها وتعظيمها، وذكر لي أن الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم، وحصاره لهم، وقد تكرر إعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة أولي الأمر لاسيما هذا الأمير، وقد خص بفضائل منها الدين المتين، والعدل المستبين، وطاعة الإمام، وابتداء جهاده بالمحاربة على إظهار دعوته، وجميع المسلمين على طاعته، والارتباط بحماية ثغور المسلمين، وهو، ممن يقسم بالسوية، ويعدل في الرعية. ووالله ما في طاعته مع سعتها دان منه، ولا ناء عنه من البلاد ما يجري فيه على أحد من المسلمين رسم مكس، وسبل المسلمين آمنة، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشرب، مطرزة باسم الخلافة، ضاعف الله تعظيمها وجلالها.

هذه حقيقة حاله، والله يعلم أني ما أسهبت ولا لغوت، بل لعلي قد أغفلت أو قصرت، ولمولانا أمير المؤمنين المستظهر بالله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، الطول العميم في الأمر، تشريفه بقبول تأميله، وفي الإشارة إليه بما يقوى أمره، ويشد أزره، ويؤيد سلطانه، ويعلي شأنه، مجريا له على السنن الكريم الطول العميم. فوالله ما في الأمراء ولا في شيع النصحاء الأولياء

25) الجد بفتح الجيم الحظ.

26) يقال تأثف الرجل المكان أي لم يبرحه وربما كان هو المقصود هنا لكثرة أشغاله.

27) لم نهتد للمهمة التي عهد بها للقاضي ابن القاسم إلا أننا عرفنا أنه كان ضمن لائحة الذين اتصلوا برجال الحكم في بغداد.

من يجوز في الولاء وصحة الانتماء سبقه، ولا يلبس من النصيحة طرقه، والله يمنحه من الخلافة المقدسة المبنية على طرق النبوية ما يصل يده ويقوى أيده ويشد عضده بمنه وطوله.

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبّلة لنفسه ولابنه المسترق القن بعد الامتنان بإباحة الصدر لهما إلى الوطن، فقد بعدا عنه سبعة أعوام، وأقاما في الجناب المخصب الظليل، والكنف الرحب المأهول مدة عامين، يستدران النعم الحافلة جملا بعد جمل، ويكرعان في المشارب الجمة العذبة علّلاً بعد نهل، فلله إلهام الشريعة التي مسحت على شكايتهما من عدوان الأيام بيد شيم الكرام، فأزاحت عنهما جميع الشكايات والألام[28]، وهذه نبذة من الصنائع المشكورة وفلذة من بضايع المكارم الرابحة المشهورة، وإنها لمسطورة في صحيفة الفخر، مجلوة من جزيل الأجر عبقة بأرج النشر، وأن الشكر ليقل في جانبها، ويقصر عن أنزر لازمها فأنها ضمنت حياة نفسين وأشرت دفيني رسمين، فكأنها قد أجبت ضعف الورى ونشرت أمثل المستودعين في الثرى، فمن أحيى النفس الواحدة فكأنما أحيى الناس جميعا وعند الله تعالى كفاء ما أولاه مولانا الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى أبائه الأكرمين من جميل الفعل وجزيل ما آتاه في سبيل الفضل، والخادم العام القلب هو وعقبه بالمحبة الناصفة والطاعة الخالصة صادر في جملة الحامدين ويرجوان لا يكون مقصّرا عن درجة السابقين ويضرع في وسمه ووسم المملوك ابنه عين التشريف السامي، لازال الفهم ؟ الكرام تيجانا، وعلى قسماتهم العز والكرامة عنوانا ليعيد حيث جلا إلى ؟ النباهة ذكرهما، والي البر والكرامة قدرهما، ويظهر مزية وفادتهما ورعاية هجرتهما ويثبت لهما من المفاخر ما يحيد عليه البر الموازر، ويتضاءل له الحسود المكاشر، ويبقى للشريعة على مر الأيام، ويضرع أن يتضمن التشريف العزيز بثوت اسمه في الديوان الشريف ضاعف الله علاه ونماه بما خص به والمملوك أيسر من الكرامات والنعمة، وأنه متى وفد هو أو ابنه المملوك كان

28) يلاحظ هنا بتر زهاء صفحة، وقع فيه الذين طبعوا كتاب الزميل د. مختار العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس 475، وقد أشر عليه بنقاط... وقد كملنا البتر من مخطوطة الخزانة العامة...

ذلك للوافد منهما تجدداً على مر الأيام مؤكدا مخلدا حسب العادة الكريمة له ولسلفه الأكرمين رضي الله عنهم أنهم متى أنعموا بنعمة، أو خصوا بكرامة ومنة ثبتت مؤبدة، وجددت مخلّدة، وليمتش بالأمر العالي والتشريف السامي فيهما جميع من يرد أن عليه في كل الآفاق من جميع الطباق وامتثالا ما يعد لهما من الإكرام واحتمالا على ما تأصل بجنبتيهما من التنويه والإنعام، وأن ذلك يرثه الخَلَف منا عن السلف وتكون لنا مزية التشرف بالوصول إلى مهاد العز المأمول[29]، لا أعدم الله مولانا الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه المنتخبين مبرة تتضاعف بها المعال، وسعادة تحرز أسنى الآمال، وكفاية يستمد بها حرية الأيام والليال، فذلك بيده وغير معجزه، وهو المنعم الجواد، وكل خير من طوله مستفاد، لا شريك له، ولا توفيق إلا به والحمد لله حق حمده، وصلواته على سيد المرسلين رسوله وعبده وعلى آله الطيبين، وعترته المنتخبين الراشدين، آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين، وحسْبي الله ونعم الوكيل.

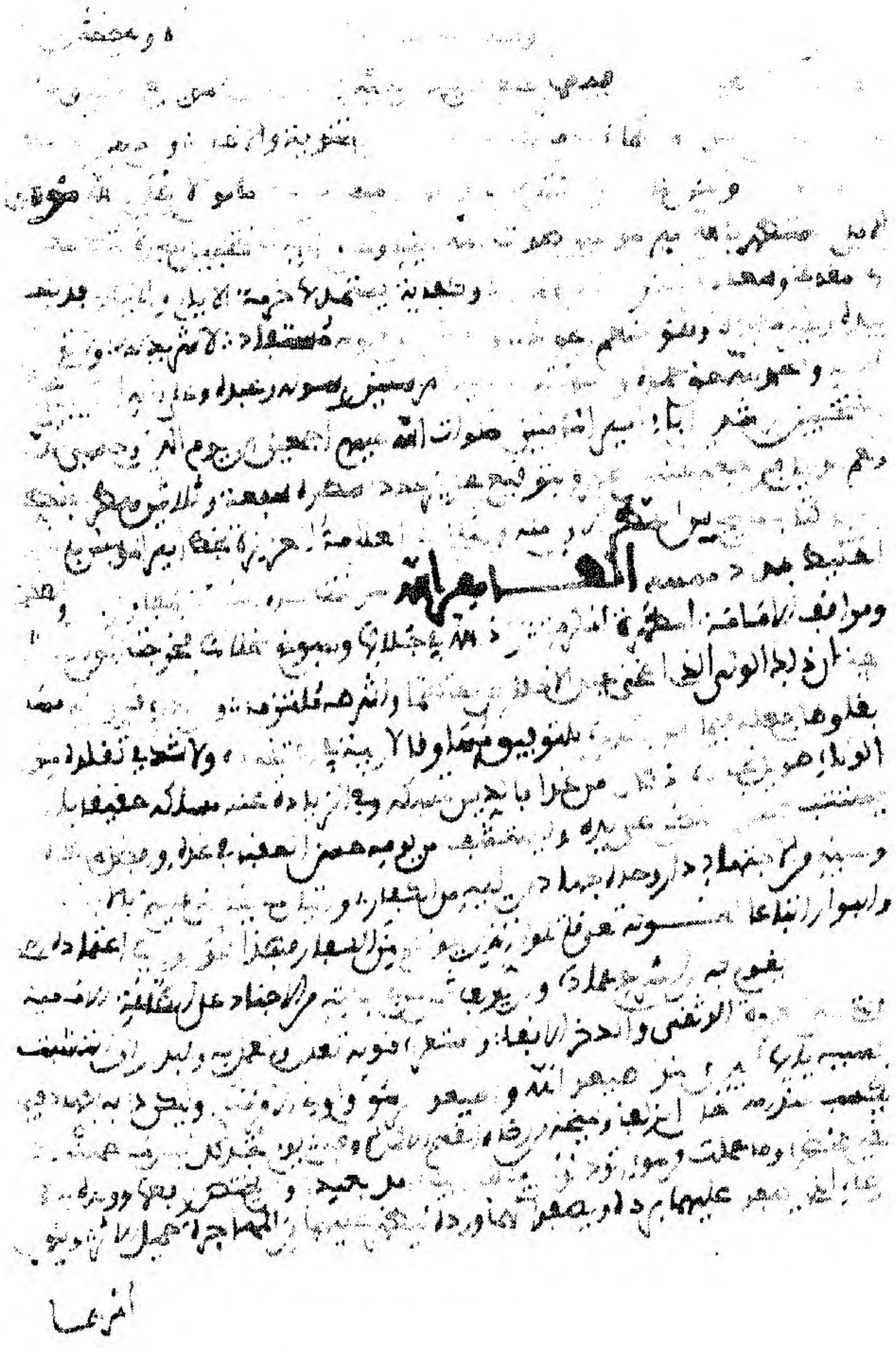
رد الخلافة :

فراجعه عنه ظهره بتوقيعٍ عزيز عدد أسطره سبعة وثلاثون سطراً بخط فسيح كتابي مليح من السطر الأول منه والثاني منه العلامة العزيزة بخط أمير المؤمنين بالقلم الغليظ بمداد ممسّك[30] «القاهر بالله» :

عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة، ومواقف الامامة المطهرة المكرمة، زاد الله في جلالها وسبوغ ظلالها، فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولى الذي أضحى بحبل الإخلاص معتصما ولشرطه ملتزما، وإلى أداء فروضه مسابقا. وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق مساوقا، لا ريبة في اعتقاده، ولاشك في تقلده من الولاء، طويل نجاده، إذ كان من غدا بالدين تمسكه، وفي الزيادة عنه مسلكه، حقيقا بأن يستتب صلاح النظام على يده، ويستشف من يومه حسن العقبى في غده، وأفضل ما نحاه، وعليه من الاجتهاد دار رحاه، جهاد من يليه

29) إلى هنا ينتهي البتر الموجود في كتاب الزميل العبادي.

30) ممسك بضم الميم الأول وفتح لا ثانية وتشديد السين أي المخلوط بالمسك.



جانب من المخطوطة رقم (د. 1020.3) تتضمن خطاب الخليفة المستظهر إلى يوسف بن تاشفين.

من الكفار واتيان ما يقضى عليهم بالاجتياح والبوار، اتباعا لقوله تعالى : ﴿الذين يلونكم من الكفار﴾، فهذا هو الواجب اعتماده، الذي يقوم به الشرع عماده، وأن يؤلف شمل من في جملته من الأجناد على الطاعة الامامية التي هي العروة الوثقى والذخر الأبقى، واستقراء قوله تعالى والعمل به، والبدار إلى التشبث بسببه ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول، وأولي الأمر منكم﴾.

وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله تعالى الزلفى، ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأرفى، «يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً». وأن يختص رافعها وولده بالإرعاء الذي يضفو عليهما برده، ويصفو لهما ورده، ليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر ويؤول أمرهما فيما يرجو أنهما إلى استقامة النظام وضم النشر، فليقابل الأمر الأسنى في ذلك بامتثال واحتذاء مطاع المثال إن شاء الله.

وكتب في رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة.

☆ ☆ ☆

نص كتاب الوزير ابن جهير إلى يوسف ابن تاشفين

من الوزير الأجل السيد العدل عميد الدولة بهذه الملة شرف الأمة، ولي النعمة خلاصة أمير المؤمنين محمد بن محمد بن محمد بن جهير، إلى أمير المسلمين وناصر الدين القائم بدعوة أمير المؤمنين أزكى الرغائب بأرض المغارب أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أطال الله بقاءه ومدته، وضاعف بسطته وكبت أعداءه وحسدته، بسم الله الرحمن الرحيم كتابي من حضرة مولانا أمير المؤمنين أبي العباس المستظهر بالله أدام الله أيامها وأوضح أعلامها وأعز أنصارها وأعلا منارها، الأحوال مستقيمة بإقبال دولته، منتظمة بيمن تدبيره وسياسته، تجري على أفضل ما عودها الله تعالى من نفاد الأمر وقضائه، وانبساط السلطان واعتلائه، ونحن مقابلون نعمته بالشكر والاعتراف مستديمون مددها بالعدل والإنصاف، متحققون إجابة رغبتنا في توفيق أولياء مولانا المخلصين وأهل الطاعة من كافة المسلمين لما يقرب من طاعته ويوزع شكر



جانب من المخطوطة رقم (د. 1020.3) تتضمن جواب الوزير بن جهير ليوسف بن تاشفين.

نعمتـه عليهم بـولايتـه، فلقـد استخلف عليهم عنـه أكرم مستخلف وعطف عليهم بولايته أفضل مستعطف، فأصبح وقد أطاعتـه الأمـة العـاصيـة وأمكنتـه الغـايـات فـذلّل الصعب ورأب الشعب، وقرب النـازح، وأرضى الجـامح، وقوم المـائـد وأصلح الفاسد، وأعـاد معـالم الحق عـامرة بعـد دثورهـا، ومشـاربـه صـافيـة بعـد ركودهـا وبضائع الخير نافقة بعد كسادها وأحوال الأمة صالحة بعد فسادهـا، مبتغيـا فيمـا أتاه الله مصلحـة أخراه، غير نـاس نصيبـه من دنيـاه، طـامحـا بطرفـه إلى أعلى الدرجات، في داريـه، آخـذاً بـأفضل الإقبـال في حـاليـه، فلبـاس التقوى شعـاره، والعمل الصالح دثاره، نهاره مسقوم ؟ بين تلاوة القرآن وإقـامـة إحسـان، وغوث مكروب، وفك عـار مخروب، وسـد ثغر، وصلاح أمر، وتـدبير شرق وغرب، وبـر وبحر، فأعين الرعية قائمة بشهادته، وأنفس البرية مستريحة باجتهاده، لا جرم أن الله يصلح باله ويحسن مئاله تصديقا لما قال جل جلاله يـا أيهـا الـذين آمنوا اتقوا اللـه وقولوا قولاً سـديـداً يصلح لكم أعمـالكم ويغفر لكم ذنوبكم ومن يطـع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما. وحقيق لمن جمعت فيه هـذه الأخلاق الطـاهرة ونطق القرآن بأمانته الباهرة فإن الله تعالى وعـد اللـه الـذين آمنوا منكم وعملوا الصـالحـات ليستخلفنهم في الأرض كمـا استخلف الـذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا، يعبـدونني لا يشركون بي شيئا، فالحمد لله الـذي أنجز لأمير المؤمنين مـا وعـده وحقق لـه التمكن وأيـده وأمن السبـل بخـلافتـه، وأقـام الحـق بـإمـامتـه، وسخر لـه من أوليـائـه من تنفـذ بطاعتـه أوامره، ويؤازره على فعل الخيرات ويظـافره وينشر رحمتـه ودعوتـه، ويظهر سعده وكلمته، وينتهي إلى ما فرض سبحـانـه عليـه من طـاعـة ولاة الأمر المقترنة بطاعته وطاعة رسولـه ﷺ إذ يقول تعـالى : ﴿يـا أيهـا الـذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾، استمنـاحـا لنعم اللـه التي لا تحـد، واستمـداداً من عـوارفـه التي لا تنفـد، ولمـا كـان الأمير أطـال اللـه بقـاءه، وأدام تمكينـه ورفعتـه وسموه وسلطتـه، وكبت عـدوه وحسـدتـه ممن صح عنـده خلـوص عقـد ولايتـه ولزوم طـاعتـه لأمير المؤمنين والعزوف عن أعدائـه وإظهـار العـدل في الرعيـة، فخراً بـآرائـه ؟ وتمسكـا بمـا أمر اللـه تعـالى بـه من مجـاهـدة أعدائـه وتحريض عساكر الإسلام على مجاهدة عدوهم وبـذل نفوسهم ومشـاركتـه لهم في نعيمهم وبـؤسهم، ومـا فتـح اللـه لأمير المـؤمنين على يـده من ثغور الإسـلام

بجزيرة الأندلس وما جاورها مما كان العدو قد تغلب عليه واستباحه، واستأصل شافته واجتاحه عند اختلاف الخوارج بها وتباين مقاصدهم وعدولهم عن الواجب في مصادرهم ومواردهم، أنهيت إلى المواقف المقدسة العلية الشريفة النبوية المستظهرية زاد الله في جلالها وامتداد ظلالها هذه الجملة فخرج من الشكر للأمير أطال الله بقاءه وأعلاه وأحمد طرائقه وحسن سيرته وجميل مقاصده والدعاء بمثابرته على جهاد عدو المسلمين وتصديق ما جاء به عن سيد المرسلين «لا يزال أهل الغرب على الحق ظاهرين» وذلك لنصوع عقائدهم في خلوص اليقين وافترار مذهبهم على صحة الدين، على يد الشيخ الفقيه أبي محمد عبد الله بن محمد المعروف بابن العربي وابنه الفقيه أبي بكر محمد أدام الله عزتهما ما يزدهي به ؟ وتتأرّج به سطور الدفتر، وتنتعش به جدود العواثر، ولقد بالغ هذا الفقيه وولده في الثناء على الأمير وأطنبا في وصف ما يعتمده من لزوم قوانين العدل والإنصاف، ومجانبة طرق العسف والاعتساف، ولما كان رأينا في هذه الطائفة التي تأخذ في الحدود الشرعية بقولها وتستوصى في السياسة السلطانية برأيها... جميلاً، وتميزنا بالبر لمن أنبنا إليه الطريقة القديمة وجنوحنا إلى من عرفناه بصدق العزيمة، شكرنا لأمير المؤمنين أطال الله بقاءه، اقتداءً بهذه الطائفة في آرائه ورجوعا إلى قولهم في الحالة، أخذنا باراء المواقف المقدسة زادها الله مضاء وامتثالا لقصدها، وكذلك هذا الفقيه وولده المقدم ذكرهما مما شاهدنا من رجالهما وحسن هديهما بما يقتضى تقريبهما وأدناهما، فرأيناهما واعتمدنا برهما وإكرامهما وأصدرنا هذه الجملة القاضية بإحلال الأمير محله المنيف على استحقاقه الإجلال والتشريف نظراً لمقالهما ؟ وإحسانا، وتعطفا عليهما وامتنانا، فليعتمد الأمير أطال الله بقاءه مصالح أمورهما، وليتوخَّ ما تعود باستقامة شؤونهما وليولهما حسن موقع النيابة عنه وليبدلهما صفحة الإقبال بمنه، وليلزم تقوى الله فيما يجري من الأمور على يديه وليراقبه تعالى فيما فرض من أحوال الرعية إليه، وليعلم أن المصير والمرجع إليه ويطالع بأخباره وما احتاج إلى علم من بجهته إن شاء الله. وكتب في الثاني عشر من رجب سنة إحدى وتسعين وأربعمائة والحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل.

اتصالات البعثة المغربية بعلماء المشرق

- □ خطاب ابن العربي للإمام الغزالي.
- □ نص استفتاء الغزالي.
- □ رسالة الغزالي إلى يوسف بن تاشفين.
- □ خطاب الإمام الطرطوشي إلى السلطان يوسف بن تاشفين.
- □ العلاقات مع أُمراء القاهرة.

اتصالات البعثة المغربية بعلماء المشرق حول الحالة في الأندلس

وهذا نص الخطاب الذي وجهه ابن العربي إلى الفيلسوف أبي حامد الغزالي يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأندلس من حركة يوسف بن تاشفين الجهادية، ويطلب منه فتيا في ذلك، مع ردّ الغزالي عليه[1].

قال ابن العربي :

وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق، لطول باعه في العلم ورحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي، فاستدعينا منه فتيا وكتابا، اختصرت لفظ الفتيا لوقت ضاق عن تقييدها، لكن أنبه على معناها وهو :

في علم الإمام ما ذكر في وصف خلال أمير المسلمين وناصر الدين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين أمير المغربين الأندلس والعدوة، وما أوضحت لديه من إعزاز الدين، والذبّ عن المسلمين وهو حمْيري النسب وقبيله المرابطون، قد وقفوا أنفسهم على الجهاد. وقد كانت جزيرة الأندلس قد تملكها من تاريخ ابتداء الفتنة سنة أربعمائة، عدة ثوار تسوّروا على البلاد وضعف أهلها عن مدافعتهم، وتلقبوا بألقاب الخلفاء، وخطبوا لأنفسهم، وضربوا النقود بأسمائهم، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحد منهم في الاستيلاء على صاحبه، واستنابوا

1) نشر هذه الفتوى مع الجواب عنها الدكتور العبادي في كتابه (دراسات في تاريخ المغرب والأندلس) السالف الذكر صفحة 478.

الفساق من الأرقاء، والصنائع الطلقاء في محاربة بعضهم بعضاً واستنجدوا بالنصارى عندما اعتقد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه، وعند ذهاب شوكة المسلمين، وحينما انكشف للنصارى ضعف المسلمين، وعلموا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين... طلبوا المعاقل وأخذوا بالحرب كثيراً منها من غير مؤونة ولا مشقة. ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المسلمين ووصل إلى البحر، فاستوقف بعض الرؤساء وفاءً للمشركين، وحقدوا على المسلمين في استدعائهم له، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنحه الله النصر، وألجم الكفار السيف ثم عاود الجواز في العام الثالث من هذا الفتح، فتهيبه العدو، وتحصن منه، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه، وعُثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء عن البلاد والمعاقل وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس، حالفوا النصارى أو صاروا معهم إلبا. ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد، والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا لا جهاد إلا مع إمام من قريش، ولست به، أو مع نائبه عن إمام وما أنت ذلك، فقال أنا خادم الإمام العباسي، فقالوا له أظهر لنا تقديمه إليك، فقال أو ليس الخطبة في جميع بلادي له ؟ فقالوا ذلك احتيال، ومردوا على النفاق. فهل يجب قتالهم ؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم ؟ وهل على مسلم حرج في قتالهم ؟ وهل على الإمام العباسي أن يبعث له بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم، فإنهم إنما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه[2] وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك. ومتى وصف نفسه قال : لستُ مستبداً، وإنما أنا خادم أمير المؤمنين المستظهر، وهذا أشهر من أن يؤكد بالتحلية، وأظهر من أن يجدد بالتزكية.

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد الأوحد أبي حامد أتم الأجر، وأعم الشكر في الإنعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله.

---

2) صريح في أن الثوار بالأندلس كانوا يعارضون تبعية ابن تاشفين للعباسيين.

نص فتوى الغزالي في مواقف كلّ من يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف، والخلافة العباسية

فأجاب الإمام الغزالي رضوان الله عليه :

لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى مع شهادته عن غيره، وعن طبقه من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم، من سيرة هذا الأمير أكثر الله في الأمراء أمثاله، ما أوجب الدعاء لأمثاله. أصاب الحق في إظهار الشعار الإمامي المستظهري، حرس الله على المستظهرين ظلاله، وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للإمام الحق، وإن لم يكن قد بلغهم صريح التقليد من الإمام أو تأخر عنهم ذلك لعائق. وإذا نادى الملك المستولى بشعار الخلافة العباسية، وجب على كل الرعايا والرؤساء الاذعان والانقياد، ولزمهم السمع والطاعة وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام، ومخالفته مخالفة الإمام وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة، فحكمه حكم الباغي، وقد قال الله تعالى : ﴿وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا، فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفئ إلى أمر الله﴾. والفيئة أمر الله، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية فكل متمرد على الحق، فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته، لا سيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين أوليائهم، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية.

ومهما تركوا المخالفة، وجب الكفُّ عنهم، وإذا قاتلوا، لم يجز أن يتتبع مدبرهم، ولا أن يذفف[3] على جريحهم بل مهما سقطت شوكتهم وانهزموا، وجب الكفّ عنهم أعني عن المسلمين منهم دون النصارى الذين لا يبقى لهم عهد مع التشاغل بقتال المسلمين. وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليهم أو على وريثهم، وما يؤخذ من نسائهم وذراريهم في القتال مهدرة لا ضمان فيها، وحكمهم بالجملة في البغي على الأمير المتمسك بطاعة الخلافة، المستولي على المنابر والبلاد بقوة الشوكة، حكم الباغي على نائب الإمام.

فإنه وإن تأخر عنه صريح التقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتقليد فهو نائب بحكم قرينة الحال، إذ يجب على إمام المصر أن يأذن لكل إمام عادل استولى على قطر من أقطار الأرض، في أن يخطب عليه، وينادي بشعاره، ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه.

وإن توقف في كتبه المنشور، فالكتب قد يعوق عن إنشائها وإيصالها المعاذير. وأما الإذن والرضى بعدما ظهر حال الأمير في العدل والسياسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين، فلا رخصة في تركه وقد ظهر حال هذا الأمير بالاستفاضة ظهوراً لا يشك فيه وإن لم يكن عن إيصال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفتنة لا تنطفئ إلا بأن يصل إليهم صريح الإذن والتقليد بمنشور مقرون بما جرت العادة بمثله في تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذل ذلك. فإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحل له أن يترك في أقطار الأرض فتنة ثائرة إلا ويسعى في إطفائها بكل ممكن. قال عمر رضي الله عنه «لو تركت جرباء على ضفة الفرات لم تطل بالهناء[4]، فأنا المسئول عنها يوم القيامة». وقال سليمان بن عبد الملك يوما وقد أحدق به الناس : «قد كثر الناس». فقال عمر بن عبد العزيز : «خصماؤك يا أمير المؤمنين»، يعني أنك مسئول عن كل واحد منهم أن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته. فلا رخصة في التوقف عن أطفاء الفتنة في قرية تحوى عشرة. فكيف في أقاليم وأقاليم إلا أن

---

3) ذنف وذف (بتشديد الفاء) على الجريح، أجهز عليه.

4) الهناء أي القطران.

يعوق عن ذلك عائق، ويمنع منه مانع المواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصرَ بها. ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف على إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك، فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق، لم يبعد أن يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد إليها أعين الدولة فضلاً عن أيديهم.

وأما من يستجيز التوقف فيها عن غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته، وتناطقت الألسن بعدله، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه. ويسد في هذا الحال مسده، فهذا اعتقاد فاسد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تنسب إلى قصور، أو تقتضي في نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها، والمعتصمين بعروتها، القائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض وحكم من بغى عليه، والله أعلم.

☆ ☆ ☆

وبالإضافة إلى هذه الفتوى التي ذكر فيها الإمام الغزالي أن من أعظم القربات قتالَ ملوك الطوائف الذين استنجدوا بأعداء الله على أولياء الله، بالإضافة إلى ذلك توجَّه برسالة إلى «الأمير جامع كلمة المسلمين وناصر الدين أمير المؤمنين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين» من «الداعي لإمامه بالخير محمد بن محمد بن محمد الغزالي»، وهذا نصّ الرسالة :

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين والصلاة على سيد المرسلين وسائر النبيئين وعلى آله وأصحابه أجمعين، قال رسول الله ﷺ : «ليومٌ من سلطان عادل خير من عبادة سبعين سنة... وقال رسول الله ﷺ سبعة يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله، وعدَّ الإمام العادل أولهم، ونحن نرجو أن يكون الأمير جامع كلمة الإسلام وناصر الدين ظهير أمير المؤمنين من المستظلّين بظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله فإنه منصب لا ينال إلا بالعدل في السلطنة، وقد أتاه الله السلطان وزينه بالعدل والإحسان ولقد استطارت في الآفاق محامد سيره ومحاسن أخلاقه على الأجمال حتى ورد الشيخ الفقيه

الوجيه أبو محمد عبد الله بن عمر بن العربي الأندلسي الإشبيلي حرس الله توفيقه فأورد من شرح ذلك وتفصيله ما عطر به أرجاء العراق، فإنه لما وصل إلى مدينة السلام وحضرة الخلافة لم يزل يطنب في ذكر ما كان عليه المسلمون في جزيرة الأندلس من الذل والصغار والحرب والاستصغار بسبب استيلاء أهل الشرك وامتداد أيديهم إلى أهل الإسلام بالسبي والقتل والنهب وتطرقهم إلى اهتضام أهل الإسلام بما حدث بينهم من تفرق الكلمة واختلاف آراء الثوار المحاولين للاستبداد بالإمارة، وتقاتلهم على ذلك حتى اختطف من بينهم حماة الرجال بطون القتال والمحاربة والمنافسة، وأفضى الأمر بهم إلى الاستنجاد بالنصارى حرصا على الانتقام إلى أن أوطنوهم بيضة الإسلام وكشفوا إليهم الأسرار حتى أشرفوا على التهائم والأغوار فرتبوا عليهم الجزاء وجزوهم شر الجزاء، ولما استنفدوا من عندهم الأموال أخذوا في نهب المناهل وتحصيل المعاقل، واستصرخ المسلمون عند ذلك بالأمير ناصر الدين وجامع كلمة المسلمين ظهير أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، واستصرخه معهم بعض الثوار المذكورين ليأسهم ؟ عن مداراة المشركين، فلبّى دعوتهم، وأسرع نصرتهم وأجاز البحر بنفسه ورجاله وماله، وجاهد في الله حق جهاده، ومنحه الله تعالى استئصال شافة المشركين والأفراج عن حوزة المسلمين جزاه الله تعالى أفضل جزاء وأمداه بالنصر والتمكين، وذكر متابعته العدوة إلى جهة أخرى بعد ثلاثة أعوام من هذه الغزوة المشهورة، وقتل كل من ظهر من النصارى بالجزيرة المذكورة من الخارجين لإمداد ملوكها على عادتهم أو من سراياهم في أي جهة يمنوا من جهات المسلمين وقذف الله الرعب في قلوب المشركين حتى أغناه ذلك عن جر العساكر والجنود وعقد الألوية والبنود، وذكر أن أولئك الثوار لما أيقنوا قوة الأمير ناصر الدين وغلبته لحزب المشركين وسألهم رفع المظالم عن المسلمين التي كانت مرتبة عليهم لجزية المشركين وإمدادهم بها لهم مداراةً لبقاء إمرتهم عادوا إلى ممالأة المشركين وألقوا إليهم القول في جهة الأمير وجرأوهم على لقائه وصح ذلك عنده وعند المسلمين، فسأله المسلمون عند ذلك إنزال هؤلاء الثوار عن البلاد وتداركها ومن فيها من المسلمين قبل أن يسرى الفساد، ففعل ذلك، ولما تملكها ورفع المظالم وأظهر فيها من الدين المعالم وبدد المفسدين واستبدل بهم الصالحين ورتب

الجهاد وقطع مراد الفساد، ثم أضاف إلى ذكر ذلك ما شاهده من تلك السجية الكريمة في إكرام أهل العلم وتوقيره لهم، وتنزيهه بإسمهم واتباعه لما يعشون إليه من أحكام الله تعالى وأوامره ونواهيه وحمله عماله على السمع والطاعة، وتزيين منابر المملكة الجديدة والقديمة بالخطبة لأمير المؤمنين أعز الله أنصاره، وإلزامه للمسلمين البيعة، وكانوا من قبل منكّبين عن البيعة، والنداء بشعار الخليفة إلى غير ذلك مما شرحه من عجائب سيرته ومحاسن أحواله ومكارم أخلاقه، وكان منصبه في غزارة العلم ورصانة العقل ومتانة الدين تقتضي التصديق له في روايته، والقبول لكل ما يورده من صدق كلمته، وما أفاضه من هذه الفضائل إلى حضرة الخلافة أعز الله أنصارها، فوقع ذلك موقع الإحماد، ثم ذكر مع ذلك توقف طائفة من الثوار الباقين في شرق الأندلس عن مشايعة الأمير ناصر الدين ومتابعته، وأنهم حالفوا النصارى واستنجدوا بهم فأعلن المسلمون بالدعاء عليهم والتبرؤ منهم ليتوب عليهم أو ليقطع شافتهم.

وكتب هذا الشيخ سؤالاً على سبيل الاستيفاء، وأفتيتُ فيه بما اقتضاه الحق وأوجبه الدين وأعجلني المسير إلى سفر الحجاز وتركته مشمراً عن ساق الجد في طلب خطاب شريف من حضرة الخلافة يتضمن شكر صنيع الأمير ناصر الدين في حمايته لثغور المسلمين ويشتمل على تسليم جميع بلاد المغرب إليه ليكون رئيسهم ورؤسهم تحت طاعته، وأن من خالف أمره فقد خالف أمر أمير المؤمنين ابن عم سيد المرسلين، ويتعين جهاده على كافة المسلمين، ولم يبالغ أحد في بث مناقب قوم مبالغة الشيخ الفقيه أبي محمد في بث مناقب الأمير وأشباعه المرابطين، ولقد شاع دعاؤه في المشاهد الكريمة بمكة حرسها الله لحضرة الأمير وجماعة المرابطين، ولم يقنعه ما فعله بنفسه إلى أن كلّف جميع من رجا بركة دعائهم الدعاء في تلك المشاهد الكريمة، والمناسك العظيمة، وأعلن بالدعاء لأمير بلده الأمير الأجل أبي محمد سير بن أبي بكر وفقه الله تعالى وذكر من فضله وحسن سيرته وتلطفه بالمسلمين ورفع جميع النوائب عنهم ما جهر ؟ به إلى النفوس، ولقد دعي الشيخ الفقيه إلى المقام ببغداد على البر والكرامة والاتصال بأسباب تشرف بها من حضرة الخلافة فأبى إلا الرجوع إلى ذلك الثغر يلازمه للجهاد مع الأمراء وفقهم الله تعالى، ولو أقام لفاز بالحظ الأوفى من

التوقير والإكرام، وما أجدر مثله بأن يوفي حظه من الاحترام، وولده الشيخ الإمام أبو بكر قد أحرز من العلم في وقت تردده على مالم يحرزه مع طول الأمد، وذلك لما خصّ به من نقاية (؟) الذهن، وذكاء الحس واتقاد القريحة، وما يخرج من العراق إلا وهو مستقل بنفسه حائز منصب السبق بين أقرانه، ومثل هذا الوالد والولد قمنٌ بالإكرام في الوطن، وقد تميز بمزية التوفيق من الأعيان في الغربة، والله يحفظ من حفظهما ويرعى من رعاهما، فرعاية أمثالهما من آداب الدّين المعينة على أمير المسلمين وقد قال المحسنون : «فليستوص من ظفر بهم منهم خيراً، وكم دخل قبلهما العراق ويدخل بعدهما من تلك البلاد الثانية وما يذكر محاسنهما ولا يدفع مساويهما. وقد انتهى الشيخ الفقيه من ذلك إلى مالا يمكن أن يُلحق ثناؤه فضلا عن أن يزاد عليه، والله تعالى يعمّر بهما أوطانهما ويصلح شأنهما ويوفق الأمير ناصر المسلمين ليتوسل إلى الله تعالى في القيامة بإكرام أهل العلم فهي أعظم وسيلة عند رب العالمين ونسأل الله أن يخلد ملك الأمير ويؤيده تخليدا لا ينقطع أبد الدهر وأحل ؟ القلوب يتفر عن هذا الدعاء وتستمطر لملك العباد التأييد والبقاء وليس كذلك ؟ فإن ملك الدنيا إذا تزين بالعدل فهو شبكة الآخرة، فالسلطان العادل إذا انتقل من الدنيا انتقل من سرير إلى سرير أعظم منه، ومن ملك إلى ملك أجل وأرفع منه «وإذا رأيت ثم رأيت نعيماً وملكاً كبيراً»، ومهمى وفي العدل في الرعية والنصفة في القضية فقد خلد ملكه وأيد سلطانه وقد وفق له بحمد الله ومنه والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد خاتم النبي وآله أجمعين.

وعند قفول الإمام ابن العربي مرَّ بثغر الإسكندرية فلقى الشيخ أبا بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي اللقاء الثاني، فاغتنم الفرصة للحصول منه على كتابٍ طويل مسهب إلى «الأمير أبي يعقوب يوسف بن تاشفين في موضوع المساندة والتأييد : وقد استُهل خطاب الطرطوشي للعاهل المغربي بنصائح ثمينة وتوجيهات مفيدة منتقاة ومقتبسة من الآثار الشريفة ومستوحاة من التاريخ... وقد ردد الإمام الطرطوشي في كتابه هذا ما نقل عن الإمام مسلم في كتابه الصحيح (نقل العدل عن العدل) عن رسول الله ﷺ، معشر المرابطين، أو أراد بذلك جملة أهل المغرب أو ما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة

وطهارته من البدع والإحداث في الدين... وسئل مالك عن الأعراب الذين يقطعون الطريق ؟ قال : «جهادهم أحب إليَّ من جهاد الروم...» وعن بن عباس أن النبي عليه السلام قال : من رأى من الأمير ما يكره فليصبر فإنه ليس أحد يفارق الجماعة شبراً فيموت إلا مات ميتة جاهلية... وهذا نصُّ الكتاب :

بسم الله الرحمان الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشي إلى الأمير أبي يعقوب بن تاشفين سلام عليك.

أما بعد، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلاه إلا هو، وأشكره لديك كثيراً كما هو أهله، وأخصك من مواعظه وحكمه ما إن أخذت به نجوت من عظيم ما ركبت إن شاء الله تعالى، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

قال الله سبحانه : ﴿يا داوود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾، إلى قوله يوم الحساب. قال سلمان الفارسي رضي الله عنه : أتعلمون من الخليفة ؟ الخليفة هو الذي يقضي بكتاب الله، ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله.

وقال سبحانه وتعالى : ﴿الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ الخ، فمن مكنه الله في الأرض، وآتاه الله سلطاناً ولم يفعل ما أمر الله تعالى به في هذه الآية، خفنا أن لا يكون من أهلها، لأن الله تعالى وصف هذه الأمة، إذا فتح الله تعالى عليهم الأرض وأهلك عدوهم، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأمر بالمعروف ونهي عن المنكر.

وقال رسول الله ﷺ : ما من أحد يلي عملا أو قال سلطاناً إلا اهتزَّ به الصراط حين يركبه حتى يزول كل عظم عن حقه، فإن كان محسنا نجا، وإن كان مسيئا هوى سبعين خريفاً، فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : ومن يرغب في العمل بعد هذا ؟ قال له أبو ذر رضي الله عنه : من سلب الله أنفه وأصعر خده.

وروي أن رسول الله ﷺ قال : ما من وال يلي رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم إلا حرم الله تعالى عليه الجنة، وروي أن رسول الله ﷺ قال للعباس عمه لما قال له أمرني على إمارة، فقال له رسول الله ﷺ : يا عباس ياعم رسول الله، نفس تحييها خير من إمارة لا تحصيها، إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة، فإن استطعت أن لا تكون أميرا فافعل !

وروي أن رسول الله ﷺ قال : ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهي مسؤولة عنهم، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، ولقد بلغ هذا من نفوس الصحابة والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين مبلغا ذهلت له عقولهم وطاشت حلومهم، فروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه مرَّ بطريق مكة فأبصر راعياً يرعى بمكان جذب فناداه : أياراع، قد رأيت مكاناً هو أخصب من مكانك فألحق به، ثم قال : كل راع مسؤول عن رعيته.

وقال علي رأيت عمر بن الخطاب يغدو على قتب فقلت : إلى أين ؟ فقال : بعير من إبل الصدقة قد ندّ وأنا أطلبه، فقلت : أذللت الخلفاء بعدك يا أمير المومنين، فقال : لا تلمني يا أبا الحسن، فوالذي بعث محمداً بالنبوءة لو أن نخلة ذهبت بشاطئ الفرات لأجد بها حسرة يوم القيامة، ألا إنه لا حرمة لوال ضيع المسلمين.

يا أبا يعقوب، لقد بليت بأمر لو حملته السموات لانفطرت، ولو حملته النجوم لانكدرت، ولو حملته الأرض والجبال لتنزلزلت وتدكدكت، إنك حملت الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملْنَها وأشفقن منها.

فروي أن آدم صلوات الله عليه، لما استخلفه الله تعالى في الأرض على ذريته وما فيها من الأنعام، وعهد إليه عهوداً أمره فيها ونهاه، فقام فيها بأمر الله سبحانه إلى أن حضرته الوفاة، فسأل الله سبحانه أن يعلمه مَن يستخلفه ويقلده من الأمانة ما قلده، فأمر أن يعرض ذلك على السماوات بالشرط الذي أخذ

عليه من الثواب إن أطاع، ومن العقاب إن عصا، فأبين أن يقبلنه شفقاً من عقابه، ثم أمره أن يعرضه على الجبال والأرض فأبينه أيضاً، ثم أمره أن يعرضه على ولده فقبله ولده على شرط أن له الثواب إن أطاع، والعقاب إن عصا، فوبخه الله تعالى على مسارعته إلى قبول ذلك، فقال : ﴿وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً﴾، بعقابه وما نقلوا لربه، وكان الغرض تخييراً لا إيجاباً.

وروي أن عمر بن عبد العزيز لما أفضت إليه الخلافة، سمعوا في منزله بكاء عاليا، فسئل عن البكاء فقيل : إن عمر خيَّر جواريه، وقال : قد نزل بي أمر شغلني عنكن، فمن أحبَّت أن أعتقها عتقتها، ومن أحبت أن أمسكها لم يكن لها نصيب مني، قال : فبكين يأساً منه، ثم دعا أفاضل المسلمين في زمانه، وعلماءهم في وقته : سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب ورجاء بن حياة، فقال لهم : إني قد ابتليت بهذا الأمر فأشيروا علي، فعد الخلافة بلاء، وأنت ونظراؤك تعدون هذا البلاء نعمة، فقال له سالم بن عبد الله : يا أمير المؤمنين، إن أردت النجاة من عذابها فصُمْ عن الدنيا، وليكن إفطارك فيها الموت، وقال محمد بن كعب : إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين لك أباً وأوسطهم عندك أخاً وأصغرهم ولدلك، فوقر أباك وارحم أخاك وتحنن على ولدك، وقال له رجاء بن حياة : إن أردت النجاة من عذاب الله أحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت متى شئت.

وإني لأخاف عليك أشد الخوف، فاتق الله يا أبا يعقوب في أُمة محمد لله، فإن لك مع الله تعالى موقفاً يسائلك فيه عنهم شخصاً شخصاً، ذكراً وأنثى، صغيراً وكبيراً، حراً وعبداً، مسلما وذمياً، فأعد لذلك المقام كلاماً، ولذلك السؤال جواباً، فالذي نفسي بيده إن ذلك لحق مثل ما انكم تنطقون.

روى عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال : ما منكم من أحد إلا ويخلو بربه ليس بينه وبينه ترجمان، ولا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة : عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل بما علم.

واعلم يا أبا يعقوب أنه لا يزني فرج في ولايتك ومدى سلطانك وطول عمرك إلا كنت المسؤول عنه والمرتهن بجريرته، وكذلك لا يشرب فيها نقطة

مسكر إلا وأنت المسؤول عنها، ولا ينتهك فيها عرض امرئ مسلم إلا وأنت المطالب به، ولا يتعامل فيها بالربى إلا وأنت المأخوذ به، وكذلك سائر المظالم، وكل حرمة انتهكت من حرمات الله تعالى فعُهدتها عليك، لأنك قادر على تغييرها، فأما ما خفي من ذلك ولم يكن ظاهراً يراه المسلمون فأنت المبرأ منه إن شاء الله تعالى، ألا ترى إلى عمر بن الخطاب كيف أشفق أن يطالبه الله ببعير من إبل الصدقة، وإنما هو البعير للمسلمين، فركب على بعيره وجعل يطلبه بنفسه، ولا عذر لك عند الله تعالى أن تقول : لم يبلغني فإنك إذا احتجبت عن المسلمين فكيف تعلمه وتراه، قال الله تعالى : ﴿كَانُو لاَ يَتَنَاهَوْنَ عَن منكَر فعلُوهُ لَبِيسَ مَا كَانُوا يفْعَلُون﴾، من تركهم الإنكار، وإنما قاله لقوم سخط عليهم، هذا بين الأكفاء والنظراء، فما ظنك بين الولاة والأمراء، قال الله سبحانه : ﴿ياويلتنا مالِهَذَا الكِتَاب لاَ يُغَادر صَغِيرَة وَلاَ كَبِيرَة إلاَّ أحْصَاهَا، وَوَجَدُوا مَا عملُوا حَاضِراً، وَلا يظلم ربك أحداً﴾ جاء في التفسير الصغيرة التبسم والكبيرة الضحك.

ولقد بلغني أن عبد الله العمري لما حج لقي هارون الرشيد في الطواف فقال : يا هارون، ظر إليه الرشيد فعرفه فقال : لبيك يا عماره، فقال : كم ترى ها هنا من خلق ؟ قال : لا يحصيهم إلا الله تعالى، قال : فاعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه، وأنت وحدك تسألنهم كلهم، فانظر كيف تكون، فبكى هارون الرشيد بكاء شديداً فجعلوا يعطونه منديلا يمسح به دموعه، قا له : والله يا هارون إن الرجل ليسرع في مال نفسه فيستحق الحجر عليه، فكيف بمن يسرع في مال المسلمين ؟

ولما دخل طاووس اليماني على سليمان بن عبد الملك قال : يا أمير المومنين هل تدري مَن أشد الناس عذاباً يوم القيامة ؟ قال سليمان : قل، فقال أشد الناس عذاباً يوم القيامة، من أشركه الله في ملكه فجار في حكمه، فاستلقى سليمان بن عبد الملك على سريره باكياً حتى قام عنه جلساؤه.

وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : إن الملك إذا ملك زهّده الله في ماله، ورغّبه في مال غيره، وأشرب قلبه الإشفاق من الفقر، فهو يسخط على القليل، ويحسد على الكثير، حتى إذا قضى الله نحْبه حاسبه بأشد حسابه وأقل عفوه.

فاحذر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضها السموات والأرض، فلا يكون لك فيها موقف قدم، عاذنا الله وإياك من هذا الموقف، ولقد بلغني يا أبا يعقوب أنك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين، واتخذت دونهم حجاباً، وان طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : ﴿وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾ ؟ قال الحسن : لا والله ما كان رسول الله ﷺ تغلق دونه الحجب، ولا يغدى عليه بالجفاف، ولا يراح عليه بها، ولكنه كان بارزا، من أراد أن يلقى رسول الله ﷺ لقيه، وكان يجلس بالأرض ويوضع طعامه في الأرض، ويلبس الغليظ، ويركب الحمار، ويردف عليه عبده، ويلعق أصابعه، وكان يقول : من رغب عن سنتي فليس مني، قال الحسن : فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ ذريته ويمشي في الأسواق، ويتفقد أمور رعيته، وكان يعس ليلا في سكك المدينة مع عبد الرحمان بن عوف وغيره من الصحابة رضي الله عنهم يحفظون عوراة المسلمين، فروي عنه أنه استعمل سعد بن أبي وقاص على الكوفة، فبلغه أن سعداً اتخذ قصراً وجعل عليه باباً، وقال انقطع التصويت، فأرسل إليه محمد بن مسلمة وقال : إذا رأيت سعدا فأحرق عليه بابه، فأتى الكوفة وأخرج زنده واستورى ناره ثم أحرق الباب، فجعل سعد يعتذر ويحلف بالله ما قال، فقال له محمد بن مسلمة : تفعل ما أمرتك به وتورى عنك القول.

يا أبا يعقوب ! ولقد بلغني أنك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا وزخرفها، فلبست الناعم، وأكلت اللين، وتمتعت بلذاتها وشهواتها كأنك لم تسمع قول الله عز وجل ﴿أَذْهَبتم طيباتكم في حَيَاتِكم الدنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ أو لم تسمعه سبحانه يقول لنبي الله ﷺ : ﴿ولا تمدنّ عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾.

ولقد روت عائشة رضي الله عنها قالت : لقد كان يمر علينا الشهران والثلاثة، ما توقد في بيوت رسول الله ﷺ نار، قيل فما كان عيشكم ؟ قالت : الأسودان، التمْر والماء.

ولقد روي أن فاطمة رضي الله عنها قالت: خبزنا من شعير، فجئت منه بكسرة إلى رسول الله ﷺ فقال: ما هذا يا فاطمة؟ فقلت: رغيف خبزته يا رسول الله، ولم تطب نفسي أن آكله حتى أجيك بهذه الكسرة، فقال: أما انه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاثة أيام، هذا لو شركوك في خفض العيش لنهيت عنه، لأن الله تعالى أخذ على الأئمة مثل ما روي عن يوسف ﷺ أنه كان يأكل الشعير، ويطعم عياله الخشكار، (الخَوْشقان؟) ويطعم المسلمين الحوران، ؟ وكان يجوِّع نفسه، فقيل له: أتجوع وبيدك خزائن الأَرض؟: فقال أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين.

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لما أفضت إليه الخلافة، قال: إني أنزلت نفسي في مَال الله سبحانه بمنزلة ولي اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، وروي عنه أنه قال: أخبركم بما يحل لي من مال الله سبحانه، استحل منه حلتي، حلة الشتاء، وحلة القيظ، وما أحج عليه وأعتمر، وقوتي وقوت عيالي، كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقراهم، ثم انا بعد رجل من المسلمين يصيبني ما أصابهم، فكيف والفقراء ببابك يتصاعدون وذوو الحاجات يترددون، وأهل الديون والغرم في السجون محبوسون مأسورون، وأموال المسلمين تحت يديك، وفي قبضتك، أما سمعت أن رسول الله ﷺ قال: من ترك مالا فلورثته، ومن ترك كَلاًّ فعلينا، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصدقَات لِلْفُقَرَاء وَالْمَسَاكِين﴾ الآية إلى قوله الغارمين.

يا أبا يعقوب! إنه قد كبرت السن وانحلت القوى، واشتعل الرأس شيباً، وارتحلت الدنيا مدبرة، وجاءت الآخرة مقبلة، وحان الفراق، والتفت الساق بالساق، وجاءت سكرة الموت بالحق، فالبدارُ البدار إلى حياة لا موت فيها وشباب لا هرم معه، وصحة لا سقم فيها. قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِنْدَ رَبِّهِم يُرْزَقُون﴾، إلى قوله وفضله.

يروى عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: لما أصيب إخوانكم يوم أُحد، جعل الله أرواحهم في أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة، وتأكل من ثمارها وتسرح من الجنة حيث شاءت، وتأوي إلى قناديل من ذهب تحت العرش، فلما رأوا طيب مقيلهم ومطعمهم ومشربهم، ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامة. قالوا: ياليت

قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعيم، وما صنع الله بنا، كي يرغبوا في الجهاد ولا ينكلوا عنه. فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم، ومبلغ إخوانكم، ففرحوا بذلك واستبشروا، فأنزل الله تعالى : ﴿ولاَ تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ الله أَمْوَاتاً، بَلْ أَحيَاء﴾ الآية. وقال جل من قائل : ﴿إِنَّ الله اشْتَرَى مِنَ المُومِنِينَ أَنْفُسَهُم وَأَمْوَالَهم بِأَنَّ لَهُم الجَنَّة﴾، إلى قوله الفوز العظيم، فما ظنك بتجارةٍ اللهُ مشتريها يوشك والله أن لاتبور.

وقال جل من قائل : ﴿يَا أَيّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلّكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنَجيكم مِنْ عَذَابٍ أَلِيم﴾. فلو قطع هنا لا نقطعت الأعيان في البحث عن هذه التجارة، لأن الله بفضله وكرمه بيَّن مراده من ذلك، فقال : ﴿تُومِنُون بِاللهِ وَرَسُولِه﴾ إِلَى قَوْلِه إِنْ كُنْتُم تَعْلَمُون﴾.

وقال رسول الله ﷺ : «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع».

وروى أن رسول الله ﷺ قال : «تكفل الله لمن جاهد في سبيل الله لا يخرجه من بيته إلا الجهاد في سبيل الله وتصديق كلمته أن يدخله الله الجنة أو يرده إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة» وقال رسول الله ﷺ : «لولا أن أشق على أُمتي لأحببت أن لا أتخلف عن سرية تخرج في سبيل الله، ولكني، لا أجد ما أحملهم عليه، ويشق عليهم أن يتخلفوا بعدي، والذي نفسي بيده لوددت أن أقاتل في سبيل الله فأقتل، ثم أحيا فأقتل، ثم أحيا فأقتل، والذي نفسي بيده لا يكلم أحد في سبيل الله، والله أعلم بمن يكلم في سبيله، إلا جاء يوم القيامة وجرحه يتعب دماً : اللون لون الدم والريح ريح المسك».

وقال أنس بن مالك : استشهد عمي يوم أُحُد وكان قد غاب عن بدر فقال يارسول الله : إن أشهدني الله قتال المشركين ليرينَّ ما أصنع، فلما كان يوم أُحُدُ قال : إني لأجد ريح الجنة من دون أحد، قال : فما استطعت يا رسول الله ما أصنع، فوجدنا بضعا وثمانين ضربة بالسيف أو طعنة الرمح أو رمية بالنَّبْل، ومثل به المشركون، فنزل فيه وفي أمثاله : ﴿من المومنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا﴾.

واعلم يا أبا يعقوب أن الله تعالى فرض الجهاد على كافة المسلمين ولا يرده جور جائر، ولافسق فاسق إلى أن تقوم الساعة، قال الله تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذينَ لاَ يُومِنُون بِاللهِ ولاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ﴾، إلى قوله صاغرون، فلم يرخص لهذه الأُمة في ترك جهاد عدوهم إلا بإعطاء الجزية أو كلمة الإسلام، وهذه الآية نسخت كل آية في كتاب الله تعالى تتضمن أعراض عن المشركين، وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ما ترك قوم الجهاد إلا عمهم العذاب».

فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور بلاد الأندلس، لأنك أقرب الملوك إليها، وعندك الكراع والسلاح ولأُمة الحرب وآلتها وجيوش المسلمين وحماة البيضة طائعون لك، وكذلك كل من بنواحيك وجنبات أعمالك من المجاهدين والمقاتلين وأولي البطش والقوة، وأنت في حرج من تضييع من في ثغور أرض الأندلس من جماعة المسلمين والحرم والذّراري أفلا تأسيت بمن سافر إليها وأمضى المضي من أرض الحجاز من حماة المسلمين ومجاهديهم حتى استفتحوها وبثوا فيها كلمة الإسلام وشهادة التوحيد، فكيف بمن يناسخها (؟) ويجاورها.

يا أبا يعقوب ! إذا أردت الظفر بالعدو، فعليك بالعدل في الرعية، فقد روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ان وفداً من الوفود قدم عليه بالفتوح فقال له عمر : متى لقيتم عدوكم ؟ فقال : من أول النهار، قال : فمتى انهزموا ؟ فقال : من آخر النهار، فقال عمر : إنا لله وإنا إليه راجعون، وقام الشرك للإيمان من أول النهار حتى اعتدل النهار ؟ والله إنْ كان هذا إلا عن ذنب أحد ثتموه بعدي أو أحدثته بعدكم، ولقد استعملت يعلى بن أُمية على اليمن أستنصر لكم بصلاحه.

وكتب أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى جنده بالشام «وإنما يوتي العشرة آلاف وأكثر، إذا آتوا، من تلقاء الذنوب، فاحترسوا من الذنوب».

ومما أتحفك به، وهو خير لك من طلاع الأرض ذهبا، لو انفقته في سبيل الله، حديث رواه الأئمة التقاة عن رسول الله ﷺ، فروى مسلم في كتابه الصحيح، (نقل العدل عن العدل) عن رسول الله ﷺ أنه قال : «لا تزال طائفة

من أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله»، والله أعلم هل أرادكم رسول الله ﷺ معشر المرابطين أو أراد بذلك جملة أهْل المغرب، وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة وطهارتهم من البدع والأحداث في الدين والاقتفاء لآثار السلف الصالح رضي الله عنهم، وإنا لنرجو أن تكون أولي بقية ينهون عن الفساد في الأرض.

ولقد كنا في الأرض المقدسة جبر الله مُصابها تترى علينا أخبارك، وما قمت به من أداء فريضة الله تعالى في جهاد عدوه، وإعزاز دينه وكلمته، وكان من هناك من العلماء والفقهاء وحماة الدين والعباد والزهاد والمنقطعين إلى الله تعالى يدعون الله سبحانه في نصرك وتأييدك والفتح على يدك، فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض، فقد كنا نستنصر لك بجنود أهل السماء، حتى قدم علينا الأرض المقدسة، الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربي وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله فذكرا من سيرتك في جهاد العدو أهلكه الله تعالى في تلك الأندية والمحافل والخلق والمجالس، وصبرك على مكافحة العدو ومصابرته، وإعزازك للدين وأهله، والعلم وحملته، ما زاد المسلمين بصيرة الدعاء لك، وحسن الاعتقاد فيك، حتى تمنينا أن نجاهد الكفار معك، ونكثر سواد المسلمين بأجبلتك، نسأل الله تعالى الذي يهب الجزيل من فضله أن يهبنا وإياك الشهادة في سبيله، ثم إليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقاً فتتبعه، والباطل باطلا فتجتنبه، فصلاح الرعية بصلاح الراعي.

والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي ممن صحبنا أعواماً يدارس العلم ويمارسه، بلوناه وخبرناه، وهو ممن جمع العلم ووعاه، ثم تحقق به ورعاه، وناظر فيه وجدَّ حتى فاق أقرانه ونظراءه، ثم رحل إلى العراق فناظر العلماء وصحب الفقهاء، وجمع من مذاهب العلم عيونها، وكتب من حديث رسول الله ﷺ، وروى صحيحه وثابته، والله تعالى يوتي الحكمة من يشاء، وهو وارد عليك بما يسرك، فاشدد عليه يديك، واحفظ فيه وفي أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام، قال الله سبحانه وهو أجل القائلين : ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُومِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُم، كَتَبَ رَبّكم عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَة﴾.

والحمد لله رب العالمين، والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيئين وآله الطيبين الطاهرين، وسلم وشرف وكرم، وأفضل وأنعم.

☆ ☆ ☆

هذا ولقد حرصت أثناء سفارتيّ ببغداد وخاصة منها السفارة الأولى، على تتبع خطوات سفارة ابن العربي وكان أثيراً عندي أن أسهم في إبراز الجانب الدبلوماسي من شخصية علاّمتنا النحرير[5]، ولكن كلّ ما وجدت عنه هناك كان مصدره من المغرب ! وليس هناك من خصوصيات تستأثر بها عاصمة الرشيد...! وإن الذي يعرف ما قام به التتار هناك من تخريب وتدمير سوف لا يستغرب ذلك الفراغ سيما إذا أضيف إلى هذا الوجود العثماني بهذه البلاد وما أدى إليه ذلك من الدفع بالبقية الباقية من تراث العراق إلى أسطامبول ! إلا أن الملاحظ مع كل ذلك أن روح يوسف ابن تاشفين تهيمن بجدّ على سماء بغداد، وعلى كل سائر الذين عنوا بالحديث عن تاريخ بغداد حتى لتشعر بالحنين إلى اسمه في كل مجلس وحتى لوجد أحد الرسامين العراقيين متعة في وضع لوحة فنية طرَيفة تمثل المستظهر بالله ووزيره ابن جَهير يستقبلان البعثة الدبلوماسية المغربية المتألفة من الشيخ ابن العربي وابنه[6].

ومن من شك في أن مبعث ذلك التقدير راجع للسياسة الخارجية الذي عرفت عن يوسف ابن تاشفين من عمله على إرجاع المغرب إلى أحضان الجامعة الإسلامية، فلقد طال له بتلك السياسة ذكر جميل في أقطار المشرق حتى

---

5) لقد فتحت هذه الرغبة مني أفاقا للبحث تستهدف سائر ما يمس علاقتنا بالعراق وبلاد المشرق بما في ذلك تراجم العلماء الذين زاروا بغداد من المغرب وخاصة منهم عبد الواحد المراكشي صاحب المعجب الأمر الذي رددته الصحافة آنذاك. جريدة البلد عدد 12 ـ 10 1965. التازي : من الوثائق التاريخية المغربية في بغداد «دعوة الحق» عدد أبريل ماي 1967 جريدة الجمهورية البغدادية : 7 ـ 8 ـ 1967 وما بعده...

6) كان الرسام هو السيد صلاح جياد من كلية الفنون الجميلة وهو أصلا من مدينة البصرة (دعوة الحق ـ مارس 1969)... وقد كنت أثناء مهمتي السياسية بالعراق اتخذت من ذلك الرسم بطاقة تهنئته أبادل بها التحية مع الزملاء والأصدقاء في المناسبات السعيدة كرأس السنة والأعياد...



ابن العربي وابنه لدى المستظهر بالله الذي كان إلى جانبه وزيره ابن جهير

بريشة الرسّام العراقي صلاح جياد

تشوفت إليه أنظار كبار الشخصيات فيه فقال المؤرخ العراقي الإربلي أبو العباس شمس الدين أحمد ابن خلكان في ترجمته : «وكان حازما سائساً للأُمور ضابطا لمصالح مملكته مؤثرا لأَهل العلم والدين، كثير المشورة لهم، وبلغني أن الإمام أبا حامد الغزالي تغمده الله برحمته لما سمع ما هو عليه من الأَوصاف الحميدة وميله إلى أهل العلم عزم على التوجه إليه فوصل إلى الأسكندرية وشرع في تجهيز ما يحتاج إليه فوصله خبر وفاته...(7)

ومما ينبغي ذكره أخيراً أن اختيار ابن العربي بالذات لهذه المهمة، وهو شخصية أندلسية بارزة، كان يعني إعطاء الدليل الأَقوى للخلافة في بغداد على سلامة الوضع في الأَندلس، وعلى أن الطريقة التي عالج بها يوسف الأَحوال هناك كانت أعدل طريق وأصوبه، وأخيراً إعطاء الدَّليل على أن كل شيء يجري على ما يرام في هذا الجناح الغربي من العالم الإسلامي.

ومن هنا استنتج عدد من الذين كتبوا عن هذه السفارة أنها كانت تهدف لاستمزاج الرأي حول وضع أسس الوحدة الإسلامية، وهكذا نجد أن المرابطين، قبل الموحدين - يسعون لإقامة صرح الدولة الإسلامية، وكان الفرق بين تفكيري المرابطين والموحدين حول الوحدة المرتقبة ان المرابطين كانوا يميلون إلى التنازل عن بعض الأَلقاب والمظاهر لتحقيق الفكرة بينما كان الموحدون يصرون على أن يتزعموا هم تلك الوحدة وعلى أنه لم يبق في بغداد من يستحق تلك الزعامة !(8).

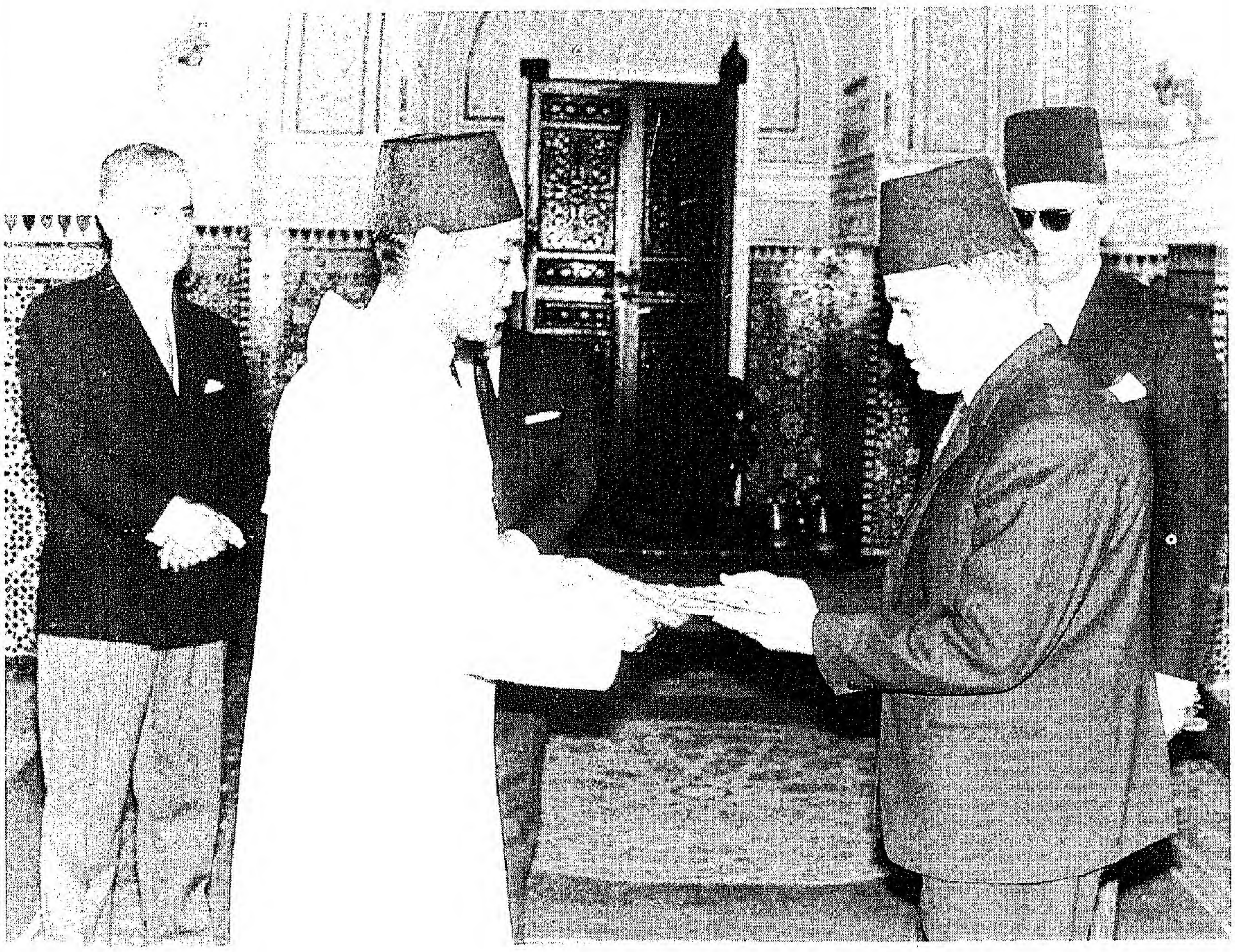
---

7) ابن خلّكان : وفيات الأَعيان وأبناء أبناء الزمان، تحقيق الدكتور إحسان عباس دار الثقافة، بيروت 1971 - المجلد الرابع ص 217 - المجلد السابع من صفحة 112 إلى 129.

8) دكتور أحمد مختار العبادي : الموحدون والوحدة الإسلامية، المحاضرة الأُولى في حفل افتتاح السنة الأَكاديمية لجامعة محمد الخامس يوم 20 اكتوبر 1961 - مجلة التربية الوطنية - الرباط، عدد مارس 1962. عبد الهادي التازي : جولة في تاريخ المغرب الدبلوماسي : محاضرة الموسم الثقافي لكتابة الدولة في الشبيبة والرياضة 1967 طبع بمطبعة فضالة ص 7.

الكلمة الأُولى في هذا الكتاب !!

عندما تسلمت أوراق اعتمادي سفيراً لدى العراق بقصر الرياض أصيلَ الإثنين 19 ذي الحجة 1382 = 1963/5/13 كان في جملة جوابي على الكلمة السامية التي تفضل فيها جلالة الملك الحسن الثاني بالتنويه بأعمالي السابقة :



«...إنني أذكر بصفتي مؤرخاً أن أول سفير للمغرب ببغداد كان هو الإمام ابن العربي، ولذلك فإنني سأعمل على تمتين العلاقات المغربية العراقية على أساس ذلك الاتصال الذي يرجع لقرون خلت...».

عن الصحف الوطنية

ليوم 14 ـ 15 مايه 1963

العلاقات مع أُمراء القاهرة

وبالرغم من أن المغاربة ـ من وجهة النظر المذهبية موالك، لاتربطهم صلة بالفاطميين الشيعة، فقد سجلنا لهم بعض العلاقات على الصعيد الإسلامي... ويتعلق الأمر بالرسالة التي رفعت إلى الأفضل وزيرِ المستعلي الفاطمي (تـ 495 = 1102) حول فتح مدينة برجلونة ثم التوصية بحاج من كبراء وأعيان اللمتونيين، وهي خالية من التاريخ... عثرنا عليها في نفس المخطوطة السابقة الابن خيرة المواعيني،(9) وهذا نصها :

إلى الأفضل صاحب مصر كتاب ـ كتب الله لحضرة الأمير السيد المعظم أبي القاسم الأفضل زكى ذخائر الأعمال، وغمر أرجاء ساحتها بوفود الآمال، وقصر على نفاستها غرر المعالي ومحاسن الأقوال والأفعال، من حضرة المغرب مقر سلطاننا ومحل استيطاننا، ومركز بلادنا، ومحتفل أجنادنا، إثر قفولنا من الغزوة الصافية، وقد حسنت لنا آثار، ورفعت لقدومنا أبصار واحتَمتْ بعون الله بلاد وأقطار، وتأتت لنا في أعداء الله آمال وأوطار، وما صدرنا حتى رويت سيوفنا من دمائهم، واستباحت منيع ديارهم، وأناخت جيوشا بمدينة برجلونة أعز بلادهم داراً، وأجلها مقدارا، فأضرمناها ناراً، وهبّت على ريح أهلها إعصاراً، وأوسعتهم قتلاً وإساراً.

ولما كان بيننا وبين حضرته الكريمة ـ وصل الله جلالها وبسط ظلالها نيّراً مشرقاً مغرباً مورقاً وجب أن نهدي إليها متى أمكننا رسول وتأتّى لنا في مطالعته سول جُمَلاً من أخبارنا ولُمَعاً من آثارنا (... ؟) نستشرف لما يطلع علينا من مسار أنبائها، وبشائر ظهورها واعتلائها.

ويتأدى كتابنا هذا إلى حضرته العزيزة عمَّر الله بالخيرات جنابها، ومد في ساحات المسرات أطنابها، من يد فلان معظم شأننا، ومومل أحسابنا، وأحد كبراء

9) المخطوط بالخزانة الحسنية رقم 1406 ورقة 35 أ ب.

أسرتنا، وأعيانها، وهو ممن برقت لـه في الخير بوارق، وسبقت منـه سوابق في الغزو، وتابع طويلا بمرط غباره وخبّ وأوضع في مضماره، ثم رأى أن ينتقل من حسن إلى حسن. ويجمع بين الغزو والحج في قرن، ويؤدي ما يلزمه أداءً من فرض واجب متعين، فمضى لوجهته قاصداً بيت الله الحرام لتأدية حجة الإسلام وزيارة قبر نبيّنا محمد عليه السلام، مواطن تنزيل كتاب الله تعالى، وموضع ميلاد نبيه المصطفى، ومطافه بين المروة والصفا، ومهاجر طيبة حيث طاب العقد وصفا. ولابد له في وجهه من قضاء فروض الحضرة الممجّدة وشكر آلائها والانتهاء إلى ما ينفذ إليه من جميل ؟ مذاهبها وآرائها، جرياً على عادته الكريمة مع كل من ألمّ من أصحابنا برحب فنائها، ولم يغب عن حضرته الكريمة ما يحرزه من الأجر الموفور، والثواب المذخور، بحسن عون الحجاج، المترامين من أقاصي الفجاج، شُعثا غبراً بين شعب أكوارهم يستقبلون بوجوههم حرور ليلهم وسموم نهارهم ويعرورون ظهور المسالك ومتون المهالك إلى تلك المشاعر المقدسة والمناسك...».

بين المرابطين والفاطميين...

ذكر ابن الأثير في حوادث سنة 499 (= 1105 - 06) أن المغاربة كانوا يعتقدون في العلويين أصحاب مصر، الاعتقاد القبيح، فكانوا، إذا أرادوا الحج، يعدلون عن مصر، وكان أمير الجيوش بدر (الجمالي) والد الأفضل أراد صلاحهم فلم يميلوا إليه ولا قاربوه، فأمر بقتل من ظفر به منهم، فلما ولى ابنه الأفضل أحسن إليهم، واستعان بمن قاربه منهم على حرب الفرنج، وكان هذا من جملة من قاتل معه، فلما خالط المصريين خاف العود إلى بلاده، فقدم بغداد، ثم عاد إلى دمشق ولم يكن للمصريين حرب مع الفرنج إلا وشهدها فقتل مع بعضها شهيداً، وكان شجاعاً فتاكاً مقداماً...

استمرار العلاقات المرابطية العباسية بعد يوسف بن تاشفين

- □ تبادل الخطابات بين علي بن يوسف وبين الملوك العباسيين.
- □ التفكير في توحيد الشهور بين المغرب والمشرق !
- □ مخطوطة ابن البناء تردّد فتوى علماء المغرب.
- □ الدنانير المرابطية في عدن.
- □ نماذج من الخطابات المتبادلة على هذا العهد.

استمرار العلاقات المرابطية العباسية بعد يوسف بن تاشفين

وقد استمرت العلاقات موصولة بين الجهتين بعد وفاة أمير المسلمين يوسف ومبايعة ابنه أبي الحسن علي بن يوسف الذي بعث للمستظهر بالله يجدد العهود التي كانت في ذمة والده... وظلت المراسلات متوالية سيما وكانت الظروف آنذاك تتطلب مثل هذه المشاورات، فإن الغزو الصليبي الذي كان يتهدد المشرق والمغرب على السواء كان جديراً بتوحيد وجهات النظر، وتضاعفت المراسلات عبر الشهور، وفي مختلف المواضيع حتى لأثار «بعض» مواضيعها انتباه العاهل المغربي، كان هذا «الموضوع» جانبياً ولكن له أكثر من دلالة، ذلك أن المكاتيب البغدادية كانت تحمل تاريخاً يختلف عن التاريخ الذي يوجد في الديار المغربية.

وقد استشكل الأمير فيما يلوح، ظهور الهلال ببغداد وعدم ظهوره هنا، ولم يبق الأمر عند حدّ التساؤل ولكنه تجاوزه إلى تكليف وزيره وكاتب ديوانه أبي القاسم ابن الجد باستشارة الفقهاء وأهل العلم حول هذا الاختلاف في أوائل الشهور وهل له مبرر علمي معقول، وقام الوزير بما عهد به إليه فذاكر عدداً من فقهاء المغرب، لكنه لم يجد جواباً شافياً يستطيع أن يرفعه إلى علم الأمير حتى تناهت إليه الأخبار ذات يوم وهو بمراكش سنة 510 بتوالى الغارات على شرق الأندلس فجاز إليها جوازه الثالث أواخر المحرم سنة 511... وقد أراد أبو القاسم ابن الجد في هذه الأثناء، وقد سنحت الفرصة، أن يسمع الأمير عليا بن يوسف ملخص ما سمعه هو من العلماء، فدعا إلى جمع ضم أعيانهم وأعلامهم كان ممن حضره بإشبيلية أحد رجال الكمال والارتسام بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها : مالك بن وهيب... وقد كان أمير المسلمين يصغي لأبي القاسم ابن الجد وهو يطرح السؤال أمام الفقهاء الذين كان فيهم جمع من إشبيلية وجمع من قرطبة إضافة إلى عدد من المغرب، قال لهم : «نجد تاريخ بغداد يسبق تاريخنا بيوم ويومين».!!

«... وكان عليّ بن يوسف بن تاشفين يؤدي الطاعة إلى المستظهر بالله العباسي ببغداد والمراسلة تجري بينهم بتاريخٍ مختلف من أوائل الشهور، وقال أبو القاسم بن الجد، وكان يكتب لعلي ابن يوسف المذكور... وعمل ذلك في قلبه، فسألته عنه فلم أجد جواباً شافياً إلى أن جاز الأمير إلى الأندلس فجمعه مجلس مع مالك بن وُهَيب مع أعلام من العلماء، فقلت : نجد تاريخ بغداد **يسبق تاريخنا بيوم ويومين**، فقال مالك : ذلك أمر لابد منه لبعد المطالع، فإذا انتقص عندهم الهلال سبقوكم بيومين وإذا كمل سبقوكم بيوم وقد يسبق المَطْلع بثلاثة وبأكثر على حسب القرب من المشرق، وكلّ من حضر صوَّب ما قال ووافق عليه...»



ما تقدم وكان علي بن يوسف بن تاشفين يؤدي الطاعة إلى المستظهر بالله
العباسي ببغداد والمراسلة تجري بينهم بتاريخ مختلف في أوائل الشهور وقال
أبو القاسم بن الجد وكان يكتب لعلي بن يوسف المذكور وعمل ذلك في قلبه فسألته
عنه فلم أجد جوابا شافيا إلى أن جاز الأمير إلى الأندلس فجمعه مجلس مع مالك بن
وهيب مع أعلام من العلماء [illegible] نجد تاريخ بغداد يسبق تاريخنا بيوم
ويومين فقال مالك ذلك أمر لا بد منه لبعد المطالع فإذا انتقص عندهم الهلال
سبقوكم بيومين وإذا كمل سبقوكم بيوم وقد يسبق المطلع المطلع بثلاثة وبأكثر على حسب
القرب من المشرق وكل من حضر صوب ما قال ووافق عليه وذكر بعض شيوخنا
عن الفقيه [illegible] أنه قال لا نصوم [illegible]
[illegible] مراكش وأنه حكى فيه إجماع العلماء من أهل المذهب وغيرهم وقد [illegible]
العالم العلامة أبو محمد عبد الجبار [illegible] أن بعض الطلبة يقول يصوم أهل سجلماسة
برؤيتنا ولا نصوم برؤيتهم فقال هو صواب وهكذا بلغني عن أبي الفضل السجلماسي
شارح [illegible] وهو الحق الذي لا يشوبه شك [illegible] والمسافة بينهما
بعيدة وذكر بعض الأصحاب أن أبا عبد الله محمد [illegible] فقال
لا نصوم بصوم أهل مراكش ويصومون بصومنا وسنده ضعيف ومعناه صحيح فإن ما بين
مراكش و[illegible] ثلاث مراحل للراكب الجاد المسرع في الزمان المعتدل كما سبق تقريره وإن

عن مخطوطة ابن البناء بالخزانة العامة رقم 692 د

لقد أحببت أن أذكر هذه النازلة هنا لاستدل بها أولاً على تعاقب المراسلات... وثانياً على الرغبة الأميرية في أن لا يرى هذا الفرق في التاريخ القمري بين جناحي العالم الإسلام سيما والخلافة واحدة ![1]

☆ ☆ ☆

ولقد كان في صدر الأجوبة التي وصلت العاهلَ المغربي عن بعض رسائله إلى الخليفة العباسي هذا الجواب الذي يعطي فكرة عن موضوع الرسالة المرابطية إلى البلاط العباسي، التي تطلب التقليد من جهة، وتخبر - على العادة - بنشاط الجيش المغربي في الأندلس، وقيامه بالواجب في الدفاع عن حوزة الإسلام، وبالرغم من أن الرسالة لا تحمل تاريخا إلا أن الدكتور حسين مؤنس - خلافاً لما في الحلل الموشية من أنها تعود لتاريخ 512 = 1118 - يرى أنها كتبت لأول إمارة على بن يوسف في أوائل المحرم سنة 500 = 2 شتنبر 1106 :[2]

من عبد الله أبي العباس المستظهر بالله أمير المؤمنين إلى مقيم الدولة العباسية وزعيم جيوشها المغربية عليّ بن يوسف بن تاشفين رحم الله جميعهم بمنه، أما بعد فالحمد لله مقدما على كل مقال، وتالياً لكل منال وهو ذو المنّ والأفضال، الكبير المتعال، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد المؤيد بالتنزيل، الذي كشف عن الأمة الغمة، واستنقذ من الضلالة الأمة، وحمى به من المحارم ما كان مباحاً واقتدح من القلوب زناداً، أورى بعد ما كان شحاحاً، وألبس الدين، بعدما كان بالعدى سليبا، من النصر جناحاً، وعلى أصحابه وأزواجه، وخص العباس بن عبد المطلب صنو النبوة ووارث الخلافة وشقيق الأبوة، الميمون الطاهر، الظاهر الأوائل والأواخر، بالصلاة المسبلة العهاد، المتجددة الأمداد، ومواهب الله على أمير المؤمنين حبايس، ومنايحه لديه

---

1) عبد الهادي التازي : نحو تاريخ هجري موحّد، التمسك بالرؤية والتوسل لها بالعلم - مقاييس الأمس في حاجة إلى تطور... تعميم الرؤية في نصوص الفقهاء ونتائج الحساب، دعوة الحق، دجنبر 1966 ص 14 - 25 وعدد يناير 1967 ص 4 - 14.

2) الحلل الموشية ص 72 - 73 - مخطوط مكتبة سان لورنز بالإسكوريال : يحمل رقم 538 (مخطوطات عربية) - حسين مؤنس : سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين وأيامهم في الأندلس، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، المجلد الثاني، العدد 1 - 2 سنة 1373 = 1954، ص : 63 - 66.

كوامل نفايس، وجناب الإسلام مريع، وباع الحق وسيع، ورياض العدل أريضة، وعيون الجور مغضوضة، ونظره للرعايا يعدل الدنيا إذا مال قصدها، ويفلّ عنه شبا الأيام إذا أرهف حدها، والنصر لراياته أليف، والظفر لجيوشه حليف، وأعداؤه للسيوف حصايد، وللحتوف طرايد، وشكره لله تعالى مؤذن بالمزيد، وشاهد لا ينفذ ولا يبيد.

وعرض بحضرة أمير المؤمنين كتابك الموضح لا خلاص عقيدتك المطبوعة بطابع الدين، المعربة عن تمسك بحبل الله متين، الهاطلة سحايبها من سما سيرتك، المضيئة مصابيحها من حميد طرقتك.

فأما ما أنهيته من توفرك على الجهاد، ومن في جملتك من الأجناد، ودفع أدناس الكفرة عما يليك من البلاد، فأنت وطائفتك من حزب الله، وحزب الله هم الغالبون، فاتخذ التقوى عمادك، والحق منارك، وسنة رسول الله ﷺ شعارك، والعمل الصالح قصدك والتوكل على الله أصلك، وأجمع من تلي أمرهم على التناصف، وأصرفهم عن التظالم، وإذا علا بك الانبساط فطامن من جناحك، وأردد من طماحك، وأعط من نفسك ما تريد أن يعطيك من فوقك، وتجرد للدفاع عن الإسلام والمسلمين وبع أعراض العاجلة بالمغفرة من رب العالمين وأعلن بالدعاء لأمير المؤمنين على ذوائب المنابر، تكن الظافر بالأعداء والظاهر، والسلام عليك وعلى من قبلك من أهل الطاعة سلاما يهديهم إلى المقام المحمود ويظلهم في ظل الرحمة الممدود إن شاء الله.

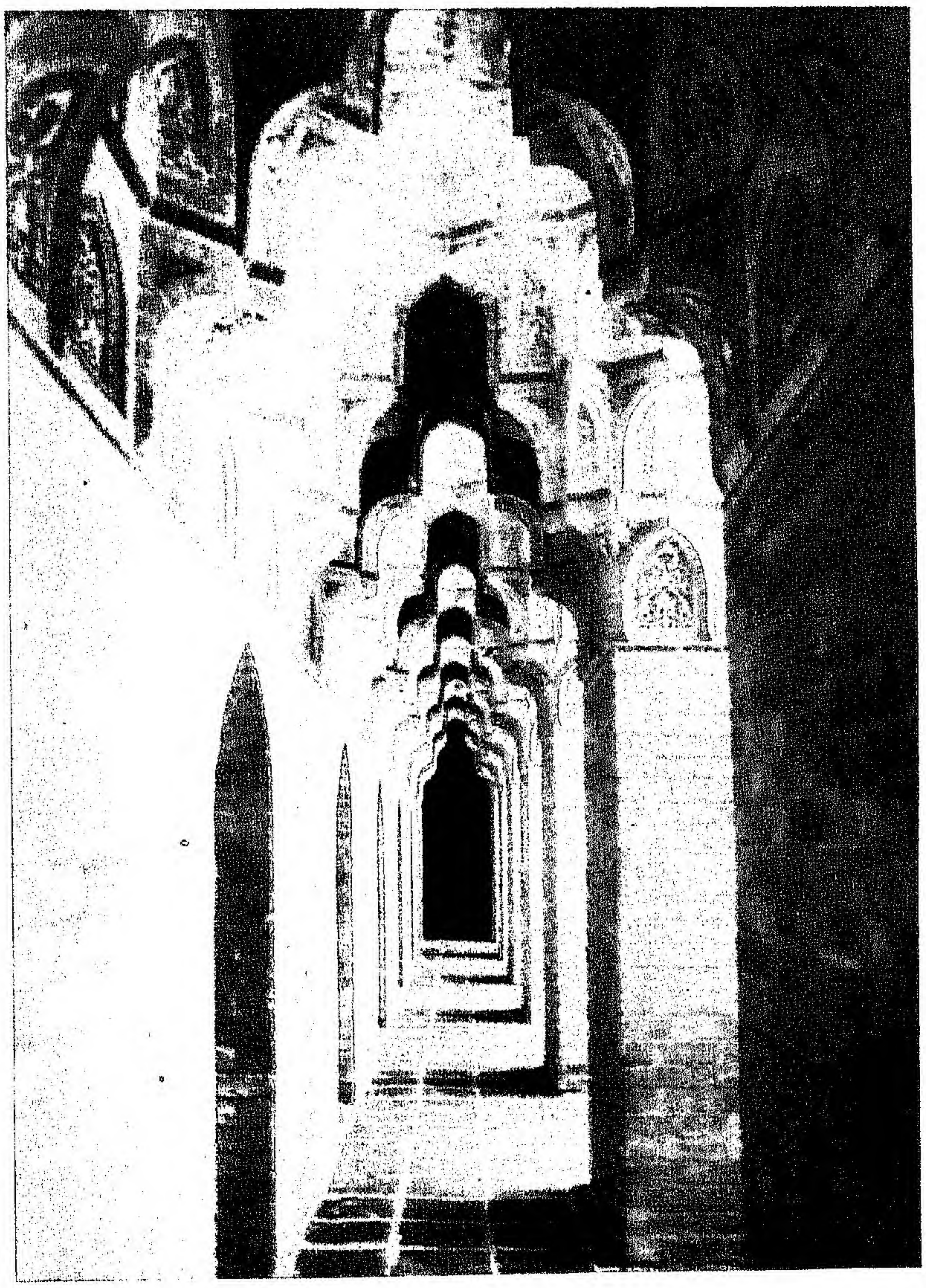
ولابدّ أن هذه الرسائل الأميرية، وتلك الرسائل الخليفية كان يحملها سواء من ذلك الطرف إلى هذا، ومن هذا الجانب إلى ذلك أقوامٌ بالرغم من أن أسماء معظم أولئك الرسل ظلت غير معروفة في التاريخ إذا ما استثنينا عتيقا بن عمران، وابن القاسم وابن العربي...

وقد وقفت في مخطوطة (ريحان الألباب وريعان الشباب في مراتب الآداب) لأبي القاسم محمد بن ابراهيم ابن خيرة المواعيني الإشبيلي على رسالة مرابطية وجهها الأمير علي بن يوسف بن تاشفين إلى المستظهر بالله العباسي كانت من إنشاء أبي القاسم ابن الجد وهو يجيب بها عن كتاب عباسي سابق،

ويعلن تمسكه بعلائق الولاء، واضطلاعه بالدفاع عن الإسلام في منطقة نفوذه، وهي خاليّة من التاريخ... هذا نصها :

نصر الله حضرة الإمام المستظهر بالله أبي العباس أمير المؤمنين بأفكار الحسنات، وأنوار المساعي الصالحات، وحشى إليها وفود الخيرات، وطرق دونها عيون الحادثات، كتب وليّ الدولة العباسية، المقتدى بسيرتها الفاضلة المرضية، وهو يحمد الله جلت أسماؤه حمدا موصول الأسباب، محدود الاطناب، ونسأله الصلاة على محمد رسوله المنتخب اللّباب من أكرم الأنساب، وأن يختص حضرة أمير المؤمنين سليل الخلائف، بصفايا العوارف والموالف واللطائف، ويجمع على الأقدار، لحقها والاعتراف بفضلها، كلمة المخالف والمحالف وعقيدة المتجاني والموالي عن أوفى عهد وأقوى عقد في التمسك بعلايق طاعتها والتقلد لقلايد إمامتها بعد أن وصل إليه كتابها العزيز مضمنه من مراسمها العالية ومواهبها الزاكية، عهود ألزموها رسوما وحدودا، وأقامها في عضد أمره جنودا، ونشر منها ألوية للفخر وبنودا، على أنه ما زال يحمل مشايعتها ومبايعتها معتصما، وبعلامة إمامتها وخلافتها معلما، ولأحكام سنتها العادلة متقلدا ملتزما، وفي مجاهدة أعداء الدّين وحماية أرجاء المسلمين مجتهدا معتزما، يشيد بالدعاء لها على منابر بلاده، ويعظم أمرها، ويفخم قدرها وذكرها، في أوقات انفراده واحتشاده، ويجعل تقوى الله تعالى نصب اعتقاده وغرض اعتماده، ويتخذ من كتابه المبين وسنة رسوله الأمين دليل هدايته وإرشاده، ويستفرغ في قطع المظالم ومنع المحارم وسع قدرته واجتهاده، وعلى هدى البصيرة والوتيرة درج من درج من آبائه وأجداده، والأحوال بحمد الله بجنباته مستقيمة، والأعمال في جميع جهاته سليمة، والأحكام بمراعاته على مركز الحقّ ومقر العدل مقيمة، والاجناد موفورة، في سبيل الجهاد معمورة، وأحزاب الكفر فيما جاور أقطاره موطرة مدحودة، وثغور المسلمين محوطة مضبوطة، وأمور الدين مشدودة مربوطة، وأيد الجور والخوف في جميع عمله مقبوضة مضبوطة، وبسط العدل والأمن محدودة مبسوطة، وولي الدولة الممجدة - وصل الله علوها وكبت عدوها يرى أن انتظام أموره ودوام ظهوره مما يعتقده ويتقلده من القيام بدعوتها والاعتصام بعصمتها والانتظام في سلك طاعتها، والله يكتبه في الرعيل الأول

من جملة أوليائها وحملة آلائها المستظلين بظل رايتها ولوائها ولا يعدمه التشرف بما يرد عليه من عهودها السامية وأنحائها بعزته، وسلام الله الموصول على حضرة الامامة ومحل الكرامة ورحمة الله وبركاته».



رواق القصر العباسي في بغداد

هنا انتهى المجلد الخامس

ويليه المجلد السادس

ويبتدئ بموضوع : العلاقات الدولية
على عهد الموحِّدين

فهرس الصور والرسوم

صفحة	الصور والرسوم

فهرس الموضوعات

صفحة	الموضوع

رقم الإيداع القانوني : 1986/25

تم طبع هذا الكتاب بمطابع فضالة ـ المحمدية

HISTOIRE DIPLOMATIQUE DU MAROC

(DES ORIGINES À NOS JOURS)



Tome 5

L'époque almoravide

Par

ABDELHADI TAZI

MEMBRE DE L'ACADEMIE DU ROYAUME DU MAROC

1987 - 1407